مبارك ربيع

خيط الروح

رواية

المركز الثقافي العربي

مكتبة نوميديا 74
Telegram@ Numidia_Library

مبارك ربيع

خيط الروح

رواية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

خيط الروح

تأليف

مبارك ربيع

الطبعة

الأولى، 2015

عدد الصفحات: 432

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-764-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«أنا أبكي لأجل نرجس -تقول البحيرة- لا لجماله، فأنا لم أدرك يوماً أنه كان جميلاً، وإنما أبكيه لأنه كان في كل مرة ينحني على ضفافي، كنت أستطيع أن أرى جمالي الخالص منعكساً في عمق عينيه».

باولو كويلو، الكميائي

(1)

ـ عندك زوار!

يرنو إليها وإلى حيث تومئ.

تردِّد مجيدة:

ـ عندنا زوار. . .

ـ يمكن تكون البعثة

يجيب يمود وهو يتطلَّع بنظرته إلى حيث تشير رفيقته.

من بعيد، تلوح لعين المتطلِّع سحابة غبار متحركة، في ملتويات الطريق شبه الجبلي المتعرج باتجاه موقفهما على المرتفع الأثري، يستدرك يمود وهو يعود بنظرته من بعيد، أن البعثة تأتي عادة على شكل موكب، بينما لا يتبين من سحابة الغبار المتجمعة في حركتها إلا ما ينبئ عن عربة واحدة، سيارة قد تكون لأي من المنطقة أو من خارجها على ندرة من يمتلكها في المنطقة والجوار، وعلى قلة ما تتحرك السيارات هنا، خارج يوم الثلاثاء؛ زمانُ ومكان السوق الأسبوعي، وحده ما يتيح فرصة القرية الوحيدة في اتصالها بالعالم المحدود حولها، بواسطة سيارات التاكسي الكبيرة التي تحشر أقصى ما تستطيع داخلها من أفراد ذهاباً وإياباً، باتجاه موقع السوق المباعد بعدة كيلومترات.

تبدو مجيدة منشغلة بمتابعة سحابة الغبار المتحركة، في ظهورها واختفائها بين منعرجات طريق غير سوي ولا مستوٍ، بلا وجهة ولا نهج يسلكه أو يوصل إليه، عدا مدخل القرية وما يتجاوزها ارتفاعاً باتجاه موقعهما.

بعثة؟ ربما، ولكنها على هذا النحو تكون محدودة جداً، إنْ كانت بالفعل هي القادمة، وهي المنتظرة منذ مدة غير قصيرة... أو ربما تكون لأحد المسؤولين من رجال السلطة المركزية، لولا أن لا شيء من واقعة أو حدثٍ مهما كانت طبيعته، يدعو إلى ذلك أو يستحقه، ما دامت الأمور تجري في العادة وكلما دعت الضرورة، باستدعاء الأفراد للحضور لدى السلطة، ومن ثم سعيهم وتنقلهم ذاتياً باتجاهها، بعد تسلم أمر كتابي أو شفهي حسب الظروف والأحوال، يبلغه المقدم ذاتياً أيضاً، للمعنيين بذلك من أفراد أو جماعة.

يبدو يمود كغير المعني بالحركة القادمة المتخفية بالبعد والغبار والتواءات الطريق، أو أنه على الأقل، دون انشغال رفيقته بطبيعة ذلك وما يكون؛ وما تلبث مجيدة بدورها، أن تعود إلى مشاركته تفاصيل تخطيطات الموقع، تبدو معالمه أشبه ما تكون بمتوالية متاهات، مرسومة على أوراق ممسوكة على لوحة حاملة بين يديه؛ ترنو إلى ما يتصفحه يمود، تتابع رأس القلم بين أصابعه وهو يستقرئ اتجاهات الخطوط في توازيها وتقاطعاتها، رافعاً بصره بين حين وآخر، يقارن ما على الورق المخطوط، بما يحيط به من معالم المكان الأثري.

يخطو يمود كما تعود مساء كل يوم، نهاية نهاره يجوس في

منعرجات الكثيب المعزول المطلّ على قريته المعزولة أصلاً، مرتفعة على مرتفع فوقها مرتفع؛ يجوس تقوده خواطره المعتادة والأفكار: هؤلاء القوم، الناس الذين هم جدودنا وأسلافنا في الأدمية، يبدون رغم بالغ جهلهم في غابر عصورهم إذا قورنوا بنا، على معرفة وعلم بالحياة والوجود في أعمق المعاني والأبعاد، تلك التي لا يقدِّمها كتاب ولا مدرسة ولا حتى تجربة ذاتية محدودة، وإنما هي نتيجة تفاعل الكائن الحي مع واقعه ومحيطه، تفاعلاً فطرياً حدسياً لا يخطئ... هكذا إذن هي القرية... مرتفع على مرتفع للسكن والإيواء، ولحفظ السهل أو ما يقارب السهل ويشابه في منطقة جبلية وشبه جبلية، لشؤون الحياة وضرورات حفظ الوجود ومقتضياته، للإنتاج الغذائي. أكثر من ذلك: مرتفع على مرتفع في السكن والإيواء، هو أيضاً محطة دفاع عن حياة ووجود، لا يحتاج إلى ما يُضاف إليه من تحصينات أسوار دفاعية وشبه أسوار عند السكن في السهل؛ والأعلى في ذلك، الأرفع والأغلى: المدافن، مقابر الأجداد والأسلاف، تأتي بدورها على المرتفع وفي الجوار، جوار الأحياء أنفسهم على علوٍّ وهامش، وكأنما هو العهد على الذكر والوفاء رغم آفة النسيان، نسيان جيل لآخر بعد آخر وآخر، لكن يبقى على الدوام ذكر ووفاء لما كان من وجود لسلف، بمعنى عام مقدّس ومطلق ولا محدود... ماذا يبقى إذن من حياة ووجود، إذا خلا الكون البشري من ذكر ووفاء؟

يجوس في منعرجات الكثيب المرتفع فوق ارتفاع، لتنتصب أمامه شواهد القبور أغلبها منحرفة بفعل زمن وإهمال عن استقامتها وشارتها، بعضها لا يزال يحمل رغم الزمن، خطوطاً متقطعة بمعالم

حروف من صبغ أولي أو مداد، أو دلائل نقش يشي بحركة يد بدائية غير مدربة في التهجي ورسم الكلمات. . . مقابر في غير ترتيب، لم تنجُ ولا تنجو من جوس دواب وماشية، في حركتها الدائبة بحثاً عن كلأ أو ممر، تاركة خلفها أمارات مرورها من روث وبعر، لا تُـنهى عن ذلك ولا تؤمَر من أحد، وكأنما تكتسب بدورها حرمةٌ من حرمة الرقود النُّوم هنا تحت الثرى، حرمة وجود لآخر ومنه؛ لا يكاد يبلغ شأوها الوجود البشري الحي ذاته، حيث يؤمر أيٌ كان من أي كان، بألّا يجوس خلال القبور، وحتى إن لم يؤمر أو يُنهَ من قِبَل أحد في هذا الشأن، فمن نفسه يؤمر ويُنهى الموجود البشري، من ذاته يستشعر المنع والتحريم، وكأنما رُكب فيه الآمر والناهي، دون علم سابق ولا تدريب؛ أهو خوف المآل، أم إدراك سرّ الموت والحياة، أم مجرد جهل على مثيله؟

يقول دائماً إنه يفهم سر الجوار: حياة وموت؛ إنها ثنائية الوجود والعدم، الفناء والبقاء، التحوّل والثبات؛ لكنه لا يفهم هذا الجوار ذاته عندما يتجسَّد في بقايا كائنات حية لاإنسانية منقرضة: أَسَعَتْ إلى مثل هذا الجوار الآدمي، أم هو انجذب إليها من ذاته بفعلٍ فيها أو فيه، أم هو دلالة على التجاور الوجودي، أو قل التعايش الحيوي بين كائنات وأسلاف منقرضة، كان بعضها يستكين إلى بعض، كما يقتات بعضها من بعض أيضاً، في حالات ضرورة وغير ضرورة؟ أين موقع العلم والكشف من هذا؟

يجوس بخواطر الموت والحياة، كما تعود كل مساء عندما ينتهي نشاط يومه في الموقع، ليبدأ غيره في غرفته الضيقة على الورق ونور مصباحه اللولبي الساهر، أو على ضمة الشموع عندما يشحّ

رصيد المصباح أو تصيبه نوبة انقطاع التيار المراودة مرة بعد أخرى، منذ رحيل الشركة.

يجوس بخواطره ليعاود البدء من حيث انتهى، أو بحثاً عن نقطة بدء جديدة، في خضم أفكار وهواجس على الوسادة، في يقظة أو منام أو حالة المابين.

تبدأ سحابة الغبار تقترب باتجاه القرية، كانت قد اختفت لمدة بين المنعرجات الجبلية وشبه الجبلية، والآن تبدو واضحة على قرب، عربة غائبة سابحة فيما تثير حولها من سحابة الغبار؛ ليس الأمر كما تقدر مجيدة من أنهم زوار للموقع، فالوقت غير مناسب لمن يجب أن يكونوا على علم بما تتطلبه زيارة موقع أثري من وقت واهتمام، ولن يكون الأمر بعثة، من تلك التي يعرف يمود أنها لا بدّ أن تشكل موكباً أو شبهه من عدة عربات، يُضاف إليها سيارات السلطة المحلية وأعوانها.

تتقدم سحابة الغبار في خطٍّ مستقيم على سطح شبه مستوٍ باتجاه القرية، تقترب وهي تحوز على نحوٍ أكثر اهتمام يمود ورفيقته، بسرعتها غير المعتادة فيما يقصد القرية من سيارات تتحرك بسحابة غبار أكثر وبسرعة أقل، متباطئة في سيرها بقدر ما تقارب القرية في مرتفعها النسبي، بسبب تقادم آلية ذاتي، وباحتياط من أن تفاجأ بشوارد كائنات القرية أو ساكنتها.

ينجلي الغبار المقترب باتجاه القرية حيناً بعد آخر، عن معالم عربة من حجم كبير، يصعب التأكُّد من كنهه في خضم الغبار، لكنه ما يلبث أن يتضح عندما تلوي العربة، وقد بلغت القصد عند مركز

القرية، منحرفة قليلاً عن مسارها، بتوقف شبه مفاجئ مقارنة بسرعة وقوة ما كانت عليه من سير، توقف منحرف للعربة يخرج بها من دائرة الغبار متيحاً لسحابته وحدها أن تتابع سيرها واتجاهها، ليعمّ الغبار بضعة دكاكين شبه خالية، يغشاها عنوة يملأ فراغها دفعة بلا استئذان.

عربة من نوع كاميونيت، مغطاة الإطار بقماش ثقيل واقٍ، ينفتح أحد بابي حُجرة السياقة، لينفلت شخصان أحدهما بلباس نظامي أمني والآخر بزيٍّ مدني، ينزلان يجولان ببصريهما في اتجاهات القرية، قبل أن يتوجَّه أحدهما إلى مؤخرة الكاميونيت، يشير بأمر يتقافز على إثره من داخلها إلى الأرض، بضعة رجال أمنيين بلباسهم الموحَّد وأسلحتهم الخفيفة بأيديهم، يتقافزون واحداً واحداً، يصطفون في انتظام، جاهزين بانتظار الأوامر.

القرية في شبه مواتها المعتاد في هذا الوقت، كأنما سرى فيها تيار ما، يحرِّك سطح بركتها الراكد، أفاق بعض نُوَّمها وأحضر من غيابهم بعض السارحين، من وراء هوامل ماشية ودواب تعيث بحرية حيث تشاء، أو محتطبين تعجَّلوا العودة بمجرد ما لمحوا من أعلى مرتفعاتهم من بعيد، غبار العربة المتنقلة باتجاه قريتهم، فليس بمألوف ورود عربة في هذا الوقت من يوم، وفي هذا اليوم من أسبوع، ممّا يغذي بالضرورة أنفاس التطلع ويحرك واقع القرية من جمود.

يتحلق على مسافة من موقع العربة، جمهرة خليط من سكان القرية في شبه قوس حولها: بضعة رجال يقبلون في ارتخاء، ما يلبث أن يتحول إلى بعض توتر برؤية السلاح واللباس الموحد؛ نساء

يتعمَّدن حركات متقاطعة في اتجاهات مختلفة لأغراض مصطنعة، تؤدى في كل الأحوال، بتثاقل خطو يشبه التوقف ويشي في الآن نفسه بالتحفز لاستئناف الحركة في اتجاهها الأصلي؛ أطفال أكثر جرأة وإفصاحاً عن شدّة التطلع، يشكلون مقدم شبه القوس الآدمي المتحلق، صارمي الملامح في وجوم، يدققون مصرفين جم طاقاتهم التخيلية التوقعية، بقصد استيعاب المشهد وانتظار ما يجري من حدث يغذي فيهم شدة الحاجة إلى المزيد من متعة، وانتظار فُرجة وجدّة وشيكتين أكيدتين.

بدوره يمود ورفيقته، يخطوان منحدرين باتجاه مركز القرية، بخطوات بين بين، لا تخفي تطلعاً، ولا تفصح عن عجلة؛ بوصولهما إلى الحلقة، يكون المسؤولان قد تشاورا، والأمني منهما يشير بالأوامر ليتوزع رجاله بقوة وانضباط في اتجاهات مختلفة، إلى مواقع معينة في القرية.

يعرف يمود قائد المنطقة المدني، دون المسؤول الأمني الذي قد يكون جديداً أو ممَّن لم يسبق له التعرُّف إليهم؛ يتوجّه نحو القائد الذي يقبل عليه أيضاً بالتحية وابتسامة عريضة:

ـ أهلاً دكتور. . .

يتصافحان، معرفة وألفة رابطة بينهما، يشير القائد المدني إلى رفيقه المسؤول الأمني، يقدِّم كلاً منهما للآخر، يتصافحان أيضاً، ويشير يمود إلى رفيقته يقدمها بدورها. . . صديقة زائرة و. . . تقاطعه مجيدة متممة أنها دارسة تاريخ قديم مهتمة بالأثريات. . .

يبادر يمود متسائلاً عن الحدث، ماذا يجري؟ ماذا يعني؟ يسارع

القائد كأنما يسابق رفيقه الأمني في الجواب، لا شيء، يقول في علائم لامبالاة وإهمال... لا شيء إطلاقاً، هي الأوامر والخدمة، الواجب كالعادة ولا شيء أكثر، هذا كل شيء.

تتسع ابتسامة القائد وهو ينهي ما لديه من معلومات، ناظراً إلى رفيقه الأمني الذي لا يزيد عن إشارة التثنية على ما قال القائد.

يدرك القائد من ملامح يمود عدم اقتناع أو عدم فهم مشروع، فتحريك عدد من الأمنيين المسلحين، بدون ما يستدعي ذلك من حدث في قرية خامدة أصلاً وهادئة، هو الحدث عينه؛ لا شيء، يستدعي: الكل في أمن وأمان، القرية والسكان والماشية، وحتى الموقع الأثري، الموقع مفخرة المنطقة، كما هو الدكتور يمود وأبحاثه موضع فخر أي فخر، لا للمنطقة فَحسب وإنما للوطن كله والعالم. إذن لا شيء، كل شيء في مكانه وموقعه، لا شيء، وإنما هي الأوامر... تعرف... كلنا نعرف، الأوامر لا تفسر ولا تحتمل السؤال، هذا كل شيء، وكل شيء هو هذا.

يبدو المسؤولان جد متحفظين عازمين على الكتمان، أو أنهما فعلاً لا يعرفان، وينفذان ما يؤمران دون علم ولا سؤال؛ رغم ذلك كله، لم يكن يمود مقتنعاً، ولديه شعور في ظلّ ابتسامة القائد، أنه يخفي ما لا يريد الإفصاح عنه، وكأنما يريد من يمود تخمينه؛ تمرّ بذهن يمود عديد مرات أعرب فيها المسؤولون من مستويات مختلفة، عن ضرورة حماية المواقع الأثرية، لما تعرفه من إفساد وإتلافات تلحق بالأثريات على اختلافها، وبالمواقع نتيجة اللامبالاة والجهل أحياناً، وأيضاً نتيجة السرقة المنظمة من قبل خبراء ومهتمين وسماسرة أجانب في غالب الأحيان، بمساعدة وطنيين أو بدونهم،

يستولون على الأثريات لترويجها في الأسواق العلمية والعالمية المختصة. . . كثيراً ما طالب يمود في فرص عديدة ومناسبات، بالحماية الأمنية، علاوة على الحراسة العلمية الضروريتين لكل ما ينتسب إلى الآثار من طبيعية وتاريخية حضارية، وظلّ ذلك دون استجابة دالة، أيكون ما يراه هو الحدث المطلوب المنتظر؟ يطرح السؤال صريحاً على القائد الذي يناور بابتسامته العريضة: كل شيء بأوانه، وما يكون إلا الخير كل الخير. . . انوِ الخير تلق الخير! ما تصدع راسك ما ترفد هم لشيء. . . الساعة الآن للأوامر، وكل شيء بأوانه.

تزداد ابتسامة القائد، وهو ينظر إلى رفيقه المسؤول الأمني، وينظر للمتحلقين في شبه قوس حول المشهد، عامة المتطلعين لمعرفة ما يجري. . . لا شيء، كل شيء بخير وعلى خير، سيروا في حالكم لأشغالكم.

يقبل على يمود بابتسامة بالغة الانشراح، يعانقه مربتاً على كتفيه في تحبب ووداع، يصافح رفيقته بلطف مماثل، كما يصافحهما المسؤول الأمني ليمتطيا سيارتهما عائدين، تاركين المتحلقين لأفكارهم ينسجون سعة خيالاتهم أحداثاً، عوالم وأجوبة، وأكثرهم الأطفال. . . يتفرق الجميع بتثاقل خطو، بينما النساء وقد كن دائماً في اتجاههن الأصلي، يمضين لا يلوين على شيء، وكأن لا شيء توقف أو استوقف، إلى حين يختلين بذواتهن وبعضهن، لينسجن بدورهن وسع الطاقة واللسان.

بدوره يتحرك في اتجاهه يمود ورفيقته، يتبادلان تحيات وعبارات ودّ مع بعض الساكنة، وهما يسيران باتجاه إقامته.

كمستشعر ضيق في إقامته، يتجه يمود خارج الغرفة، سالكاً معبر المتحف الأثري الملاصق؛ تسترعي انتباهه حركة مجيدة تكسو يديها بقفاز مطاطي رقيق، متفحصة بمنظار وأشعة مصباح يدوي قطعة عظمية صغيرة مستقيمة أسطوانية، من آخر الحفريات لا تزال يكسوها غبار، يرنو إليها كأنما تراوده فكرة سرعان ما يلجمها، يتجاوز مغادراً في اللحظة التي تستشعره بقربها، تلتفت باتجاهه لمفاتحته بشيء، حينما تنأى به الخطوات.

كالمستشعر ضيقاً، مسحة الكآبة التي تعتريه حيناً بعد آخر، كثيراً ما تأتي بوادرها على هذا النحو، لتشتد بعد ذلك وتطول، أتزحف عليه عابرة هذه المرة، أم هي حسب ظروف وأحوال؟ متى يبدأ الزحف؟ متى يتوقف؟ السؤال المؤرق الذي لازمه طوال فترات سجنه المتقطعة العديدة والطويلة المديدة، ولا فارقه في فترات السراح القليلة القصيرة... الزحف نحو النصر، أو على الأقل نحو المعركة الحقيقية، لعدالة مفقودة وحقوق مهضومة وظلم معشش مقيم على الأرض... متى يبدأ الزحف الحقيقي ذاك، خطواً سعياً عمقاً طولاً وعرضاً... الخطوة الأولى الحقيقية في مسيرة الألف ميل، الخطوة الحقيقية الموصلة، ولا يهم بعدُ المدى والتضحيات، إنما الوجهة هي الأهم بدل الانحرافات والمنعرجات والنكوص؛ يشعر دائماً أنه ضد مبدأ الارتداد والتراجع، ولو من أجل الهجوم؛ ضد مبدأ: خطوة إلى الوراء، خطوة خطوتان إلى الأمام... كلُّ وراءٍ مهما قَلَّ وصَغُر فهو وراء يقود إلى وراء، وليس العكس، الخطوة إلى الوراء مهما قصرت، دليل على خطأ في الاتجاه من أصله، إنما مبدأ الخطوة أن تكون في الاتجاه الصحيح، تتلوها خطوة في الاتجاه

نفسه؛ ربما يتوقف الخطو إذا اقتضى الحال، بما يعني مزيداً في المدى والمكابدة والتضحيات، لكن لا تراجع، الخطوة تلو الخطوة في الاتجاه الصحيح، هو وحده المنهج والسبيل ليُزهر الأمل في القلوب الواجفة المفجوعة، جهلاً وجوعاً، الموسومة خوفاً وعسفاً؛ ولترسم الابتسامة على أديم الكونية الإنسانية.

تناديه أفكاره تعاوده وتراود، بطلائع الاكتئآب وضيقه من كل شيء؛ أهو صوته الذي يسمع في أعماقه مردداً أم صوت آخر، من صديقه ورفيقه مصطفى، يسميه سراً وعلانية معلمه في النضالية، رغم أن لا فاصل بينهما كان، لا في الدراسة ولا في المسؤولية النضالية ولا في عذابات السجون، لم يكن من فارق بينهما إلا أنه يقولها سراً وعلانية: مصطفى كان معلمه في كل المراحل، وكان الأقدر دائماً على إيجاد الصياغات الملائمة الدقيقة، وأيضاً على انتهاج السلوك النضالي وعلى التخطيط العملي لما يلائم كل مرحلة، إنما كان ذلك كله في نظر يمود يسير ومبدأ التقدم، خطوة خطوة أو أقل أو أكثر، إنما إلى الأمام، دائماً، أبداً؛ لا نكوص، لا انتكاص...

في خط سيره المعتاد باتجاه محيط الموقع، مروراً بحاشية المقابر، يمكنه أن يأخذ وجهته المعتادة، مغمض العينين، لا تزل به قدم أو يتعثر خطو، يعرف جيداً موقع قدميه يؤنسه ويضيئ خط مسيره قمر مبكر وغير مجدٍ في عتمة غيمة، يسير تؤنسه وتوحشه أفكار ملازمة ومشاعر كآبة ملاحقة أصبح يخشاها أكثر من أيّ وقت، وقد عوَّل على أنّ مقام مجيدة معه لأيام سيجنِّبه حالته تلك ولو لفترة، وها هوذا بمحضرها يستشعر قدوم الحالة، ومغادرته الآن تشي بالحالة، ولو أنها لجولة مسائية معتادة لم يلغها لمحضر رفيقته، كما

لم يدعها لتشاركه إياها، من أجل أن يجنب رفيقته بالذات، طلائع لحظة اكتئاب مجهول المصدر والوجهة؛ كل ما يرجو أن تكون حالته خفيفة عابرة، وأن يعود أدراجه أحسن حالاً.

في طريق انعراجه باتجاه مركز القرية، حيث يتراقص ضوء خافت في فتحة أحد الدكاكين، يحس حركة بالقرب لينتبه إلى خطوات وشبح أحد الأمنيين المتحرك في موقعه، لم يتبين موقع سلاحه بالضبط، لكنه كان يدرك أنه مسلح كما رآهم اليوم يتوزعون طبقاً للأوامر، يتبينه في جيئة وذهاب حيث هو، ومن اليسير تخيل ما يعاني من ملل.

يرفع يمود صوته بالتحية، يرد عليه الأمني مقبلاً نحوه كما لو كان في حاجة إلى ما يفتح حلقه بالحديث، يمد يده إلى يمود يتبيَّنها باتجاهه في شبه الظلام، يصافحه يمود متسائلاً عن سبب هذه القربلة، يستشعر الرجل وهو يبحث عن علبة سجائر يعرضها على يمود، فيرد شاكراً، ليشعل الأمني سيجارة ويردّ على السؤال بأنهم كالعادة، لا يعرفون لماذا، وماذا... وأنهم هنا لمجرد الأوامر وحسب.

لم يكن يمود لينتظر جواباً، وإنما هو افتتاح تحية لا بد منه في هذه الحال، وما يلبث أن يدعو لصاحبه بالتوفيق، ويخطو في اتجاهه حين يتابعه الأمني يخطو إلى جانبه، مؤكداً له وكأنه يبوح بسر، أن شخصية هامة ستزور المنطقة... مؤكد؟ يعرف ذلك بالعادة، فلا يمكن الإتيان بفرقة أمنية، ومسبقاً على هذا النحو، إلا إذا كان الأمر كذلك...

ـ شخص مهم؟

ـ يمكن... سيدنا... اللّه أعلم...

يتمتم الأمني كابتاً صوته في نفاث دفقة من دخان سيجارته

ـ ...

ـ الملك؟

يعلو صوت مجيدة ببعض حدة، تواجه يمود الذي يزف إليها الخبر متردداً:

ـ الملك؟

تقول ببعض حدة، إن زيارة الملك لا يمكن أن تتم على هذا النحو، ورغم التكتم المعهود في زيارة ملكية من هذا النوع، فلا بد أن تنم عنها بعض ملامح التحضير لحدثٍ على هذا المستوى، من قبيل مشاريع أو إنجازات تدشن بداياتها أو انتهاء أشغالها، أو أي شيء مماثل... وحتى مظاهر الزينة وتهيئ الساكنة وحركة المسؤولين، كل ذلك رغم التكتم والتستر، لا بد أن يبين عن شيء في المستوى؛ لا شيء من ذلك الآن والاحتمال يبدو بعيداً؛ إلا...؟ ...إلا إذا كان ما يجري هو مما قبل بداية التحضير ذاتها!

ويؤكد من جانبه يمود أن الأمني المسلح ليس وحده مصدر الخبر، بل إن عمي موحا في دكانه أيضاً ومعه أكثر من واحد، نادوه بمجرد تحية المساء التي رماهم بها من بعيد، بادروا بمناداته بصوت واحد، ليتجه إليهم أمام الدكان، ويتسابقوا لسؤاله إنْ كان له علم بالموضوع ...

ـ موضوع ياش؟

ـ سيدنا...

وأخبروه بلسان واحد مؤكد أن الملك سيزور المنطقة، المصدر ليس واحداً وحيداً يقول يمود، ويبدو أن أحاديث الساكنة في غرف ليلتها هذه، لا تتحدث بغير ذلك؛ أكثر من ذلك فهو ينتظر غداً أن يقصدوه جماعة وأفراداً، لتحرير رسائل ومطالب إلى الملك، عمي موحا أخبره بذلك وطلب منه البدء بتحرير طلبه قبل الجميع ما دام أبلغه الخبر، أن يصوغ له رسالة في موضوع يخصه، وهو المتعلق بقضية أرض الجموع التي يعتبر نفسه مغبوناً فيها ما دام أبناؤه المتزوجون المهاجرون لم ينالوا نصيبهم.

لا تكفّ مجيدة عن تكذيب الموضوع من أساسه، خيالات الساكنة السذّج وأمانيهم تنسج عوالم الوهم والتوهيم، لا يمكن أن تتم زيارة ملكية على هذا النحو وإلا . . .

ـ وإلا؟

يسائلها:

ـ وإلا . . . هذا تخربيق

لا يعلق، لسان حاله المنبسط يدل على أنه كان يريد النتيجة نفسها، يريد أن يسمعها تعبِّر بلسانها عن واقع لا يصدق أنه وحده من يراه على نحوٍ خاص، بمنظار خاص؛ لكن لم لا . . .؟ زيارة مفاجئة؟ . . . مفاجئة؟ أية مفاجأة فيها بعد المشهود من ترتيبات وإجراءات أو تحركات مهما تكن؟ تقول وهي ترمي إليه بطرف نظرة. في التفاتة جانبية باتجاهه، نصف التفاتة، بنصف نظرة محملة بتساؤل دهشة واستنكار، نصف التفاتة بملامحها تلك التي يدرك منها أبعد ممّا تعبِّر عنه، أبعد مما يدرك. . .

آه. ملامح نظرتها تلك، تلتمع بالزاوية نفسها وعلائم الدهشة،

كما ارتسمت بعفوية كاملة على بعد عقدين، وهو إذ ذاك يفتح كالمعتاد، باب الغرفة في الشُّقَيقة الصغيرة المشتركة مع مصطفى، يفتح الباب ليفاجأ بنصف التفاتتها ونصف النظرة المرسلة جانبياً إلى الوراء تجاهه وعلائم الدهشة، يتسمَّر برهة بفعل المفاجأة، لحظة كأنها الدهر طولاً وعمقاً، يتساءل عمّا جال في خاطره آنذاك وخاطرها، من نظرة نصف جانبية شبه مستديرة إليه؛ عماذا كانت تعبر ملامحها تلك؟ كانت مع مصطفى ملتحمين على السرير، تبدو في وضعهما الحميمي على الفراش، بحيث تنتصب بميل خفيف نصف قامتها الضهرية بمواجهة يمود، يلمح انثناءات نصف جسدها العاري في نصف التفاتتها إليه مستشعرة حركة انفتاح الباب العفوية الفجائية، برهة دهر طويل عريض ويمود شبه متوقف جامد على المشهد، حركة يده المتوقفة متصلبة على أكرة الباب، يتراجع، أخيراً يتراجع باتجاه إيصاد المصراع... بعد لأيٍ يأتيه صوت مصطفى، يناديه، يدخل، يبدوان ملتحفين بالإزار الأزرق الباهت، متوازيين جنباً إلى جنب، يمد مصطفى يده إلى جانبه يتناول علبة سجائره، حركته تجعلها تشدّ إليها طرف الغطاء باتجاه صدرها، يمدّ إليه مصطفى سيجارة ويدعوه إلى الجلوس، هنا جنبه على حافة السرير العريض، تطلب بدورها سيجارة يشعلها مصطفى، ويسأله مباشرة عمّا تم في الاجتماع؛ أكان ليغيب عن مصطفى انشغال فكر صديقه بالمشهد، أو ما يتطلبه من تعليق جد أو هزل، مرح أو غير مرح؟ لا، وإنما هي طريقته المثلى في الخطاب والتعبير، أن تترك المحسوس يعبر بذاته، أو أن المحسوس لغة أخرى، لا يجوز خيانتها بالترجمة، وهي في كل الأحوال تجاوز ما لا تفيد فيه العبارة.

فعلاً يستفيق يمود مقتلعاً نفسه من أثر مشهد لم ينسه أبداً يحدّثه عن الاجتماع، عن النقاش ومزايدات الرفاق التي يعتبرها مجانية، ما دامت تصبّ في مناورات الخصم، لا يشك في تحريك بعض من تيارات الرفاق من قبل أجهزة السلطة. . . لماذا؟ يتساءل مصطفى وهو ينفض رماد سيجارته في الطفاية جانبياً؛ قصده لماذا هذا الظن؟ يعزي مصطفى الأمر كله إلى سوء تحليل من قبل تيارات الرفاق، لا أكثر؛ ينطقها حكمة، هكذا يشعر دائماً بأنّ لدى مصطفى الكثير من خبرة وحكمة، لا يدري مأتاها ومصدرها، تبدو فوق ما تقدمه مرحلة سن أو دراسة، ينطقها حكمة مصطفى قائلاً إن الخطأ الداخلي دائماً في خدمة الخصم، لكن لا ضرورة لتجاوز ذلك إلى حدّ الظن والشك والتهم الجزافية، وإلا . . .

لم ينتظر مصطفى تكملة فكرته وقوله، ولا كان يمود، في حاله، ليبادر بذلك، إنما توقف ليتمّم أنّ الخطأ ليس جريمة وما كان ليكون؛ قد يستفيد الخصم من الخطأ الداخلي في التحليل مرة، لكنه يستفيد أكثر وأبعد من ردود الفعل الداخلية على ذلك الخطأ.

تسأل مجيدة وهي تسحب آخر نفس من سيجارتها باحثة عن طفاية، عمّا إذا تقرّر إضراب، يرد يمود وبصره إلى مصطفى أن لا شيء من ذلك تقرَّر؛ تُبدي تعجُّبها من ألّا تحاول تيارات أقلية رفاقية معلومة، إحراج الآخرين في موقف من هذا النوع؛ يلتفت باتجاهها يمود بنظرة شبه خاطفة، مؤكداً أن الاقتراح قد ورد فعلاً، لكن لم يناقَش، لم يؤخَذ بجدية، الكلّ. . . تقريباً، يعرفون دقة المرحلة، ولا يريدون أن يكونوا صيداً سهلاً للسلطة.

يبدأ يمود عرضه بمتابعة يقظة من مصطفى دون تعليق؛ تنسلّ من

حافة الفراش بتؤدة وتأنٍّ مجيدة، نصف ملتحفة، شبه ملتحفة بقميص قصير، تخطو بخفة على رؤوس الأصابع باتجاه الحمام، ساقاها الممردان أعلاهما مرمى بصر يمود، وآهة خافتة مسموعة منها وقدماها تلمسان بلاط الغرفة؛ يظل برهة في حديثه لرفيقه يراها دون تتبع أو حركة التفات، يرى موقع يديها تتقيان ولا تكادان ما لا يلمه قصر القميص، يرى شفافية القميص تضيف خفيف ظلّ يبين عن لون بشرتها بالأشد أنوثة، يرى حركاتها تدير لولب الماء، تختبر حرارته، قبل أن توجه الرشاش إلى صفحة وجهها فترة، لتنشره على باقي الجسد ممسودة ببالغ متعة ثماره.

يطرح مصطفى بعض أسئلة، حول البيان الختامي للاجتماع، مقترحُه أن يكون مجرّد اجتماع تنظيمي سري، في ظلٍّ منع ومراقبة مشددة؛ يجدُ يمود خطّ أفكاره ليعلن أنه بدوره مقتنع بوجهة نظر الرفاق، لم لا تكون الخطوة إعلاناً وتحدياً، يجعل الخصم يبين عن ردة فعله وسلاحه؟ ليكن، ليكن لنستعد جميعاً لأداء الثمن مقابل ذلك.

حركة مجيدة تشي بأنها أنهت استحمامها تخرج ملفوفة في فوطة ثخينة تومئ بمطّ شفتيها وصفحة الكف. . .

- نبوس بيديكم

تومئ بخفة وتخطر على رؤوس أصابعها، باتجاه الغرفة الثانية المكملة لشقته مع مصطفى، يستعملانها غرفة جلوس واستقبال علاوة على غرفة نومهما المشتركة هذه.

تعود بعد لأي مجيدة في بنطلون جينز، وقميص نصفي قصير، تسحب مخدة تفترشها متربعة على الأرض، تشعل سيجارة، وتدخل

في الحديث، ليس من رأيها أيضاً إصدار أية وثيقة عن اجتماع تمهيدي قد لا يفضي إلى شيء، تؤكد أن شقة الخلاف بين التيارات الرفاقية لا تزال عميقة؛ ليكن، فما تمّ قد تمّ الآن وانتهى، ينطق يمود على نحو آلي.

زيارة ملكية؟

تتساءل مجيدة مستنكرة ترمي باتجاه يمود طرف نظرتها بملامح لا تخطئها ذاكرة الغياب والسنين، مستدركة أنّ قصدها التأكيد على أنّ أمر الزيارة لا يتعدى الإشاعة، تغذيها خيالات البسطاء القرويين حاملة ترجياتهم؛ يسألها كيف تفسر حضور فرقة أمنية مسلحة، لا علم لأحد بما جاءت ترصده بدون مبرر ولا حادث، في انتظار تجسد المبرِّر والحادث، وفوق ذلك مَن قال إن الزيارة تتمّ غداً، إذا كان الناس شاهدوا سيارة تموين أمنية تأتي عشية اليوم، وتسلم أفراد الفرقة كفاية مؤونتهم؟! ربما هذه بداية التهييئ الأولية ومجرد طلائع الاستعداد لزيارة تأتي بعد مدة، أسابيع أو أشهر أو ما لا يدري أحد من مدة؛ كل شيء ممكن تؤكد مجيدة، وأقله جوازاً أنّ السلطة نفسها، جهة ما، من صالحها أن تنشر إشاعة زيارة ملكية، ثم لا شيء بعد ذلك، لغاية ما... وإلا...

يرتمي يمود بإهمال في عياء واضح على الكنبة في ركن الغرفة، مقابل السرير في الطرف الآخر، يغمض عينيه ينشد ارتياحاً، لتقبل بعد حين مجيدة ببراد الشاي، مع رغيف مسمن وزبدة بلدية طازجة، تخبره بأنّ إحداهن جاءت بذلك في غيبته، مؤكِّدة لها أنّ الزبدة بنت لحظتها، ويجب تذوّقها والتمتع بطزاجتها في الحال؛ تسأله إن كان الأمر عادياً. ماذا؟ ينظر إليها متسائلاً، تبتسم مؤكدة أنها لم ترم

بعيداً ولا يجوز منها أو منه، معلقة أنّ الصبية مليحة جداً وممتلئة، لا بل ناضجة... ولو... لم ترم بعيداً، ولا يجوز منها أو منه، إنما القصد إن كان هذا دأبه في حياته الزهدية هنا، ودأب الناس معه؟

فعلاً، ودائماً، كثير من أهل قريته يكرمونه بين حين وآخر، بخيرات الطبيعة من نتاج حيواني ونباتي، كرم يعرفه ويقدره حق قدره، يدرك كنهه وطبيعته، إنه أبعد من لحمة القربى والدم، يصدر عنهم عفواً تجاه الغريب والمحتاج والمستحق، دون علاقة أو رابطة بشيء آخر؛ ولو كان في قرية أخرى لا يربطه بها ما يربطه بالناس هنا، لما تغير الحال كثيراً... آه، يتغير الحال، ممكن هنا وهناك، عندما تتغير أشياء كثيرة، منها السطح والعمق؛ لكن ذلك لم يحدث هنا بعد، على الأقل؛ والناس لا تزال متمسّكة بالمأثور لديها.

(2)

اسمع يا فهيم: واحد قال هذا ما هو معقول، قالها وكنت يا سادة يا كرام في مثل هذا المقام، أحكي وأعلّم ممّا علمني اللّه، مثل ما أنا بينكم الآن؛ جاء قال نائحاً صائحاً بالعبد الضعيف هذا: آ الفكاوي، آ التهامي، اتقِ ربك، خففْ ذنبك واربط لسانك من التخريف والبهتان وتضييع الوقت والعباد في الكذب المحرم الحرام. . .

إيواه. . . واسمعوا يا سادة يا كرام، جاءني الجواب ممّا علمني وعلمكم اللّه، قلت له يا هذا ويا ذاك، لا تكذّبْ علم من علمه اللّه. . . قلت له: يا سيدي (بيني وبينكم يا سادتي، فهو لا يستحق التسييد ولا التبريك والتكريم، لولا أنه من خلق الخالق، وحاشا العبد المذنب أن يسخر ممّا سخر اللّه) قلت له يا هذا، مالك والخوض فيما لا يغنيك ولا يعنيك؟ إنما هو أدب ممّا أدب اللّه به عبده، وأنا العبد الضعيف أمامك يا خلق اللّه، إنما وسيلة للعلم، أتحدث وأحدث من علم التاريخ، وهو علم جليل وبحر وفير، يغرق فيه أمثالك ويغوص، فلا منقذ من هلاك، ولا نجاة لجاهل به؛ وقديماً قال الشاعر عن بحر العلم والعلماء وعن الجاهل بأعماقه:

غاص فيبحر جهّال النصوص وكذا كل ثقيل يغوص

غشيم، غبي، عشي، ما درى وفي قعر البحار الفصوص.

ولتعلمْ يا هذا ويا ذاك، ومن وراءك وما والاك، أن صاحبنا الديصور الذي تكذب في وجوده والتاريخ شاهد عليه ناطق به، يقال له عند بعضهم الدنصور أو الديثور عند بعض آخر، وهو من سلالة عملاق بن عوج، وقيل من آل عنترة بني عبس العرب، وقيل من الغرانيق لحسنه وبهائه، وقيل من ياجوج وماجوج، وقيل أيضاً إنه من أهل القرية، القرية المذكورة في الكتب، واللّه أعلم علماً، وهو المحيط بكل شيء؛ اللهم ارزقنا العلم النافع والقلب الخاشع، وانفعنا اللهم بفضيلة «اللّه أعلم»، ومن قالها علّمه اللّه ما لا يعلم.

وأما بعد، فاعلموا يا سادة ويا كرام، أنه الخالق قد خلق كونه وأبدع، وزيَّن البسيطة بمخلوقاته قويُّها وضعيفها، كبيرها وصغيرها لغاية لا يعلمها مخلوق، مهما بدت ناصعة ساطعة لذوي العلم والحجى؛ وكان عليها من بين كلّ سائر وسائح، وطائر وسابح وما لا تعلمون، رجل من خلق اللّه يدعى ديصور أو الديصور مهملة أو محلاة بالتعريف، ومعناها مختلف فيه، ويدور مضمنه حول متانة الهيكل البدني والقوة الجسدية وما إلى ذلك. . .

والديصور يا سادتي عندما نزل به قدره، أو نزل بقدره واللّه أعلم، وذلك عندما تغيرت صورته ظاهراً وباطناً، فأصبح يرى نفسه على شيء والناس على شيء آخر، أو يتمثل إليه أنه يرى نفسه على كلّ شيء، والناس على غير شيء، كما أصبح الناس يبادلونه النظر نفسه ويبادلهم، فأصبح يبدو لهم ـ واللّه أعلم وسأشرح لماذا أقول ذلك عند هذا الشطر من الحكاية ـ في نظرهم صغيراً محدوداً، ويرى نفسه كبيراً ممدوداً؛ وهو في الأصل حسب الرواية، قد أتاه اللّه من

بسطة في كلّ شيء، هيكلاً وأطرفاً وجذعاً وعقلاً، والعقل أهم شيء، أو قل هو مربط الفرس في إنسانية بني الإنسان.

قال الراوي حدث ذلك كذلك، فإذا هو في نظر الناس قزم الأقزام هيئة، وحلم العصافير فكراً، فلا يؤبه له عندما يَطلُب أو يأمُر، وإذا هو يثير بكلّ حركة منه مهما كانت عفوية بسيطة أو قوية مقصودة، عاصفة ضحك لا تنتهي ولا يعرف لها مصدر، وهي عذاب من القدرة الربانية، جعلته مسخاً في أعين أمته وبين أهله والقوم أجمعين، وقد باشر العنف والعسف ليوقف ذلك، فما كان القوم يزدادون إلا ضحكاً وإغراقاً فيه، دون أن يدروا هم أيضاً سبب ذلك أو لا يعربون عنه ـ وهو غالب الظن ـ مهما يكن عليهم من أمر، ومهما تبلغ بهم شدّة الديصور.

والحكاية وما فيها يا سادة، أن الديصور كان صالحاً في أمته، يُسخّر ما وهبه الخالق من قوة هيكل وبنيان، ومن رجاحة عقل واتزان، في خدمة قومه وأهل قريته، يساعد الضعيف والعاجز، يزجر الظالم والمعتدي، ويقتصّ للمظلوم من غريمه، يعالج المريض ويواسي الحزين، يحنو على الطفل ويعطف على العجوز. . . قال، فكانت سيرته في أهله في وجوه صلاحها وسدادها، نظير الموهوب من خالقنا، لهذا الكون من نظام وجمال ووفرة قوت، وجودة غلال: أشجار مثمرات باسقات دانيات لا ممنوعة لا مقطوعة، دافق لجين عذب من سلسبيل مياه، منتهى جمال وغاية روعة من مشاهد خلابة، تتجاوب في أنحائها صوادح طير بكلّ نغم ولون. . .

قال يا سادتي. . . وكان من صلاح الديصور في بلده هذا صلاح قومه أجمعين، فإذا هم على هديه يسيرون وبه يهتدون،

يتناصرون معتنين بالعليل، متنافسين في مدّ العون لمن يستحق، متواضعين بعضهم لبعض، متبارين في خدمة حقولهم ومزارعهم، أوفياء في موازين تجارتهم وتبادلهم، قائمين على تجهيز قريتهم بوجوه الإصلاح لما يلزم من مجاري وطرقات ومخازن، دؤوبين في إنجاز ما يفترض من واجبات، ومتطوعين بما يفوق اللوازم والاحتياجات... قال: وكأنّ الخالق الذي لا يعجزه شيء أو يجاوز علمه شيء، أراد بهذا كله آية لمتدبر ومعتبر، بتعادل صلاح القوم في ذواتهم، بصلاحهم في معيشتهم وأرزاقهم، بصلاح متولي أمورهم... ذلك أن القوم ما لبثوا أن رأوا في الديصور مَن يستحق مقام قيادتهم، وتولي الفصل في كامل شؤونهم، بما له من فضل سيرة على سيرتهم، وبما يتميز به من قوة خُلُق وخلق.

يتردَّد الديصور في بداية أمره، تحسباً منه لعظم المسؤولية وجسامة المهمة، ليقول يا قوم، لست بأصغركم ولا أكبركم شأناً وسناً، وما ترون من قوة جسد، إنما هي ظلّ إلى زوال، فابن آدم أوله ضعف وآخره ضعف، والقوة والبقاء للقوي الباقي وحده عز وجل، وأمّا ما تؤخذون به ممّا ترونه رجاحة عقل واتزان، فبعد شكر الخالق الوهاب على ما أعطى وأنزل، ليس آخر المطاف ولا غاية الغايات، ولا هو نهاية ما يدرك أو يرام، فكلكم على نصيب ممّا ترونه لي، وكل بني آدم على نصيب من ذلك، كما كرمتهم بذلك عدالة الخالق التي لا يُعلى عليها، ولا عدالة فوقها؛ وإنما الأمر يعود إلى وجوه استعمال هذه القوة العاقلة، التي تزين بني آدم، وتميزه عن عجماوات ونبات، فكلنا عاقل ذو توازن واتزان، إذا أحسن استعمال قدرته وطوق طاقته؛ وما أجيالنا بصلاح التنشئة

والتكوين، إلا قادرة على بلوغ أعلى المراتب والمرامي في هذا الشأن... قال، فأبوا إلّا أن يؤمِّروه عليهم رغم بيانه المعترض وقوة حجته الرافضة، بل من أجل ذلك كما قال بعضهم أمّروه عليهم، وجعلوه محكماً في شؤونهم.

* * *

وكان يا ما كان، كان يا سادتي يا كرام، كان الأعمى يخيط الكتان، والزحّاف المُقعَد ينقز الحيطان... كان في أكوان اللّه الواسعة أرض تسمى «زوداين»(*) ويلفظونها في دارج ندائهم «زودانا» ويطلقون عليها «تازودانت» على المعمول به في لسانهم من التعامل مع أسماء المكان والتنسيب (مثل قولهم «تافوغالت» «تارودانت» «تافراوت»...) يمتاز أهلها بالصدق والوفاء، والجد في الخير والسعي في سبل البر، في بحر من ودٍّ وقناعة، وارتباط محبة ووداعة؛ لا سيد فيهم ولا مسود، لا غانم بينهم ولا محسود، منزَّهون عن الغضب والحقد، يتراشقون رقيق البسمات، ولطف الكلام والعبارات، باعدهم الغمّ فجهلوه، جافاهم الغلّ فأنكروه؛ وكما تكونون يكون بكم، ولئن شكرتم لأزيدنكن، فقد أوتيت البلدة من كلّ نعمة نعيم، ومن كل بهجة سحر مقيم، أشجارها عرائس مائسات بشهيّ الجَنى، وماتع المنى، أحجارها إشعاع مشهد فتان، تناغمت متداخلة متناوبة فيه روافد ماء وعرائس أفنان، مياهها لجين مُذاب، شفاء من سقم وسائغ من شراب؛ فصولها وحدة فصل وفصلها جمع فصول، شمس ظلّ وبدر غيث في آن، صيف في شتو

(*) ومعناها مثنى قدح أو كأس.

خريف وربيع دوام؛ طعامها عفو عافية ولقاح، ما بين سلامة أبدان ومثقل أغصان وخفة أوزان، من كل ناء ودان، من يانعات ثمر ونافحات زهر وفائحات عطر، مرشوقة الأركان مزهوة الأفنان، بعجيب ألوان وساحر ألحان، يشدو كلٌّ بحمد حال وحل، وينشد كل بوصف حب وخل، في مُقام من غامر سكينة عامة، وسعادة كاملة تامة؛ جعلنا وإياكم من نصيبها، في اكتفاء أهلها ونعيمها، آمين. . .

وبداية الحكاية تأتي بعد عصور ودهور من تغير حال بحال، وانتقال مقامٍ ومقال، فكان على القرية حكام طغاة وحاشيات منافقة فاسدة، أوغلوا جميعاً في المنكرات، واقترفوا الآثام، وسلَّطوا مظالمهم على العباد، فرضوا الطاعة العمياء والتبعية الغشماء، استنوا لذلك السنن، وابتدعوا الأعراف والقوانين، لما يجتبى من ضرائب وإتاوات بغير حق؛ وكان من آخر ذلك ما أسموه «الوذْنينية»(*) وهي ما يؤديه الفرد عن أذنيه اللتين تميزانه في فرديته، كما يؤدي ذلك ـ أو يؤدي عنه الفرد ذاته ـ كلّ من يتبعه، أو ينتمي إليه أو يقع تحت نفقته أو في دائرة فرديته؛ وهو في جوهره أيها السادة الكرام، نمط من علاقات وقانون السخرة والتسخير الذي كان متفشياً في بعض العصور، والمعروف إذ ذاك في الكثير من أصقاع المعمور؛ ونقول المعروف من المعمور، حتى يعرف الغافل المتسرع، أننا لا نتحدث عن غير المعروف إذ ذاك وما بعد ذاك، وحتى إلى ما بعد عصرنا في المستقبل من الأكوان، ذلك أنّ بلد المريكان على سبيل المثال، لم

(*) تقابل بلسان العامة عندنا النسبة إلى «الودنين» بالتثنية أي الأذنين.

تكن معروفة إلا عند اللّه الخالق الوهاب، وغيرها وغيرها... وهذا ما يعلّمنا إياه فطاحل النابهين من ذوي الجغرافيا، من عرب وعجم واللّه أعلم... ورجوعاً بنا إلى حديثنا وخلاصته أن المستضعفين من الناس والعاجزين، وكلهم في واقع الأمر عاجزون، وخاصة منهم ذوي الذرية وما إليها ممّا تشمله نفقة الفرد، غير قادرين على أداء الفرائض الودنينية الواجبة، وفي روايات أخرى أنّ عامة الناس يطلقون عليها ما يتضمنه ملفوظ «النايبة»(*) في دارج اللسان عندنا؛ فيكون عليهم أن يؤدوا من عضلاتهم وعرق جبينهم، من طريق الشغل في مزارع الآخرين من المتملكين، أو في مصانعهم ومتاجرهم بلا مقابل، إلا من مؤونة لا تتجاوز حدّها الأدنى في الأكل والشرب، مع تفاوت واختلاف في ذلك، نتيجة تفاوت الناس في طبائعهم وأنماط سلوكهم وفضائل إنسيتهم، من كرم وبخل، أو إحسان وسحت، ومن رضى وسخط قال... ويقول العبد المذنب التائب إلى ربه، الراغب في رحمته وغفرانه: إذا كانت نتيجة ذلك، تبدو طبق الغرض البين والمبيت منه، المتمثل (واللّه أعلم) في استغلال بعض القوم لبعض، وتكديس الامتيازات والثروات في خزائن «تازودانت» والفئات المنتفعة، وفي توسيع أنواع المتاجرة مع القرى المجاورة والبعيدة، تبادلاً وتصديراً واستيراداً على كل الوجوه، وعلى حساب الشرائح والفئات الواسعة من بني قومهم، ممَّن هم في حكم الضعفاء الفقراء والمستضعفين والعجزة ويطلق عليهم ما يمكن

(*) مقابل الأصل اللغوي الواضح وهو «النائبة جمع نوائب» ومضمونها غني بدلالة العسف والمعاناة.

أن يقارب في المشتق من لساننا لفظ «العدّاية»(*) فيما يبدو، يقول. . . إذا كان ظاهر الأمر كذلك، فإنّ النظر في باطنه وأساسه، لا يخلو من بعض تدبير حسن أو معقول، في نطاق ما هو سائد، ويتمثَّل ذلك في حساب معادل المستحق من جهد وخدمة، نظير المطلوب لجهة مستحقات الخزينة؛ إذ رغم أننا حكمنا ـ والحكم للقادر العلي ـ بقدر عقولنا ومحدود إدراكنا، أنّ الأمر يتعلق بنمط تسخيري، فلا نغفل عن أنْ نقول ما روته الكتب، من أنّ حساب المعادلة، ما بين شغل تسخيري وقيمته المؤداة مباشرة إلى الخزينة من طرف المتملك(**)، كثيراً ما تعادل أو قد تفيض عن اللازم المفروض، فينتفع العدّاي بتلك الإضافة، يستعملها فيما يراه من وجوه الإنفاق، وتسلَّم إليه مباشرة عداً نقداً إذا شاء، أو بغير ذلك من طرق وأشكال، إذا ارتضى ما يرضي من بضائع وأرزاق؛ وهذه حال سارية كانت منتظمة ما بين الأطراف في سائر مناطق «تازودانت»، إلا ما يقتضيه اختلاف الطبائع والميول كما أسلفنا بيانه، سواء من هذا الجانب أو ذاك.

ونبقى الآن مع «تازودانت»، البلدة الديصورية(***) وهو الاسم الذي تحمله في بعض الروايات والكتب، وبدأت تتسمى به انتساباً

(*) «جمع عدّاي» ويقارب في لغة اليوم عندنا قولهم «مياوم»، وهو ما يمكن أن يطلق على الواحد منهم، وأصله من قولنا عدّى الشيء أجازه وأنفذه كناية عن وظيفتهم، أو من «عدّاء» وقلبت همزته ياء في العامية، وهو الشديد العدْو، كناية عمّا يتَّصفون به مبدئياً من قوة ونجاعة في الإنجاز.

(**) والواقع أنهم كانوا يطلقون عليه ما يمكن تسميته «ضامن» أو «متكفل».

(***) وتسمى «الديصورية» أو «الديصورة» فقط، كما وردت أحياناً في روايات.

لصاحبها الديصور فيما بعد وفيما صار فيها، بل قلْ ما صار منها وبها. . .

قلنا والقول كله للحكماء الأولين، المرتوين من ينبوع المعارف ومنارات العلم؛ قالوا وقلنا. . . أما عندما يكون التغير والتغيير والتطور والتطوير، من عمل المغرض من بني آدم عفا اللّه عنهم، وتاب عمَّن يستحقه منهم، فإنّ ذلك كله يكون خسراناً ووبالاً، أو قل إنه لا يكون إلا في الفئة ذات النفع، جمّاعة الخيرات مناعة المبرات، على حساب الفئات ذات الدفع، وهم الذين لا يملكون إلا أن يدفعوا الخيرات عنهم، بأداء الواجبات المفروضة عليهم عيناً، من عرقهم وجهود عضلاتهم، لذلك فإنّ قانون الودنينية أو قل قانون «النايبة» كما تحتمل تسميتها من عامة الناس، رغم ما فيه من أضرار محقَّقة وإجحاف في حقّ البعض بالنسبة إلى الآخر، فإنه أصبح محتملاً أو متحملاً بحُكم العادة، أو قل بحكم الضعف والاستضعاف، وروح القابلية والمقبولية للتبعية والانصياع جميعاً.

قال، وفي هذا السياق وضعت مساطير، وسنَّت قواعد وقوانين، وتشكَّلت بذلك منظومة احتكام جارية ومقنعة في حدود دائرتها، من حقّ أيِّ متظلم أن يشتكي إليها، ويُستجاب لمظلمته إن كان على وجه حق في ذلك النطاق، يُنصف ويُحكم له، أو يُرد عليه بقضاء منافٍ يقتص منه. . . وكان هذا المنوال سارياً على العموم، بفعل العادة وآلية الانتفاع به من جهة، والتضرُّر منه من جهة أخرى؛ إذ يجب أن تعلم رحمك اللّه (واحد مسكين ما فهم حتى حاجة من هذا الحديث الرفيع، قال مع راسه: وهذا التهامي الفكاوي أحمق، قاعد يرحمنا وحنا قدامه بالحياة، فاعلم أيها الجاهل، يرحمك اللّه مرة أخرى،

أن الرحمة هنا إنما هي رجاء وتمنيات لك بالخير وحسن العاقبة في الدارين، وليست في حكم تقرير ماضٍ مضى) انتهى ورجوعنا إلى ما نحن فيه... قلنا تشكلت مساطير حقية وهيئات شرعية ومؤسسات تظلمية، على نمط السائد من قانون أصبح عادة معتادة، فمثلاً: يمكن للعدّاية أو أي متظلم بائس أن يتقدم بشكوى من متملك بأنه استنزف منه أكثر من المطلوب أيّ ممّا يجب دفعه للخزينة (إجحاف حق وخلل وإخلال في الكيل)، وفي هذه الحال ينظر في الأمر بموضوعية وتجرد وتقلب الدفوعات والحجج من الجانبين، على حدّ المساواة مبدئياً، رغم ما يحصل من بعض العثرات والهفوات والمراعاة أحياناً، مما هو مقبول ومعقول أو يعتبر كذلك في عرف البشرية ومستوى طبيعتها، علماً والحق أحقّ أنْ يُقال، إن ما يحصل أحياناً من تذبذب أو تراوح، أو حتى مسايرة ومجاملة بدون وعي أو بقليل وعي، يصبّ في صالح العدّاي، إذ لا يخفى أن الحسابات البشرية، ونقولها جهاراً، تنحاز أحياناً في حالات فردة مفردة، لصالح المتظلم المستضعف، حتى وإن كانت حجّة خصمه الضامن ـ أو المتكفل كما سمَّيناه ـ أقوى... ولنترك ذلك الآن... قلنا يؤخذ بالدفوعات من الجانبين، ويحكم لهذا أو ذاك أو بين بين؛ فقد يحكم على المتكفل بردّ ما هو زائد عن التقدير الذي توجبه السخرة لصاحبه، أو على الأقل يمنح مقابل ذلك الحقّ المستحق فترة راحة للعدّاي، تكون معادلة للمبلغ اذا أراد وارتضى العدّاي، أو يدفع عنه ذلك المبلغ مسبقاً، فيُخصم لصالحه من ودنينية الحول القادم.

ويقتضي الحال أيها السادة الكرام، ويا أهل العزة والمقام، أن نقول إنه رغم كلّ ما يتبادر إلى الذهن من سوء الحال، وهو ما لا

يجادل فيه عاقل، فإن بعض العدّاية ـ وبعض هنا لا تدل على قلة ولا على كثرة ـ يستطيعون بطرق أو أخرى وبمثابرة واجتهاد، أن يجدوا منفذاً للخروج من دائرتهم إلى دائرة أوسع وأرقى، بل قل إنّ منهم من يصبح في المقامات العليا سلطة وجاهاً، بل وعقلاً وعلماً واللّه أعلم بذلك.

وما يجب أن يكون مفهوماً هنا، هو أن تغير الأحوال المعيشية المادية والمعنوية، وما يتبعها طبعاً من أجواء العلاقات ودوائر الاتصالات والمصالح، تشكل في المرء زيادة عقل ومعرفة وعلم، واللّه أعلم علماً؛ أما كيف يتوصل هؤلاء إلى هذا، وكانوا أبعد عنه بُعد السماء عن الأرض، فمنه تماهي العدّاي مع ضامنه والمتكفل به، ونقولها حقاً وجهاراً، إنّ منهم (البعض طبعاً) من يصبحون على علاقة محبة حقيقية، ورابطة مودة قوية وصميمية، تجعل العدّاي، ينعم برضى الطرف الآخر، وبرضاه الذاتي عن عمله بما ينمي مردوده الشخصي ويصبح رب ثروة خاصة به، وإذا هو في مستوى مساعد للمتملك، ومنه يرقى إلى رئيس عمل وإنتاج أو ما يشابه ذلك، إلى أن يصير مستقلاً بأعماله ومتملكاً بدوره، أو قل على الأصح، إنه يتحول بدوره إلى ضامن أو متكفل حسب المساطير والقوانين المعمول بها وفي رعايتها.

قال. . . وأيضاً، يُعلم أن من هؤلاء العدّاية من يسلك طريقاً آخر أكثر قوامة وجدّاً، لينفذ إلى درجة عليا، فهو يرفض هذا التماهي مع أحوال ضامنه، رغم طاعته وتقبله للقوانين الجاري بها العمل، ويعمل على تمتين المسافة بين عنصري معادلة هو أحد طرفيها، لكنه يجدّ في العمل والإنتاج، ويفرض ـ حتى بدون محكمة ولا حكم ـ

أن يتبقى له بعض الفائض (بعض هنا للقلة)، لكنه يعرف كيف يزكي ويراكم ويروّج، حتى ينفلت من دائرة العدّاية المسخرة إلى دائرة السعة والامتداد؛ ونقولها جهاراً هنا، إن مثل هذه الحالات لا تجد دائماً معارضاً ومعيقاً، بل إن بعض الضامنين (لا قلة ولا كثرة هنا للدلالة)، لم يكونوا يجدون ضيراً ولا ضرراً، في أن تتحسَّن ظروف مَن هم في دائرة إنتاجهم وتحت نفوذهم، شريطة أن يكون ذلك مشروعاً، من طريق مشروع تحت طائلة القانون ومقتضياته، بل إنهم أو منهم على الأقل، من يغمض الطرف عن تجاوزات صغيرة أو كبيرة في هذا الشأن؛ والنتيجة أن هناك من يستطيع بطريقة أو أخرى، أن ينضوِ عنه طوق العدّاية بسهولة أو صعوبة، بتفاهم أو غير تفاهم، لينفلت بدوره من الاستضعاف والتسخير، وينعم بمكانة ومقام بدون حسد ولا ضغينة من أيٍّ كان.

واعلم يرحمك اللّه، أنه بجانب ما يبدو من سوء هذا كله، مع منظور المزايا والمحاسن التي لا تخفى من جانب آخر، فإنّ البعض من عباد اللّه ربما (ربما للكثرة هنا أو. . . اللّه أعلم) لا هم ممّن يتحولون ويتطورون، ولا هم ممّن يرنون إلى تحسن أو تحسين في أحوالهم ومراتبهم، فقد وهبوا فطرة استكانة أو مذلة بحُكم التعود، يقومون بواجباتهم قدر مستطاعهم أو ما يعتقدونه مستطاعهم، عافون معفون، يرعون القانون بعين، والإنتاج وإنفاق الجهد بعين، والتحصيل المقابل بعين ثالثة؛ أي نعم واللّه أعلم، لهم عيون لكل منهم، في رأسه ورجليه وقدميه وبطنه وقلبه؛ فهم راضون مُرضون، هادئون (مهدئون)، تلك سنّة اللّه في خلقه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

واعلم أيها السامع الكريم (واحد سمع كلامي، هزّ راسه راح

قال، هذا الفكاوي هذا التهامي مخرّف، باقي الآن في هذا الزمان، وقت تقبل الناس فيه أوضاع بحال هذي... وزاد وقال، وحتى في الزمان القديم ما صار ولا كان شي من هذا التخريف)؛ وسبحان اللّه آ سادتي، كما قال الأسياد الأجواد: ورّيه ورّيه، وإذا عمى سرْ وخله... يا سادتي يا كرام، خلوه... خلوهم العميان، صُمّ بُكم فهم لا يعقلون، خلوهم، وخلونا مع كلامنا... وقلنا عن هذه الفئة من الناس، خلائق اللّه الراضية بقانون المعدّية والسخرة والمتملك والضامن وما لا تعلمون، كما قال تعالى وقوله الحق ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾... كلامنا أيها السادة الكرام، كان عن فئة راضية، ذكرنا من حالها ومآلها؛ ونقول الآن بأن هؤلاء القوم من العدّاية الرافلين في دعة وهناء، الساعين بدأب وجدٍّ أو ما يبدو لهم وحدهم دأباً وجداً، إنما هم أحياناً قليلة أو كثيرة، ونقولها جهاراً، يغشُون غشاً فيما يقومون به، ينتقصون من جهدهم وإنتاجهم، ويسرقون كلما وجدوا فرصة أو غفلة من رقابة؛ ليسوا كلهم جميعاً على كلّ حال، وقد لا يستشعرون وخزة ضمير أو قشعريرة ندم في غشهم وتدليسهم، وهم ـ منهم على الأقل ـ المشتكي المتباكي بغير مبرِّر ولا مسوغ، حسب القانون السائد الذي يخدمونه طبعاً، ومنهم من ينال بسبب ذلك خيرات من ضامنه أو من غير ضامنه، بطريقة أو أخرى متباكية شاكية في غيرتها على سيادة القانون.

ومن جهة أخرى، يقول أهل الحكمة والعلم، لا تعميم ولا تخصيص، فالفئة الضامنة والمتكفلة المتملكة المسخِّرة (بالكسر)، تتعايش مع كل الظواهر، وهي بدورها غير سليمة من نوزاع شريتها البشرية، في التملك والتسلط، ولا بريئة من خيريتها الفطرية في

ميولها نحو العدل والإيثار، وبين هذا وذاك ومن هاته لتلك، هناك القانون، وهو لحمة ما في القوم وبينهم من تناغم وتنافر.

يقول قائل في نفسه، مضمراً في خفيته وباطن سريرته، واللّه أعلم بالسرائر. . . يقول ما لنا ولحديث هؤلاء القوم، من مضيعة وقت في كلام وكلام. . . اسمعوا رحمكم اللّه ـ وقد شرحنا معنى الرحمة ـ ونوّر أسماعكم وأبصاركم؛ اسمعوا حكمة الحكماء، وقول ذوي الحجة والبرهان، اسمعوا وقاكم اللّه وقر سمع وعشاوة بصر وبصيرة؛ يقول أسيادنا من غير المضنون عليهم بعلم، يقولون في حال قرية كهذه، أنبتت الديصور وفيما كان فيها من تنظيم ونظام، يقولون رعاكم اللّه: هذا الاختلاف بين القوم في طبيعة وغير طبيعة، في مسخِّر ومسخَّر، في عدّاي ومتملِّك، في ضامن ومضمون، ومتكلف ومتكلف به، وراعٍ ومرعي؛ بل في هذا الاختلاف ما بين مكونات الفئة الواحدة بين أفرادها وجماعاتها، في تعاملهم فيما بينهم وفي تعاملهم مع ذوي الفئات الأخرى، من سلب وإيجاب ومن مستقبح ومستحسن، وفي هذا التلون الطبائعي في هذه الفئة وتلك، وهذا الجمع وذاك، في اجتماع خير وشرّ هنا في هؤلاء، وهناك في أولئك. . . يقول الحكماء يا سادة، إنما ذلك كله آية لمن يعتبر، فالكون في تنوّعه واختلاف خلقه حجماً ولوناً وطبيعة، ما بين طاعم وطاعم، وآكل ومأكول، ما بين سائر وطائر وسابح، ما بين حيٍّ وجامد، ثائر ومستكين؛ إنما كلّ ذلك لحكمة ونظام، وكذا أمر أبناء آدم وحواء، فهم في تفاوتهم وتنوع ألسنتهم وألوانهم وطباعهم، وفي أثرتهم وإيثارهم، في تآزرهم واقتتالهم، في زهدهم وطمعهم، وفي القناعة والشره، وفي منتهى الزهد وسفالة الدعارة، وغير ذلك ممّا

تعلمون ولا تعلمون (ويخلق ما لا تعلمون)، كل ذلك إنما هو لسير النظام وصيرورة الأحوال، وحركية الآلية الكونية المجبولة على ناموس الخالق الرازق، لذلك لا تخلو جماعة بني آدم من تفاوت واختلاف مهما انسجمت، ولا تنجو من تضارب وتدافع، مهما ارتفعت وارتقى بها المقام أو اتَّضع، والحكمة للحكيم المتعال جلّ شأنه... ألم يكن أبوانا في الجنة فوسوس لهما الشيطان... إلخ... إلخ؟

يا سادة يا كرام، يقول مَن لا يفهم على وجهه الكلام، ومن يغيب عنه القصد والمرام، يقول هذا القائل: وإذا كان الأمر هكذا في الأزل، ومن تدبير حكيم عليم، فما بالنا نشغل النفس ونجهد، ونتعب الفكر ونجدّ، لبلوغ الصلاح وتغيير الأمور على طريق الفلاح والنجاح، أقول له قولاً كريماً يا سادتي، كما علَّمنا رسول البشرية عليه أزكى السلام، أقول له يا هذا المتسرِّع، وأقول لكم يا سادة ويا كرام، صحيح، هذا صحيح... الأمر صحيح بهذا المعنى، كل شيء مسطَّر في الأزل وفي اللوح المحفوظ، اللهم احفظنا وإياكم شرّ الزلل، إنما (وإنما هذه كبيرة وثقيلة)، إنما جاء الأنبياء والرُّسل والمبعوثون، كما جاء المصلحون والزعماء ونابغ القادة القوامون على الحق، للتغيير والتطوير والتحسين والتجويد، على طريق الكمال الذي لا يبلغ شأوه أحد، وإنما هو غرة مرام، وتاج الهدى في عليٍّ مقام... إنما (وإنما هذه فخمة عظيمة) إنما كلّ ذلك يدلّ على الدرس المستفاد، وهو ضرورة نهج السبيل نحو الصلاح والإصلاح، على غرار الفطاحل العظماء، والنوابغ الزعماء، والنصَّح الفضلاء ممّن غيبهم الزمان، وطواهم سنن القضاء والفناء، من ذرية أبينا آدم

عليه السلام، كما يعلمنا بذلك التاريخ، وينير طريقنا إليه العلم الحق الصحيح.

وهذا يا سادة يا كرام هو وجه الحكمة في ظهور الديصور (أو ما شئت من أسماء ومكنيات كما سبق) وهو علّة سلوكه سبيل تغيير ظاهر القوم وباطنهم، في القرية المسمّاة تازودانت، والديصور يا سادة، لم يكن نبياً ولا رسولاً، ولا هو ادَّعى من ذلك، وإنما كان زرعاً صالحاً، أتاه اللّه من كل شيء في الخلق والخلق، ما زعم لنفسه مكانة ولا ادَّعى مقاماً، وإن كان القوم فيما بعد، سيذهبون في ذلك مذاهب، بل منهم من لا يزال إلى اليوم ينتظر رجوعه، ويعتقد فيه اعتقاداً ليملأ الأرض عدلاً بعد أن عمرت ظلماً وعسفاً، مما لا نخوض فيه ولا نجذف، تاركين العلم لذي العلم الكبير، المحيط بكلّ شيء.

(3)

أمعن في الوهم من حلم، ألصق بالحسّ من واقع، أعظم وأفخم؛ أستشعرني في فضاء كالعائلي والرفاقي، ربما... لكنه بالتأكيد يأتي بنكهة عائلية أو العكس، الشعور أنني في محيط حنون حاضن، أستجيب له بالمماثل... تشير عليّ وأنا على وشك المغادرة بأن هناك من ينتظرك، لا أعرفها وإنما الصوت مألوف، ونبرة التعاطف مع لمحة العين الخاطفة المتمِّمة لفحوى الخطاب... أفهم من الإشارة والملمح المصاحب لخطابها أن من ينتظرونني، إنما هم ممّن أعرف ويعرفون، وأن الأمر يندرج في باب المودة، وكأنما عليّ لكي ألتقي بهؤلاء المنتظرين، أن ألجَ باباً يتفرع من المكان الذي أوشك أن أغادره؛ في دخيلتي أشعر وكأنّ المجاملة وحدها أو فائض مجاملة، هي ما قد يجعلني أستجيب لدعوة اللقاء هذه، بما يعني أنّ لديّ شعوراً بعدم الاستجابة أو إمكان ذلك على الأقل، وفي دخيلتي أيضاً رضى عن الدعوة هذه دون أدنى شعور بتعارض أو مناقضة في الحال؛ أفتح باباً أو ينفتح لي باب، وكأن ثم على الجانب الآخر من المصراع، يد أو إرادة لفتحه أمامي بمجرد ما أهم... البشر ومطلق البهجة تنفتح أمام ناظري، قاعة كبرى كأنما لعرض أوبرالي، قبة سقف تضاهي مطلق الفخامة، أرائك جوخية

بقاني حمرة تلون الفضاء في تداخل مع بهاء الجدران، أقف عند الخطوة الأولى بمواجهة المشهد، تقابلني ملتفتة باتجاهي وواقفة لمقدمي تحيِّي مهلِّلة مصفقة، وجوه بشر من جمهور القاعة، الفضاء شبه اللانهائي يبدو أشبه ما يكون بمدرج كبير فخم، أقف بأعلى مستوى فيه، بينما تنحدر أمامي درجات ومستويات في امتداد وفخامة شكل هرمي من داخله، يغمرني ابتهاج باطني وافر عميق، كأنني كنت منتظراً مثل هذا ومتهيئاً له، وجوه البشر والتهليل المصفقة لمظهري، لا تني تحيِّي بحماسة متصاعدة، أقف متريثاً عند أول خطوة أرد على البشر والترحاب بمثله، أحيي كما يحيونني، وعليّ أن أخطو سالكاً سبيل الانحدار باتجاه مقدمة المشهد، ربما لأعلو الخشبة أو منصة مُعدَّة لردّ التحية أو إلقاء كلمة، لا أتبين إلى حدّ الآن نهاية القاعة حيث يمكن أن تكون خشبة أو منصة، وذلك لفسحة الفضاء ولانهائيته؛ أستشعرني دائماً عند الخطوة الأولى على عتبة الدخول، ووقوفاً في مواقعها في التفاتة إلى موقفي تحييني جماهير الحضور، أردّ بالإشارة والبسمة وتلويح اليدين، أشعر بأنني ألوح بيدي على مدى انفتاح الذراعين، أشعر في وقفتي أنني لا أرتدي في الجزء العلوي من جسدي سوى الشعار الداخلي الأبيض، أبدو وكأنني أرى نفسي في مرآة، أشبه ما أكون قامة وحركة تحية، ببطل جمباز أولمبي يردُّ تحية المعجبين في انتصاب قامة وصلابة متن وقوام، يغمرني فيض الابتهاج، أستشعر بقوة عري صدري وذراعي والهواء المنساب من تحت إبطي بما آتيه من حركات ردّ التحية. . . أخطو على درجات منحدرة في اتجاه فاصل يخترق صفوف الأرائك المتراصة بانتظام على الجانبين، أتحرك بقوة انتصاب وهدوء، أنزل

الدرجات الماهدة المتباعدة، وسط التحايا والهتاف والتصفيقات، وكأنني أتوقّف أو يُراد مني ذلك في موقع ليس هو نهاية القاعة، أضواء تلمع وكاميرات مسدّدة باتجاهي على القرب، أدرك من ذاتي أو بإيعاز أو بمقتضى الحال، أنني سأدلي بحديث، وكأنني كنت متهيئاً لذلك كله، إنما أستشعر أنني لا يجوز أن أبدو في هذا الموقف نصف عار، أو كما يبدو الرياضيون الألمبيون على الأقل، لذلك ألمح إلى أنني لن أتحدث على نحو ما أنا عليه، بل أمدّ يدي لأسدّ فوهة كاميرا متجهة نحوي، كي لا تلتقط المشهد على هذا النحو، أمدّ يدي نحو عدسة الكاميرا، وفي ذهني صورة من مشاهد مألوفة أو غير مألوفة على الشاشة، لمن يمدّون أيديهم على نحو ما أفعل، حتى لا تُلتقط لهم صور لا يرضونها، وأغلب ما يكون ذلك وأراه، في حالات من مظاهر عنف ضد ذوي حقوق من مطالبين متظاهرين أو معارضين لسلطة قمعية؛ لا أستشعر أية ذرة من انفعال منافٍ، ولا تنتقص حركتي من غمر ابتهاج يملؤني، فلست مستنكراً ولا مستكثراً لما ترمي إليه الكاميرا وآلات الالتقاط الإعلامية، إنما يجب أن أكون كما أريد أن أبدو، وكأنما انفرطت لحظة زهوي بزيّ رياضيي الجمباز الأولمبيين، لتحلّ لحظة الرغبة في الظهور والمظهر الوقور بلباس مكتمل، وفي اللحظة ذاتها يوضع على كاهلي الكساء، أستشعره معطفاً بلون أبيض متكسِّر ممّا أميل إليه، وإذا تحته قميص مماثل ملائم، ويد متوددة أعرفها على كتفي ترتب بعناية من هندامي، لأكون في الصورة التي أريد، كما أريد. . . أفيق، وهل نمت؟ أقرب ما أكون إلى بين بين، وشبه شعاع ضعيف متردِّد، يتلصَّص داخل الزنزانة. . .

كان يوماً دافئاً مشرقاً. لم يدرك يمود ذلك من مجرد كثافة الشعاع المتسلل من طاقة الزنزانة فحسب، لكنها صدمة القوة في لقاء الذات بفضاء الدفء والنور، يحسّ فعلاً أنّ أشعة الشمس تغمره غمراً، يحسّ فعلاً أنه يسبح في حمام الشمس... حمام الشمس؟ من أين له العبارة والخاطرة؛ بنت اللحظة هذه المشاعر، والعبارة الصامتة وإحساسه فعلي بأنه منغمر في حمام الشمس من كل الجوانب والجهات، حمام دافئ هنيئ يتخلل نسيج الملابس، متسرباً يتسلل خلال المسام، شعورك الحقيقي أنه يلمسها بدفئه الهانئ، يفتحها لدفئه شيئاً فشيئاً، خدراً ناعماً لذيذاً، تستمرئه وتستزيد، وهو يزيد فعلاً دون أن تتقوى درجته أو شدَّته، تيار منتظم يعمر ويعمّ ويستمر يعمر ويعم؛ وحدهما العينان كانتا تتأذيان من قوة شعاع لم تتشرَّباه مباشرة منذ دهر بعيد، حتى الرؤية بعينين اثنتين لأشياء مقابلة في نهار الطبيعة العادي، تعترضها صعوبة تحتاجان معها إلى حماية كفٍّ واقية، على مستوى الحاجب مع جهد التبيّن؛ ينجده بقبعة رفيق خطواته الأخيرة في ممشى السجن نحو فضاء الحرية، حارسُه السجان، يخطو في بزته الرسمية وإيقاع خطوه القوي المنتظم، يشكره يمود وهو يسوي من وضع القبعة بما يجعلها مائلة حذو حاجبيه، للتظليل على عينيه وتخفيف وقع الأشعة عليهما؛ يبدو السجان بملامح تأثر غير متوقعة، اللّه يسعدك... يقول ويكرر الدعاء لسجينه، وهما عند العتبة الداخلية من باب لا يزال موصداً... وا المسامحة، يلفظها الحارس مكررة متابعة في غنة دعاء ورجاء...

ـ وا المسامحة...

تبدو عينا الرجل طافحتين ببُعد حزن عميق، أَفَيْضُ ندمٍ أم آهة تحسر على حال؟ . . . وا المسامحة أخونا. . . يتحركُ هيكل الحارس البواب، باتجاه فتح الباب، بينما يوقف الحارس المرافق خطواته يمدّ يده مودعاً، على سلامتك، اللّه يسعدك أخويا، والمسامحة. . . يمدّ يمود يده يصافح مرافقه عند خط فصل بين عالمين، تبدو عينا الرجل مغممتين بدمع ثقيل، مع رعشة يلمسها في قبضة يده، يستشعرها على حافة الشفتين؛ انتحاب داخلي صامت لا يخفى. . .

يترك يمود يد الرجل، لحظة تلتقي نظراتهما في العمق، يفتح كلّ ذراعيه يحضن الآخر، حرقة وداع صميمية؟ استجابة آلية؟ فرصة تفريغ؟ ممن، لمن؟

يمتد شعاع الفضاء رقيقاً، يتَّسع بقدر ما تنسحب البوابة الصغيرة في ضخامة الباب الكبير المصمت، تنفتح رويداً رويداً، يتولد من خلال حركتها أفق الكون، فسحة الفضاء، يتحرك يمود كالمتهيب، يرفع قدمه في حركة يتخطى بها عتبة السجن، خطّ ما بين عالمين، خطوته الأولى في عالم لم يعُد يعرف له خطى، يسمع صرير البوابة وصدى الإقفال على عالم دون عالم، يفتح عينيه للأفق المشبع بأشعة الشمس ونفحها، يلمس حافة القبعة حذو حاجبيه؛ ووحدها حرارة اللقيا بمصطفى بعد الخطوة الأولى، تُنْجِد من فيض مشاعر متناقضة، تُسعِف من تعارض الرؤية والنور، يتعانقان، أكثر من مرة ينفصلان ليلتحما في عناق؛ مصطفى بنما يناهز العامين من حياة الحرية، يمود آخر مُسرَّح يغادر السجن من الرفاق، متساوقاً مع آخر منفي يعود إلى الوطن، ليس الأمر صدفة كما سيقول مصطفى فيما بعد.

حفلاً بحقٍّ كان، حرارة استقبال مفاجئة بحق، لا يدري يمود كيف تستنبت في الآن ومن لحظة الخطوة الأولى، وجوه إخوة ورفاق، من غابر الزمن، تغيَّرت بأغلبهم الملامح، تلك التي يعهدها فيهم كما يعهدونها فيه عبر قرابة عقدين، ماذا يقرأ؟ ملامح تجلِّلها مسحة البهجة بانطلاق سراحه، طاغية على كلّ ما عداها طافية والعناق، زغرودة متقطعة وأخرى تطلقها حناجر رفيقات، ولم يخطئها في الزحام: حنجرة مجيدة، زغرودة خاصة تنكتم في عناقه والدموع، تبكين؟ يفعمه عبير شعرها، يعمّ وجهه وهي تبكي معانقة بقوة مقبّلة، تبكي بصمت مجيدة ذات الصلادة والطوْل، تبكي راقصة وتزغرد ضمن الرفيقات، قوة لقاء وترحاب والصحافة والأهل والأقارب ومن لا عهد له بمعرفتهم سابقاً، أو تخونه ذاكرة استرجاعهم؛ كان حفلاً بحقّ وحرارة استقبال بحق، تداخلت فيها أشعة الشمس والضوء، مع مدافئ المهج والقلوب؛ سيقول مصطفى فيما بعد: إنك وحدك كنت الأبرد في هذا اللقاء، يتقبَّلها يمود ملاحظة عادية، وهو يتابع إلحاح صحيفة الحزب من أجل تصريح، وملامح التذمُّر التي تابعتها الكاميرا على وجوه أغلب الصحافيين، أمام رفضه الباتّ للإدلاء بشيء، مع ذلك كان يشعر بأنه يبتسم، لأنه فعلاً كان يحاول ذلك جاهداً، وإن كانت كاميرا الأخبار الأولى لم تعكس شيئاً من جهده، بقدر ما جعلت مصطفى يقول في شبه مرارة، مخاطباً يمود، معلقاً على مشاهد الاستقبال: متعجرفاً كنت يا أخ. . .

ـ مدح أم رثاء. . .!؟

ـ غناء. . .

طوال الطريق إلى وجهة لا يدريها، كان مصطفى يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، منذ زيارة مصطفى ليمود في الزنزانة، أو استضافة هذا له في زنزانته لأيام معدودة مقصودة يقضيانها في فضاء سجني مشترك؛ ويخبرونه بكلّ جديد طرأ منذ مغادرة مصطفى السجن قبل الجميع، يسأل يمود عن الجديد، الجديد كثير، وما ينتظرنا يا صاحبي أكثر، ما ينتظرك ضمن الرفاق أكبر وأكثر؛ آخر سجين يُسرّح، يتوافق مع آخر منفي أو أكبر منفي يعود من غربته، ليس صدفة ولا مسرحية؛ أحقاً عاد أخيراً، رفيق المنافي ذاك؟ يجيب مصطفى أنه عاد أخيراً، عاد فعلاً بخير وعافية، عدا أثر السن والغربة... الغربة... تلك التي تبدو أشدّ عذاباً من جدران أربعة ورطوبة في أرض الوطن، مهما يكن الوطن فهو الوطن... هكذا يقول مصطفى وقد خبر بعض الغربة هذه، كما خبر السجن، شعور الغربة ذاك فريد المرارة: أحد ما، يقتطعك في لحظة بدون عمر من جذورك، يجتثك اجتثاثاً من حضنك، لترمى على نحوٍ ما، في أرض غير حاضنة، وطوال الدهور السحيقة من عذاب غربتك، يلهبك الشعور بأن هناك من يقتطع منك بقوة ما، أن تنشق هواءك وتفتح قاموسك لتعلن رأيك وتمارس دورك الطبيعي في مسيرة وطنك... وطن مَن إذن؟ أبناء مَن إذن؟ انتماء لمَن إذن؟ تلك المرارة يغذيها الشعور بأنك في أرض غربة، هي عكس ذلك مع أبنائها وبناتها، ولا حقّ لك فيها إلا أنها تجود عليك بالهواء، بالبقاء... من أيّ كونٍ وأي خلق إذن؟

يتحدث مصطفى بإسهاب عن معنى الوطن، بأنه لا يكون إلا مرادف الحرية وجوداً أو مطلباً ومسعى، يتحدث عن إخوة رفاق

يعرفهم كما يعرفهم يمود، عانوا في أرض الغربة بالمنافي، منهم مَن كان في أيةِ لحظة، مهيئاً أو على وشك أن يغامر بعودة شبه انتحارية، تجعله منذ وطأة القدم الأولى لأرض الوطن، يتعرض لسجن مؤكَّد محدَّد بأقسى حكم سابق، على أن يظلّ بالمنفى في أرضٍ لا له ولا منه؛ محن التغريبة والمنافي مرارة عذاب آخر.

يجب أن تفهمني يؤكد مصطفى على يمود. ألم يكن يفهمه؟ ألم يفهمه دوماً حتى يصبح ذلك اليوم موضع سؤال أو تساؤل، مسافة ما بيننا يا أخي، مسافة ما بين قويم ومائل، عمودي وأفقي. . . حتى لو كانت الغاية هي هي نفسها، الطريق والوسيلة تبقى ذات وقع وموقع؛ ما الفائدة من وضع تتسلمه أو تتسلم فيه الدور عاطلاً من منطقك ومنهجك، كيف يُتبين التاريخ والتطور؟ بم تتم المقارنة؟ وتراود الخاطر صور حظيرة كائنات غابوية بلا أنياب ولا مخالب، من يعجز عن استئناس كائنات من هذا النوع، مهما يبلغ عتوها الطبيعي السابق، المفقود؟ من لا يمسح على ظهر سباع قاطنة كهذه، ويدعوها لمقاسمته الفراش والمأكل والمسكن؟ أي اختيار لها هذه الكائنات إن دعيت لتعايش واقتسام؟ ألم يكن يمود يفهمك، ومن يفهمك إذن؟ أَوَلَم يفهمك ذات مساء من قسوة أيام وضراوة ظروف؟

مساء كئيباً كان، أكثر من كئيب وحزين، كارثياً يوشك أن يكون؛ مصطفى وحده يستثنى من حملة اعتقالات؛ يعتقل كل الذين التقوا به ليلة قرار الإضراب الطلابي إلا هو؛ تقارير الأمن كانت دقيقة في التفاصيل، حتى النسمة والنأمة والهمسة من بعضهم، أبلغت واسترجعت على أسماعهم، كما لو كانت في جمعهم الضيق المغلق ذاك، سماعة تحت إبط كل منهم تسجل ما يُقال، بل ما يصدر عفواً

من تردُّد نفس أو عطاس . . . الأزمة داخل مصطفى، يمود من بين آخر من مسهم الاعتقال في تلك الدورة، بعد ليلتين في ضيافة التحقيق الأمني معه، يذكر يمود عمداً اسم مصطفى، يحشره في سياق لم يكن يقتضي ذلك بالضرورة. . .

ـ مصطفى؟

يتساءل المحقق، ليتمم من ذاته: تقصد أنه أيضاً مسؤول؟ يؤكد يمود كلنا مسؤولون ومصطفى واحد منا لا أقل ولا أكثر، واحد منا ومثلنا تماماً. . .

ـ أوه ، أوه مصطفى مصطفى مصطفى. . ذاك شأن آخر، لا علينا منه!

الضربة كانت في الموقع المطلوب، وضابط التحقيق يستشعر صنارة يمود لاقتناصه، ليستدرك في هدوء أنَّ لكل دوره وحدوده، وهو يحقِّق مع مَن أوكل إليه أمرهم والباقي للباقي ولا شأن له به؛ يراد إحراق مصطفى، لم يكن يمود محتاجاً في ذلك لتأكيدٍ من أحد؛ والرمية منه جاءت عفواً، بنت لحظتها، لتصيب الهدف بلا مزيد، وبعدها كم سيجاهد يمود من ذاته في الإقناع بأنها مؤامرة لشطر الصف الطلابي، واثق جد الوثوق من رفيقه مصطفى، أكان لا يفهمه إذ ذاك؟ من يفهمه إذن؟

مصطفى في صمت وكآبة يستشعر تحفظ بعض الرفاق واضحاً صريحاً، من تيارات مختلفة كما من تياره، ويراه مواربا خفياً من بعضهم الآخر، وإنْ كان لا أحد منهم يجرؤ على فتح الموضوع بمواجهته على الأقل، وذلك في وقعه كان أبلغ وأقوى؛ مصطفى في

هدوء أو تجاهل ظاهري، مواقفه واقتراحاته تقابل بالصمت، والدعوة لاجتماع أو ما شابه من لقاء، تلقى ما يشابه في شعوره بالتثاؤب، وما يلبث أن يصارح يمود بأنّ الموقف فوق الاحتمال، لم لا الدعوة إلى مؤتمر؟ مجلس وطني على الأقل... لا. لا الظرف يناسب ولا الإمكانات تسعف، ولن يكون ذلك إنْ تمّ إلا كارثة على أكثر من مستوى؛ ويتحرك مصطفى باتجاه منظمات رفاقية دون جدوى، وحده يمود يظلُّ على ثقة بأنّ مصطفى فوق كل شبهة، وأن الأمر كله صنعة أمنية مخابراتية؛ إذن من أبلغ بكلّ التفاصيل في جمع مغلق محدود؟ إن لم يكن واحد محدَّد بغض النظر عمّن يكون، تقول مجيدة، معناه الشك في الجميع، وقلة من خاصة رفاق يمود ومصطفى، ظلوا على بعض ميل وحياد، قساوة المرحلة نفسها، تيسر لمن يبحث عن منفذ، أن يجدها فرصة للتخلي عن الصف، ويلزم حدود مشاعره، هكذا إذن في لمح بصر، بلعبة صبيانية سخيفة، يبدو متهاوياً كل ما شيد إلى اليوم ورُصّ من بنيان.

لقاء تداولي، جمع مصغَّر بدون مصطفى تدعو إليه مجيدة، الحاضرون أنفسهم هم مَن كانوا في آخر اجتماع محدود مغلق بشأن قرار الإضراب، قبل الحملة الأمنية ما عدا مصطفى؛ يتساءل يمود إن كانت مجيدة يراودها شكّ حيال مصطفى، لا تجيب، تقول إنها أمام تحفظ خفي ومعلن من البعض، لا تجد إلا صيغة واحدة لعقد لقاء ما، لمجرد التداول؛ حكم مسبق إذن وإدانة؟ لا تجيب، الأمر هكذا بعيداً عن كل المشاعر، لا تريد الانسياق لأية عواطف؛ تتفرس بمعالم دهشة في يمود: أيظن أنه أولى منها أو أعلم بمصطفى؟

يلتزم يمود الصمت، لم يكن راضياً على لقاء مهما يكن، دون

حضور رفيقه، ولا أحد كان يعرف الموضوع بالضبط، رغم أن بؤرة أفكارهم جميعاً حول تطهير الصفوف؛ بادرتْ بجرأة تقول مجيدة إن الآلهة خلقت الناس وحكمت عليها بفناء، كما الناس خلقت آلهتها ثم خطّت فوقها وتجاوزتها، الآلهة في ذهن الناس على نحو ما يتصورون، ليست حركتهم بمختلف تياراتها ومرجعياتها استثناء من ذلك، لكن الوقت لا يزال بعيداً بيننا وبين خلق آلهتنا أو تأليه بعضنا، حتى زعاماتنا وقياداتنا لا تزال في طور التلمذة والتعلُّم، وأولى بها أن تستمر في ذلك طويلاً وبعمق، حتى تتشرب سير الأساتذة التاريخيين الكبار في النضال الإنساني، لا مقدس بيننا ولا إله نتمسح به في حركتنا، وموضوع لقائنا كما أقترحه نقداً ذاتياً وتشريحاً صريحاً حاسماً، ننطلق بعده كما كنا أو كما يجب أن نكون، مهما كانت النتيجة، مهما كان الثمن؛ مكاشفة موضوعية، صريحة مركزة، وموقف نهائي، هذا ما تقترح وتريد مجيدة.

أكان يظن أنه أولى وأعلم بمصطفى؟ هي ذي أخيراً تدفع بمحاكمة إلى أقصاها، تستنفر كل الرفاق ليجادلوا بالحجة والدليل على ما يعرفون، أما ما لا يعرفون، فلا يمكن أن يدفعوا ثمناً له صرح بنيان نضالي وطني وكوني، لا يملكون حقّ التفريط فيه بأيّ مبرر مهما كان؛ أكان قادراً مثلها على أن يخلص بعد مراحل المكاشفة، ليستخلص أن عدم توافر العلم بوسائل وآليات الأمن في الاستخبار، لا يسمح بالإشارة إلى أيّ من جماعتنا بما يخدش قيادته ونضاليته، لمجرد استثنائه من عملية حبس واستنطاق لا ندري مداها، ولا حدودها، ولا متى تتكرر أو تستأنف لتبدأ من المستثنى منهم الآن، تاركة غيره إلى فرصة تريدها وظروف تقدرها؛ أسألكم

تقول مجيدة، ماذا يفيد مصالح الأمن الاستخبار أن تكشف عن صاحبها بهذه الطريقة؟ ألم يكن الأولى بالمصالح تلك، أن تبرئ ساحته وتبعده إبعاداً عن كل شبهة، فتجعله بالتالي على رأس قائمة المستنطقين والمحقق معهم، لا آخرهم ولا المستثنى منهم؛ وربما يكون نصيبه من ذلك الأكبر الأكثر، إمعاناً في التمويه والتضليل؟ دعونا لا نخلق آلهتنا بأيدينا، ولكن دعونا قبل ذلك ألا نلطخ بالتفاهات ما أتحفنا صرحه بجدّ السنين وعرق الجبين!

من أين لها قوة المنطق والخاطر؟ تخلق نفسها بنفسها كل لحظة، كما تريد عندما تريد، وتكون أولى بمصطفى وربما أعلم به من يمود، لكنه يبقى الأقرب إلى فهمه بلا حجة ولا دليل؛ مصطفى لا يكون إلا مصطفى، ألم يكن يمود إذ ذاك يفهم، ليفهم هذا الرفيق بالذات، مصطفاه هو كما يدركه؟

(4)

التاريخ ليس عبرة، لا تحريضاً ولا تواكلاً، أي تاريخ؟ تاريخ ماذا، مَن ولمن؟ التاريخ ما يُراد ويقصد؟ النار، الرمز، العجلة، الكهرباء، البارود، الكتابة، الذرة... أي صوت يتردَّد فيه؟ هكذا يسمعه بهادر موج في خاطره، يراه حياً متحركاً يسكن أعماقه؛ تسامع به من بعيد قبل الجامعة، شبه وهم، شبه حلم، صدى صوت رديفه امتلاء وقوة، شبه وهم تجاوب في جوانحه من بعيد، تحوطه أحداث مترام بأبعادها واقع وخيال؛ ها هوذا أمامك كما لم تتخيله، أخذ نصيباً من السن، شخص لا على هزال أو سمنة، لكن على علة أو بعض علل، يمكن أن تقول إن أحيا ما فيه النظرة والصوت، أهدأ ما فيه الإلقاء، أبطأ ما فيه الجواب، أبعد ما فيه المرمى: الأستاذ مرّوني.

لعلها الأسابيع الأولى، دون الشهر بالتأكيد من حياته الجامعية يمود، حين تناهت في محيط الطلبة أخبار محاضرة الأستاذ مرّوني؛ في الأيام الجامعية الأولى لطالب تحدوه اللهفة لكل شيء، لم يكن له ولا لأمثاله أن ينتظروا دعوة أو يستأذنوا حتى من ذواتهم، توجهوا مبكرين تسبقهم قلوبهم إلى الحدث، أن تستمع من قرب إلى الأستاذ الذي ما أكثر ما ترامى إليهم ذكره معطراً بالعظمة والإجلال...

علمه، وأكثر من علمه مواقفه، وأكثر من مواقفه توجهاته، لم يكن مرّوني أستاذاً بالجامعة تحديداً، ربما كان أبعد عن ذلك من منظور تقليدي، كان بالأساس موظفاً في الشركة المعدنية العامة، لكنه لم يكن من طينة تستكين إلى وضع إداري أو مكتبي، وثيق الصلة بالجامعة، ملؤه روح البحث والاكتشاف، بدأ يعمل محاضراً متطوعاً مع الجامعة منذ نشأتها في شعبة التاريخ، والقديم منه على الخصوص، لكنه أكثر من ذلك في ممارسته، يمثل في أعماله ونشاطه انفتاحاً على عدة مجالات من علوم الأرض والإنسان، مزيجاً من سوسيو- أنتروبو ـ جيو ـ اقتصاد سياسي، حتى لَيَبْدو أقرب ما يكون إلى المشتغل من خلال منظار مجسم للإنسان في الكون، يقلب المشهد من مختلف الجوانب والزوايا، ويعمل على الخصوص مع طلبته الباحثين في هذا الاتجاه، مركزاً على البقايا الأثرية والحفريات، مشكِّلاً منهم بين الحين والآخر، مجموعات بحث واستكشاف وفرق ميدانية تحت إشرافه في مناطق مختلفة، باشتراك في غالب الأحيان مع مؤسسات علمية وطنية ودولية مهتمة، وما يفتأ في غمار ذلك كله، يُغْنِي الفضاء بمحاضراته وملتقياته العامة.

تكتظّ القاعة قبل الأوان، قاعة عروض سينمائية في قلب العاصمة، كما يفضل الأستاذ دائماً فضاءات محاضراته العامة؛ يمود وبضعة رفاق طلبة جاؤوا مبكرين، ليجدوا الفضاء يكاد يمتلئ، ويجاهدوا في البحث عن مقاعد متفرقة متباعدة عكس ما أملوا، أبعد ممّا ترجوا عن منصة المحاضر، الأصوات متداخلة يتقاطع فيها العلمي الثقافي مع الشخصي الخاص والسياسي العام، الجمهور

مختلط أبعد ما يكون عن التجانس من مختلف الأعمار، يافعين وشباب، كهول وشيوخ، أساتذة جامعة ومثقفين من الجنسين؛ أيعزى كل ذلك إلى عالمية الأستاذ أم إلى مواقفه السياسية العامة؟ أيستوعب كل هذا الخليط ما يفوه به الأستاذ، أم أن الأمر مجرد عدوى جماهيرية أو تعاطف؟ ما أساسه إذا كان هو التعاطف فعلاً، أو إن كان الأمر غير ذلك؟

شتى أسئلة تتردد باطنياً أمام إقبال نوعي من هذا الحجم، على تظاهرة علمية بالأساس، وقد يكون ممّن يحضر من لا يجلبه غير اسم المحاضر أو سياق فعله وفعالياته، جانبه السياسي على الخصوص؛ لكن ومهما يكن فالأستاذ كان صيتاً ذائعاً، علماً وقطباً جاذباً: النار، العجلة، الرمز والكتابة، الأيون والإلكترون. . . من مثله يقدر على أن يلم بنظرة جامعة تاريخ إنسان على هذا النحو، من منظور كهذا، مَن غيره؟ المتوقع لجوانح يافعة من محاضرة موضوعها تاريخي أن تقعقع حدود السلاح، ويتردد في الأرجاء صدى قصف بروق وهدير ورعود، عواصف وملاحم، وأن تملأ الأسماع، تشل الأبصار والعقول أعلام فاتحين وغزاة، ترفرف مضرجة بالدماء زاهية أعلام نصر وفخار، في كل الدهور وعبر العصور، بكل الألسن، بما خلق ويخلق من لغات، بما فطر ويفطر من حكام وطغاة. . . أليس هذا هو التاريخ كما عرفته أجيال أمس وما وراء أمس، كما تستوعبه وتستعدّ لاستيعابه أجيال من يوم غد وبعد غد، مع موقف شبه جاهز من أحداث ومن قادتها المخلدين الممجدين؟ أليس هذا هو الدرس الأول لمتمرن في علم التاريخ، كما هو الدرس الأخير لمتخصِّص فيه؟ الأستاذ مرّوني شيء آخر، صوت مختلف. . . لا أثر لمعركة،

لا غزو ولا فتح، لا قعقعة ولا دوي، إنها ما يبدو فسيفساء خارج التاريخ، هو التاريخ الحق، معالم، مراحل، محطات وراءها وضمنها تصورات، أفكار وأحكام ومنظور هي المسار التاريخي، وهي المؤشر على مصير كوني إنساني، إنساني كوني... هنا أنت في عمق أقاصي القارات والبلدان والجنسيات والنظريات، متداخلة أو متباعدة، متجانسة أو متنافرة، لكنها تبدو متكاملة أو تنشد التكامل؛ التاريخ ليس استعراضاً حكائياً، ليس أحداثاً ومستخلصات عبرية لمعتبر وعظية لمتعظ، وظيفة السلب تلك التي ننشد، لا... التاريخ ليس ما نريد، وأيضاً ليس ماضياً فحسب، إنه وبالذات مستقبل، إنه على الأصح ما نصنع... عرض وجوهر، ذرة وحجم، حركة وثبات، بندول ومنظار، ملء وفراغ، عجلة، نار، رمز، حرف... تلك هي الرحلة التاريخية، سفر أزلي أبدي، بالإنسان، قبل الإنسان، مع الإنسان...

من لا ينبهر؟ كيف لا يؤخذ من مجاميعه يافع تطلع جامعي، كيف لا تضاعف لهفة ويغمر الشعور بقحط معرفي، شعور إغراق في السطحيات والقشور؟ أية سفاسف خرافية أمام كشاف عقل وتمييز؟ قد يكون الإعجاب بالأستاذ من بعيد ترديد صدى من درجة ما، لكن ما يستشعر بمحضره يمود من انفعال صامت مكتوم، موج قشعريرة يعم ولا يكف أو يتوقف، ما كان إلا ليفتح الطريق سالكة نحو الأستاذ، شريطة أن يجد لقدمه موقعاً بين المريدين والتابعين، وبذلك تبدو مسألة التخصص، أزمة التردد وحيرة الاختيار قد حلت من ذاتها ليمود، هذا الصوت يسكنه ولن يفارق.

ترتفع موجة التصفيق، عاصفة تحيي المحاضر، واقفة هاتفة،

مستمرة حتى حين توقفها، يعلن ميسر الجلسة بصوت غير مسموع ما يفيد تخصيص فترة للنقاش، مع أول متهيئ بسؤال في مقدمة القاعة لم يكن بالمقدور رؤيته، يتبين يمود أول ملمح في شخصية مرّوني، لا يخلو من روح النكتة، كشف أول من صرح الشخص لمتأهب اقتناص، يقول الأستاذ رداً على مستأذن بسؤال لم يفُه به بعد، إنه لا يقبل أسئلة من أصحاب الحرفة الممتحنين! تنفجر القاعة بالضحك، كان يقصد زملاءه الأساتذة، أهل السؤال المحترفين أمثاله، بأيّ نظر يرى، من أي لوح يستمد؟ ببساطة طرح من أضعف مدخل لقضية أو سؤال، تنسرح نظرة كون شمولية خارقة خالقة للأبعاد والمسافات؛ الحرب، الصراع، التاريخ؟ الغير والآخر والطبقة؟ إنه في الإنسان أولاً، مبدئياً من أجل أن يأكل أقل ما يمكن، وكلما احتاج وكلما وجد؛ وأيضاً أن يأكل أحسن ما يمكن، حتى وإن لم يحتج؛ وثالثاً. . . أكثر وأوفر وأجود، حتى وإن لم يحتج ولم يجد. . . وتلك الآفة، الحافز والمحرك!

تهتز القاعة وقوفاً هاتفة، تستمر تصفق لا تكاد تنقطع أو تتوقف، حتى تجذب يد كتف يمود ليتحرك نحو مخرج القاعة، يتحرك يمود فعلاً، لكن في اتجاه المنصة.

نقطة بداية في الخط، أول الخيط في النسيج، هكذا كان الشعور وهو يصافح يد مرّوني أول مرة، يعرب عن مدى الإعجاب، لا يبدو الأستاذ منتبهاً لرغبته الخاصة في الاقتراب، لا يقدر الأستاذ من ملامسة الكفين أن مساراً قدرياً يرتسم بينهما، بسبق إرادة وإصرار من جانب واحد على الأقل، لا يجد يمود له موقعاً في خضم ما يحيط بالأستاذ من ثلة معجبين محيين ومتسائلين، لا يجد فعلاً يمود

حيزاً لأكثر من مصافحة ترتسم عابرة من جانب واحد على الأقل، لكنه عازم على أن يصبر، وليزاحم إن دعا الأمر إلى ذلك.

ثاني خط في المسار عندما يصبح اللقاء بين الاثنين نصف شهري في محاضرات سنة أولى غير متخصصة، يلمس الأستاذ مرّوني في طالبه يمود شعلة الحماسة اليافعة، والرغبة في الأخذ والبذل، لا يُسر ذلك للطالب أو يعلنه كلياً أو مباشرة، وإنما هي ملاحظات كاوية تعلق على الأداء، تلهب إرادة الطالب: يا بني، كلام جميل، أفكار هامة واجتهادات لافتة، مع لغة سلسة إنما... إنما أنت تجمع بين نظريات ومذاهب لا يجمع بينها إلا واو العطف! كم ينهل الظمآن من منبع ثر زلال... ولاسع؟ يا بني امتلكت اللغة والتعبير أو امتلكتك، وتلك قوة وضعف لعلها بعض الطريق، أما البعض الآخر...؟

ثالث خيط في المسار كان الساحة الطلابية، ينخرط يمود بكليته منذ البداية في التنظيم الطلابي، يتكرر حضور مرّوني على فترات محاضراً بدعوة من التنظيم، لم يكن ليخفي توجهاته التقدمية الطليعية في موقع نضالي توجيهي، وإن كان يعرف كيف يتجنبها في الدرس العلمي.

في نهاية السنة تأتي الالتفاتة من الأستاذ نفسه، منفردة مفردة وخاصة بيمود تأتي: أنت، لو وجدتُ بجانبي عشرة من أمثالك! لم يردّ يمود، لم يستطع أن يجد كلمات، قال شيئاً بلا شك، لا يمكن في لحظة مفاجئة كهذه أن يتيسر اللسان، أو تراقب الذاكرة ما يصدر، مقتضيات المقام بلا شك، لكنه يتأكد فيما بعد أنه لو كان مستعداً للفرصة تلك أو متوقعاً لها، لهيأ نفسه وأسر وأجاد؛ بيد أنها

المفاجأة ملجمة في حينها، لكن الطالب لا يملك وقتاً يضيعه لحين افتتاح السنة الجديدة، كي يقرر ما يراه، وإنما منذ الغد يبادر إلى موظف شؤون الطلبة، يطلب تعبئة استمارة التخصص. . . لكن لم يشرعوا بعد، الوقت مبكراً لا يزال، النتائج ليست عامة بعد، ولم تنتهِ لوائح كل السنوات، ماذا؟ لا يهم. . . . يترجى، يكذب، إنه على سفر قد يمتد، ولا يريد تضييع الفرصة، نتائجه معلنة وملصقة ضمن اللوائح الأولى ولن يتغير شيء، يبدي الموظف بعض تبرم، لكن لا بأس في بعض الحالات، يعبئ المطلوب يتسلم وصل التسجيل، يطير إلى أستاذه في مقر الشركة المعدنية، يستأذن، ينتظر، هناك اجتماع يقام للتو، يستطيع أن ينتظر إلى النهاية، ويفتح الأستاذ بنفسه باب المكتب يدعوه للدخول، ينفتح المكتب مباشرة على قاعة تبدو مهيأة لاستقبال اجتماع، لاهثاً يحيي، والأستاذ يبسم له، هل تقبلني. . .؟ يلفظها مشهراً وصل سجله أمام الأستاذ، بلطف يدعوه إلى الجلوس، يعتذر يمود رداً على المجاملة حتى لا يأخذ من الوقت ما ليس له، يسأله بعجالة عن أحواله، يجمل بعض حاله حسب الظرف والمقام إنه من. . . مجرد قرية صغيرة. . . ويحب التخصص تحت إشرافه، يتصافحان وأمامهما طريق طويل للتعارف، يفترقان خفيفاً أحدهما على الأقل، يكاد يطير، يتلمس جنبه إنْ كان قلبه في مكمنه لا يزال، إن كان له من لسان معبِّر عن مدى ابتهاج واعتزاز.

(5)

نقول ـ والعلم لذوي العلم ـ إنّ نسب الديصور غير معروف على قول، وهو ابن حمال أو راعٍ أو سقاء فقير، من سواد القوم وعامتهم على قول آخر، لكن لم يعرف له أهل عندما أصبح له ذكر، ومن ثم الزعم بأنه وافد على البلدة، ضمن مَن يفد إليها من عباد اللّه طلباً للرزق، مع ما اشتهرت به تازودانت إذ ذاك من وفرة ثمار وعميم خيرات، وكان مثل سائر الأكثرية من قاطني القرية، الأصلاء منهم والوافدين، يعملون في طاعة المساطر المنظمة والقوانين الضابطة؛ وقد عُرف في مقتبل شبابه بين العاملين في نطاق قانون الودنينية السائد، مثل سواد القوم وأكثريتهم، يؤدي ما عليه من واجبات وفروض مستقطني وقاطني البلدة، وعُرف إذ ذاك بقوة بأس وانفتال ساعد، فكان يوفي حقّ موكله على أكمل وجه مع وفرة وزيادة، وكان إلى ذلك يتحاشى أن يراكم ما يفيض، أو يسعى من طريقه إلى تغيير حال، بل إنه كان يستعمل ذلك الوفر فيما يخفِّف عن غيره ما هم عاجزون عن تحقيقه، نظير ما عليهم من مفروض النايبة الودنينية كما سبق، وحتى إذا لم يتمكن من ذلك من طريق وفره، فإنه كان يعمد إلى الحلول محل العدّاي العاجز، أو يقف بجانبه يعمل لصالحه (صالح ضامنه) حتى يستوفي نصيبه، فذاع صيت الديصور

تبعاً لذلك، وعلا ذكره وسطع نجمه بين العداية والعاجزين من الضعفاء والمستضعفين، بل واهتم بأمره وانتبه إلى سيرته، كبار القوم في المجمع الأعظم وهو أعلى سلطة في القرية، وأصبح مدار الحديث في المجالس، وكان بودّ بعضهم أن يستخلصه لنفسه، ويحتكره عاملاً لصالحه، لما اشتهر به من أمانة وحب خير، ممّا يجعل المتعامل معه مأمون الجانب من غش أو سرقة وانتقاص، إلّا أنه مع ذلك أبى عن نفسه التبعية مهما كان طبعها وطبيعتها، فهو يرى ـ في ظل التعوّد على القانون المومأ إليه في غير هذا المكان ـ أنه يفضل حريته على العبودية، ذلك بأنه يعمل لاستيفاء ما عليه مما هو واجب مفروض، أما ما فوق ذلك، فيتحرَّر في نطاقه، مستمتعاً بما يقدمه للغير من هدية جهده وعرق جبينه، وهي حريته الحقيقية وسعادته القصوى، ولله في خلقه شؤون.

ورغم السعي الحثيث، والمحاولات والتحايلات العديدة، من علية القوم للظفر باحتكار خدمة الديصور لصالحهم ومصالحهم خاصة، فقد باءت مساعيهم بالفشل، لا لأنه كان يأبى ذلك فقط، أو لأنه كان يوفي ما عليه وزيادة فحسب، بل لأن القانون لم يكن ليسمح لهم بذلك أو يتسامح معهم، ففي مثل هذه الأمور وفي ظلّ القانون السائد، كانت هناك عدالة وحدود للتجاوز، بل وردع للظلم والتعدي في إطار الأعراف والمساطير الجاري بها العمل، كما ألمحنا إلى ذلك في مكانه.

وسارت الأمور على هذا المنوال، ولم يبقَ الديصور وحده من يجود بأفضال جهده، على العاجزين والمحتاجين للمساعدة، بل اتَّبعه بعض شباب القرية في هذا النهج، وأصبحوا ثلة تقوم بمثل هذا

العمل على البعد والاختلاف، وبدون تعارف شخصي أو معرفة، وإنما ذيوع طيب الذكر وحسن السيرة، لدرجة أن لهجات تازودانت أصبح دارجاً فيها، وسارياً مضرب المثل على اللسان منها عبارات مسكوكة، يردِّدها القوم عفواً وتنتقل عنهم طوعاً، مثل ما يُقال في المرأة الحامل، تقليلاً لشأن ما في بطنها وشأنها بالتالي، (لا سيما بين النساء) إذا كانت ممّن يستشعرن الفخار، ويملن إلى إظهار التميز والامتياز بالحمل، فيقال في حقها ما معناه: «مالها. . . غادية تجيب لنا ديصور؟!» وهو ما يطلق كذلك على الرجل يفتخر بما سينجب، أو بما يمكن أن ينجب، مع تغيير الصيغة إلى المذكر؛ أو يُقال في حال المستأسد على غيره، المتعالي عمّن سواه، فيقال ما معناه مثلاً: «ما عملها حتى سيدك الديصور!» أو: «يا متكبر الخلق ما يغنيك، اللّه يجيب الديصور يوطيك!» وقد ورد فيما حفظته كتب الأدعية الصالحة، على لسان المتعبِّدين وأتباع الطريق من عامة الناس على الأقل، وربما من بعض خاصة الزهاد، قولهم: «اللهم نسألك ذرية صالحة صلاح عبدك وابن عبدك في عبادك الديصور».

أما هو الديصور يا سادتي يا كرام، فما كان يأبه لمديح ولا لذم؛ ولمتعجب أو متعجل أن يتساءل: عرفنا المديح وبابه، وأدركنا تاليه وأسبابه؛ فما بال الذم في حق الديصور مع وصفه الفاضل ونعته؟ يقول العبد الضعيف إلى ربه، إنما ذلك لحكمة خفية أودعت في السريرة البشرية، أو قل إن ذلك مختوم في جبلة قوم غاوين، لا يرضيهم ما يرضي الحق والحقيقة، فاعتبروا من نظرهم الكليل، أن الديصور خلق مغفل، يهدر الجهد والصحة فيما لا يعود عليه بشيء، بل فيما يعود على غيره بكل شيء، وأولى به ثم أولى، أن يحسن

وضعه ويرفع من مقامه، وقالوا حتى لو أراد أن يخدم الناس حقاً، فأولى به ثم أولى مرة ثانية، أن يخدمهم من مقام عالي، فينفع وينتفع؛ وقالوا إنه جهول بطبائع الأكوان والأفلاك، وإلا لأدرك أن من يستخلصهم لجهده ويوليهم غاية نصبه وكده، لن يعرفوا له يداً أو يعترفوا له بجميل، إذا استنفدوا طاقته أو تجاوزوا الحاجة إلى خيره ومعروفه، فينقلبون عليه شرّ منقلب، منكرين ومستنكرين، بل قل متكبرين ومستكبرين.

ولم يقف الأمر بذوي البصر الكليل والفهم العليل عند هذا الحدّ، بعد أن خابوا في مسعاهم بالحدّ من ذيوع سيرة الديصور، ولم يحصلوا على مبتغاهم في إلجام صيته وصداه، فقالوا إنه متملك مسخِّر (بالكسر) في خفاء وتستر، تهرباً من مفروضات وواجبات قانون الودنينية وما يرتبط به من سخرة وتسخير، وأنه بالتالي لا يستحق قاطنية تازودانت، ويجب طرده من البلدة، وقبل ذلك يجب صدور حكم قضائي بإلزامه أداء ما عليه، مما يتستر عنه من ممارسة تسخير وجني أرباح، مع الغرامات والإضافات المتبعة في هذه المخالفات، ممّا يلزمه في نهاية الأمر بأن يدفع طائلاً وتليداً مقابل ذلك، وإذا لم يستطع الدفع، ولن يستطيع طبعاً لارتفاع المقادير، فإن عليه أن يستكمل من كده وجهده لفترة طويلة، تتوج في النهاية بطرده من البلدة.

وانعقدت محكمة في هذا الشأن، والعجيب أنها في النهاية انقلبت في اتجاه محاكمة الخصوم والأعداء المدبرين للمؤامرة أنفسهم، ومن حيث لا يشعرون أو لم يقدروا، وذلك بفضل يقظة الديصور الذي كان دفاع نفسه، علماً بأن المحكمة كونت له دفاعاً،

كما تقتضي بذلك الأصول العدلية المرعية والمساطير القانونية، لكنه كان رافضاً لذلك حتى وإن لم يعلنه، بل إنه ترك دفاعه يرافع بحماسة وبلاغة إشارة ولسان، مفيضاً في مناقب قوانين تازودانت وعدالة مجتمعها، مستدلاً بما تراه البلدة من إقبال استقطاني عليها، وانجذاب للتعايش مع أهلها، يعزّ على غيرها من البلاد والعباد؛ يفيض دفاع الديصور ويوغل في هذا المعنى رافعاً من قدر نظام الودنينية الذي ترتفع به ثروة البلاد، وتتقوى صادراتها ومبادلاتها التجارية، مؤكداً على رفاه العيش الذي تزهو به القرية، وتزدهي مؤسساتها. . . إلى آخر هذا الهراء الفارغ (حاشاكم أسيادي)، الذي ما كاد ينتهي على طوله وثقل لفظه وهزال متنه، حتى انبرى الديصور لاستكمال ما يقوي دفاعه فيما زعم لهم، وهو يضمر في نفسه، أنّ ما ظلّ طوال الوقت يقرع سمعه، من تخريف حماسي للدفاع عنه، لا مبرر له ولا موضوع، ما دام لم يتطرق إلى النازلة موضوع المحاكمة من قريب ولا بعيد؛ قال. . . حيا الديصور هيئة المحكمة بما يليق من احترام مقام، وقال إنه يثني على ما جاء في الدفاع (كذا) من تقريظ وفخار، إزاء المساطير القانونية للقرية، وإنما يضيف ما هو ضروري لبيان الحق وجلاء الحقيقة، حتى يستبين السبيل لهيئة المحكمة الموقرة. . . قال، ولم يكن في قوله من سرّ عجب أو إعجاز، وإنما قال واثقاً مختصراً، إنه في خدمة قانون تازودانت العتيدة المجيدة، وهو يفهم قيام الدعوى ضد ضامن أو متملك للعلل والأسباب المذكورة، وتتمثل في التهرب من أداء الواجبات المستحقة، لأنه فعلاً ضد مثل هذا السلوك، مدرك لما يجسده من خلل وإخلال بالنظام العام للبلدة، كما أنه يعلم علم اليقين أن هناك

في تازودانت من يمارس هذا السلوك من الضامنين المتملكين والمتكفلين بغيرهم؛ لكن ما يعجب له ويتعجَّب منه، هو رفع دعوى ضده بهذا الخصوص، بل وقبول الدعوى ضده من طرف المحكمة الموقرة، باعتباره متملكاً يمارس ذلك في السرّ ولا يصرح به أو يعلن عنه، تهرباً من أداء ما يترتب عليه من ذلك؛ فكيف يستقيم ذلك ولا بد للمسخر من مسخر فيه وله، والواقع أنه هو بالذات لا يملك بالمحسوس الملموس شيئاً ممّا يمكن تسخير فيه أو التسخير من أجله، فليس له ملك من عقار ولا من غير عقار، لا من مال أو تمويل، ولا من منقول ولا غير منقول؛ وكل ما لديه من رأس مال، هو ما وهب بالفطرة، مثل بني البشر من خلق الخالق؛ وكل هذا، فضلاً عن أنّ الدعوى لم تقدم عملياً أو تسمّي أي مسخَّر (بالفتح) ممن يدعى أنني أسخّر قال... وأنهى متسائلاً إن كان لدى المحكمة الموقرة من إثباتات ضده؟

وقيل في صك الاتهام إنه بالفعل لا يملك ممّا يملك الممتملكون، لكنه ابتدع نمطاً غير معروف من مظهر الامتلاك، وهو الاتجار في الجهد بدون حق، أي أنه يتناول مقابلاً، نظير ما يقدِّمه إلى غير الراغبين في إنجاز ما يلزمهم من خدمة، والخطورة هنا من منظور صك الاتهام، تتعدى جانب الاتجار في غير المشروع، ليضاف إليها إفساد الناس بفتح باب التلاعب والتكاسل والتهاون والتحايل بينهم، علماً بأنّ كل جهد الديصور وغيره من هذا القبيل، إنما هو مسترق ومسحوب من حق الضامن أو المتكفل، وكان حرياً به أن يُصرف لصالح هذا الأخير.

وهنا لم يكن صعباً على الديصور، أن يقول إنه يملك أكثر من

شاهد على بطلان هذا الادّعاء، بل لديه ما لا يحصى من الشهود إذا ما رأت المحمكة واسعة النظر، أن تستنير بشهاداتهم. . .

قال وما يكاد الديصور يصل إلى هذا الحدّ في دفاعه، حتى ترتفع أصوات التأييد في القاعة من مؤيديه وتابعيه، ثم يتجاوب ذلك من خارجها إذ كانت خلائق من العدّاية والمتعاطفين مع اتجاه الديصور، حتى بدون معرفة شخصية به، قد تجمعوا خارج المحكمة، بعد أن منعوا من دخولها لا لشيء، سوى امتلائها.

قال. . . وهنا تداولت هيئة المحكمة فيما بينها سراً وإيماء، دون أن تغادر منصَّتها، وأعلنت بطلان الدعوى وبراءة الديصور، مع تحميل المدعي كافة الصوائر. . . رُفعت الجلسة، رُفع الديصور على الأكتاف، بالتهليل والهتاف.

يقول العبد الفقير إلى ربه التهامي الفكاوي، إنّ هذه الحادثة وأمثالها ممّا يحفظه لنا التاريخ، تدل لمن يريد أن يستدل على لحمة النظام في تازودانت، من حيث التقدم على بقية القرى والجوار في هذا الباب، بحسن سير عدالتها، واستقرار مجتمعها في ظل القانون، حتى إنَّ قاطني ومستقطني الجوار من قريب القرى وبعيدها، كانوا يتقاطرون على تازودانت، هرباً من شدة ظلم وظلام أفظع أهوج، يهيمن في تلك البقاع؛ ويقول العبد الفقير إلى ربه، إذا كنت أيها السامع اللبيب قد فهمت معنى الظلم في قولنا، فلا تعتقدن ربطه بـ«الظلام» في كلامنا جاء عفواً وغفلة، أو خطأ وسهواً، ولا هو من لغو الكلام أو فارغ بلاغه، إنما أيها العارف ويا طالب المعرفة والعلم. . . فلتعلمْ أن تازودانت إذا كانت تتميز بعدالتها، أو قل سيادة قانونها على نحو ما أسلفنا، فإنها كانت تتميز أيضاً بما تزدان

به ليلاً، من نور أو ضوء في الأزقة، تزدان به مماشيها ليلاً، بواسطة قناديل منصوبة على الأعمدة أو الجدران بمسافات متقاربة، حتى ليمكن القول إن الأعمى يستطيع رؤية طريقه بنورها ليلاً، وربما حصل ذلك والله أعلم، وكان القانون يحتم تعميم ذلك على الجميع في ضوء التقنينات والإجراءات المعمول بها، ونقول دائماً الله أعلم.

ولقائل أن يقول كيف يتساوق هذا الادّعاء بتعميم إضاءة مماشي القرية بالقناديل دفعاً لظلام الليل، وهو خير عام ما في ذلك شك وإنجاز بشري حضاري عظيم، مع ظلم سائد لا تغشى صورته خدشة حديث عن عدالة اجتماعية، ولا حتى سيادة شيء من قانون مساواة كيفما كان؟

فاعلم أيها السامع الكريم، وقاك الله شرّ التسرّع في الفهم، وآفة القفز عن المقدمات للحكم، أن تعميم الإضاءة ليلاً في البلدة، كان حقاً صدقاً، كما رواه الأولون وأخذه عنهم المتأخرون، حتى وصل إلينا الخبر شهداً منتقى وعسلاً مصفى، ذلك أن القانون وهو صادر عن المجمع الأعظم، كان يعطي الحق لكل قاطن ومستقطن للقرية في الإنارة ليلاً، وتؤدى عن ذلك جباية خاصة للخزينة ـ كما هو الأمر في لمِّ النفايات والأزبال، وهو امتياز آخر لهذه البلدة، لم نأتِ على ذكره، ولناكر إذا شاء أن ينكره ـ نقول يا سيدي، كان ذلك حق للجميع بدون استثناء لفئة أو طبقة، ونظراً لما يقابل ذلك من فرائض وواجبات للخزينة، فقد كان المتملكون عملياً هم الأقدر على دفع ما يلزم، لذلك كانت مماشي أحيائهم ومساكنهم، هي التي تحصل في نهاية الأمر على تثبيت القناديل المنيرة، وهنا يبدو الأمر

للجاهل المتسرع وكأن القانون في خدمتهم وحدهم، كلا وألف لا، القانون يعطي الحق للجميع على قدم المساواة وبدون تمييز، شريطة ما يقيد ذلك من قدرة على الدفع للخزينة، مما يجعل العدّاية ومَن في بابهم أو يليهم، تبدو أحياؤهم ومماشي مساكنهم مظلمة، وكأن القانون يجحفهم الحق في الإنارة، وهو خطأ في الفهم وتسرُّع في الاستنتاج.

ألا فاعلم يا سيدي ـ وهذا إنما هو استخلاص من الراوي العبد الفقير إلى رحمة ربه ـ أن بإمكان العدّاية، لو شاؤوا أن تُنار أحياؤهم، أن يدفعوا مقابل ذلك بالخدمة في مصالح مَن يستطيع أن يدفع عنهم المستحقات الواجبة في سبيل ذلك، وإذا كنت أيها السامع مثلي تميل إلى صف هؤلاء، فستقول حسن ذلك، وحسناً فعل العدّاية بإيثار ظلام المماشي والأحياء المنتمية إليهم، بدلاً عن استخدام جهودهم العضلية وقسطاً من زمنهم، زمن راحتهم أو نصبهم، لأداء ما يقابل إضاءة مماشي هم على كل حال لا يتحركون فيها ليلاً، ولا يتنزهون فيها أو يرون لها وجهاً بليل أو نهار، لأن زمانهم لا وجه له، ضياؤهم نصب ولَيْلُهُم غصب، وإنما هو رقاد موت أو موت رقاد، بمجرد الأوبة من عنت الإجهاد نهاراً؛ وعلاوة على ذلك فبعض هؤلاء، كانوا بحكم عملهم اليومي في مصالح المتملكين في منازههم وقصورهم، وضمن مناطقهم وأحيائهم على العموم، كانوا يقضون الليل أغلب الحالات في محابس خاصة بسكناهم، ضمن الدائرة نفسها، فهم ينتفعون مباشرة وبطريقة آلية بنور القناديل الليلية، دون أن يؤدوا مقابل ذلك شيئاً، وأيضاً، أيضاً. . . وعلاوة على ما سبق، فإن لك إذا كنت تميل إلى عكس هذا الرأي،

أن تقول في نفسك أو تجهر به، فالرأي رأي على كل حال، والاختلاف سنة الكون والبشرية. . . أقول يكون لك أن تقول إن هذا الميز في واقع الإنارة الليلية ـ بغض النظر عن الحق فيها وهو مكفول للجميع في ضوء المعمول به ـ له إيجابية جلب موارد جبائية للخزينة، تنحصر على المتملكين وحدهم، فقط لا غير، نظراً إلى قدرتهم وحدهم ـ في الغالب أو واقعياً ـ على دفع تكاليف الإنارة الليلية للمماشي والساحات العمومية.

وعوداً بنا أيها السادة الكرام إلى الحديث عن الديصور وسيرته في قرية تازودانت، فإنّ الحكم ببراءته، بل وخروجه معززاً مكرماً، بل محمولاً على الأكتاف ما بين زغاريد وهتاف، من قبل ذويه من محبين ومتعاطفين ومناصرين، كل ذلك جعله يفكر فيما يخدم به قومه هؤلاء المحيطين به الملتفين حوله، وحتى أولئك الذين هم أهله بحكم القاطنية والمستقطنية للقرية، العدّاية منهم والمتملكون سواء بسواء؛ ذلك أن الخصوم لم يكونوا محصورين فيمن حباهم اللّه أو حبتهم أنفسهم على الأصح بخيرات البلدة، بل إن من العدّاية والمستضعفين الفقراء، من كانوا أيضاً يوجدون في خندق الخصمية لوجهة الديصور واتجاهه، لسبب من الأسباب لا يخرج عن دائرة الجهل والغفلة، ومن جهل شيئاً أهانه واستهان به كما يقول الحكماء، وأيضاً على قياس من أنّ الجاهل يفعل بنفسه، ما لا يفعل العدو بعدوه، كما يقول أسيادنا وأسيادكم، ممن أوتوا عُلى درجات العلم والحكمة.

وكان الديصور بما أوتي من رجاحة فكر وتوازن، يرى الكل قومه، أما من يقفون منه موقف خصم، فما ذلك إلا لجهل ما،

والجهل أنواع وأنماط، ومنه أصول وفروع، كما يذكر الحكماء مما لا مجال للخوض فيه، وإنما نقول إن الديصور كان يرى في أولئك وهؤلاء من خصومه، قومه الأوْلى بخدمته: خدمة العدّاية والعاجزين المستضعفين منهم بما يزيل عنهم المذلة والهوان، وخدمة المتكفلين والمتملكين بما يصلح من حالهم لصالح مجتمعهم، وذلك بالكف عن ممارسة التفاوت الاجتماعي وضروب الاستغلال، وذلك لصالحهم أولاً، ولصالح غيرهم من سائر قاطنة ومستقطنة.

(6)

وات إيزيت؟ تنقدح شعلة ضمير ووجدان، ذكرى غابرة. . . وات إزيت؟ وات. . .؟ ضحكوا بعدها كثيراً وأغرقوا في ضحك طفولي وهزء يُراطن بالعبارة عن غير قصد ولا فهم، سوى شغب بريء جريء. . . وات إيزيت؟ تنادوا متضاحكين بالعبارة مركبين لها حسب هوى طفولي وإيقاع وات إيزيت . . . الخبز والزيت. . . وات إيزيت. . . الما وخْزيت. . . يتضاحكون ببراءة شغب طفولي يتزايدون متبارين يركبون بهوى وإيقاع. . .

وات إيزيت؟ تحضر الآن بنكهتها الغابرة، نكهة زمانها الأغبر، أتكون سبباً ما؟ وتحضر الآن؟ سبباً تكون تلك العبارة: وات إيزيت. . .؟ ثلة أطفال القرية كانوا، يتقافزون حول أي شيء، بحثاً عن أي شيء يلهب الخيال منهم، يحرك الأطراف، يسحر العقول الندية الصغيرة.

حركة متوانية لأجانب سائحين ممّن ترسو رغبتهم عند تملي رسوم الطبيعة على هضاب المنطقة، قليلاً ما يحصل ذلك ولفترة قصيرة، ساعات معدودة أو أقل، يعودون بعدها رجوعاً إلى طريقهم الأصلي نحو المناطق السياحية والمدن الآهلة، وكأنهم بذلك زاروا نهاية العالم، أو وقفوا على حافة الكون الأخيرة.

حركة موج طفلي بلا شطآن، تلفح وجوههم ملامح إهمال وخصاصة، تطبع نفوسهم مساواة الحال، ملؤها مشاعر انطلاق واغتناء برحابة كون وخفة فراش، متواثبة مألوفة حركة بلا وجهة ولا ربان، تستقيم لتنحرف، لتعود فتستقيم وتنحرف في دائرة ودوار، باحثة لنفسها من نفسها عن منفذ وقرار.

حركة متوانية وؤود لثلة أجانب طوحت بجوانحهم جوائح رتابة وألفة، يغريهم جارف تطلع واكتشاف، مالئة رؤاهم تيارات اغتراب مقصود، تتصيد فيهم ومنهم أحاسيس دهشة وانبهار، سرعان ما تعليها آهاً وتحديقاً إزاء البسيط الأبسط، إلى الأقل الأندر والأكثر. . .

حركة، حركتان، متواثبة شغب من هنا، متوانية خطو من هناك، تلتقيان ما بين طيش واتئاد، متقاطعتين في ارتطام أو شبه ارتطام. . . وات إيزيت؟ ضحكوا هزء أطفال أغرّاء، تستوقف نفيرهم في اتجاهه المباغت، تجمّد هديرهم في نقطة التقاء، خطواتُ توان هادئة لكوكبة من أجانب، يسيرون الهوينا متقاربين، قل متكاثفين بغير انتظام، يتميز بينهم مرافقهم المغربي، دليلهم المرشد في كيانه المتحذلق، جلابته المتأنقة وطربوشه القائم على فائض شعر الرأس المنفوش، كعُرف ديك نابت، كأنما يؤكد بذلك وحده أنه الأهل المؤهل لما يريد؛ وحده لا يفتر عن إشارات وكلام وابتسام، ووحدهم حوله بأذرع وأكتاف وصدور عارية أو تكاد، نسوة ورجال، تتصيد أشعة الشمس تمتصها منهم بشرات ومسام ما تنفك تستزيد، كأنما هي نفاذة مسربة بلا قرار، أو تصب في دفائن تخرين غامقة. . . أكانت سبباً ما، حركات ذلك اليوم من هؤلاء وأولئك والمشهد؟ أكانت كل

ذلك وتحضر الآن؟ واتـ. . .؟ مشهد ثلة الأجانب وهم يتحلقون مع الأطفال حولهم، مختلطين بهم بغير انتظام، كل يتطلع إلى ما تعرضة الأكف الصغيرة من ملتقطات حجارة أو نحوها، من منحوتات الطبيعة مستحاثات عوامل مجهولة، ألف هؤلاء أن يلتقطوها في غدو ورواح من مناطقهم عفواً، يتراشقون بها أو يرتبونها بعضها إلى بعض، يجاورونها أو يركبون، مشكلين بها من قصور الوهم وكائناته، ما شاءت لهم براءة الطفولة والخيال، ليكتشفوا بصدفة ما من حركة ومشهد، أن الآخرين يولعون بمنخرطات الطبيعة هذه ومجروداتها، ويدفعون مقابلها أشياء محببة من فلوس وبخاصة من علك وحلويات مختلفة، تلك الأشياء التي يعشقها الصغار أكثر من أي شيء آخر، حتى من الفلوس خاصة؛ فلوس؟ ماذا تشتري بها؟ ماذا في بلدة تكاد تقفر إلا من دكاكين معدودة ساكنة، لا تحرك شيئاً من شهية الشغب ومحفزاته، قائمة هنا مقفرة مما يستحليه الصبية ويعشقون. . . آه، كم تعود قوية ذكرى ومذاق البسكوتة تلك، يلتهمها الصغير يمود دفعة واحدة، يرميها بين فكيه مطبقاً عليها، تحسباً من أيدي وأصابع نشيطة خفاف، يمكنها اختطافها منه قبل التقامها ما بين كفه وفمه، يطبق عليها مثيراً موجة ضحك حوله، ضحكاً صاخباً كان، لا من رفاقه الصبية وإن شاركوا فيه كما شارك بدوره، إنما من ثلة الأجانب، كلهم نسوة ورجالاً، يتضاحكون، بل يتمايل بعضهم، وآخرون يمسكون بطونهم من كثرة الضحك خشية أن. . . يشارك الصبية في الضحك، يشارك يمود الصغير بدوره، لم لا؟ حركته بلا شك جاءت مثيرة للضحك مولدة حافزة، وإن لم تكن عجائبية في مثل هذا الموقف، فقد ألفوا أغلبهم الصغار، أن يلقم

أحدهم بسرعة البرق في حلقه، ما يتلقى من هذه الطيبات، ضماناً لمتعة كاملة قبل أن تطير خطف ناظر منه، أو يضطر إلى أنصبة واقتسام، يضحكون ملء جوانحهم من حركة منه مهما تكن مثيرة، فليست عجائبية ولا جديرة بكل هذا... يشارك الطفل في الضحك مرغماً مسايراً، كما يبدو من حال رفاقه الصبية أيضاً، مع بعض ضيق من ثلة الأجانب في هذا الضحك المضحك، كأنهم كانوا في بئر حرمان من ضحك كشفوا نبعه وغوره، غمسوا فيه وأغرقوا... ممّ يتضاحكون ويتلوون بأوجاع مرح غامر، ودموع تطفح بهجة؟ يبدو الصبي يمود كمن استنفد طاقة المسايرة، يكف عن الضحك دون أن يخفي خيبة ملامحه ولا معالم الحيرة والضيق، مثله الصبية في مثل حاله، يتابع يمود مشهد الثلة حولهم معتصراً غيظه، ومعتصراً في الوقت نفسه بكل القوة طيب عجين البسكوت المتماسك المتلوي بين أضراسه، يمتص نكهة المذاق يلوك بقوة مركزاً في مشهد الضحك حوله، وكأنه يزداد شدة مضغ بقدر ما تلتقي حيوية أضراسه على العجين المتلوي، يمضغ، يضحكون، يلوك، يضحكون، يكرر ويعيد يضحكون ويضحكون... يتوقف شدقاه ناظراً بتحدٍّ في ملامحهم الضاحكة المحيرة، يضغط بتحدٍّ صامت على طيب الكتلة المتلاينة المتلوية بين شدقيه دون أن يغير من حالها أو تتغير، لين مطاوع وفوح طيب وقوت يوشك أن يستساغ دون أن يتم أو يكتمل، كأن به لطف مقاومة لا تبين، بتحدٍّ ينظر فيهم وبمثله يلوك، ثم يحسمها ابتلاعاً يسشعره سلاسة في صعوبة غير مؤذية... تجحظ عيون الضحك في الثلة كالمشيرة إلى شيء فيه ولا شيء، يقف كما هو بملامح حيرة وضحك مغيبين... ماذا؟ الصبية حوله في مثل حاله، ماذا؟ يتقدم

نحوه المرافق المغربي وقد اكتسى شيئاً من الجد، بعد أن كان طول الوقت يساير الثلة برطانة تعاليق ضاحكة متبادلة... ماذا يُضحك في المشهد غير المشهد؟ يقترب من يمود، يمدّ يده بهدوء إلى وجه الطفل الذي يتوخى اللمسة ببعض تباعد واحتياط، كفّ الرجل بلطف تلمس خد يمود... بخير؟ ما عندك باس؟ لا باس؟ حنو الرجل واضح يتملى سحنة يمود المتحير في الأمر كله؛ ويتراجع الدليل مبتسماً وعينه على سحنة يمود: كلتها بكاغدها!

يستجدّ الضحك من حول يمود، من الصبية رفاقه هذه المرة، وقد أدركوا فجأة كما أدرك سرّ ضحك الثلة؛ البسكوتة المعبأة في غشاء بلاستيكي رقيق شفاف، طاوعت وتلوَّت مع حرارة المضغ دون أن تستسلم، لترقد في أحشائه شبه سليمة، في حصانة شبه مصونة شبه منتهكة... الضحك الآن يتعالى من حوله هرجاً، طيش الصبية يكتشف إغراء ملهاة فوق كل إغراء، وات إيزيت... الخبز والزيت... الما وخْزيت... محيطون بيمود يتصايحون يتبارون في الشغب، يتناصحون كيف يتخفَّف يمود من حمله! لا بد أن يكون شهود على اللحظة، بعضهم يستعجل ويذكر أن عليه أن يتناول السهلة... السهلة تلك الكلمة المتداولة، لا يعرف أحد منهم لها كنهاً، لا حجماً ولا شكلاً ولا مذاقاً، تطرق أسماعهم في سياق ما يحدث لعلة أو يطلب إحداثه من إسهال، بعضهم من غير المستعجل يقول بترك الأمر للزمن حتى تنضج الأمور من ذاتها ويحصل التفريغ... بعض يتحدث عن عواقب اختمار وانفجار، وبعض عن التواء بالمصارين والكبد والقلب، بعض يؤكد عن علم موثوق ومعرفة، أن لا خطر من البلاستيك في ذاته، بل الخطر في أنه

يلتصق بالمعدة، ويصبح عشاً للديدان التي تنتشر في كل الجسد باحثة لنفسها عن منافذ من العينين والأنف والأذنين، وبعض آخر يذكر مباشرة أن بقرة لهم ماتت بالتهامها قطعة بلاستيك مع الكلأ، التفت على قلبها وأحشائها. . . تتضاعف محنة يمود، ولا يملك إلا أن يقضي طول وقته ينشد الخلاص، يعتصر بطنه اعتصاراً في محاولات ابتعاد وتجنُّب لرفاق مستطلعين متتبعين بإلحاح، لا يكفون أبداً عن استراق نظر وسمع.

أكانت سبباً ما. . . بمثابة علة أم تعلّة منه؟ مذاق ذكر وذكرى تحضر الصورة وتغمر الأحاسيس؛ ثلة أجانب يدخلون زمرة فيما ألفت أن يمرّ بها القريةُ، من عشاق اكتشاف نهاية الكون والخليقة فيما يبدو، فسياراتهم وأية عربات أخرى، لا يمكنها أن تتعدى حافة القرية في أي اتجاه، غير اتجاه العودة على أعقابها من حيث أتت، حافة كون لا تحتمل من زوارها الأجانب أكثر من لحظات يلمون فيها بالآسر من رحاب فسيحة لمتحف الطبيعة العجيب، يضاف إليه قَشيب مشهد في فصول الربيع ومواسم الإيناع، تبدو به الأرض بساط ترحيب مفروش. . . ثلة معهودة، واحدة بعد أخرى متباعدة الإيقاع، ينتظرها الصبية بتطلع وفارغ صبر، قبل أن تصبح مدار الاهتمام لدى غيرهم وغيرهم من الكبار وغير الكبار، وقد بدأت تتعدد وتقصر فترات فواصلها، بدءاً من لحظة كان من الممكن أن تكون مثل غيرها من لحظات دهور سابقة لاحقة، إلا أنها تنفرد متميزة:

ـ وات إيزيت؟

ينتقي أفراد الثلة الأجنبية ما يروقهم، من مجموعات الأحجار المشكلة وأصناف نباتات برية طرية ومجففة، أصبح الصغار

يكتشفونها بأنفسهم، لا لغرابتها أو عجائبيتها، ولكن لحدسهم بما امتلكوا من خبرة أنها كفيلة بإثارة انتباه الأجانب، أو قل إنهم أصبحوا بحرفية من يحسن العرض والتسويق لمنتوجه، مهما كانت طبيعته ونوعه. . . ينتقي أفراد الثلة ما يروقهم ينفحون الأطفال ما يروقهم أيضاً، وهؤلاء حذقوا بالحرفة والعادة أن يستزيدوا من أي شيء ممكن؛ لا يخرج يمود عن عادة رفاقه، يحشو جيوبه بما ينفح، ويفرغ يديه وباله مما يستجمع، يوشك أن يلوي عائداً أدراجه حين يلفه الصوت ويد تمسك كتفه: وات إيزيت. . . ؟ لم يكن ليفهم ويد الرجل الأجنبي الملتحي، تشير إلى ما في يد يمود، قطعة ما كان ليعرضها لبيع أو تبادل، يدرك بحدسه أنها لا تصلح لشيء، لكنها له أصلح، بحجم حبة عنب مدببة؛ شبه خزفية، شبه عظمة يخترقها في الطرف المدبب ثقب؛ تبدو القطعة على ما هي عليه أصلح ليمود من غيره، يحتفظ بها في جيبه وبين يديه مداعباً باستمرار، في انتظار أن يزودها بخيط يمرره في الثقب لتصبح علاّقة مؤنسة أو ما أشبه، إلى ماذا تصلح ولمن؟ وهل يدرك لمَ تصلح كل الملتقطات الأخرى التي يتنافسون ببراءتهم في تخيل وجوه استعمالاتها؟

ـ وات إيزيت؟

يشد الرجل الصبي من كتفيه متطلعاً إلى ما في يده، تلك القطعة؛ يفهم يمود وتبدو على سحنته ملامح استغراب، يترك جمع يده مفتوحاً لنظرة الرجل، يتقرى القطعة بعينيه أولاً، قبل أن يبدو كالمستأذن في تفحصها، لا يبدي يمود اهتماماً، يترك له القطعة، زمرة الأطفال بعد أن كانوا على وشك التشتت والانصراف، يعودون مستطلعين، يقلب الرجل القطعة على كلّ نحو، يواجهها لأشعة

الشمس ناظراً ومعيداً، يغيِّر أكثر من نظارة متفحصاً، يبدو في غاية الاهتمام والتردُّد، يتعالى نداء الثلة الزائرة على رفيقهم وقد أخذوا مكانهم في الناقلة الصغيرة، ولم يبقَ على الأرض إلا دليلهم المرافق واقفاً ممسكاً بمصراع الباب نصف المفتوح، في استعجال بالرجل ليلحق بهم، يرطن الرجل بكلمات لا يستوعبها يمود، لكنه يدرك معناها، يريد القطعة وربما يسأل عن المقابل، يهزّ يمود كتفيه كغير العابىء، بالفعل لم يفكر في أن تكون القطعة مبيعاً، ولا تصور لها مقابلاً، لكن ذلك لا يمنع من أنه كان يمني النفس بالتمتع بها لنفسه، يستعملها علّاقة أو شبه ذلك، حتى تضيع منه أو تفقد جدتها، ليست جذابة على كل حال، لكنها بدأت تصبح مؤنساً له بالتلمس والمداعبة، لا يحفل الرجل بتردد الطفل وإنما يحسم الموقف من ذاته، يمدّ للصبي ورقة نقد صغيرة، يمدّ يمود يده، يوشك أن. . . إلا أنه يحجم في آخر لحظة، يرتد بيده عن الورقة والكف الممدودة، وات إيزيت؟ واتـ. . .؟ ينظر الصبي في ملامح الرجل المتسائلة، يدير رأسه علامة الامتناع، ليست للبيع. . . لماذا؟ يتدخل المرافق وقد جذبه الموقف، يضيف الرجل ورقة أخرى إلى ورقته الأولى، يخطو الصبي خطوة إلى الوراء مُظهراً امتناعه، يتوجه نحوه المرافق الدليل يشدّه منبهاً إلى أنها فرصة، يتدخل الرجل مخاطباً بلطف وهدوء عبر الدليل. . . القطعة للصبي وهو الأولى بها، وهي له على كل حال، كان يريدها لنفسه، والآن هي موضوع قيمة وبيع، من حقه أن يرفض يقول الرجل في تودد ولطف، وكفُّ يمود ملمومة تكتنز القطعة في إصرار، ليست للبيع، يبدو الموقف غير مفهوم مما يجعل الصبية يتحلقون حول المشهد، يتابعون في اهتمام وتحفز، كما لو

كانوا يتوقعونها معركة، حين يلمز الدليل الصبي بالمغفل، هذه فرصة، يهزه من كتفيه يخاطبه منبهاً بتهكم إن كان يتوقع أن تكون ياقوتة!؟ ليبع ما دام الرجل شديد الاهتمام بها، يتعقد الموقف بتهكم الدليل، لكنه يرطن مع الرجل، يحاور، ثم يكرر بلسانه أن الأمر اختيار. . . وأخيراً يبلغ الدليل عرض الرجل مضاعفاً أكثر. . . أكانت السبب حقاً؟ وات. . .؟ رطانة الرجل بالسؤال، وعرضه المثير حقاً كما يبلغه الدليل ضعف ما اقترح في البداية، إنما يلح في إعادة التفحص، يفتح يمود جمع يده ليلتقط الرجل القطعة متفحصاً بأكثر من نظرة ومنظار، شغب الصبية متداخل الهمس. . . فرصتك لتبيع. . . اقبض. . . خذ. . . لا تأخذ. . . بعْ لا تبع. . . يمد يمود يده بآلية يأخذ الثمن، ليتحرك الرجل بعملاقية خطو وخفة يكاد يطير إلى صحبه، كطفل ظفر بعد لأي بعزيز مطلوب.

واتـ. . .؟ يتعقد الموقف. . . لمَ باعها؟ أحسن وقد باعها! غالية، رخيصة. . . مغفل. . . شاطر. . . حمار باعها وكانت من ذهب! تتداخل في كلّ اتجاه أصوات الصبية خالقة أمواج قلق وحيرة، وريقات نقد مجهولة في يد يمود. . . ليست شيئاً، مجرد أوراق يقول أكثر من صوت. . . يرد أكثر من صوت أنك تشتري بها ما تشاء، كل ما تشاء. . . عم موحا في قعر دكانه يتفحص الوريقات، تلسع حركاته نظرات الصبية، لا يتبين بدوره منها شيئاً، ولا يعطي مقابلها أي شيء. . . تحضر اللحظة حاملة حرقة الندم والسؤال: ماذا كانت حقيقتها تلك الحبة؟

واتـ. . .؟ لهفة السؤال الملتحي المتفحص بأكثر من عين، حرقة التفريط، لسعة الندم المتبقي في أعماق الطفل؛ أكانت السبب

حقاً، لحظة السبب التي تحمّل ضميره قدر الحفر والتنقيب؟ ماذا لو سلم يمود القطعة من أول عرض بأقل ثمن، أو أضاعها بعد ذلك أو قبله بإهمال وتقادم، كما يحدث عادة مع مثيل لها وأكثر من مثيل؟

يترعرع السؤال مستكمناً في ضمير يمود، سراً عصياً عن البوح كما تكمن في الحنايا لواسع لوامع، متجددة حريفة النكهة؛ لِمَ لا وقد أصبحت قريته مثابة للزوار، تترَى مجموعاتهم متتابعة، مخصصة زمناً أكثر لتفحص مناطقها، لتصبح بعد ذلك شبه موسميات مدرة لمردودية لدى كثير من القاطنين، بصور شتى من بيع منتجات غذائية طبيعية، إلى المساعدة في حمل أمتعة ومؤانسة الشلل الوافدة بالمسايرة والمساعدة؛ كل ذلك، قبل أن يعود يمود يوماً في عطلة من دراسته الثانوية بالعاصمة البعيدة، ليجد حقاً ما تناهى إليه من أن القرية أصبحت ورشة حفريات لمجموعات أجنبية، وأحيطت عدة مناطق متفرقة في الهضبة والسهل والجبل بسياجات واقية مانعة من الوصول إليها، بينما حركة الشلل الوافدة مستمرة ذهاباً وإياباً، ما بين القرية وأقرب مدينة صغيرة بها نزل ومستقر، حيث يقضي هؤلاء ليلهم في انتظار كلّ غد، أكثر من ذلك: بدأ بعض أهل القرية يستأنسون باستضافة قصيرة لهؤلاء الأجانب، ويحولون بعض مساكنهم جزئياً إلى مقام لمن يرتضي ذلك منهم ويفضله على حركة دائبة من ذهاب وإياب.

أكادت لتكون تلك اللحظة نفسها هي المولدة لما سكنه، تولد فيه وأقام؛ أم تكون مجرد عابرة كمثيل من لحظات؟ يظل يتردد السؤال في ذهنه وحرارة الذكرى كلما سنح ما يربطه بسؤال الدافع الحافز لتخصصه في الأثريات، أكانت فعلاً سبباً في توجهه بعد سنة

جامعية تحضيرية أولى باتجاه تاريخ الحضارة، لتتطور ميلاً إلى التاريخ الطبيعي، وتستقر في الحفريات الأثرية، مرمى البقايا والنفايات الكونية، كما عبر عن ذلك أستاذه مرّوني العظيم، وليستدرك الأستاذ: . . . لكن البقايا تلك، هي الأهم في تشكيل المعرفة الحقيقية بالكون ومخلوقاته، بدونها ليس إلا السديم والضباب؛ أكانت فعلاً لها هذا الأثر تلك اللحظة الطفولية الدفينة أم أنها لحظة التقاء الأستاذ؟ لحظة بلحظة، لحظة تغذي مثيلتها، أيتهما أصل أو فرع؟

أيكون بعض ذلك سبباً أو بعض سبب لميوله العلمية؟ لا ينكر أنه كان دائماً ممتلئاً إحساساً، بنبش التربة والبحث عن أي شيء وفحصه، مشاعره فياضة منذ يفاعته بأنّ التربة في أيّ بقعة كانت تخفي أشياء، يمكن العثور عليها بالنبش والتفتيش. . . قد يكون هذا أساس الميل الحقيقي، قبل لحظة الثلة الأجنبية تلك، وقد يكون أي طارئ آخر غير علمي، إنما بعد ذلك. . . أثر الأستاذ العظيم كان الحاسم والنور الموجه دائماً، بفضله عرف كيف يتقن الإنصات لصمت الحفريات والأثريات، مهما كانت طبيعتها فيزيقية أو حضارية إنسانية، يقول معلمه العظيم: إن الكتب مهما كانت أهميتها، إنما تؤنس أو تفيد حيث ينعدم الأثر والمتبقيات المحسوسة، تلك المكتوبة بحروف الفعل والوجود، لا بمداد الصمغ. . . المعلم الكبير كان درسه في الأثريات قوياً، وثقافته السياسية أقوى، وسلوكه الملتزم في كل شيء مدرسة إلهام كونية؛ يتساءل يمود عن لحظة حاسمة، تلك التي يقال إنها القطرة التي تفيض الكأس، إنها كل القطرات، كل اللحظات عندما تصب في الاتجاه الواحد الصحيح، تساؤل يظلُّ يحمله يمود،

كلما تميَّزت بشدتها وقوتها اللحظة، وبالتساؤل نفسه يجمل يمود رأيه وصفحة من سيرته للطالب الرفيق، محرِّر صحيفة اتحاد الطلبة، وهو يشاركه ملخص سيرته في أول حوار صحفي ليمود، بعد لحظة فوزه في انتخابات المكتب الطلابي.

(7)

يقول العبد الضعيف الراغب في ذرة خردل من علم ربه، الراغب عن ظلام الجهل وضلاله بحول اللّه وقوته، يقول كم من صغيرة في الكون لا يكاد يلتفت أحد إليها، وأثرها في صيرورة الأحوال ومساراتها لا يقدَّر، وكم من كبيرة في الأحداث يحس بثقلها الجميع، ويئن الكل من وطأتها، ولكنها عابرة بلا فرع ولا عقب في السيرورة العامة والخاصة، ومن ذلك تلك الحادثة، بل الظاهرة التي تبدَّت للديصور فيما هو فيه من هَمٍّ وتفكير، بشأن كافة أهله وذويه، من الذين يعتبرهم ويسميهم جميعاً قومه والأولى بخدمته من كل الفئات، وقد تبدت الظاهرة للديصور أو اكتشفها، أو قل هداه الهادي إليها لكثرة اهتمامه وانشغاله بموضوعها أو بما يكتنفها من محيط، ذلك أنّ ثمرات العلم والإنساني منه على الخصوص في مستوى البشرية، لا يتأتى من عدم مطلق، عدم فكر وعدم اهتمام وعدم انتباه، كما لو كان نازلة (بالمعنى السليم) تنزل بالمرء، أو قل منة ربانية خالصة لمستحقّها بغير وجه استحقاق؛ وانظر عافاك اللّه كم من نازلة (بالمعنى الضار المضرّ) تذهب بحسن أدبك وجد صوابك، فتغرق في الجهالة سعيداً، وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم كما يقول القائل، وانظر عافاك اللّه في ناموس النبوة والمرسولية،

وهي الأكبر شأناً في العلم وموازين الكون وما لا تعلمون، أترى أن نبينا (ﷺ) كان ينفرد بنفسه في الغار متوحداً متدبراً، ويسلك في حياته مسلك الصدق والأمانة، حتى يُحكّم بين دهاقنة القوم فيما هم فيه مختلفون، فيرتضونه ويسمونه الأمين... أترى ذلك، أو ترى فيه ـ البعثة والرسالة ـ إلا هماً واهتماماً بالمسألة الكونية الكبرى من خالق ومخلوق، وإلا تهيؤاً وقابلية وتأهلاً لما يقدم الجواب عن حرقة القلب وحيرة الفكر، فجاءت الرسالة؟ أكانت الرسالة لتترك الساهر الحائر لتنكشف وتُكشف للغافل السادر؟ معاذ اللّه، معاذ الحكمة، معاذ نواميس الكون.. وانظر في بقية الرسل والأنبياء والمصلحين، تساؤل موسى كليم اللّه، وسؤال إبراهيم خليل اللّه سؤال حيرة: قال ربي أرني كيف تحيي الموتى، قال أوَلَم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي... وانظر حتى في مسالك العلماء والنابغين في المعرفة، واسأل وتساءل مع نفسك: أجاءَهُم ذلك عفواً وهم في غفلة لا يفقهون؟ خذ ذاك العجمي (فالعلم لا وطن له... واطلبوا العلم ولو في الصين) وهو المسمى إسحق بن نيوتن مكتشف الجاذبية الكونية، ونحن نقرأ في كتب الأطفال، أن ذلك الاكتشاف الباهر، كان بمجرد سقوط تفاحة على رأسه عفواً وصدفة، وهو يسير لاهياً غافلاً شارداً! يا سبحان اللّه، كأنما لم تسقط على أقوام وأقوام قبله وبعده، كوارث الأثقال والأحمال، دون أن توحي إليهم بشيء، فإذا بها تفاحة! لا، وألف لا؛ إنه الذهن المتفتح المنشغل بموضوعه والمهيأ المتهيئ له، يلتقي باللحظة الكونية الكبرى ويقتنصها، وليس الوالغ في جهالة، الضالع في ظلام وضلالة.

وعود بنا أيها الكرام إلى سيرة الديصور كما روتها الكتب

والثقاة، من أهل المعرفة والرواة، تبدَّت له الظاهرة التي سنتحدث عنها، لأنه كان منشغلاً بها، ينام عليها وعليها يصحو، وهي المتمثلة في الاهتمام بخدمة قومه كما أسلفنا وقررنا، فوجد أنّ الأمر بلغ بالعدّاية والمستضعفين من قومه في تازودانت كل مبلغ، وذلك نتيجة ما يتعرضون له أثناء أداء واجب الفريضة الودنينية، من تعسف واستغلال وبالغ سوء حال، إلى حدّ أنّ منهم مَن يعرِّض نفسه لهلاك، بل قُلْ لما هو شرّ من الهلاك، ألا وهو الضرر المحقق في الآجل والمباشر على الأقل، وهو طريق الهلاك المحقق على كل حال؛ ومن آيات ذلك ضروب العاهات التي بدأت تظهر في صفوفهم، وأصبحت في طريقها إلى التفشي الوبائي، وما كانت لتكون من طبيعة وبائية، ذلك أن بعضهم أصبح يُصاب بالعمى أو بداية أعراضه، كما بغيره من مظاهر شللية مختلفة، وآخرين بأنواع من الجرب وما شابه، إلى آخر ذلك والعياذ باللّه، ممّا نرجو لطف اللطيف حماية لنا ولكم منه؛ وكل ذلك يا سادتي يا كرام، من أجل الحصول على الإعفاء من تحملات العُدّائية وما يرتبط بها من خدمة وفروض.

كل مظاهر هذا العذاب الذاتي، ممّا يسلطه القوم على أنفسهم في الحياة، وهي النعمة الربانية الكبرى والأمانة العظمى التي حُمّلها بنو آدم ليحافظ عليها في نقائها وصفائها وجمالها الأزلي، كان يعمل عمله في دخيلة الديصور فيأسى ويتأسف، يغتم ويهتمّ وهو يرى ما يتفشى في هؤلاء القوم، من تناول ما يجعل الواحد منهم مريضاً لينال مبتغاه؛ وانتبهْ معي عافاك اللّه ووقاك من الزلل، أننا لم نقل إن العدّاي يتمارض، بل إنه يسعى لكي يمرض بالفعل مرضاً حقيقياً، ويعمل على أن يكون مرضه الحقيقي في الآن نفسه مستعجل الشفاء

عاجله، إنه أيها السادة الكرام ـ ونكرر ذلك ـ يسعى ليمرض مرضاً حقيقياً يكون سريع الشفاء، وغير ذي خطر على حياته، وهذه أمنية مُحاطة بكل الأخطار، ومنها تلك الآفات والإعاقات التي أصبحت ظواهر متفشية، منها المقيم المزمن، ومنها المرفوع العارض، وسبب ذلك ووجه كل الخطورة فيه كما سنرى؛ أن بعضهم بدأ يعمد إلى تناول مسيِّل النيلة أو ما هو سهمه، ليتبول بولاً ملوناً أزرق، يقال عنه «بولة إبليس الأزرق» أو «البولة الزرقاء» وكفى، وهي تدوم ثلاثة أيام في المعتاد إذا لم تحصل مضاعفات، وتحيط ببولة إبليس الزرقاء هذه أقوال وحكايات، مؤداها أنها بعد حضانة أيامها المعدودة، تنتقل بالعدوى مؤتمرة بإرادة الشخص المصاب، إذ بمستطاعه أن يوجِّهها لمن يريد ويتمنى؛ وبطبيعة الحال، وفي حال شخص من العدّاية، فإنه لن يتمناها لمحبوبه أو عشيقته، ولن يريدها لغير ضامنه وكفيله المتكفل به، وبالأحرى متملك شغله وإنتاجه؛ ومنهم من كان يداوم تناول نقيع الخروع أو سحيقه، جلباً لإسهال مرضي لا يكاد يتوقف إلا بموجبات أخرى، عندما ينال صاحبه مراد الإعفاء، فيعمل من جديد على إزالة المصاب؛ وبعضهم يبالغون في المداومة على تناول مقادير كبيرة من أخلاط الحلباء والثوم الطازجين، مع السوائل الساخنة والمباشرة، من عرق الدواب وأبوالها، استجلاباً للروائح الكريهة في ذواتهم وحول محيطهم؛ وآخرون منهم من كان يَسِمُ ذاته جراحاً في أمكنة ظاهرة وباطنة من جسده، مطعماً إياها بأمزجة الفلفل والحدج والزقوم وما إلى ذلك، من أجل إثارة البثور والتقيحات، في مظاهر برصية جذامية تثير رؤيتها الهلع والتقزز. . . كل ذلك لخلق ما يؤدي إلى الإعفاء من مكفولية التسخير والإنتاج.

قال، كان الديصور يشاهد مهتماً مغتماً ما يشيع من هذه الممارسات، وقد ذاعت استعمالاً وتطبيقاً، وزاد من استفحال أمرها والإقبال عليها، ما يحصل بها من نتائج مرضية، تجعلها أقرب وسيلة وأسهلها، ينجو بها البعض من الخدمة، إلى حدّ التنازل الطوعي من قبل الكفيل الضامن عن حقه في استخدام الشخص المُصاب، مقابل إلحاح مسرحي مصطنع معكوس، أي في اتجاه أنّ المصاب ذاته، وفي مظهر من التفاني والإخلاص الكاذب، يلحّ في أداء ما عليه من خدمة تسخيرية لصالح كفيله وضامنه رغم المرض والعجز الظاهر، بينما الآخر يتنازل عن حقوقه في الخدمة، معفياً صاحبه العدّاي، بل وصارفاً عنه وجهه ورغبته جميعاً.

يرى الديصور كل ذلك، ويرى مهناً واحترافات نبغت في مجالات التمويه المرضي، تنشر وتمارس ما من شأنه أن يسبب ظواهر المرض وأعراضه، على نحو من بيع أعشاب وأخلاط وأمزجة، وإعطاء وصفات لكلّ عرض مطلوب من عاهة أو آفة، وصنع بعضها بطرائق مختلفة كإحداث جراحة أو بالأحرى جروحاً؛ كما يرى مثل ذلك على مستوى آخر وهو ممارسة العلاج والتمويه الخرافي منه خاصة، وذلك بعد قضاء الأوطار المتمثلة في الخروج أبداً أو مؤقتاً من دائرة الخدمة المفروضة؛ وكان يبدو واضحاً للمتنبه الفطن أنّ كل تلك الممارسات مليئة بالشعوذة وصنوف التحايل والاحتيال، بمعنى أن التحايل من أجل درء فريضة الخدمة إزاء المتملكين، يقابله تحايل واحتيال للغرض نفسه من قبل العدّاية على بعضهم البعض، وبالتالي فإنّ المتحايلين في الأصل من العدّاية، ما يلبثون أن يقعوا بدورهم ضحية تحايل وشعوذة وأكاذيب على مستوى

آخر، بقصد الخروج من دائرة العلة بإزالتها وعلاجها، بعد مستوى الدخول في إحداثها والتحلي بها.

واقع أليم على أيّ نحو يقلبه الفكر المتحير، وحال لا تقنع عقلاً ولا ترضي قلباً، فأحرى إن كان الأمر يخصّ من يهتم ويغتم لآفات قومه وبلده، على نحو ما وصفنا من حال الديصور؛ وكان هذا الأخير في همه واهتمامه، لا يرى أنّ علاج الأمر في عمومه، يقتصر على ما يمكن أن يقدِّمه لبني قومه من العدّاية على أيّ وجه كان ذلك، فعمل كهذا رغم أهميته وأسبقيته ومباشرته، لا يغير من جوهر المعضلة الاجتماعية للبلدة كما يراها الديصور، إذ قصارى ما يترتب عن ذلك، مساعدة وإسعاد مؤقت، فالأمر في النهاية يعود إلى أصله، كما أن من شأنه أن ينتج علاقة كراهية مضافة ومعمَّقة، ما بين متملكين ضامنين وعدّاية تابعين، علاوة على تعسُّف مضاعف يلحق بمن لا يعفون من الخدمة، لعدم قدرتهم وانتفاء قابليتهم لتحمل تبعات إحداث العوارض المرضية بصنع واصطناع، خاصة وهم يرون بأعينهم وأبصارهم المفتوحة، نماذج العواقب الوخيمة المترتبة على ذلك من عاهات مستديمة، أو إصابات تثمر إبطالاً لبعض وظائف الكيان البشري؛ ولم يكن من الممكن في كلّ الأحوال، تصوُّر إقبال كافة القوم ممَّن يعنيهم الأمر، على اصطناع المرض على نحو مما وصف.

قال، وكان لا بد وبالضرورة من تدارك النقص الحاصل في الخدمة والإنتاج، إذ لا ننسى أننا إزاء بلدة محكومة بنظام اقتصادي سياسي واجتماعي يقرّر في شأنه المجمع الأعظم، بهيئته الرئاسية وأعضائه ومختلف الحواشي والحاشيات، وما إليها من التوابع

والتوالي، ممّا لا يُستهان بعهدته، ولا يتخفى في أي مجتمع عن تعقيده وعقدته.

قال، فجمع الديصور أمره وذويه، على وضع خطة يتم بمقتضاها تشكيل هيئة متخصصة تُشرف على النيابة في الخدمة، وتقوم بتنظيم ذلك ممثلة نقطة التقاء وحلقة وصل ما بين العاجزين عن الخدمة لسبب موضوعي معقول من جهة، والطرف المتملك الضامن من جهة ثانية، مع التصدي في الآن نفسه، بسلاح التوعية من أخطار الممارسات الرامية إلى إحداث الأمراض، وما إليها من علاجات عشوائية على نحو ما وصف؛ وقد لقيت الخطة نجاحاً وإقبالاً ما لبث أنْ تزايد، ليس فقط من قبل العاجز وكفيله ضامنه، بل ومن المرشحين للتطوع بالنيابة في الخدمة، إزاء المستحقين من العاجزين، كما وجدت الفكرة دعماً من المتملكين أنفسهم، ووصل صداها إلى المجمع الأعظم، فلم ينكرها؛ وهذا معناه أنه يرحب بها أو يترك الباب مفتوحاً إزاءها، في انتظار ما يجدّ إلى أجل أو غير أجل، وهو سنن معروف في نهج المجلس الأعظم ومنهجه.

وكان واضحاً في ذهن الديصور وللمقربين من ذويه، أنّ كل خطة ترام من جانبهم، يجب ألا تثمر ما يجعل فئة أو فئات من بني قومه هؤلاء أو أولئك، خصماً لها؛ فذلك لا يفيد أكثر من صراع إن حسم لصالح طرف واحد في حال، فهو وبال على الغير في مآل؛ بينما صلاح الكلّ على حدّ وسط على الأقل، يكون مطلوباً وأسلم في كل الأحوال.

قلنا أيها السادة الكرام إنّ خطة الديصور وصحبه، من الذين أصبحوا على كثرة عدد، قد لاقت إقبالاً من كل الأطراف، بما فيها

المتملكون أنفسهم، بل وسكت عنها المجمع الأعظم، بمعنى أنه لم ينكرها، أي أنه لم يصدر ما يبطلها، وبالتالي فهو في حكم الموافق عليها؛ ويجب أن نقول إن ذلك كله وإنْ كان صحيحاً، فإنه بإجمال ولم يكن بإجماع وإطلاق، أو على الأصح أن هناك من لم يكن راضياً ولا مقتنعاً بهذا الشأن، وهو ما سيكون له تأثير فيما سنروي من أحداث.

وفي هذا السياق أيها السادة الكرام، قام بعض أعضاء المجمع الأعظم، بعرض فكرة أو قل مقترح بمشروع قانون، يتعلق بموضوع النيابة في الخدمة، قالوا إنّ الحق والعدل لا يقبلان من فريضة عينية على القاطنية والمستقطنية، هادفة في المقصد إلى المساهمة الفردية والشخصية في بناء البلد، كلٌّ من جهته وحسب ما يلزمه به القانون، بما في ذلك المتملِّكون الذين يدفعون المتوجِّبات عينياً فردياً عمّا هم أصلاً له مالكون، وما هم له فرعاً ضامنون وبه كفيلون متكفلون، أن تصبح موضوع تمثيلية أو نيابية في سليم ظروف وأحوال، علاوة على ما تجلبه في غير ذلك من مضار.

ولتعلم أيها النبيه المتفطِّن لما يجري في التاريخ، كما يرويه الثقاة الأفذاذ، أنّ المعنيين والداعين لنفي النيابة في الخدمة ومنعها أصلاً، إنما يكمُن جوهر دافعهم لذلك وحافزهم عليه، في أنهم أسرّوا ليلاً بينهم وتدبروا، أنّ سير الأمور على نحوٍ ما يخطط له الديصور وذووه، سيجعل منه وطائفته قوة فاعلة، وآلية ضغط لا يؤمن لها اتجاه، ومن ثم يجب المبادرة باستصدار قانون منع النيابة هذا؛ والحق يُقال فإن هناك معارضين كانوا يقولون بأننا بقانون المنع هذا، إنما نستبق الأحداث استباقاً، بل منهم مَن واجه أنصار مشروع قانون

المنع قبل سنه، على أساس أنهم يتهمون على تخيلات، ويحاكمون النوايا، ما داموا في تقديرهم يحتاطون بعمل مؤكَّد وآني، لغدٍ ومستقبل غير مؤكدَين؛ غير آخذين بعين الاعتبار، أن الأمور تسير الآن على وجه حسن، والبلدة تستفيد من الوضع الحالي بدون مشاكل، كما أن موارد الخزينة ليست في تناقص إن لم تكن في تزايد، فكيف نضحي بالراهن الأكيد المفيد، فنخلخله في مغامرة غير محسوبة، لصالح خيالات لا سند لها من واقع!؟

وهكذا صادق المجمع الأعظم بعد نقاش طويل وجلسات متعددة ما بين أخذ ورد، على قانون ما أصبح يُعرف بممنوعية النيابة في مجال الواجبات الودنينية، علماً أنّ تعديلات أدخلت على جوهر المشروع لا تخلو من أهمية، بل لا تخلو من وجهة نظر تحظى بالاعتبار، إذ إنها قصَّت بعضاً من أجنحة القانون أو مشروعه الأصلي، بأن حدَّت من تعميمه، وفرَّعت عنه تفصيلات منها أن ممنوعية النيابة، لا تنطبق على مَن بينهم قرابة الدم، كالابن عن والده والأخ عن أخيه أو أخته؛ بل ما هو أكثر من ذلك، أنها أزالت (مضمن السخرة والتسخير الحيواني) وما إلى ذلك، لما فيه من لمز وانتقاص يقرن بين الإنسان والحيوان في تعريفه بأذنيه، وهو ما لا يجدر لبلد ولا مجتمع على نصيب من التحضر والحضارة أن يقبله، فأصبحت الفريضة العينية هذه تجاه الخزينة، والمسماة الودنينية أو النايبة على لسان العوام، مجرد «ودنية»(*)، ويقصد بها أن كل فرد يؤدّي ما يترتب عليه إزاء الخزينة عن أذنه الذاتية، كما أسلفنا أي عن

(*) مقابل نسبة «وذْن» أي أذن، بالمفرد لا بالتثنية.

ذاته الفردية المستكملة، وهي كنية عن العينية المبتغاة في هذا القانون، ودفْع لصالح هذا التوجه بالمتمثِّل في أنّ الإنسان يُقال في شأنه: له ساعد ويد وقدم وعين، على سبيل التشريف بدون تثنية في التعريف بهاته الحواس أو الأعضاء المثناة، وهو المراد في «الأذن» بالمفرد هنا، وهي آلة إحساس ومعرفة كريمة مكرمة كرامة صاحبها الإنسان؛ كما أنه دفْع ضد كلّ ميل إلى التهرب بكلّ الحيل والوسائل، بما في ذلك النيابة أو الإنابة عن الغير وللغير، باعتبار ذلك خروجاً عن العينية المفروضة إلا في إطار ما حدَّده القانون، كالقرابة المُشار إليها آنفاً؛ ولم يكن الأمر سهلاً في هذا الباب، بل إنّ ميلاد حق «الودنية» بالمفرد أو قانونها، وإن لم يغير من مضمون الودنينية القديمة في شيء من حيث الجوهر، إلا أنه جاء بعد مخاض عسير، بين مؤيد ومعترض، لا لصيغة القانون في ذاته، وإنما لما ارتبط به من تفصيل لم يكن البعض ليتقبله، أو للكل أن يقبله، وهو المتمثل بوجه خاص في إعفاءات تضمنها القانون، وتتعلق بالأطفال دون الست من عمرهم ذكوراً وإناثاً، وكذا العجزة من الطاعنين في السن، ممّن تجاوز فترة القدرة على الخدمة. . . وقالوا في التبرير المصرح به، إن ذلك جاء لاعتبارات إنسانية، وضمن تآزر اجتماعي ما بين الفئات، ممّا يجعل المتملكين في هذه الحال، يتحملون بكيفية أو أخرى، تعويض الخزينة بما يترتب على ذلك من نقص موارد؛ قالوا ذلك كذلك، وأثبت في الكنانيش، وأدرج في سجلات المجلس الأعظم؛ أما غير المعلن وما لم يصرّحوا به، فيقرّر أنّ الديصور ومن إليه من ذويه ودائرته ومن على شاكلته، لن يجدوا في الواقع الجديد باباً واسعاً لمساعدة الناس أو استثماراً للتذمر من

الأحوال، ممّا كان يحصل عند (بعض التعسُّف) على مَن لا قدرة له على الخدمة، ليطالب بما يطالب به غيره؛ كما أنّ رابط القرابة وإن كان يفتح باباً للنيابة والإنابة، فهو باب ضيق ما دام يفرض الانتماء لقرابة الدم في حدودها الضيقة، ومن ثم أيضاً لا يكون للديصور وغيره، مدخلة ولا ملمسة باسم القانون، فيما هو عائلي محدَّد بين أفراد القرابة الضيقة بنص تشريع واضح صريح.

ولسائلٍ أن يتساءل عن مثل هذا القانون، وأين يضع المتملكين ومَن في حكمهم! ويقول العبد الفقير إلى رحمة ربه، المسمى بإرادة خالقه وحكمة تدبيره التهامي الفكاوي، إن فريضة «الودنينية» البائدة، وما احتفظ بظاهره لا بمبدئه في الودنية الجديدة السائدة، إذا كانت قد حقت وشرعت على المستضعفين عيناً، كما ينصّ على ذلك القانون وفي ضوء تطبيقاته، فذلك لأنهم لا يملكون غير ذواتهم أي آذانهم، أما من يملك غير ذلك وبلغ النصاب المحدّد، فإنّه يدفع عن آذان ما يملك من ماش ومتحرك بما في ذلك الكلاب، كما يدفع عمّا له من زرع وضرعٍ ومن مكنوز مال معلوم وعقار، ومقابل ذلك لا يدفع عن أذنه الذاتية؛ على أن العدّاي غير المتملك والعاجز المستضعف في حاله، يمكنه في مآله أن يعفى أيضاً من الودنية، إذا ما امتلك ما يدفع به وعنه، من ماش وجامد إلخ . . . إلخ.

وهنا لا بدّ من وقفة تأمل وتوضيح تتعلق بالمسميات، ومضمونها لا يخفى، وهي أنّ ما يدفعه المتملك، وإنْ كان مقابل ما يملك ممّا له آذان، كما هو عمّا يملك من غير ذوات الآذان مما أوضحنا، فهو لا يحمل رسمياً اسم ودنية وإنما يسمى «واجب الخزينة»، الذي غالباً ما يُشار إليه اختصاراً في نصّ القانون ومحاضر

المجلس الأعظم باسم «الواجب»، مقابل ما تطلق العامة من ملفوظ «النايبة»، فيما يفرض عليها من تكاليف بغض النظر عن مسمياتها كما أسلفنا.

ولعلك تقول في سرك مع نفسك، أو تتلفظ به دساً همساً إلى جوارك: هذا تمييز لا مبرر له، حتى في تسمية الجبايات، وهي التي يجب أن تكون واحدة موحدة مبنى ومعنى، ولعلك تضيف أن هذا المجتمع ظالم، راعٍ للظلم منظِّم له ومقنِّن، مما لا ترضاه طبيعة العدل والمساواة، ولا ترتضيه ملة أرضية ولا سماوية؛ لعلك تقول مثل ذلك وتقول. . . وأنا معك أو قد أميل إلى حكمك، كما قد يميل إليه غيري وغيرك، ولكننا لا نحاكم أو نحكم لنغير، وإنما نسرد الأخبار، وللمتمعِّن أن ينظر ويختار، وهذا ليس هو باب القول في هذا المقام.

ولتعلمْ على كلّ حال، أنّ مثل هذه الظواهر التازودانتية، هي ممّا حرك الأحداث في سيرة ما نحن فيه من مجريات الوقائع، في يوميات صاحبك الديصور.

ويقول العبد الضعيف تفصيلاً للكلام في سنّ الواجب المتعلق بالكلاب، بخصوص المتملكين لها، وقد ذكرناه عرضاً ولم نقف عليه فرضاً، بإنه جاء شاملاً مطبقاً على عموم الكلاب، سواء كانت لمجرد الزينة والاصطحاب ومختلف النوافل المظهرية، أو لغرض مقارب لذلك مثل الصيد، والتباري في السباق أو حذق المهارات وغيرها، ناهيك عمّا يُستعمل منها للحراسة؛ إذ هي كلها في هذه الوجوه وغيرها ممّا لا تعلمون، يعتبرها القانون استثماراً، ولها فوائد وعوائد مادية وغير مادية، يقدِّرها حسب طبيعتها ودرجتها المختصّون

والسعاة القيِّمون والقائمون على تحصيل الجبايات؛ ويذكر أن مشروعاً مماثلاً ظلّ مجمداً في الخفاء يرمي إلى تطبيقه على تملك القطط أيضاً، وقد يكون هذا التوجه بمثابة امتداد أو ربما أصل، لما طبق في مجال امتلاك الكلاب.

أمّا عن وجه الحكمة في فرض هذا النوع من الواجب، الذي يبدو للبعض وكأنْ لا محلّ له من الإعراب، فهو علاوة على إغناء موارد الخزينة، فإنه يسجل نوعاً من التعادل إذا صحّ التعبير، يحمّل المتملكين أعباء إضافية، مقابل ما يتحمَّله غيرهم من غير طينتهم، من العدّاية ومن إليهم وعلى شاكلتهم.

ويُقال في النهاية، ربما... ربما هي الأسماء مختلفة، والأداء للخزينة واحد ثابت في كل الأحوال وعلى كل الأشخاص، ما عدا ما يحدده القانون بخلاف ذلك، ربما كما قلنا... وربما غير ذلك، واللّه أعلم.

(8)

لا يدري أحياناً بعد كل هذا الزمن، زهاء ربع قرن، إن كان ما يرويه لنفسه أو لغيره عن الأستاذ مرّوني حقاً، أم هو منه، لشدة ما ترسب فيه من شخص وشخصية الرجل؛ يقول إن أية صخرة أو طوبة أو عشبة، هي الأدل على وجودها أكثر من أي كتاب أو كتابة عنها مهما كانت القيمة، إنها تعرض عليك نفسها كما هي، لا كما يمكن أو يجب أن تكون؛ ويقول ابحثوا عن التاريخ في مجاري المياه، لا يقصد بذلك مجرَّد ما هو معروف من أن الاستيطان البشري، وبالتالي الحضارة تنشأ في حضن أو نطاق الأحواض المائية، إنما يقصد أكثر من ذلك، أن البقايا الظاهرة وشبه الظاهرة على السطح قرب المياه أو على البعد القريب عمقاً، إنما هي الجبل الجليدي الطافي، بينما جزؤه الخفي في الأعماق أعظم، انبشوا كل شبر في الأحواض المائية، وعمِّقوا أكثر ما تستطيعون الحفر بكلّ الوسائل، فتحت كل أثر بارز أو غير بارز شاهد أعمق وأقوى، وتحت كل استيطان استيطان، فتاريخ الكون بعد أن هدأ واستقر أو يعتبر كذلك، لم يحافظ قط على سطحه، العوامل الطبيعية قد غمرت وطمرت ما لا يحصى من شهود التكوين وشواهد التاريخ، غير القابلة للتأويل والتحريف. . . أكثر من ذلك، يقول الأستاذ إن غنى التاريخ الأثري

يوجد تحت مجاري المياه، هذه الأنهار والبحيرات كبيرها وصغيرها عبر العالم، غيرت وتغير باستمرار مجاريها منعرجات وحدوداً، وتحت جوف مياهها في أعماق الماء والتراب يربض التاريخ الكوني، إنه أشبه ما يكون بقولنا إنّ الجزء الأهم من تاريخ البشرية وحضاراتها، يرقد في أعماق التجمعات المائية من بحيرات وأنهار وبحار، بعوامل تطورية طبيعية وغير تطورية ولا طبيعية كذلك.

أول عمل ليمود في مجموعة بحث طلابية بدافع وإشراف غير مباشر من الأستاذ، تمثَّلت في منطقة آسفي وسط جنوب البلد؛ تتمّ العملية باشتراك مع باحثين أجانب وزملاء طلبة، بترتيب من مرّوني ودون حضوره، فرصة كانت لا تعوض للتمرين كما أكّد الأستاذ، ويمود لا يعرف ما يرد به على الاقتراح، إلى أن يجد نفسه ضمن البعثة في منطقة وسط الجنوب؛ كانت تلك أول فرصة تفتح لمجموعة الزملاء الطلبة، على البحث الحفري الميداني، أعدّت المجموعة مختلف الوثائق والدراسات عن المنطقة في المراحل المدونة تاريخياً بإشراف مرّوني، ركزت على المراحل الوسطوية، مع الحرص على رسم خرائط محلية وموقعية طبقاً لأوصاف العمران والأحداث المدونة، لتأتي مرحلة التحليل بقصد تكوين فرضيات عن النقط الأوفر حظاً من حيث التوقعات الأثرية، ثم ترتيبها وفق سلم متدرج حسب الأهمية، للانتقال بعدها إلى التنسيق والتكامل في المعلومات مع جامعات مختلفة إنجليزية وأسترالية، يشارك أفراد من باحثيها في البعثة: أستاذان وبعض طلبتهما من الجنسين.

حياة جديدة فعلاً، لا بما تملأ به الذات من اعتزاز، بأنك كما يقول الأستاذ تخلق التاريخ، تكشف عن مجاهيله وتصنعه، متجاوزاً

موقفك التقليدي من قبوع بين الأوراق والمصنفات فيما يشبه تناول وجبة جاهزة مسبقاً؛ أنت الآن تشاهد الحي، تفتش وتقارن وتحاكم، تستقرئ متابعة الأحداث حيث من ذاتها تتجِّه، حيث المنطق والتوازي والتقاطع والانسجام؛ ها أنتذا تسعى إلى التاريخ، تشهده وتشهد عليه، وهو بنفسه يشهد عن نفسه، يتحدث إليك الحديث الخاص بالواقعة الخاصة، بقدر ما تحسن التتبع والإنصات... حياة جديدة فعلاً، لا بهذا المنظور فحسب وهو أكثر من كافٍ، وإنما هي جديدة أيضاً، بهذا النمط الذي يعشقه الأستاذ لنفسه وطلبته: الحياة في مخيم علمي، خارج المنازل والإقامات والفنادق؛ هنا تستقي وتطبخ، وقد تحتطب في رحابة الفضاء، ترتوي برفقة القمر، تلتحف بسمك الظلام، تشتوي بهجير القيظ، تعرق وتجفّ، تتنشق عبير عمق الأرض والتراب وتزفر نثار الغبار، ينفرج صدرك لحدّ التمزق أو يكاد، طرباً وابتهاجاً لتحسُّس سطح المغمور من أثرية تتبدى على خجل وتردُّد، تحت كشط حذر، ونفض محترس بأذيال فرشاة مرنة؛ وأول بادرة للحظة فوز مميزة، يتجمع لها الفريق كله نحو موقع القطعة، يتملون سحرها الغامض بغموض أكبر: ماذا تكون؟ ما الحدود والحجم؟ ما القيمة والدلالة، ما الحالة والقابلية للتناول؟

لحظة كشف واكتشاف خالقة للذات، يهنئ الفريق بعضه بعضاً بالمأمول، كتهنئة حامل بحملها المجهول، ابتهاجها بالحال في ذاته، بغض النظر عمّا يتلوه وينجلي عنه من تفاصيل... يهرع البروفسور الإنجليزي إلى كرزه يأتي بزجاجة شراب، لا يسأل أحد عن نوعه وجنسه، يوزِّع جرعات منفردة بكأس مفردة تطوف عليهم واحداً واحداً، نخب الكشف والاكتشاف، قبل أن يتعاونوا على تسوير

موقع القطعة بخيوط متقاطعة وعلامات، غداً يباشرون بمساعدة عمال مختصين عملية الاستبار والتمييز، لتقدير إمكانية الاستخراج، إنْ تيسرت وساعدت الظروف.

تلك اللحظات... أن تشعر بجهدك في ترصيص أساس محسوس للمعرفة، كلّ ما قبل وبعد يدخل في باب الأدبيات والشهادات الشخصية القابلة لتزيد وانتقاص، الذات البشرية تترك جزءاً منها فيما تنقل من معرفة، تدخله بوعي منها أو بلا وعي، كل منقول قابل لارتياب، عدا حضور الشاهد الناطق الفصيح، عند الأثر المحسوس تؤسس المعرفة على قاعدة منه، يقول الأستاذ مرّوني لا شيء عدا الحس والتجريب يشكل عقلاً، ومعادله في الحفريات انتصاب الشاهد الأثري... تلك اللحظات، أن تشعر عمق الوجود فيك بأنك تخترق حجب الغيب لإنتاج المعرفة.

يعود يمود من أول عملية له مع مجموعة بحث، الوقت يجاوز منتصف النهار بحوالي ساعة، ينظر إلى ساعته يتأكد من وقته، ربما كان الأولى أن يقصد المطعم الجامعي مباشرة، لكنه يعود ممتلئاً بانفعالات شتى فيها من بعض الرضى وبعض القلق، أول مشاركة فعلية له في الكشف عن مجهول، لا يستشعر حاجة لشيء كما يستشعر حاجته الملحَّة للحديث، ويوم الأستاذ مروني بالكلية تحدِّده هذه الفترة، حيث يتناول عادة قهوته بالمقصف الجامعي، قبل أن ينصرف إلى تناول الغداء، يومه الأكيد بالكلية ولحظة مقهاه، إلا أن يكون يمود سيئ الحظ بما يعارض قصده: أن لا يلتقي قبل أيّ أحد، بمن هو الأولى بحديثه.

باقتضاب يحيي، كأنه لا يصدق أنه محظوظ إلى هذا الحدّ:

مرّوني مرفقه على بار المقصف أمام فنجان القهوة، منصرفاً يقف في حديث مع زميله من هيئة التدريس الأستاذ علاّوي، يعرفه يمود من بعيد في تخصّص لا يمسه، غارقان معاً حتى الأذقان في مجال السياسة، يجول يمود بنظرته في أرجاء القاعة، خالية إلّا من الاثنين، يراهما في وضع جانبي لمدخل القاعة، متقاربين يأخذهما أخذاً عن كل شيء حولهما، همّ واهتمام لن يكون خارج اللحظة السياسية، والعجوزُ المناول منصرف إلى ترتيب أوانيه في عقر المقصف؛ يتوقف يمود متريثاً، يستشعر أنه شبه لاهث من لهفة وحثيث سير، يتريث محاولاً ألّا يثير انتباهاً، يسعى بهادئ خطو لقصي ركن، ينتظر نهاية الموقف، بيد أنّ طرْف مرّوني يلمحه، فلا يملك يمود إلا أن يسرع باتجاهه محيياً.

ـ أهلاً بالكشاف المكتشف!

يصافحه يمود ببعض خجل من إطرائه، كما يسلم على رفيقه، ومرّوني يحدث زميله الأستاذ عن كشف المجموعة، إذ أنهي إليه الخبر عبر الهاتف من قبل صديقه البروفسور الإنجليزي، وهو يثني على جهود يمود بالذات؛ وما ينفك مرّوني يطنب في امتداح الحظ السعيد، الذي يقود طالباً إلى الكشف عن شيء، في أول خطوة علمية له في العمل الميداني.

يصحح يمود مستشعراً إحراجاً مخجلاً أنه مجرد مشارك. . .

ـ ولو. . .

يتابع مرّوني. . . ولو. . . هذا حظك، لا تنسَ أنّ الكثير من الطلبة والباحثين الكبار، لا يحالفهم مثل ذلك الحظ إلّا بعد جهد

ووقت؛ يؤمن الزميل علاّوي على قول مرّوني، وهو يهنئ يمود، ويستأذن منصرفاً على موعد لقاء قريب مع مرّوني.

يرشف مرّوني رشفة أخيرة باردة من فنجان شبه فارغ، ويأخذ يمود إلى ركن في القاعة.

ـ هه، سمّعني. . .

من أين يبدأ الحديث؟ من أين بدأ؟ نظرات مرّوني تبدو مشرعة على مداها والسمع، إنه الحضور، سيقول يمود لنفسه باستمرار، إن ما يميز أستاذه دائماً قوة الحضور في حديثه وإنصاته في حركته وسكونه، يميزه هذا الحضور القوي، يجعلك تتابعه، بيد أنه وهو منصت إلى تجربة يمود الأولى، يبدو في لحظته الأكثر حضوراً، مما لم يرَ مثله يمود من قبل لدى أستاذه؛ سيقول يمود إنه كان منفعلاً ومشحوناً حتى الأذنين ينشد تفريغاً، ويرى في مرّوني منصتاً جيداً منشوداً ومؤهلاً، سيقول يمود سامحني ربما أكثرت. . . ليشير إليه مرّوني بسبابة على شفتيه، يرجوه عدم التعليق والاستمرار في عرضه. . . مرّوني سمْعٌ مشرّع ونظرة تسع الكون، تتحسَّس نبض الحي والحياة؛ يستشعر يمود وكأنّ ما يهم الأستاذ أكثر من الكشف نفسه، تعابير الطالب عن أحاسيسه بأول خطوة على طريق إنتاج المعرفة، سيقول مرّوني في نهاية العرض، معلقاً على كلّ شيء، إنها أجمل فترة في حياة المرء.

ـ البحث؟

يسارع يمود متسائلاً، يردّ مرّوني في هدوء ونظرته تخترق الوجدان بداخل يمود، لا، ليس مجرد البحث، بل حياة الطالب

برمّتها، كلها كما هي وعلى ما يعتبر علاتها؛ ما بعدها مهما يكن شأنه، وسيكون أعلى سمعة وأرفه عيشاً وأرقى مكانة وقدراً، كل ذلك دونها بكثير، ومختلف الطبيعة والمذاق بما لا يُقاس، إنها على ما يبدو بها من علات، تبقى الفترة الأحلى والأجمل في حياة إنسان!

ينهضان يخطوان باتجاه الخروج، يد مرّوني على كتف يمود، يربت مشجعاً ينبهه إلى الاستعداد مع مجموعته لإلقاء عرض مفصَّل أمام زملائهم الطلبة.

(9)

واعلم يرحمك اللّه أن الأمر في أحوال الدنيا الفانية لا يسير دائماً في اتجاه واحد، بغض النظر في ذلك عن طبيعته من حقٍّ أو باطل، صواب أو خطأ، ذاك سنن الناموس العبقري العجيب في البشرية والكون جميعاً؛ وهذا ما جرى وصار في أمر السيرة الديصورية فيما اعتراها من كون وفساد، من أحوال ومآلات.

فاعلم إذن أن صاحبك الديصور، وقد أثار بسيرته في الناس ما أثار، والتفّ حوله واجتمع إليه من خلق اللّه محبّون وأعوان وأنصار، ما لم يلتف ويجتمع لأحد غيره من قبل ولا من بعد، قد حقق برجاحة العقل وروح التضحية والجد في خدمة الناس من قومه العدّاية والعاجزين والمستضعفين ـ ولو أنه يقول ويعتبر أنّ الكلّ في البلدة، هم قومه وهو خديمهم جميعاً، مهما كان موقعهم وتوجُّههم كما سلف ذكره ـ ما لم يدركوه قط من قبل، ولا كانوا ليدركوه أو يحلموا به مجرد حلم؛ كما أنهم رأوا في قوة ما صنع من عجزهم وضعفهم، ما لم يكن يخطر لهم ببال أو يدخل منهم في دائرة تصور أو خيال، وذلك كله واضح فصيح، فيما أصبح عليه حالهم مع «النايبة الودنية»، وما ارتبط بها من تحديد وإعفاءات، رغم أن ذلك

قد يبدو بعيوننا اليوم، ومن منظور عصرنا أنه قليل، وهو أكثر من كثير بالنسبة لما كان عليه الحال، في ذلك الزمن الديجوري.

واعلم كما قلنا أنّ الرأي في المجلس الأعظم، إن كان على خلاف فيما تحقق من ذلك، مرغماً بكيفية ما على تبنيه وسن القوانين في شأن تعزيزه وتطبيقه، فإنّ اتجاهاً في الرأي كان يرى وجهة أخرى، وبيانه كما يأتي:

لم يكن خلاف بين القوم في إدراك خطورة المآل مع توجه الديصور، وهو كما عبَّر عن ذلك صراحة أحد أعيان المجلس الأعظم، بقوله عن الديصور إنه يكتسح الفضاء من حولهم حتى ليبدو بقليل بصيرة وتوقع، أنه يضيِّق الخناق عليهم بالتدريج، حتى لقد يلف الهواء احتباساً عنهم؛ وهو يقصد ما نجمله بعبارة عصرنا، عندما يقال في مثل هذا المقام: إنه يتدرج في لفّ حبل المشنقة حول رقابهم، أو كما يقول الإعلاميون اليوم، إنه يسحب البساط من تحت أقدامنا (أقدامهم)، كناية عن إدراك منتهى المكر في التدبير الديصوري (ولنا عودة للقول في الموضوع نرجئه إلى حين)، لذلك كان هذا الرأي يميل إلى تغيير موقع الديصور، طبعاً بالارتقاء به إلى رتبة المتملكين، وهو شيء وارد وواقع في النظام التازودانتي، ويمارسه وينجح في ذلك العديد من العدّاية كما سلف ذكره، بل وإن القانون نفسه يشجع على ذلك أو لا يعوقه على الأقل؛ لكن الديصور كما هو معلوم، وكما يدرك ذلك ذووه وخصومه، لا يرغب في تغيير وضعه بهذا الاتجاه، وإن كان يعمل في الآن نفسه على تحصيل ذلك لأتباعه ومريديه، ولغيره من الراغبين في ذلك والطامحين إليه على العموم، لا مجاراة ولا مداراة، وإنما لأنه يرى ذلك من حقهم، بل

ربما يراه الحق الطبيعي لكل مخلوق، بما في ذلك من سائرة وطائرة وسابحة من خلق الخالق الرازق.

في خضم هذا المخاض من فكرة ونقيض، وما بين ائتلاف واختلاف، وإذ يمكن تلخيص التوجه العام للمجمع الأعظم أو قل في كليته، في أن تدبير الديصور من شأنه بالتأكيد خلق حساسية منافية، بل قابلية شديدة للتمرُّد والعصيان لدى العدّاية من بني قومه، ممّا يهدد استمرار النظام واستقرار البلدة، وذلك بأقل شرارة مغذية؛ فقد انتهى رأي القوم، رأي طائفة مخالفة منهم، إلى أنّ الأولى، بل الأصلح في العاجل والآجل، امتصاص الدافع بأن يُسار في اتجاه الديصور لا في معارضته، تطبيقاً للمبدأ الاقتصادي السياسي عندهم في ذلك العصر، وهو ما يقضي بأنّ مسايرة التيار أقلّ تكلفة وأرفع جدوى من معاكسته، وتجسيداً لحكمتنا اليوم في أنك تنال باللين ما لا تنال بالشدّ والقوة؛ وهكذا سلك القوم في نهاية الأمر اتجاهاً جديداً في التعامل مع الديصور ونهجه، فأشاعوا وعلْمُهم أنّ الأمر بالغه، كما همسوا وجهروا في سمع من يدركون أنه موصل بغير قصد رسالتهم، والفحوى أنّ يا هذا، يا من يزعم أنّ الكل قومه حتى المتملكين، ويعذرهم لأنهم يجهلون صالحهم وصالح غيرهم وقريتهم، بالمعنى العميق والإنساني للصلاح، يا من يضحي براحته الجسدية وطاقته الذاتية الفردية، في سبيل راحة العدّاية والعجزة المستضعفين من قومه، وهو عمل قليل الجدوى محدود الفائدة، يا من. . . ويا من. . . لم لا تسلك نهج القوم المتملكين، لا بالتملك وأنت عازف عن ذلك وحاشاك أن ترضاه، بل أن تدخل بينهم وتندمج فيهم، تسمع لهم ويسمعون منك، ترقى بأذهانهم إلى ما

لديك أو يرقون بك إلى ما لديهم، تدافع عن رأيك وإنْ كان راجحاً كما يبدو من اعتقادك ومن بعض مناسبات ومنجزات، فلن يكونوا لك إلا منصتين فمؤيدين، وبذلك تخدم قومك أجمعين: هؤلاء بإرجاعهم إلى جادة التعاون والصواب، وأولئك بالتمتّع بحقوقهم كافة، وخروجهم من نير ما تراه عسفاً وظلماً وتسخيراً. . .

قال، وصلت الرسالة بأكثر من صيغة ومن أكثر من طريق، واهتم الديصور لها واغتم، من عمق تخوف وحرج؛ ولم يقف الأمر في الغم والاهتمام على الديصور وحده، وإنما شمل دائرة محيطه ممن يؤمنون بفكره ونهجه، فتداولوا كثيراً في الأمر، وعلاوة على مبررات الدعوة إلى الانخراط في المجمع الأعظم، والواردة من أصحاب الرأي هناك بطريقة أو أخرى كما أسلفنا، فإن آل الديصور وصفوة أصحابه المقربين، كانت لهم مبررات في هذا الاتجاه، تدفع التخوف والحرج، وتدعو إلى الاختراق والاقتحام ما دامت الفرصة مواتية، وما دام الخصوم هم أول من يشرع الأبواب في وجهه، وقالوا هب أنك ستجد منهم معارضين لما تريد، فأسلوب المعارضة سلوك قائم فيهم قبلك، وانظر فيما حدث من معارضة قوم لتعديل القانون، فيما أدى إليه من ودنية محددة، مع إعفاءات واستثناءات يتمتع بها اليوم قومك العدّاية والمستضعفون، وهم يتطلعون إلى ما هو أحسن، ألا ترى أنّ الاعتراض على ذلك في المجمع الأعظم لم يحُلْ دون تطبيقها وخروجها للوجود؟ وهب ما هو أسوأ من ذلك، وهو أنك لم تنَلْ مرادك لا من بعيد ولا من قريب، وسدت أمامك السبل لأي تغيير لصالحِ ما ومَن تريد وتراه الحق الأحق، فما يمنعك أن تترك كل شيء وتعود لصفك ممّا كنت فيه قبل ذلك؛ وقالوا لا

تردّد ولا تريث، فالإقدام الإقدام، والاختراق الاختراق، والاقتحام الاقتحام، وهذا ما سيكون ونرى. . .

وكان يا ما كان، من دورة الفلك والزمان، وإذا صاحبك الديصور يحلّ مبجلاً مكرماً في أعلى مقام، بين ذوي الحجى والزمام، مدبراً مشيراً في المجمع الأعظم، وكان ذلك حدثاً أي حدث، وصدى أي صدى، سواء في دائرة أهل المجمع أنفسهم، أو في دائرة أنصار الديصور مريديه وتابعي نهجه؛ ولم يكن بغير طائل، أو بما يقلّ عن تطلعات القوم عدّاية ومتملكين، فكلهم كان ينتظر من نهج الديصور ما يفيد: هؤلاء لما يصلح حالهم ويزيل عنهم ضروب الغبن والعسف، وأولئك بما يتاح لهم في ظلّ ذلك من سكينة واطمئنان إلى الحال والمآل، باندماج الديصور في مؤسستهم، وبالتالي انتفاء خوفهم من أحداث مفاجئة وتقلبات، كانت هاجسهم المقيم منذ أدركوا توجه الديصور، وقدرته على تنظيم القوم من عامة الناس وحتى خواصهم، والتحكُّم في ميولهم إلى حيث يرى أو يريد؛ والديصور نفسه بعد التردُّد والتحرج، فإنه ما يكاد يأخذ مكانه بين ذوي القرار في المجمع المعظم، حتى تتفتح سريرته وتنقدح بصيرته على آفاق جديدة للعمل، ما كان أجهله بها؛ ومن ثم لم يستشعر فحسب أهمية ما وصل إليه وأصبح متوافراً له من إمكانات التأثير فحسب، بل إنه أصبح يستشعر الندم على ما ضاع وضيّع من جهد ووقت، سواء من قبله أو قبل غيره على حدٍّ سواء، قبل الآن. . . إنه يفكر كثيراً فيما ضاع حقاً، أو حتى ما تحقق بمعادلة أغلى ثمن مقابل أقل شيء، علاوة على خسارات إضافية مصاحبة.

ما يستشعره الديصور، امتداد آفاق العمل لصالح قومه جميعاً،

وما يستشعره أكثر، هو النظرة القبولية والتشجيعية التي يراه بها، ويعبر عنها إزاءه أهل المجمع الأعظم. ويمكن القول إنه كان يتوقع عنف اعتراض وتنافس، وشراسة صراع وتناقض، لكن أي شيء من ذلك لم يكن ولم يحدث، أو قل ما حدث هو العكس، ما عدا بعض مناقشات رغم حدَّتها فهي لم تتجاوز استفسارات عن جزئيات وتفاصيل، أو أنها رؤى مخالفة ومختلفة عمّا يطرحه؛ لكنها في النهاية، وهي تستوجب الردّ والإفحام، لم تكن لتقطع علاقة، أو تستثير عدوانية سلوك، ولا حتى سلاطة لسان أو نابي لفظ؛ لا، وإنما هي لغة مؤدبة مهذبة، من معجم ينمُّ عن تودُّد ومحبة، وكأن العلاقة بين الديصور ومعارضيه قل مناقشيه، ضاربة في التاريخ، وثيقة الوشائج، وأكثر من ذلك أُخذ الديصور أخذاً، بطريقة التحدث، ونظام الكلام وتنظيم الأفكار، وبخاصة غياب الانفعالات وضروب الفوران، على نحو ما يعهد في أوساط قومه العدّاية الأولين، أو لدى غيرهم في حياة الناس اليومية، حيث يتعاركون ويتشاتمون، ويلمز بعضهم بعضاً في أبسط مناسبة، وبدون مناسبة.

يلاحظ الديصور ما يجري حوله في اهتمام جديد كلّ الجدة، الناس في المجمع الأعظم، لا تكاد تميز لهم مودة من عداء، ولا إقبالاً من تنكُّر واستنكار، ويبدو أنّ الملامح التي يمكن أن يزفوا إليك بها أسوأ ما يحزن ويؤسي، هي نفسها الملامح التي ينقلون إليك بها ما يبهج ويفرح؛ أكثر من ذلك، يبدو أن لا شيء هنا يبدو مسيئاً سيئاً أو محزناً حزيناً، فملامح بسمة وإن تكن بعيدة متنائية، فهي دوماً تحوم ولا تفارق سحنة متحدث منهم، مهما كان الموضوع والمناسبة، وكم تمنى الديصور أن تكون مثل هذه الصفات في بني

قومه الآخرين، وهم على ما هم فيه من فجاجة وغلظة في الحركة والخطاب، بعضهم لبعض، حتى لتسمع أحدهم وهو يحيي صاحبه متودِّداً، وكأنه ينتهر أو يتوعد لقوة ما يصدر عنه من غلظة صوت، وطائش ما يرافق من حركة؛ آه لكم تمنى ويتمنى الديصور، لو يستعير لقومه أولئك من صفوة قومه هؤلاء، ممّا يرى هنا في المجمع الأعظم، كم تمنى ويتمنى بعض المظاهر والملامح من ليونة طبع ومعالم بشر مع لطف حركة، تخالط منطق قومه أولئك، تلون وتلين من سلوكهم وعلاقاتهم.

ويرى الديصور أنّ القوم هنا في المجمع الأعظم، بارعون بارعون، مبهرون مبهرون، وإلى أقصى الحدود في الخطابة والإقناع، فما يتناول أحدهم الكلام، ويمضي في بسط أفكاره حول الموضوع، حتى تعتقد أنك معه، أو أنّ الحق معه، أو قل إنك لا تتردّد في أن تدرك أن سرَّ الإقناع في كلامه، نابع من عمق ما يؤمن به، وتحدث نفسك بأن الناس جميعاً، كل أمة بني آدم وحواء، يجب أن تُصاغ على شاكلة هذا المتحدث في اقتناعه وإيمانه، وفي سحر تبليغه وإقناعه، وتشعر صادقاً مع نفسك، أن من المحال ألّا يوافق المجمع على تأييد ما يشير به الرجل وطرح ما يطرح؛ وبالفعل ما يكاد ينتهي المتحدث من كلامه، حتى تتلوه عاصفة تصفيق، وهي عندهم دلالة الموافقة وآية التأييد، فينشرح صدرك لما ترى من تطابق ما بين لسان وضمير، وتناغم قول وموقف، وتكامل ما بين فرد وجماعة، وتجاوب ما بين إلقاء وتلقي، ومستوى فهم واستيعاب، وينفتح خاطرك لوحدة الحق والحقيقة التي لا تتحمل تعدداً ولا تجزؤاً وانقساماً، والتي تتوَّج هنا بالبروز الكامل والوضوح الشامل، وبما

تحدثه حولها من وفاق واتفاق؛ وتتمنى في عمق ذاتك، وربما تهمس به لنفسك، ما بال قومي أولئك البسطاء، لا يكادون يفلحون في تحرير صوت من عقدة فكرة ولسان، فتراهم يهمهمون ويغمغمون، عامدين إلى الحركة والإشارة، محاكين أصوات الطبيعة، يتمِّمون بها بيانهم حيث لا يبينون ولا يفيدون.

والعجيب العجيب وأنت في غمرة هذا الانبهار بما رأيت رأي العين ولمست عين اللمس الحي المجرب، أنك ما تلبث أن ترى ثانياً ينبري يناقش سلفه ويعقب على قوله، فإذا هو أبلغ وأفصح، وهو الأقوى حجة، بل ويبدو الأقوى إيماناً بما يعرض ويُعارض في اتجاه مخالف، يحلّ خيطاً خيطاً ما أبهر سلفه في نسجه، أو قلْ يهدم لبنة لبنة ما بناه سابقه بروية ومنطق، وإذا بك بطبعك تميل عفواً وطواعية حيث صاحبك هذا يميل، ترى رأيه الأصوب، وحجته الأولى، ومنطقه الأحرى والأحق أن يُتبَع؛ وما تكاد تنتهي إلى خلاصتك هذه، حتى تجد يديك تسبقانك في رفد عاصفة التصفيق المنبعثة من كافة أرجاء صرح المجمع... يا للّه كم عليك أن تتعلم وتميز، وأنت ترى المتحدث، كغير العابئ بما يتوج به كلامه من قبول، كسابقه في هذا الشأن أيضاً، يتحرك عن المنصة نحو مقعده، يرمي بالتفاتة تحية وملامح بسمة ودّ إلى صاحبه الذي كان ينقضه نقضاً منذ لحظة، وكأن لا شيء قد حدث أو صار، وكم تتمنى لو كان قومك أولئك على شيء من طبع هؤلاء، وهم يخلطون العبارة بمزيج الدم والعرق منهم، فتخرج لاسعة أو جارحة، تلهب من ومض ومضاء سامعاً ومتلمساً.

وما يكاد الديصور ينتبه إلى ما يجب إن يستنتج من خلاصة،

حتى يأخذه عن نفسه متحدث ثالث، لا يقلّ إعراباً ولا حجة عن سابقيْه، يحلّل من كل الوجوه موضوعه، الموضوع نفسه الذي أبلى فيه صاحباه كلّ في اتجاه، ليمضي هو في اتجاه ثالث محاوراً لما أتيا به قبله، مفنداً أسانيد كلٍّ منهما، مقيماً لطروحه صروحاً محصنة من وقائع وتصورات، ومتأدياً إلى نتائج متماسكة من مقدمات، وإذا أنت لا تملك إلا أن تكون مع الحق والحقيقة حيث بناهما وأبان عنهما، وإذا أنت معه فيما إليه توصل، وما منه تنصَّل، وإذا بك تنغمر في تتويج تحيته بعاصفة التصفيق، بل إن بعضهم ينتصب واقفاً يحيي صاحبك الأخير، فينتصب واقفاً غيره وغيره، فلا تملك إلا أن تقف، بل تجد نفسك واقفاً بدون أدنى جهد أو حركة، وبكامل المتعة والارتياح، تحيي كسائر المجمع حولك وبكل حرارة اليد والقلب واللسان، انبلاج صبح الحقيقة البيضاء، وانبثاق نور الحق الصراح؛ وترى بعد لأيٍ، كيف ترتفع قليلاً بغاية الهدوء، لتضرب بلطفها مطرقة الذهب الخفيفة المجمعية، على صفحة طاولة صقيلة، مؤذنة بحُسن الختام، لينتفض القوم سراعاً مبشرين مستبشرين، يعانق بعضهم بعضاً هنا، يتحاضنون هناك، يتضاحكون بين ذلك، يتسالمون فوق ذاك، يتنادون إلى مأدبة، يتداعون إلى لقاء، كلهم إخوان صفاء، وإخوة أشقاء بلا استثناء؛ لماذا لماذا، يثمر النقاش عند بني قومي أولئك، تنكراً ونفوراً من بعض لبعض؟ لماذا لماذا، ينتهي الخلاف بين بني قومي أولئك إلى تعاسة وسوء منقلب، بينما قومي هؤلاء هنا، لا يضيرهم ولا يضرهم شيء من ذلك، ويمضون في نعيم صفو وصفاء؟

يعجب الديصور في نفسه، وهو الذي كان يتهيب أن يُعرِب عن

أفكاره خارج مجال قومه أولئك، كيف أنه سيُعرب عنها وببيانهم لقومه هؤلاء المجمعيين العظماء، يتعجب من نفسه في نفسه، كيف أنه ولم يكن له سابق عهد بتجربة في تنظيم القول وترتيب الخطاب وسبك الأفكار، على نحو ما يفعل الناس هنا، وإذا به وقد كان يتهيب ويتحرج، يجد الكلام ينساب منه عفواً تلقاء لسان أوشك أن يقول إنه غير لسانه، أو غير ما عهد فيه من لسان، لا بل ذهب به الظن أنَّ أحداً ما يلقنه أو يتحدث به فيه نيابة عنه، ووصل به الأمر أن توقف في درج حديثه عن الحديث برهة ليتأكد من المتحدث من هو، أهو أم غير هو؟ وما كاد يفعل تلك البرهة حتى غمرته، غمرت زوايا المجمع وقببه العالية، مترددة متماوجة عواصف الهتاف والتصفيق، بل وقام بعضهم يحيي يشجع ويستزيد، ليقوم غيره يحيي ويشجع ويستزيد، فلا تملك بدورك إلا أن تترك العنان لبلاغتك التي تنساب عفواً دررها، تتناثر نضداً فرائدها وغررها، لا تدري لها مأتى ولا مذهباً، وأنت في غيبوبة الإبلاغ والتبليغ، خارج نطاق محسوس وإحساس، تلتقط الصدى من كل حدب وصوب، مرتقياً بك عالي المراقي، متسامياً بك سماء الشعور، ضارباً جناحُ طيرك في رحاب الفضاءات العلى.

* * *

قول في الحال التازودانتية:

ولنا وقفة فيما سبق ممّا أجلنا تفصيله وتفسيره، وهو المتعلق برأي القائل في المجمع الأعظم، ممّا ترجمناه بلغتنا وحسب الدارج من تفكيرنا ومعتادنا بأنه يعني: «لف حبل المشنقة حول رقابنا. . .»

ففي هذا الباب، نذكر أنّ القوم في تازودانت وإبان تلك العهود السحيقة، لم يكونوا قد اكتشفوا آلية الشنق، بل يبدو من انعدام ذكر السجون في أدبياتهم، ووقوف الكتب المتحدثة عنهم عن التلميح إلى شيء من ذلك، أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً منها، أو أن فهمهم للحياة لم يكن يجيز لهم ذلك، على نحو ما هو معهود عندنا اليوم في عصورنا الحضارية السعيدة، بل واعلم رعاك اللّه، أنك لا تجد في تواريخ تازودانت وما جاورها من قصر وعصر، ذكراً لعقوبة إعدام أو لأية عقوبة جسدية مشابهة، ما عدا ما يفترض أنه يحصل في الحروب من اقتتال، وهي نادرة الذكر، وتعزى إلى عصور متأخرة من التاريخ الذي نتصفحه في سيرة الديصور، وعلى كل حال، فإن ما كان يحدث من ذلك أثناء اقتتال طائفتين مثلاً وافتراضاً، يقف عند حدود المعركة، ولا يتعداها لما عرف في العصور التاريخية الوسيطة والحديثة على الخصوص، من غَنْم وسبي واسترقاق للخصم وما له وإليه.

ولك رعاك اللّه أن تتساءل مع نفسك وفي خفي سريرتك، أو تتهامس به وأنت قاعد سامع لراويك الفكاوي الضعيف هذا التهامي... أقول، لك أن تتساءل: فما بال هؤلاء القوم كيف يفضّون نزاعاتهم بدون عقوبة وحروب تنتج غالباً مهيمناً مستعبِداً (بالكسر يرحمك اللّه) ومغلوباً خاضعاً ومستغَلاً (بالفتح فتح اللّه عليك)؟ لك أن تسأل ذلك، والجواب فيما هو مستخلص من كتب الحكمة، أنهم كانوا عند الاختلاف، سواء من ذلك الفردي أو الجمعي في القرية الواحدة ما بين مكوناتها، أو ما بين سائر القرى، إنما يُعمد إلى الحدّ من تبادل المصالح فيما بين الخصوم، وهو ما

يعني قطع أو تجميد خطوط المصالح المتبادلة، والحدّ من الرواج الاقتصادي أو منعه كلية إلى حين؛ وهو بيان ما كان عليه الحال في تازودنت، بما يرافقه من صور ظلم وتعسف بمنظور عصرنا، وحتى من منظور الديصور في حق قرية من فئة عدّاية وأخرى متملِّكة، وكل ذلك دون أي ذكر لمؤسسات الشنق والسجن والإعدام؛ وقصارى ما كانت تُصدره المحاكم، سواء في حالات عدل أو غير عدل، غرامات وأداءات من البعض للآخر، في شكل خدمات مختلفة.

وتحسن وقفة العاقل هنا ليقول في دخيلة ذاته ولنفسه: إنّ في هذا النظام وأمثاله، من نماذج تنعدم فيها عقوبات جسدية مهما بلغ شأنها، وكذا انتفاء مؤسسات حبسية، أو عقوبات من مستوى السجن والنفي ومختلف أفانين الإعدام، ما يدل على تطور في البشرية، ترقَّت فيه إلى هذا المستوى فيما بين الخصوم والأطراف، مهما كانت نوعيتها وطبيعتها، وهذا نظر مشروع وافتراض قوي، وإن كنا لا نجد الدليل عليه، إذ يمضي العاقل في الاستنتاج بأن هذه المرحلة المتحصلة في عصر الديصور كما وصفنا، لم تنتج عفواً أو صدفة أو أمطرتها السماء عرضاً، وأنبتتها الأرض غفلاً، وإنما يفترض أن ذلك حدث بصراع ودفاع، ولنقلها صراحة بتقاتل واقتتال... ربما واللّه أعلم، لكن الكتب لا تذكر شيئاً من ذلك، ونجد في السيرة الديصورية ما يجعل مجرياتها وكأنها فطرة من طبيعة عصرها (هكذا)، وهو لا يستقيم كما رأينا؛ أما ما يستقيم فهو أنّ حلقة تبقى مفقودة في هذا التطور أيها السادة الكرام، والسامعين من ذوي الألباب والأفهام.

ويقول العبد الضعيف إلى ربه، المفتقر إلى رحمته المترجي لنور

هديه وهدايته، إن تلك الحلقة المفقودة موجودة ومعروفة لمن يتدبر ويعتبر، ويقول العبد الضعيف ويكرِّر إنها موجودة يا سادتي، ومذكورة ذكراً واضحاً في الكتب لمن يتدبر ويفهم، ولا أطيل عليكم في سردها، فهي باب آخر سنصله آجلاً بحول اللّه، وأكتفي بالإشارة هنا إلى الحادثة الكونية المتمثلة في الطوفان، نجانا اللّه وإياكم من مثيله، فبعد الإغراق في اليمّ الكوني الماطر مع العصف والظلام، يكون العالم وما فيه ـ والعلم لصاحب العلم ـ قد مسح مسحاً ما عدا... ما عدا ما تعلمون وما لا تعلمون، وبذلك بدأ خلق جديد، يتدرج في تطور جديد، إلى أن وصل إلى عصرنا الذي نتحدث عنه في القرية التازودانتية، وسيرة صاحبنا الديصور في أهله وعصره.

(10)

تقافزٌ بخفة قامات، تطاولٌ في طموح إرادات، تجاذبٌ في قوة ولطف أحلام وتصورات. . . جموع طلبة الكلية والطالبات، يداهمهم الهجوم ممّا وبما لم يكن منتظراً، ركائز الإضراب أو عيونه اليقظة الرقيبة من الطلبة، كانوا في مواقعهم حراساً أمناء على مداخل المؤسسة من خارجها، بينما كان بعضهم أمعن وأبعد عن المداخل، ملتزمين زوايا وأركان تؤدي إلى الكلية من اتجاهات شتى، في مواقع خلف خط قوات التدخل المرابطة حول المؤسسة، مكلفين بمهمة الإشعار عند أي مؤشر إنزال لقوات إضافية، أو جديد في التحرك المعادي لتغيير الوضع، وأيضاً لتسلم الأخبار من نظرائهم على المواقع المماثلة، بالنسبة إلى مؤسسات جامعية أخرى، والإبلاغ إلى من يجب داخل المؤسسة بالإشارات والوسائل المتفق عليها؛ الوضع غليان بين جدران المؤسسة، تناظره غليانات أخرى في مؤسسات مماثلة، غليان وحركات دائبة للتنظيمات الطلابية، في يوم دراسي حول الوضع الجامعي والمطالب الطلابية، والتضامن مع الشعب الفلسطيني، علاوة طبعاً على المضمن من النضال التقدمي الديمقراطي.

اجتماعات لعدة لجان في مختلف القاعات والساحات

الداخلية، تجمعات خطابية في انتظار صدور آخر التعليمات؛ الوضع استنفاري غير مستقر، بدت أولى بوادر تغيُّره منذ باكر الصباح، عندما بدأت قوات ترصد مداخل المؤسسة من قرب، تضايق الطلبة الوافدين في إيعاز لهم، بأن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا، أو مساءلتهم عن المتوقع من نشاط؛ أنباء كالعادة تكون قد تسربت بقنوات استخباراتية، عما تهيئ له التنظيمات الطلابية من إضراب، وخروج في مظاهرة، بل مظاهرات من عدة مؤسسات في وقت واحد، للالتقاء في نقطة الشارع العام؛ وبتوافر كل شيء داخل الكلية قبيل منتصف النهار، بدأ طواف بعض مجموعات من الطلبة على بعض قاعات المحاضرات، لدفع زملائهم إلى المشاركة في الجمع العام، سواء منهم المتجمعون فيما بينهم في الساحات، أو المتحلقون حول محاضرات بعض الأساتذة من البعثات العربية أو الأجنبية، وهم ممَّن لا تسمح لهم ظروفهم إظهار موقف داعم مثل زملائهم من الأساتذة المغاربة، كل الطلبة مدعوون للاجتماع في القاعة الكبرى.

غليان وحركة مكثفة في كل اتجاه، رواج كتلة من خلية نحلٍ فقدت قطبها أو تتماوج حوله، باحثة له عن قرار؛ ومن أعلى سطوح المؤسسة ذات الطابق الواحد، أفراد من الطلبة يراقبون في خفية ومواقع متفرقة، ما يجري خارج المؤسسة، في انتباه إلى أية إشارة يتلقونها من نقط زملائهم على البعد وراء القوات المحاصرة، جملة ركائز الإضراب من طلبة حراسة المداخل، عيونهم على حركات القوات المواجهة في يقظة تامة للإشعار وردّ الفعل بالطريقة المناسبة، حتى مسالك الإدارة داخلياً، كانت تحت السيطرة من

عيون الطلبة ترصد أيّ تحرك مشبوه لعناصرها، علماً بأن المداخل العامة موصدة وليس إلا شفافية الزجاج المدعم بأذرع معدنية غليظة، ما يسمح بزاوية عريضة محدودة، تنبئ بما يجري وراء المؤسسة وداخلها.

ما بين فتح الصدور للقوات المحاصرة بمداهمتها لتجاوز موقعها إلى الشارع، وتأجيل المظاهرة اكتفاء بالإضراب المحدود في نطاق المؤسسة، تقاطعت واختلفت الآراء من أقصى طرفي الحماسة والتقاعص، ليعلو صوت مصطفى من منصة التسيير مستلماً الميكرفون لأول مرة في الجمع، يعلو صوته لا بقوة صياح أو تشنج، وإنما بالهدوء والعمق الآخذ، يقول: أيها الإخوة، لا نتعجل ولن نتعجَّل، والقوات المحاصرة أو شبه المحاصرة، إنما هي لعبة استفزاز، لن نستعجل بقرار الخروج إلى الشارع الآن، ولا بانفراط الجمع أو مغادرة الكلية، لسنا وحدنا في الميدان ولا نزال على اتصال برفاقنا، والأوضاع مماثلة في مؤسساتهم؛ نستمر إذن في إضرابنا وتدارس موضوعاتنا.

لم يكن ذلك كافياً لإسكات أصوات من هنا وهناك، لهذا الرأي أو ذاك؛ بَيْد أنّ مصطفى يظلّ هادئاً مشيراً بطلب السكون، لينطق عباراته السحرية كما يذكر يمود ذلك ويكرره باستمرار، بل ما كان ينتظره دائماً من مصطفى هو هذه الفكرة الساحرة، في كلماتها القليلة المغنية عن كلِّ إطناب، والوافية بكل غرض: ثقوا أنهم الآن في الموقع الأصعب بحصارنا وانتظار ردّ فعلنا المباشر، لن نستعجل بردٍّ فعل آني، دعونا نستفز المتربِّص بنا، نعزف على أعصابه بنسيانه إلى حين، مع التزام كل اليقظة.

فعل السحر تتعالى به التصفيقات وصفير التأييد، يتراجع مصطفى باتجاه مكانه على المنصة، مشيراً بطلب الهدوء، والاستماع إلى تعليمات اللجنة التنظيمية، لتنتصب مجيدة بدورها تبلغ بعض المقرارت التنظيمية إلى إشعار آخر، معلنة في النهاية أنَّ مقصف الكلية تحت تصرُّف اللجنة الطلابية، لتهيئ مأكولات خفيفة لليوم.

إلى ما بعد منتصف النهار لم يتغير الوضع في شيء، لا هنا ولا هناك في أية مؤسسة، الوضع مشابه: قوات ثابتة مرابطة في الخارج، المراقبون والطلبة الحراس في مواقعهم خارج المؤسسات وداخلها، يتناوبون بانتظام على فترات، بينما اجتماعاتهم في الساحات الداخلية والقاعات الكبرى، آخذة إيقاعها في نقاشات سياسية اجتماعية عامة وطلابية خاصة، تتقاطع أحياناً وعلى فترات بفورة أناشيد وعبارات سجعية حماسية، بينما تستمر الهيئات القيادية الطلابية المسؤولة، في اجتماعات مفتوحة.

لم يتغيَّر في الوضع جديد هام وعقارب الساعة باتجاه العشي، بيْدَ أنّ رواج أخبار عن اتصالات مع السلطة، أصبحت همهمات شبه مسموعة على ألسنة الطلبة، وفي لمحات نظراتهم... ماذا يجري؟

يتناهى الأمر إلى الهيئة المجتمعة، مجرد إشاعة اختبارية يطلقها الخصم لجسّ النبض، وهي دلالة أيضاً على نفاد صبره؛ يقلِّل البعض من أهمية الموضوع، ويرى مصطفى ضرورة التصدي للإشاعة وإحباطها، وفي الحين ينتدبون مجيدة ويمود، لإبلاغ الطلبة بحقيقة الإشاعة ودلالتها، مع التعليمات الضرورية باليقظة، وتلخيص محتوى النقاشات الدائرة، لإدماجها في صياغة مشروع البيان، تبادر مجيدة بإبلاغ جمع الطلبة في القاعة الكبرى بحقيقة الإشاعة، وأن لا

شيء تغير لا في مؤسستنا هذه ولا في غيرها، ومن ثم تنتقل إلى سرد برقيات الدعم والتأييد الواردة من منظمات مختلفة، من داخل وخارج الوطن، ليتلوها بعد ذلك يمود يطلب الاستماع إلى التقارير الأولية من أجل خلاصة للنقاش، في انتظار مشروع البيان العام، وما يكاد يفتتح أول تقرير، حتى يأتي من يخبر بجديد اليوم: فعلاً، افتتحت السلطة في هذه اللحظة قنوات اتصال بالقيادات الطلابية، إذن بسرعة يدرك الخصم أنَّ فقاعة الاختبار الأولى لم تُجْدِ نفعاً، ليدخل مباشرة على خط الاتصال، حتى لا تتجاوزه الأحداث.

يهلِّل الجمع، وتتعالى الأناشيد والعبارات الحماسية، وتتوالى الأحداث، الشروط الأولى للتفاهم مرفوضة، اقتراح بأنْ يخلي الطلبة الكلية فوراً متفرقين، مقابل عدم التعرُّض لهم بأذى، مع التزام القيادة بعدم إصدار أية وثيقة، أو بالأحرى عدم إصدار بيان سياسي، شروط كانت مجرد إلقاء حجر في البركة الراكدة، معناه إفراغ اليوم الطلابي من محتواه، الخطوة الثانية تأتي رامية إلى إمكان القبول بإصدار تقرير (نقابي/ علمي) عن اليوم الدراسي، مع ما تقدَّم اقتراحه من قبل، ويقول مصطفى بسخرية مبطنة، إنَّ هذه المناورات في بدايتها ولا تزال بعيدة عن القصد الحقيقي؛ وتأتي بعد الرفض خطوة تالية رامية إلى عدم التدخل، فيما تصدره أو لا تصدره المنظمة الطلابية، متحملة شأنها ومسؤوليتها في ذلك، إنما أخيراً، يضطر الخصم إلى الكشف عن أوراقه، ويأتي القصد الحقيقي في المضمر المسكوت عنه في كل ما سبق، متمثِّلاً في اقتراح أساسي محدَّد ومحدود: عدم التجمع خارج المؤسسة، عدم التوجه إلى الشارع باعتبار ذلك يمثِّل خطاً أحمر.

يُفتح نقاش جاد وتختلف الآراء بين القيادات الطلابية، عن جدوى الدخول في مواجهة مباشرة من عدمها، لا مَن يقول أو يفترض أن النتائج المادية المباشرة للمواجهة في الشارع، تأتي نصراً للحركة الطلابية، غير معقول بتاتاً، إنما نتائجها المتوسطة والبعيدة تبدو إيجابية على التنظيم الطلابي أولاً، وعلى تعرية الوضع العام في البلد ثانياً، وفي اكتساب تأييد الرأي العام الوطني والدولي أخيراً.

في انتظار ما يتقرَّر من خلال لجنة جانبية فوّض إليها البت في الأمر، على ضوء ما بدا من ميل إلى المواجهة والتصعيد، بدأ نقاش البيان العام، لتظهر بؤر الخلاف عاتمة غائمة بين تعدد الفصائل الطلابية واتجاهاتها، تتعمق نقط الخلاف وتنفسح، لتعود فتلتئم وتضيق ثم لتطفو من جديد.

فجأة تعلو فرقعات وترتفع صيحات خارج القاعة، يداهمهم الهجوم جميعاً، يداهمهم بما لم يكن منتظراً كيفاً وزماناً، يبدو واضحاً أن الخصم يتحسَّس تطور الأحداث بقرون استشعار دقيقة وعيون، ويصرّ على استصدار ردِّ فعل طلابي قبل غبش الغروب، كأنه لا يريد ليومه استطالة أكثر، أو يخشى أن يولج ليله في النهار؛ يباغت الهجوم جموع الطلبة محدثاً إرباكاً واضطراباً، حتى الأصوات المتناهية بين مستغيثة ومتحدية، لا تعمل أكثر من أن تزيد المشهد إرباكاً وارتباكاً. . . ماذا؟ لا يتبين شيء واضح مميز، عدا حركة اضطراب في عموم الطلبة، تجعل الهيئات القيادية توقف ما كانت منهمكة فيه من إعدادات لتواجه ما يجري، ماذا؟ على رأس الساحة الوسطى للكلية بمواجهة المدخل الرئيس، أصبحت واضحة أشباح أفراد القوات المحاصرة وهي ملاصقة لزجاج الباب، مع اختفاء

أشباح أفراد الطلبة من ركائز الإضراب من مواقعهم هناك دون إشعار، ممّا لا يفسَّر بغير إزاحتهم عنوة، واحتمال أن يكونوا قد ألقي القبض عليهم، وكلّه ينبئ عن استعداد كامل من القوات لاقتحام المبنى.

يقف مصطفى وأفراد القيادات الطلابية مستطلعين على رأس الجمهرة الطلابية، عند نقطة الدرجات المرتفعة في أقصى الساحة مقابل الباب الرئيس، يتأكد الوضع بأنَّ تصميماً آخذاً في التصاعد بالإصرار على اقتحام المبنى من قبل القوات المحاصرة في الخارج، تبدو قيادات الطلاب مأخوذة بالمفاجأة، تتدبر على نحو عشوائي مستعجل ردّ الفعل المطلوب: الوقوف مواجهة، أم الالتجاء إلى المباني الإدارية والقاعات، السطوح والقبو...؟ في هذه اللحظات أمام تعذُّر فتح الباب، تسمع فرقعة الزجاج الثخين خلف القضبان المعدنية، محاولة لإيجاد منفذٍ إلى فتح الباب من طريق ثغرة الزجاج المكسور... ثم إذا بِوابِلٍ من كرات ثقيلة تتقاطر من السماء، متجاوزة حواجز المبنى، بقوة رمي من أعلى، لتتدحرج على أرض الساحة بين جموع الطلبة، مُصدِرَة كتل دخان كثيفة حريفة حارقة في الحلاقم والعيون... تضطرب حركات الجموع الطلابية مفزوعة، وترتفع أصوات تحذير مختلطة بنوبات سعال؛ وحده مصطفى تطير به قامته الفارعة في خطوٍ طائر لا يكاد يلامس الأرض، يجني الكرات الدخانية من هنا وهناك، ويُعيد رميها إلى الأعلى بأقوى ما يستطيع، رميها إلى مصدرها باتجاه القوات خارج المؤسسة، يكرر الأمر أكثر من مرة ومرة، وكأنه مجذوب في فورة لا إحساس منه بكائن أو خطر مهدد، عندما تحضنه إليها بعنف مجيدة منتزعة إياه، تجرّه باتجاه القبو.

لم يكن ليبصر شيئاً لكنه ما يفتأ يسأل عمّا يجري، عيناه في هائل انتفاخ واحتقان وسيل دمع لا ينقطع، يُصرِّهما ويضغط متكتماً عن لسعات ألم حادة تنبئ بها تقلصات ملامحه، تحضنه احتضاناً في حجرها مجيدة، بعينين لا تخلوان من تورم خفيف، تمسح سيل دموعه، ساكبة على وجهه دفقات من قنينة ماء.

ينهمك يمود في توجيه الطلبة إلى حيث يمكن الالتجاء في انتظار ما يجد من هجوم، تسمع من بعيد طلقات وأصوات متداخلة من خارج الكلية، جموع طلبة تسارعوا ينطون إلى الشارع، بالقفز من أعلى مدخل السيارات المجاور لمبنى الكلية، ليتوجه الهجوم إلى مطاردتهم، للإمساك بالبعض، وعلى الخصوص للحيلولة دون تجمعات الشارع، باب الكلية الرئيس أصبح مشرعاً بيدٍ من داخل الإدارة ما دامت القوات لم تقتحمه عنوة، حدث ذلك في غمرة الارتباك، وغيبة من عناصر المراقبة الطلابية؛ أصبح الباب مشرعاً على الفضاء أمامه، بعد أن توزَّعت القوات خارجه ومن حوله لملاحقة القافزين من أطراف أخرى للمؤسسة؛ ينفرط حبل الضبط والانتظام، وكأنّ قوة موجهة تعمل في دفع جموع الطلبة لاكتشاف المنافذ، وابتداع أساليب التسلل إلى الخارج، أو قُلْ هي خطة قوة خفية بأيدي دخيلة غير مرئية، تعمل على توجيه إلى مألوف وغير مألوف من هذه المنافذ، وانفتاح الباب الرئيس ذاته على مصراعيه يدخل في هذا التدبير، خطة لا تقف منتظرة أن يتصرَّف بها، تتصرف من ذاتها بفكّ الحصار على طريقتها في موعد محدد دون اقتحام البناية، متيحة، بل موجّهة إلى آليات الخروج، ومسهِّلة منافذ النجاة، لملاحقة بعد ذلك، تعوق كلّ تلاقٍ أو تجمّع ممكن في الشارع العام.

ينفرط حبل النظام والانضباط داخل الكلية، وتبقى مجموعة القيادات مع ثلة من جموع الطلبة، بظهر مكشوف للخصم كما يقول يمود. . . الظهر والبطن مكشوف في واقع الأمر، ولا شيء يَحُوْل دون دخول القوات من جوانب مختلفة، للإطباق على ما تبقى من طلاب وقيادات، ولماذا يطبقون عليهم تتساءل مجيدة؟ ما الحاجة إلى ذلك، ما دام اليوم بتظاهراته قد انتهى كما يشاؤون، أم تراهم يريدون شهود إثبات وشهداء!؟ في شدة آلامه المحرقة مصطفى، بعينين متورمتين لا تزيدان إلا انتفاخاً، يعلق أنّ اليوم انتهى حقاً، ربما كما يشاؤون، ربما العكس تماماً أو بعض الشيء؛ إنما عملنا مستمرٌّ، أمامنا بعد اليوم الغد وما بعده، أمامنا الزمن وكل المستقبل بأيدينا.

يتحركون ثلة قيادة وطلبة في هدوء، باتجاه الباب الرئيس المشرع على همود كالموت يضاعف منه مقدم المساء، ذراع مصطفى على كتف مجيدة في خطوٍ متثاقل، فعلاً يعمّ الهدوء جوار الكلية الخارجي كهدوئها الداخلي، كأنما لم تكن منذ فترة ساحة حرب حقيقية، أو بالأحرى قلعة محاصرة على مَن فيها، تماماً كما يدرسون في التاريخ، عن حصار المدن والحصون، يقول يمود: الفَرْق؟ إن كان ثَمَّ فرقٌ فهو في سلاح المحاصِر والمحاصَر معاً، وفي قِصَر المدة لقِصَر صبر الطرفين. . . إنْ كان ثَمَّ فرق؛ وإلا فيبقى معدن الإنسان في طبيعته العدوانية التعسفية، كأن لم يتغير منه شيء، رغم العلوم والتطور والحضارات، لغة القوة والأقوى هي الأفصح.

(11)

«حضرات المجمعيين الأعظمين المبجلين

شرفتُ غاية الشرف والسمو بالانتساب إلى عالي مقامكم ورفيع عمادكم، وإني بذلك لمعتزٌّ سعيد، وغايتي فيه كغايتكم، هدفي لا يحيد عن صلب توجهكم، وجوهر اهتمامكم وجدكم، ألا وهو خدمة بلدنا، والإعلاء من شأنه، والحفاظ على عظمته وسرّ قوته؛ وكل ذلك بوحدة كافة بنيه وقومه، سرّ قوته في استقراره ووفرة إنتاجه وخيراته؛ وإني مثلكم لفخور بما ينعم به البلد اليوم من رخاء ورفاه، ممّا جعل منه نقطة جذب مقصودة، ومثالاً يحتذى، لما يتميز به من تقدم وفاعلية ونظام، وكل ذلك بفضل تكامل جهود الجميع من أفراد قومنا، كلٌّ من موقعه وفي حدود واجبه والتزامه؛ بَيْدَ أنّ ذلك كله أيضاً ما كان ليحصل، لولا حُسن التوجيه وسداد التدبير في مجمعكم الأعظم المبجل، فقد دأبتم جميعاً بدون استثناء وفي كافة الظروف، على السهر بكامل التفاني والجدية على بناء هذا الصرح، بسنّ القوانين الراعية الحافظة، وضبط الحقوق والواجبات، مع تنظيم العلاقات على مختلف المستويات في المقاطنة والإنتاج والتجارة والتبادل، وهو ما يشهد به الواقع لمقامكم، ولا أدل عليه من سيادة الأمن والأمان، ووفرة الخيرات وانتشار الأسواق واتساع الأرزاق،

في عناية ورعاية من قسطاس عدالة حارس ساهر، وهو ما جعل من تازودانت درة كونية لا تُباهى أو تُضاهى.

حضرات المجمعيين الأعظمين المبجلين

تعلمون علم اليقين كما أعلم، أصْلي وفضْلي وانتمائي، لكنكم تعلمون قبل ذلك وبعده كما أعلم، أننا جميعاً أبناء قريتنا هذه، تغذينا تربتها، وعلى أديمها نسعى وننام؛ بخيراتها، بدفء شمس وطيب هواء منها ننشأ ونترعرع؛ بحضنها، ببطن ثراها نلتحف آخر الأمر، نرقد رقدة الأبدية كما سبقنا أسلاف وأخلاف؛ ولكم أن تعلموا حضرات المبجلين الأعظمين، أنني قبل انخراطي معكم بجانبكم، في شرف هذه المهمة الجليلة النبيلة بمجمعكم المبجل، كنت متردداً، بل متوجساً من أنني قد أفقد موقعي، ضمن فئة من قومي أعلم من حالهم ما يجب أن يرقى ويرتقي، وقد لا أبلغ في الآن نفسه، شأو ما أطمح إليه من نيل ثقة قومي في المجمع الأعظم، ولا الظفر بمساعدتهم لي على مبتغاي وغايتي، ليصبح ذلك غايتهم ومبتغاهم، فأكون أكبر ضائع مضيع: أفارق الدارين وأخسر المقامين؛ ولا أخفي أن بعض هذه التوجسات والوساوس لا يزال عالقاً بضميري، وإنْ كان ميل فطرتي وحسن طويتي، يذهب إلى أنَّ من أبلوا حسن الصنيع في بلدهم كما أبليتم، وأبدوا من غيرة على علوّ شأنه كما أبديتم، لا يمكن أن يغيب عن فائق تقديرهم، أو يشذّ من بالغ الحذق في حسن تدبُّرهم وتدبيرهم، تبين وجه الحق فيما ,رومه ونرمي إليه أجمعين.

حضرات المجمعيين المبجّلين الأعظمين

إذا كان لي شرف الحديث إليكم من سامي هذا المقام، وهو شرف عظيم وتشريف كريم، ما أراه يكون خالصاً لشخصي هذا الكائن المفرد المحدود المجسد، إذ ما أكثر الشخوص والأجساد، وإنما يجب أن يكون لما هو معلوم عني، أو يجب أن يُعلم، ممّا أؤمن به وأوليه غاية اهتمامي وجهدي، وما أطمح في الآن نفسه إلى أن تولوه غاية جهدكم واهتمامكم.

ستكون بدايتي ممّا يجب الابتداء به، وهو تحقيق ما يمكن من رخاء وهناء، وتوفير ما يجب من طمأنينة واستقرار، لقاطنة تازودانت قاطبة، وهو ما يبدو لي حضرات المجمعيين المبجلين الأعظمين، أنكم قد ضربتم فيه بسهم وافر، وسرتم فيه أقداماً وخطوات، ولم يبقَ إلا اليسير؛ بل إننا ونحن نؤمن بأن لا كمال ولا اكتمال على طريق الصلاح، كما لا تمام ولا نهاية للإصلاح، بقدر ما أنه لا حدود لمطامحنا في هذا الاتجاه، فأولى بنا أن نقول بأنّ أمامنا الكثير بعد الكثير لننجزه؛ وإني هنا لأنوّه بواحد من عظيم إنجازاتكم وإنجازاتنا جميعاً كلٌّ من موقعه على طريق الصلاح والإصلاح، وهو ما تمثل في سن «قانون الودنية» الجديد، بما حققه في ذاته من درجة الحرية والتحرر لقومنا من العدّاية من شأن ومردود، وأيضاً لما حققه لقومنا من المتملكين من وفرة كسب وإنتاج، وأخيراً لما حافظ عليه لصالح القرية وقاطنتها من وحدة وانسجام، وإننا عندما نفكر بما كان سائداً قبل ذلك من تلك «الودنينية» في دالّها ومدلولها، وما أظهره النقاش الجدي الجاد في مجمعكم المبجل بقصد تغييرها إلى الأحسن والأصوب، لنهز رؤوسنا فخراً بما تحصّل، وتفتر ملامحنا ابتساماً هازئاً مما كان عليه تصورنا للواقع قبل الإصلاح المنجز قبل

ذلك، وما صار عليه توجهنا الحالي بعد ذلك في ظل الإصلاح الجديد، فلقد وفرنا الكرامة المستحقة، أو بعضها ومظهراً منها على الأقل لفئة من قومنا، ولم يفقد سائر قاطنتنا شيئاً، إن لم نقل إنّ الكسب كان للجميع، في جوانبه المعنوية والمادية على السواء.

وإني على النحو نفسه لأعتقد، كما أرى أنكم تعتقدون معي، أننا بما سنحقِّقه اليوم من إصلاح جديد، سيجعلنا نسخر من أنفسنا على ما كنا نقبله ونرضى به لنا ولقومنا من قبل، وأن ما سنخطوه على هذا الطريق في الغد، سيجعلنا نسخر من موقفنا الإصلاحي اليوم، وهكذا لا كمال ولا تمام، وإنما هو الطموح والمسعى باتجاه الأحسن، والرقي والارتقاء على طريق الأفضل والأعدل.

من هنا حضرات المجمعيين المبجلين أسأل نفسي وأسألكم، إن كان بالفعل ممّا يناسب إنسانية الإنسان، بغض النظر عن موقعه ومكانه، وبصرف هم واهتمام عن أصله وفصله، وبعيداً عن اعتبار لونه وموطنه وهامته وقامته، وهو يبدو بطبيعته الأخلف الأشرف من مخلوقات الكون، أن يسام عسفاً على نحو ما يساويه بالبهيمية العجماء وهو فصيح مبين، فيؤدي المفروض (بغض النظر عن مسمياته) على ذاته لذاته، وهو لا يملك غير ذاته إن كان يملكها فعلاً؟ وهل يليق أن تعتبر قاطنة «تازودانت» بالعدّ والحساب، على أنها بشر مطلق البشرية، ثم يعامل فيها من يعامل، على أنه مثل الدواب والأعراض، يؤدي عن ذاته البشرية الحرة، مثيل ما يؤدى عن هذه العجماوات والأعراض، لمجرد أنه لا يملك ما يؤدي عنه، من نفسه وأناه، بينما يحرَّر من ذلك المالك المتملك، فيؤدي على ما بين يديه وإليه ممّا يملك دون ذاته؟ أليس في عمق ما نفعل هنا

ونقبل على هذا النحو، مساس بحق البشرية في قومنا وميز بينها في قريتنا، أي في ذواتنا قبل أن يكون مساساً وميزاً في غيرنا؟

إني أتساءل وأريد أن تتساءلوا معي، كيف لنا أن نحقق المكسب لخزينتنا دون أن نتعسَّف على أحد أقلّ تعسف، ودون أن نمسّ بكرامتنا الإنسانية أدنى مساس؟ وهنا يبدو لي أن الجواب قد يكمن في تحليل العلاقة التي تجمع بين العدّاية والمتملكين، وهم قطبا الحركة في بلدنا، وهي علاقة تقوم على ما ينتج منهما أو بينهما وعنهما، فهما بغضّ النظر عن أية أفكار مسبقة، شريكان مشتركان فيما ينتجان، صحيح أن أحدهما يملك الأرض أو المصنع أو المتجر، لكن الآخر يملك القوة والطاقة والوقت المبذول، وكله ضروري للإنتاج؛ هما إذن شريكان في الإنتاج، وهذا الإنتاج هو الذي يروج ويعطي المردودية، وإذن فالمفروض أو الفريضة يجب أن تصبّ على الإنتاج دون أيّ شيء سواه، لأنه الخلاصة الإضافية المتجسِّدة والناجمة عن العلاقة بين الاثنين، لا موجب إذن لمبرر كي يفرض ذلك على أحد المنتجين، لذاته في ذاته، سواء كان هذا الطرف أو ذاك.

إنّ هذا التصور حضرات المجمعيين المبجلين الأعظمين، هو ما أريد أن نتفهمه ونغنيه بتحليلاتكم وآرائكم السديدة، ويتلخَّص في أنّ الواجب والفريضة، وأسميه مؤقتاً حق «المناتجة» يسنّ على الإنتاج، وهو بذلك يسنّ على الجهد والطاقة المفرغة من قبل العدّاية، كما يسن على مُلك المتملكين، من حيث ما استغرق الإنتاج من ذلك، وهكذا لا يكون على العداي أن يؤدي عن شيء لا يملكه، وبالتالي تتحرر ذاته من كل ما يَسِمُها أو يسويها بالبهيمية أو الأعراضية، مهما

يكن وجه ذلك؛ يكون إذن حق المناتجة هو وجه العلاقة بين أطراف الإنتاج، وبالتالي لا فريضة ولا واجب ولا حقّ على شيء غير الإنتاج.

حضرات المجمعيين الأعظمين، بدأت خطابي إليكم متوجِّساً متردداً، كما كان إقبالي على مهمتي السامية بينكم أكثر تردُّداً وتوجساً، ولكني الآن بما شاركتكم وشاركتموني من تبادل حديث واستماع، أشعر بفخار ما شرفتموني به، وباعتزاز بما ننجزه جميعاً لخير قاطنتنا وبلدنا في الآني والعاجل، كما في الآتي والآجل، ولا أملك إلا أن أجزي لهممكم خالص الامتنان والشكر».

رفعوه. . . أو قل أوشكوا على ذلك، لكنهم أحاطوا به إحاطة احتضان وعناق؛ رفعوه فعلاً بما رحبوا وهنأوا وعانقوا. . . مهما يكن فلم يبقَ في مكانه ومقعده أحدٌ من المجمعيين، صفقوا للديصور، وقفوا وأطالوا الهتاف والتصفيق ثم انتقلوا باتجاهه محتضنين، رفعوه، فعلاً أحسَّ بأنه يرتفع، ولم يعُد يشعر بأرض تحته ولا سماء فوقه، أكان يتصور لنفسه هذا المقام؟ أكان ينتظر لحديثه هذا الوقع؟ أين ما كان يعتقد من حجاب ضارب بين فئتين من بني قومه، أحدهم متملك والآخر عدّاي؟ آه منها الأحكام المسبقة تلك، ماذا يمكن لقومه من عداية تازودانت أن يفعلوا أكثر من هذا؟ عجيب حقاً أنه كأنما كان يتحدث إلى العدّاية من قومه عن صلاح إصلاح يهمهم، كأنه يخرج من توه من لقاء معهم وإنجاز لصالحهم المباشر وليس من المجمع الأعظم، ذاك الذي كان فاصل ما دونه من مسافة ودرجات وأحكام، يحوْل بين كل تصور صحيح لمعادلة الانسجام، تلك المعادلة التي ما كان له أن يفهمها أبداً قائمة على

أساس سيد ومسود، مسخِّر ومسخَّر، مالك متملك وعدّاي ليس له من جهده وعرقه إلّا ما يدفعه فريضة عن جهده وعرقه!

رفعوه، إلى أعلى مقام، وأوشكت محاضر الجلسة أن تسجل، بل والتاريخ كله أن يشهد، أنّ هيئة المجمع الأعظم بكلٍّ وكامل ما فيها، تفقد وقارها التليد وتخرج عن رصانة سمتها، لتحمل الديصور فوق الأكتاف كما يفعل العدّاية، لكنهم فعلاً رفعوه إلى ما فوق الأكتاف، وهو يحسّ بحرارة ترحابهم أنّ هامته تلامس الكواكب في علاها والنجوم.

لم تضرب مطرقة ذهبية تنهي جلسة المجمع، وإنما أنهتها نبضات مهج وقلوب، ليتحرك الكل بالديصور ومن حوله، في زفة إلى فسحة المجمع المفتوحة على ساحة المدينة، وما يكاد مطلع الموكب يطلّ من درجات مبنى المجمع الأعظم، حتى تهلّل جموع الخلق من العدّاية المنتظرة للحدث؛ ويبدو، بل يغدو على الأصح، من الصعب تمييز أي شيء من ملامح شخص الديصور، ما عدا ما ينبئ بأنه قطب دائرة تيارات بشرية تحوطه من كل جانب، جموع تداخلت وانتفى منها فارق ما بين متملك وعدّاي، وهو في خضم ذلك لا يُستبان إلا من حركة قطب الدائرة، في محيط متحرك غامر بالهتاف والتصفيق وعبارات التمجيد؛ تطوِّق جِيْدَه، تجلل هامته ريّا أزهار يانعة متفتحة كمهج العاشقين، أكاليل غار، أطواق ورود ورياحين، لتنفرج الدائرة عن جناحين، وتتبدى بؤرة المشهد عن عربة عرائسية فخيمة، مفتَّحة رابضة بجلال وجمال، تختال في وقفة الهدوء خيولها الأربعة المسومة الأصيلة، موحدة اللون والقوام، مسبوكة الأديم في مزيج ذهب وجمر متداخل مع أديم العربة

الاحتفائية. . . مشهد أسطوري يتقدم فيه موكب الديصور مع حاشية محدودة من المجمعيين والعدّاية نحو العربة، بقدر ما يبتعد الجناحان ليصبحا صفين متوازيين حول مشهد الموكب على طول الشارع الفسيح، تتحرك العربة، تتحرك وراءها عربات مماثلة ويتحرك حولها على الجانبين خيالة في إيقاع سير معدود بديع، وعلى امتداد وجهة الموكب البهيج، تصطفّ جموع العدّاية محيية مصفقة مهللة، ويزفّ الديصور إلى مقرّ إقامته الجديد، ناصية مقاطعة المجمعيين الأعظمين.

ما يكاد موكب الديصور يتوقف ظهر ذلك اليوم المجيد، عند المدخل الخارجي الفخم لقصر إقامته، حتى يفتح السائس باب العربة من الخارج، مطأطئ الرأس في ترحيب، يترجل الديصور ينزل الهوينى درجتي العربة، ليطأ البساط الأرضي الممدود لخطّ سيره باتجاه الباب الداخلي في نهاية الدرجات المرمرية، يتوقّف لتحية الموكب المرافق؛ يتقدم لوداعه، أعضاء المجمع بابتسامات الرضى وعبارات التهاني والتبريك، يتقدم المرافقون من قومه من العدّاية بدورهم، لينصرف بعضهم ويبقى آخرون برفقة الديصور؛ يخطو على البساط مصعداً درجات المدخل، ينفتح الباب بمجرد مثوله عند العتبة، على قيم القصر مطأطئاً محيياً ومرحِّباً، وما يكاد الديصور يخطو أولى خطواته إلى الداخل، حتى يغمره عالم أنوار وفوح أطياب وأنغام حفية، وقد اصطفّ على اليمين والشمال حاشية القصر ،عملته من الجنسين بُدوراً بهية وأقماراً سنية، لاهجة ألسنتهم، ناطقة ،لامحهم بعبارات التهاني والترحيب، وبينما يأخذ قيم القصر رفاق الديصور إلى مرافق الضيافة، تتقدم ناظرة القصر، خمرية هيفاء،

مخففة من لباس، تزيح عنه برقة وبالغ أناقة وأناة بعض كسائه، واضعة على كتفيه طيلساناً رقيقاً، لتتلوها بإشارة خفية، صبية رقيقة الملامح، يلفّ كيانها فستان قصير ملتحم بتقاطيع جسدها الغضّ، تنزع عن قدميه الحذاء وتضعهما في شبشب جلدي ناعم، ليتقدَّم الديصور بانحناءة من ناظرة القصر، يلقي نظرة على مرافق إقامته، قبل أن يخلو لفترة من راحة في جناح خاصّ من مختلف أجنحة القصر.

في رحاب الإقامة وعلى امتداد الفناءات والقباب والقاعات في مختلف الأجنحة، تنساب أنغام هادئة مزيج وتر وناي، توقعها بلطف كواعب صبايا منبعثة من أركان خفية.

* * *

قول في حال الديصور ووضعه الجديد:

لم يكن في انتقال الديصور إلى مقره في مقاطعة المجمعيين، أي تناقض مبدئي مع ما يؤمن به، أو ما نذر له نفسه من خدمة بلده وقومه؛ وأول ذلك أنه من حيث المبدأ نفسه، لم يُسِرّ أو يعلن أنه في خدمة فئة أو طائفة دون أخرى، وإذا كان أميَل بطبعه إلى خدمة العدّاية فلأنهم يمثلون الفئة المستضعفة المسخَّرة (فتحاً)، وهم الأولى بأن يجسد في واقعهم أيّ مقدار مهما كان، من مفهوم العدالة الاجتماعية؛ ومن ثم فإنّ خدمتهم وإن كانت تتطلب منحى خاصاً، فهي تتداخل مع خدمة المتملكين، وهم قومه أيضاً؛ إنما بتوعيتهم والبلوغ بهم إلى إدراك ألا تناقض بين مصالحهم ومصالح العدّاية، وأن صلاح حال تازودانت يتمثل في صلاح أحوال الكل، وبطبيعة

الحال فهو ينتمي أصلاً، وسيظل ينتمي إلى العدّاية، ولا ضير في ذلك.

من هنا فالمبدأ مصون، ولا مساس به ولا خروج عنه بالحلول في مقاطعة المجمعيين، بل إن ذلك من شأنه أن يعزِّز مكانة الديصور ويقوي من قدرته على بلوغ المرام، وكما أقبل على الانخراط في مهام المجمع الأعظم لغاية واضحة مبررة، فهو من أجل ذلك أيضاً يقطن ضمن دائرة المجمعيين، لأن ذلك يدخل في مقتضيات مهامه الجديدة، كما يدخل في باب المحافظة على المظاهر والخصوصيات السيادية للبلد، وهو بذلك يصبح أكثر مصداقية لدى قومه، من هؤلاء وأولئك جميعاً.

تـذيـيـل:

يقضي قبول الاقتراحات في المجمع الأعظم، بتحويلها إلى هيئته القانونية لتحديد وتدقيق الصياغة، لتُعاد إلى المجمع مرة أخرى المصادقة النهائية، ومن ثم إحالتها إلى الهيئة التنفيذية؛ وبذلك فقد أصبح «حق المناتجة» هو المصطلح السائد في المحافل الرسمية وما يجري على الألسنة، بغض النظر عن ميل العامة وسواد القوم عادة ـ خاصة بعد التطبيقات والنتائج المترتبة عنها ـ إلى التبخيس اللفظي التباري في خلق الاشتقاقات ومتضمناتها اللمزية، ممّا لا نخوض ضمن هذا المقام.

وتأكيداً لذلك وكما جرت العادة، فقد صدر قانون حق المناتجة، مشفوعاً بصيغة تنسخ ما قبله من قوانين تتعلق بموضوع الجبايات؛ ونظراً لما كان يتضمنه الوضع السابق في صيغته (الودنية

المعدلة) من إعفاءات، وهي متضمنة بطبيعة الحال في حق المناتجة؛ فقد وردت في مفتتح القانون الجديد، ديباجة تنصّ على مفهوم التحرُّر والتحرير والاشتراك والتشارك، مع التنصيص نتيجة ذلك كله، على المترتبات الآلية المتعلقة بإعفاءات الأشخاص الذاتيين أي غير ذوي الإنتاج، ومنهم العدّاية ـ علاوة طبعاً على الأطفال والعجزة والنساء ـ وهو تنصيص قد لا يبدو ضرورياً، وإنما أدخل دفعاً للالتباس، وتحسباً لاجتهاد فقهي مغرض أو جاهل، يجعل مبدأ النسخ في سريانه على السابق، يتضمن نسخ بنود الإعفاءات المكتسبة في السابق أيضاً، وهو تحوُّط واحتياط محمود، وله مكانه من الإعراب كما يقول النحويون والأسياد الحكماء.

(12)

تمتلك تازودانت مسبقاً بعض شهرة سياحية، ولو بطريق غير مباشر، كأنما تمثل خطّ آخر الدنيا كما يقول يمود، وكما يدرك أهل القرية في تعودهم على زيارات خاطفة من مجموعات تتجوّل بعض الوقت بدليل أو بدونه، ثم ما تلبث أن تلوي عائدة أدراجها، لتأخذ كلّ سبيل إلى المدن المجهّزة المعروفة على القرب أو البعد، من سهلية أو جبلية؛ لكن ظهور طلائع الشركة المعدنية في تجوابها حول القرية ومحيطها الواسع، جعل أمارات دهشة وإعجاب ترتسم على ملامح الكثير، مع تساؤلات متقاطعة ومتنافرة، قبل أن ينتقل ذلك إلى خواطر تملأ الصدور ما بين حيرة وارتياح، عندما تأكّد أن الأمر لا يتعلق بمجرد زيارة خاطفة أو مرور عابر، وإنما هي توابع تحطّ الرحال بالجوار، آليات مختلفة غريبة عن المألوف، عربات قاطرة أو رافعة أعجب ما فيها عديد عجلات، ومديد سلاليم وأعناق آلية متعملقة، بعضها متحرك وبعض رابض على قوائم مستعرضة.

تدبّ حركة غير معهودة في الجوار والمحيط: عمالٌ باديو الدربة، مشرفون مختصون بلغات وألوان متعددة، ينضم إليهم بعض القرويين في مهام بسيطة من تنفيذ ومناولة، تبرز أوراش بدأت بخيام معدودة لفترة، لتبدأ فورة تقسيم بقعة مما يجاور الخيام إلى تقطيعات

على الأرض من مربعات ومستطيلات، مشكلة أضلاعها من خطوط حفير لأسس إسمنتية ذات نتوءات خاصة، قبل أن يعم التبليط الإسمنتي سائر المساحات على استواء، فلا تبقى آخر الأمر بارزة على سطح الأضلاع، سوى النتوءات الأسية، على نحو غامض مثير لكل حيرة وتساؤل؛ كل ذلك، لتبدأ في التشكل كالفطر معالم تجمع من وحدات معمارية، سكنية ومكتبية، تحلّ جاهزة في معظمها، أجزاء مفككة لا تتطلب أكثر من إنزال بضبط وإحكام في النتوءات الأسية، وتركيب بعضها إلى بعض جدراناً وأسقفاً، نوافذ وأبواباً.

يحيط السياج مضاعفاً بالوحدات السكنية المكتبية ومثله بساحة الآليات، ثم في ميقات واحد على وجه التقريب، تنبع وتسري مياه، تُسقى أغراس، وما تكاد هالة قمر الرابع عشر تودع يغالبها الظلام، حتى يشع دفعة واحدة في الجوار والمحيط، ضياء يزري بضوء القمر وشمس نهاره، ضياء كانت القرية إذ ذاك لا تزال على موعد بعيد معه، تأمل أن يعمّ كافة بيوتها يوماً ما إشعاع نهاره الباهر.

ميلاد تجمُّع سكني يتخلق أشبه بلعبة مكعبات في حلم، تزول الحيرة والتساؤل، وإذا مجموعات كخلايا النحل أو كوكب نملي تتحرك بدأب ونشاط من مطلع شمس إلى مغرب، متوازية الخطو متقاطعة ومتعاكسة، تجوب الرِّحاب مسترصدة مستكشفة، يتحرك ضمنها شخص الأستاذ مرّوني، يتحرك على نحو ربما لم يكن ليختلف عن حركة غيره، أكان ليقدر قوة ما سيربطه بالقرية؟

في بدية ارتباطه بالجامعة وفي دائرة مرّوني، لم يكن يمود ليعلم منذ البداية نمط ارتباط أستاذه بالقرية، لا ماضياً ولا مستقبلاً، إذ لم يكن من ذكر خاص في جلبة ما كان يجري من حركة في القرية

والجوار، يمكن أن يتناهى أو يشيع في القرية عن شخص بعينه، كانوا جميعاً يمثلون أفراد خلية نمل أو نحل واحدة بلا تمييز، إلا ما يخصّ بعض القرويين المنضمين للعمل مع الشركة، وهؤلاء على قلَّتهم، ما كان لهم أكثر من إثارة قومهم بأحاديث عن وقائع وحكايات، جماعها تزيدات وتخرصات من بنات الوهم والخيال، عمّا وجد وما لم يوجد، ما استكشف وما لم. . .

واستنبت الجوار بسرعة لا تصدق ما لا يخطر ببال، ممّا يدهش محترف الدهشة والسؤال نفسه، مرّوني في بداية اتصال بالقرية: إشاعات حول اختطاف أطفال والاتجار بهم! لا أحد يلمس عن حق وحقيقة، لا أحد يرى عياناً أو يستطيع الإثبات بواقعة محدّدة ملموسة، لكن كل أمّ تصبح محدّقة في بؤبؤ طفلها، تتبين إنْ كان ينطبق عليه وصف «زُهْري» في غفلة ودون دراية منها، أو على درجة لا تلحظ إلا من الغير، يقصد بذلك ان يكون به حولٌ خفيف خاصّ أو شبه حول في النظرة؛ ثلة أفراد مختصين في تتبع الكنوز المطمورة تحت الأرض، المحروسة في الظلام والغموض بأبالسة الجن، ثلة من قراء وشبه قراء ومدعي قراءة وعرفان، مشعوذين ومدعين، متوسلين لاستخراج الكنوز المزعومة بصبية «زُهْريين»، باعتبارهم المؤهلين لرؤية الغياهب الكنزية، بطقوس وشعائر خاصة من ذوي العلم الأكيد والسحر التليد.

أغرب من خيال جامح، موجة رعب تهزّ الأمهات والآباء، ذعر الأدهى: لا يُتوسل بالأطفال لحالة أو حالات فحسب ليطلق سراحهم ويعودوا لأهلهم، وإنما يظلون طوال حياتهم رهائن يُطاف بهم على الكنوز المطمورة في كل مكان من بقاع العالم، لا، ليس

هذا فحسب، الأكثر من ذلك في هزة ارتعاب الأسر، أن بعض أبالسة الجن حراس الكنوز، أو طبيعة بعض الكنوز، لا يرضى لها بغير النحر الحقيقي، من الوريد إلى الوريد، لصبي «زُهْري» على الأعتاب الغامضة المظلمة!

واحدة من تجارب الحسرة يذكرها الأستاذ مرّوني، ما بين هزء وضحك مرير، هو الشغوف بالتفحُّص والاكتشاف، مدمن التنقيب عمّا يجمع تنوع الظواهر من ائتلاف واختلاف، ما بين بشر وشجر وحجر. لم يكَدْ يمضي على بداية تعرُّفه على القرية أسبوع، والناس أثناء ذلك يبدون عاديين كما يتوقع، مع بعض تحفُّظ فطري، لا يمسّ ظاهرة كرمهم وترحيبهم ونوعية التعامل اللطيف منهم مع الوافد الغريب، وإذا به يفاجأ بما لم يكُن في حسبان، لا فيما يخصّ المتعلق بشأن الشركة التي هو واحد من فريقها، وإنما فيما يمسّ مجاله الشخصي والخاص، من أسئلة تتعلق باهتماماته حول العلاقات والتصورات والأفكار والعادات والطقوس. . .

لم يمضِ أسبوع على حلوله ومحاولة اتصاله بالناس، ليستشعر ازوراراً عنه ونفوراً منه، بلغ حد تجنب مقابلته في الطرق والممرات؛ النسوة على الخصوص وصحبة الأطفال بوجه أخص، كنَّ يلوين عنان الوجهة، فينحرفن عنه دورة كاملة، إذا لم يكن ثم منفذ يتسرَّبن منه في اتجاه آخر، بينما الرجال في حال الضرورة يستمرون في اتجاههم خافضين، لا يكاد أحدهم يتمتم بتحية أو ردّ سلام، أما الأطفال دون رفقة، فقد أصبحوا في غضون ذلك أندر من نادر، وهم يطيرون نافرين في كل اتجاه، بمجرد أن يلمحوه. . . أنكى ما يمكن أن يصله حال باحث يقول مرّوني بمرارة: تصورْ كيف يصبح الرجل

في ضمائر الناس ونواياهم متهماً مشتبهاً في أمره، باعتباره ولو من باب الاحتمال، يدخل ضمن زمرة مَن تشملهم إشاعة الانتماء لعوالم الجن والأبالسة والشعوذة الزُهرية تلك، برغم اختلاف مظهرهم المألوف من مظاهر المشتبه فيهم أو بسبب ذلك أيضاً... هكذا يستشعر، هكذا يحس ويلمس، ولا أحد يشرح أو يناقش!

تصور أنت الذي جئت بالأساس لتعرف وتتعرف، لا على مجرد تربة وحجارة، وإنما على كائن إنسان بالإضافة إلى ذلك، تجد نفسك في عزلة محصَّنة عمّا تريد، حصار محسوس ملموس، ولو أنه صامت لا يبين ولا يفيد بشيء.

طالما وجد مرّوني نفسه في نوع من حصار، خبر ذلك كثيراً ويعرفه حق المعرفة فيما يستنبت من عوائق الطريق؛ لا يمنعونك من شيء، أنت حرّ في ممارسة البحث كما تشاء، إنما تنشأ من ذاتها العراقيل كالفطر، يمكنك أن تقرأ الحال كما يروقك، لك ما تشاء: تعود أدراجك أم تستمر؟ خبر كثيراً محاربته بالإشاعة، لم لا تكون هذه من ذاك القبيل؟ بعض طلبته الباحثين، يذكر أنهم توجهوا إلى بعض المدن والقرى متفرقين متباعدين، في محاولة رصد واستقصاء لتصوّرات وطقوس الختان، كان ذلك بمناسبة صدور دراسات عن طقوس ختان البنات (الخفاض)، في بعض البلدان الإفريقية، فرأى أنّ ممّا يعزز المفهوم إنجاز شيء مماثل هنا من قبيل ذلك، إنما حول ختان الذكور وهو النوع المألوف في البلد؛ أما فريق من طلبته الباحثين في المدن، فأهدر الكثير من وقتهم وجهدهم، في إجراءات الحصول على رخصة إجراء البحث، بينما حلّ الأدهى والأمرّ بفرق الباحثين في القرى، إذ أشيع عنهم أنهم شاذون غلمانيون، ممّا

جعلهم يعجلون بالعودة، مؤثرين سلامة الأرواح والأجساد.

يتساءل مرّوني إنْ لم تكن شائعات الكنوز الزُهْرية واحدة من تلك الذخيرة ذاتها؟ لا يستبعد ذلك؛ وطالما تساءل وظلّ يتساءل: كيف نعرف الناس، إن لم يفتحوا لنا دواخلهم طواعية؟ كيف إذا لم نحلِّل محتوى تصوراتهم، إدراكات، أحكام، قيم، خيالات ودوافع؟ على أي أساس نفهم ونخطط لما ينهض بالمجتمع؟ ما أكثر ما يعلق بذاكرة طالب من أستاذ مثلك يا أستاذ مرّوني، مقولتك تلك التي قلبتها عن الحكيم سقراط: «اعرف نفسك»، لتقول بدل ذلك «اعرف غيرك» نحن أجهل الناس بنا، جزر محصنة عن بعضها رغم القرابة والقرب، رغم التجاور والجوار، أرخبيل لا تجانس ولا انتظام. غيرنا أعرف بنا وأعلم؛ وأخطر سلاح، محيي ومميت كما تقول، خلاف أي سلاح آخر: السؤال، يقول الأستاذ أخطر سلاح، أنجع آلة كشف واكتشاف، أدق مسبار غور ابتكره الإنسان: السؤال، السؤال... حماسة الأستاذ تنافس بلاغته، وعمق قوله أبعد. دققوا السؤال، يقول الأستاذ، وسيلتكم للمعرفة، نصف المعرفة الأول، والنصف الثاني: الثقة والتعاون بينك وبين من تسأل وتسائل، سماد التربة لزراعة السؤال؛ أولاً وأخيراً، اكسبوا ثقة مخاطبكم.

يظلّ يخطو في القرية بنظرة متسائلة مرّوني، كلما أنهى دورة شغله بين مكاتب وأوراش الشركة، وحتى قبل افتتاح الأوراش باكر الصباح، حيث يمارس المشي لمسافات مع النسمات البليلة العليلة لما قبل شروق وبدايته.

ويمضي الاستكشاف سريعاً في البقعة والجوار، البدايات مشجعة، نتائج إيجابية وواعدة لتصنيفات وتصفيات أولية تنجز في

عين المكان، لعينات من التربة على مستويات أرضية مختلفة، لتؤخذ بقصد التحليل والدراسة المعمّقين في مختبرات مركزية بمقرات الشركة المختصة، كما في غيرها خارج الحدود، دلائل استكشافية مشجعة، وساكنة القرية والجوار تبدأ في التآلف مع الحركة الجديدة بحكم التعود، حتى إشاعات «الزّهريين» وما يحيط بها تخف وتخبو وإن كانت لا تزال ماثلة في الأذهان، ربما يعود خفوتها إلى تتالي الأيام بلا حادث يُذكر، مع عجز الآباء والأمهات مقابل ذلك، عن فعل شيء عملي يقي فلذات أكبادهم شرّ المتوقع، ويهبهم عنهم كامل طمأنينة وأمان، لتبدو الأمور في طريقها نحو سيرها الطبيعي المألوف.

يبدو المألوف ويتَّضح، يبدأ من التعوّد على جولات مرّوني، نظراته المستكشفة، أسئلته... تتقدم الأمور في سيرها بحكم التعود، حتى يهتز الهدوء من جديد، ويحدث مرة أخرى ما يخلّ بالرتابة: المقبرة! كل شيء إلا مقابر الجدود، يهب السكان مرة واحدة، يداً واحدة ولساناً، لا يمكن العبث بقبور الجدود حتى وإن تقادمت أو قيل إنها كذلك؛ كانت التنقيبات الأولية القائمة على انتقاء العينات، تقتضي التعامل مع بقعة المقبرة في مواقع منتقاة على تباعد مدروس، يقف السكان عائقاً حقيقياً غير قابل للتفاهم، حتى ليقول المعتدل المتسامح منهم، في عرض لا يأخذه أحد مأخذ الجدّ، بقدر ما يفهم على أنه في عمقه غاية التشدد، وإن كان ظاهره يكتسي طابع التضحية والتساهل، مضمنه: التسامح إلى حدّ في منطقة المقابر الجديدة ـ يقصد طرفاً من عموم المقبرة ـ أما القديمة، مستقر الأسلاف فلا يمكن.

رغم مستويات خيبة مرّوني في علاقاته مع أهل القرية، إلا أن الظروف بدأت تبسم له، من جهة أنها تقدم له مختبراً لتجربة مجتمعية إنسانية حية، نابضة بالفاعلية، متمثلة في مواقف الناس ممّا يثير انفعالاتهم بصدق وقوة، وفي حالات تعبيرية دالة، تصورات، أحكام، قيم، منظور للسطلة، علاقات تآزرية محسوسة. . . أيرغب باحث في أكثر من ذلك؟ من يستطيع وبأية آلية، أن يجعل الناس في موقف تجريبي كهذا، دون أن يكون ذلك مفتعلاً أو كارثياً؟ تنشط حاسة الباحث لدى مرّوني، لكن ما تمنحه الظروف إضافة إلى ذلك، أنه المؤهل ليفهم موقف الناس ويتفاهم، يحاورهم ويجد منهم مستمعين، ينقل بأمانة وتبرير خطابهم إلى المسؤولين في الشركة والسلطة على السواء، بل ويصبح بذلك المحاور المقبول من كل الأطراف.

(13)

قول في زواجية الديصور:

اعلم يرحمك اللّه، أنّ العاقل الفاهم يتساءل عن شخص هذا الديصور في علاقته بالنساء، وفي ممارسة حقّه الطبيعي كبقية البشر، في المنة الكبرى والمتعة القصوى المتحصِّلة من النساء للرجال ومن الرجال للنساء، متعة ومنّة أي منة، ألا وهي الجماع؛ ومن نافل القول هنا التذرّع بأنْ لا حياء في الدين، علاوة على ضروب الحياء المصطنع، ويُسميه العبد الضعيف حياء الجهل أو جهل الحياء فهما سيان، ويتمثل ذلك فيما يجعل الناس ومنهم مع الأسف من هم في موقع العلم والمعرفة، يتجاهلون أمور النكاح والجماع أو ما يسمونه اليوم الجنس أو السكس استهانة واستهجاناً، وهذا خطأ عظيم، علاوة على أنّ هؤلاء كما نعلم وتعلمون، يتهافتون تستراً في التفرج على ما يبث من إباحية في فضائيات اليوم، وهم بذلك يجمعون أثقل وأعتى الأخطرين، وأعني بهما التستر والنفاق من جهة، والبث الإباحي أو الفضائحي من جهة ثانية.

وعود بنا إلى القول في زواجية الديصور، زواجه أو علاقته بالنساء بصفة عامة، وهو ما سيجرنا إلى إفادة عظمى في علم البشرية في اختلاف طبائعها، وأنماط العلائق في مجتمعاتها؛ فاعلم أيّها

السامع اللبيب أنّ الديصور كان مثل غيره يعرف النساء ويعاشرهن، وتذكر الكتب أنه عاشر زوجة أخيه وكان لأخيه منها ذرية، أو لنقل تزوجها إذا شيء تمّ على الطريقة الخاصة، أي تزوجها مع أخيه، قبل أن يتخلى عنها هذا الأخير للديصور بعد أن علا شأنه، وممّا لا شك فيه أنه عاشر أو قل تزوج قبل ذلك أكثر من امرأة مع أزواج آخرين؛ ولا تعجل أيها السامع الكريم، لا تستهجن أو تتبرم في حيرة سؤالك؛ وبيانه أن من البشرية ما كان يبيح التزوج ممّا هو من باب المحرمات في الأديان السماوية، وفي ديننا الحنيف على الخصوص، مثل زواج الأقارب الأقربين كالإخوة والأخوات وما شابه ذلك، والاختلاف سنّة الكون والبشرية في كل شيء، ولذلك جاء الأنبياء والرسل، ومن أجله ظهر الصلحاء الصالحون والمصلحون.

فاعلم رعاك اللّه وأثابك خير الثواب، أن تازودانت في غابر أزمانها، كانت على هذا العُرف المتمثل في اشتراك أكثر من رجل في معاشرة امرأة واحدة أو أكثر، في بيت واحد وأسرة واحدة، ويبدو واللّه أعلم، كما أن الحاجة أم الاختراع وبابه وفصله، أنّ الأمر يتعلق بذات اليد وبالقدرة على سعة الإنفاق من عدمه، وما دام صاحبنا الديصور ينتمي إلى فئة العدّاية أصلاً، فقد كان مثلهم قليل ذات اليد، ولم يكن بمستطاعه حيازة امرأة أو أكثر، فعمد بطبيعة الحال إلى مشاركة غيره في النساء، مع المشاركة والتشارك في الإنفاق طبعاً، ومن ذلك ما يروى كما رويناه من أنه عاشر (تزوج) زوجة أخيه باشتراك ومشاركة، ولم يكن في هذا عندهم جرم أو محرم، بل يُعتبر مظهراً في التعاضد والتلاحم الأسري.

ولنا توضيح نؤجله إلى أن نجيب عن تساؤلك الداخلي الآخر، وهو شديد الأهمية ولا أريد أيها السامع اللبيب، أن تنتابك الغمة أو تأخذك الحسرة كما فعلت بك الحيرة، فاعلم أنّ الذرية عندهم كانت تابعة للأم، لأنها الأصل المؤكَّد المعروف يقيناً، فالكل ينسب إلى أمه ويتبعها من رجل إلى آخر، مع تدابير معينة في الإنفاق تلحق كافة من عاشر المرأة، حتى يبلغ الصغار ست سنوات، وارتفع بعد ذلك إلى ثمان، إذ يعتبر الناشئ إذ ذاك في عرف القادر على الإنتاج.

ولعلّ لسؤالك وحيرتك جانب آخر، وإنك لتقول ماذا عمَّن يستطيع الإنفاق؟ وأنت تعني في أقصى الحالات فئة المتملكين؛ أقول لك فاعلم أنّ للمتملك القادر، قدر ما يشاء من النساء عدداً باشتراك أو بدونه، والقاعدة العامة أنّ الولد للبطن أي النسب للأم كما أسلفنا، على أنّ منهم من يتبرع على غيره بامرأة (زوجة)، ويظل متحملاً لنفقتها كلياً، وهي في عنق غيره أو في عشرته وفراشه على الأصح.

وإليك توضيح ما أجلنا بعد هذا البيان، فاعلم رعاك اللّه أنّ ذكر زواج أو معاشرة الديصور زوجة أخيه كما أسلفنا، مع تواتره في الروايات غير مؤكد، لأنّ نسب الديصور من أمه غير مؤكد كذلك، وربما تكون تلك العلاقة مع زوجة غيره، ترجع إلى بعض محبيه ومريديه عندما أصبحت له دعوة وطريق، أما قبل ذلك، فيسري عليه ما كان يسري على غيره، ولا شك أن أحداً لم يكن ليأبه لشأنه، أو يهتم بما يجري في حياته وكافة ما يحصل له، قبل بزوغ نجمه وظهور أمره وارتفاع مكانته.

واعلم يرحمك اللّه أنّ ما عمّ الديصور في حاله الجديدة من

ابتهاج واستبشار، كان فوق الوصف، ولم يكن أصحابه من قومه العدّاية أقل منه في ذلك، بل كان السرور والحبور عاماً عليهم جميعاً، ولم يكن سبب ذلك في مظاهر العز والرفاهية التي انتقل إليها حال الديصور، فذاك وحده لو كان بمعزل عن ظروفه ومكتسباته، ما كان ليدخل مسرّة على أحد منهم، أو قل إنه كان كفيلاً بإدخال الغم ومشاعر النفور والاشمئزاز على ضمائرهم، بل إنّ السر في ذلك كله، يعود إلى ما تمّ من قبول المجمع الأعظم وترحيبه بمقترح الديصور أو قل بمشروعه، الذي أصبح قانوناً عاماً يشمل الجميع ويغطي بخيره الكل، وفي طليعتهم العدّاية قبل غيرهم، وهنا لا يمكن إغفال شأن المتملكين الذين لم يبدوا أقل ابتهاجاً بما تمّ، لدرجة أنّ يوم إقرار ذلك، وهو اليوم الخامس من الثلث الأول من شهر الأنوار، أصبح عيداً وطنياً لقاطنة تازودانت قاطبة، وسوف يظلّ كذلك بعد انتهاء الأحداث، وتسلسل التاريخ، وإن لم يعُد الخلف من الأجيال البشرية المتوالية يفطن لدلالته ومغزاه، وهو أمرٌ نجد له أمثلة في كثير من أنماط حياتنا ومن مألوف البشرية عامة، تستقلّ به الظواهر المجتمعية عن أصولها المادية والمناسباتية(*).

وفي هذا المقام، سادتي الكرام، لا داعي للوصف والتفصيل، فيما وجد الديصور نفسه فيه من تحف القصور الباذخة، مذهبة منمنمة السقوف، تتطاول مائسة أعمدتها الرخامية على أديم مرمر، تتداخل متكاملة في أثاثها ألوان خزٍّ وفنون تطريز، متماوجة في أنحائها نفائس الستائر، مشكِّلة فيما بين ارتماء وانقباض في الزوايا

(*) أصبح عندهم احتفالاً بنور القمر عند دورة اكتمال هالته.

والأطراف شبه حركة شبه سكون، تفوح من خشب أبوابها والأرائك نسمات الطيب وأنفاس العطور؛ ولا تسل عن جاري زلال يتدلى من قلل مذهبة مرفوعة، ينساب من أفواه كائنات يخيل إليك أنها تتحرك ساعية، وانتبهْ لخفيف أغاريد طير يلامس في خفة سمعك، تتكامل في اختلافها نغماته، كأنما ملكوت الطير هنا والكون كله، يتبارى تطريباً لسني مظهرك، ترحيباً بجلي محضرك؛ ويرتمي منك البصر حيث يرتمي ويروم، فلا ترى إلا جناناً، مزيج ألوان، عبير نسائم، جنى ثمار؛ وإن تسَلْ، ولك أن تسأل يا صاحبي عن شيء ممّا يخطر أو لا يخطر لك ببال، فلا تسَلْ عن فتنة الخلق فيما أفرغ على صبايا القصور من سحر قول وقوام، لا تسَلْ وهن يخطرن بالقدم الغضّ كاشفات عن لطف سيقان، يسرن في خدمتك الهوينى والخيلاء في تحبب متواضع، يكاد انعكاس صورهن على مائية أديم أملس، يوحي بالتقاء عالمي فتنة، ما بين واقع ساحر ووهم ساخر.

واعلم رعاك اللّه أن صاحبنا الديصور، إنْ كان استطاب المقام في حنايا ما يرى من نعم، فلم يكن في ذلك أهلع أو أجشع، وإنما هي مسايرة واقع لا تضرّ ولا تنفع؛ أو يقول العقلاء إنها لا تضر إن لم تنفع، فقومه من العدّاية ينعمون بحرية حقيقية، لدرجة أنهم حتى لو لم يرتضوا أن يشتغلوا وينتجوا يكون لهم ذلك، فلا مطالبة عليهم ولا أداء، وفي حالة إنتاجهم لشيء، فهم يتقاضون مقابله، أجراً عن الوحدات منه حسب طبيعته، فتكون عينية من جنس الإنتاج أو ثمناً مقابلاً له، وقد تقدَّر الوحدة بالزمن في حالات معينة من الإنتاج، وكله سواء، ويبقى على المتملك أداء ما يلزم من حق أو واجب المناتجة للخزينة، ولا ننسى أن الطبيعة البشرية في استشعارها للحرية

بعد افتقاد، تقدر قيمة ما حصل، وأكثر من ذلك ففي مثل هذه الظروف تنزع الطبيعة البشرية إلى تحسين حالها بزيادة وحدات الإنتاج، أو وحدات الزمن الإنتاجية حسب المقدَّر والمتفق عليه، وهو ما كان يتصوره الديصور بأنه في صالح المتملكين والعدّاية على السواء، وهو ما بدأ يحصل ويطمئن إليه الجميع.

ولم يكن الديصور ليغفل عن متابعة الأحوال، سواء من طريق ما يرفع إلى المجمع الأعظم من تقارير، أو ما يصله بطريق مباشر من مراجعة كتابه ومساعديه في القصر أو في المجمع، علاوة على بعض من يلتقي به من أصدقائه الأقدمين بين الفينة والأخرى، في خضم مشاغله الكثيرة، على أنه إلى ذلك كله كان يحرص في بداية مهامه الجديدة، على القيام بجولات تفقدية يرى فيها رأي العين ما يتحقق من صلاح وإصلاح، وما تنعم به القاطنة على اختلافها من رخاء حال وهناء بال؛ ولك أن تتساءل كيف أصبحت علاقاته بمعارفه وبني قومه العدّاية، ويقول لك العبد الضعيف إنه بالفعل عرض على بعضهم البقاء معه إلى جانبه، ولكنهم لم يجدوا في إقامته الجديدة ما يغريهم، وهم حديثو عهد بمشاعر تحررهم، مؤثرون للتمتع بذلك في بساطة، يفضلونه على نمط من العيش يبدو لهم وكأنه قفص من ذهب كما نقول في عصرنا، بل إنهم وهم يشجعون الديصور على ما يتطلبه منه مقتضى الحال من نمط عيش ومقام، اعتبروا قبوله الركون إلى إيقاع الحياة الجديدة ومتطلباتها تضحية كبيرة من جانبه، خدمة لبني قومه من القاطنة كلها بما فيها من عدّاية ومتملكين على السواء؛ وتجب الإشارة هنا إلى أنّ آل الديصور وصحبه، لم يعد لهم من مشاعر منافاة تجاه بني قومهم المتملكين، والعكس أيضاً صحيح من

حيث المبدأ على الأقل، لأن القانون الذي يظلّل الجميع ويرتضونه كلهم، يعطي ـ في ضوء تقدُّم وحضارة ذلك الزمان ـ لكلٍّ حقه، ولم يكن لأحد فوق ذاك من مطلب.

ومن مثيل جملة ما حصل مع بعض أصحاب الديصور من نفورهم من الإقامة معه في وضعه الجديد، ما حصل مع زوجته لأخيه (المزعوم) على قول، وزوجة بعض محبيه على قول آخر؛ ويحسن بنا أن نطلق عليها منذ الآن لفظ «سابينا»(*)، وهو ما تسميها به الروايات، إذ سيكون لها شأن وذكر فيما سيجري، وما نؤكده الآن هو أنها في المعروف من علاقتها بالديصور، قد أصبحت له وحده في وضعه الجديد، وذلك تطوعاً وتبرعاً من صاحبها، أخاً كان للديصور أم غير أخ، وكان لها إذْ ذاك من الذرية ثلاثة من ذكور وإناث، ورغم ما كان لها من تعلق بالديصور، فإنها لم تستطِع التآلف مع نمط الحياة الجديدة في القصور، ولم تقضِ معه إلّا فترة قصيرة اتَّسمت بالغم والكمد حتى أشفق على حالها، وتخلى عنها طواعية، وكان لها أن تعود مرة أخرى إلى صاحبها الأول أو إلى غيره لو أرادت، إذ كانت على حظ من مقبولية ومخايل حسن، إلا أنها طلبت من الديصور أن تترك معاشرة الرجال، فساعدها على ما يكفل لها عيشاً بسيطاً وسكناً محدوداً متواضعاً بين قومها، يضمّها وأسرتها الصغيرة.

واعلم رعاك اللّه ووقاك شرّ اللجاجة والعناد، أنّ للنجاح مذاقاً طيباً تستحليه النفوس وتطيب به المُهَج، وتستحثّ به العزائم؛ ومن

(*) لم نجد له مقابلاً دالاً في لساننا.

ثم فإنّ النجاح يقود إلى النجاح، وتحقيق هدف يؤدي إلى سبيل مثيله؛ وبهذا وجد الديصور أنه في خضم بحار من آمال ومشاريع، وجبال من تحمّلات وانشغالات، ما بين مسؤوليات المجمع الأعظم التي كان يراها وهو بعيد عنها جاهل بأبعادها ومداها، غير مستغرقة لكافة الطاقة والوقت، فإذا هو حريص على حضور كل شيء والمساهمة فيه من كافة الميادين العمرانية والزراعية والتربوية والصحية وغيرها، ووجد أنّ ذهنه يتفتح على ما لم يكن له به علم من قبل، فيضطر إلى التناظر والمُجالسة والسفر للمعرفة والاطِّلاع، وكل ذلك يأخذ عليه حياته حتى لم يبقَ له متَّسع لشيء آخر؛ ولولا أنّ هناك مَن يخدمه ويسهر على احتياجاته من عملة القصور رجالاً ونساء، لما استطاع أن يفي بمستلزماته الضرورية، إلّا أنّ ما يشفع له ويعينه على تحمُّل ما يتحمل، هو ضروب ما يلقاه في القوم الأعظمين من قبول، وما يجده في نفسه من قابلية للاجتهاد في الأداء، فسار على نهجه في الجدّ والعمل غير متردِّد ولا متخاذل، منذ يوم دخوله الأول المشهود لقصره ومقرّ إقامته، بقطاع المجمعيين الأعظمين.

(14)

يهتزّ مدرج الكلية بالأناشيد الطلابية، ممتلئاً عن آخره مكتظاً بالوافدين من كليات مختلفة، على جدران المدرج لافتات تحيي نضال الطلبة والطبقات الشعبية، وأخرى تندِّد بالإمبريالية والصهيونية والعنصرية، مع عبارات تشجب الظلم الاجتماعي، وأخرى مطالبة بإطلاق سراح السجناء والموقوفين والمغيبين من المناضلين طلبة ونقابيين وسياسيين، بينما تتقاطع النداءات بأسماء القيادات الطلابية مع مواقعها على اللافتات والهتافات المتأجِّجة، ملء الحناجر والحركات والإشارات.

الأجواء العامة في قمة الاحتقان، ومعالمُ سنة جامعية بيضاء ترتسم في الأفق، يغذّيها مرة بعد أخرى، اختفاء قيادات طلابية وسياسية، يطلق سراح بعضهم لفترة تقصر أو تطول، وبعضهم الآخر يستمرّ به الأمر، معلوماً أو مجهولاً؛ وتحلّ لحظة... لحظات أو مواقف أشبه ما تكون بانقداح شرارة لهب جوار خزان وقود، هكذا تأتي زيارة مرشح الرئاسة الأميركية، نائب الرئيس في جولة سياسية بالمنطقة، لتفجِّر معها كامن الغضب على مجريات الاحتلال الاستيطاني في فلسطين والتحالف الإمبريالي البرجوازي الإقطاعي، مع الظلم الاجتماعي في واقع الحال، لتؤجِّج المكنون وتحرِّر

المكبوت، متداخلة فيه الأهازيج، هتافات وشعارات في كلّ بُعد واتجاه.

يقترن الحدث بإطلاق سراح مصطفى بعد اختفاء أكثر من أسبوع، مدّة شملت فيها الإضرابات كل المؤسسات الجامعية تقريباً. . . تقريباً، لأن الاستثناء كان وارداً من معاهد وكليات، بدا الإضراب فيها محدوداً في عدده محدداً في زمنه، وأكثر من ذلك ظهرت بعض منشورات لجهات طلابية داعية إلى وقف الإضراب، لصالح الجامعة والطلبة، ولإنقاذ ما تبقى من السنة الجامعية.

تقترن عودة مصطفى بانعقاد الجمع، وكان مقرراً له أن يتدارس موضوع الإضراب في اتجاه واضح، يرمي إلى إشراك قطاعات أخرى غير جامعية ولا طلابية، بتوجيه نداء وتشكيل لجنة اتصال تطالبها بالنزول بثقلها إلى الميدان؛ يأتي إطلاق سراح مصطفى وكأنه وليد صدفة تجعله يتزامن مع انعقاد الجمع، بينما يبدو من قراءةٍ ما، أنّ سرّ هذا التزامن مع ظرفية انعقاد الجمع يأتي لكسر الاتجاه السائد نحو التصعيد، وللتخفيف من حدّة الموقف في الاتجاهين؛ لذلك ترتفع هتافات التأييد والتنديد وشارات النصر، بمجرد ظهور مصطفى في المشهد، محيياً من منصة المدرج جموع الطلبة، مشيراً بدوره بعلامة النصر، ليأخذ يمود الكلمة، مركّزاً على بوادر النصر متمثلة في إذعان السلطة في نهاية الأمر، بإطلاق سراح الرفيق وآخرين غيره، ممّا يعني ضرورة الاستمرار في الآليات النضالية على النهج نفسه لتحقيق كافة المطالب، محذراً في الوقت ذاته، من لعبة الالتفاف على الأهداف العامة للجمع.

يؤكّد مصطفى بالخصوص، على أنّ واقعة اعتقاله أو سراحه،

الها سياق آخر لدراستها، ولا يجوز أن تدخل على الموضوع الأساسي للجمع؛ يصفق الجميع أو يعمّ التصفيق على الأصحّ، بينما ترتفع بضع أصوات محدودة معدودة ومتفرقة، ترتفع كلٌّ منها على حدة بنظام وانتظام، لتتساءل بكيفية رامزة لامزة، عن السرّ في إطلاق سراح مصطفى، لماذا ومقابل ماذا؟ ملمِّحة بوضوح إلى غيمة طلابية سابقة متقادمة ومتجاوزة فكراً وزمناً، تشيع أن هناك سراً حقاً، سراً قوياً وعميقاً يجب أن يقف عنده الجمع أولاً وقبل كل شيء، وهو سرٌّ يتجه إلى أنّ الصفوف النضالية الطلابية مخترقة، ومن القمة هذه المرة كما في مرات سابقة؛ يسود صمت ووجوم، الإشارة قوية وفوق التلميح، تشكِّك في مصداقية القيادة، وتشير إلى أنّ اصطناع إطلاق سراح الشخص وهو الفصل الثاني، أقل أهمية بكثير من الفصل الأول، وهو اصطناع الاعتقال ذاته؛ والسؤال قائم حول المتوقع من نوعية الفصل الثالث وطبيعته، لتكتمل المسرحية!

فترة الصمت والوجوم تتعمّق، ليخترقها هيجان ينعت الأصوات تلك بالمدسوسة العميلة، تبادل إشارات واتهامات، تسري فوضى توشك تسود، والإحساس قويّ وبأكثر من مؤشر، على توجّه جديد في المعركة، يعمل على تحريك عكسي من داخل التنظيمات الطلابية؛ ينتصب مصطفى واقفاً بقامة مديدة بدت أكثر طولاً ونحافة، يطلب الهدوء والتزام النظام، يطلب الالتزام بجدول الأعمال والبدء في نقطه المسجلة، لكنه يشير إلى الرفاق المتسائلين، يقول إنه وكلّ المناضلين، لا يحدِّدون مواعيد الاعتقال ولا السراح، ولا يملكون معلومات حول ما يفاجئهم باستمرار من هذا التعسف، لكن الذين لهم معلومات مؤكدة أو وقائع شاهدة، مهما كانت طبيعتها ووجهتها،

ما عليهم إلّا أن يطلبوا تسجيل نقطة إضافية في جدول الأعمال، ليقرِّر الجمع في شأنها، وتأخذ دورها في الترتيب لتناقش بكلّ جدية ومسؤولية.

يمضي الجمع في اتجاهه، متدرِّجاً بدون صعوبة تُذكر في جدول الأعمال، لكن قضية مقصف الطلبة والموقف بصددها تثير ضجة، الإدارة أعلنت عزمها على إغلاق المقصف بحجّة استنفاد دوره، وعدم ملاءمته مع حجم الكتلة الطلابية المتكاثرة، وبقصد ترميمه وإعداده ليكون مسجداً، بينما يجري العمل لإيجاد مقصف بديل ومناسب في البناية الفرعية الجديدة التابعة للكلية، الموضوع حيوي والموقف يبدو خلافياً، بين رفض مطلق لأيّ تغيير في الوضع القائم، وتشبث بالمقصف كما هو في مؤسسته الأصلية، مقابل موقف يرى أن أولى الأوليات في مؤسسة جامعية وهويتها الأساسية هو المسجد.

يشتدّ الخلاف ويطول، ليرتفع أكثر من صوت طالباً تطبيق الديمقراطية بالتصويت على الموضوع، بينما يرفض آخرون، ناعتين الأمر كله بمصادرة للرأي المخالف، وأنها مجرد بودرة ومساحيق إمبريالية الجوهر، لإخفاء دكتاتورية استبدادية.

فجأة يبدأ بضعة طلبة في مغادرة المدرج، تاركين مقاعدهم فارغة تبدو أشبه شيء بجزر وسط سواد الجمع، يتعثَّر سير النقاش، يسري تساؤل وحركة بين الصفوف، عن سرّ ما يجري ليعلو من ساحة الكلية صوت الأذان، يبادر مصطفى بتوجيه الجمع إلى ضرورة تحمل كل مسؤوليته، باعتبار جدول الأعمال لم ينتهِ، ولا يتضمن استراحة أو أي شيء من هذا القبيل.

يعود المدرَّج ليمتلئ عن آخره عند قراءة البيان ومناقشته، تمرّ النقط واحدة بعد أخرى بحماسة وإجماع أو شبهه، إلّا ما يكون من وقفات قصيرة لبعض ملاحظات مختلفة، حتى موضوع المسجد والمقصف الذي خصصت لجنة مشتركة لصياغته، وجد حله في النهاية وصفَّق الكل للصيغة القائمة، على أساس قطع الطريق على خطة الإدارة الرامية لشقّ الوحدة الطلابية، ومن ثمّ التمسُّك بالإبقاء على المقصف كما كان، مع المطالبة بتخصيص مقصف جديد في الملحقة لاستيعاب الطلبة، والتأكيد على ضرورة تخصيص قاعة محترمة ومناسِبة للمسجد في الكلية الأم، وأخرى جديدة في البناية الملحقة.

تتقدم الأشغال، متدرِّجة ببعض يسر في مناقشة البيان، إلى منتصف الفقرة المتعلقة بفلسطين، حيث يقترح ذكر القدس بالاسم والتنصيص على ضرورة تحريرها، لا تبدو مشكلة في الاقتراح، تتداخل بعض الآراء، لكن في اتجاه واحد يرمي إلى تقوية الصياغة، حين يأتي اعتراض غير متوقع من مصطفى... يمود نفسه يبدو أول مندهش لموقف الرفيق، وهو يستحضر تطرفه البالغ لصالح الحق الفلسطيني في جميع المواقف والمناسبات، مصطفى ما تكاد تفتح باب غرفته الطلابية حتى تتلقاك عند العتبة، شعارات التضامن لتحرير فلسطين ودعم مقاومته على الأرض، ويواجهك صندوق معدني معلق لجمع التبرعات مكتوب عليه «من أجل فلسطين»، مصطفى هذا هو من يقف اللحظة، في وجه ملاحظة تلحّ على ذكر القدس، في فقرة كاملة خاصة بفلسطين.

يسود توجُّس ويقف مصطفى يشرح فكرته، إننا في كافة مواقفنا،

ومن خلال كلّ بياناتنا نتحدث عن كامل فلسطين المحتلة بما فيها القدس طبعاً كغيرها، ونحن نتوجّه إلى القوى التحررية في العالم من أجل ذلك، وما هو أكثر منه: نتوجه لهدف دولة ديمقراطية حقيقية تعددية سياسياً ودينياً ومذهبياً، لا نخصّ أو نخصص من ذلك ما هو منتمٍ إلى دين أو إلى إيديولوجيا، لا إلى إسلام أو يهودية أو مسيحية، ولا حتى إلى صهيونية أو إمبريالية أو إقطاعية، حرية وتحرير لكامل شعب فلسطين، وكامل أرضه بكل تنوعاته وتعدداته؛ فلماذا تخصيص بقعة ما أو مدينة بالذكر؟ إننا لا نزيد على أن نضعف السياق على مستوى الصياغة والموقف جميعاً... تبدو بوادر خلاف ناشب، موقف مصطفى حاسم قوي ومبرِّره لا يخلو من وجاهة وبُعد، وإن كان غير مقنع تمام الإقناع، إن لم يكن مثيراً للدهشة في نظر الرفاق بتشدده في التدقيق، ممّا يعني بعض خلفيات غير معلنة؛ وحين يدعى للتصويت، يبدو التأييد مغطياً بما لا يتطلب توقفاً للعدّ وحساب الأصوات، ليجتاز الجمع آخر عائق في طريقه.

ـ ما زلت تتكلم عن دولة ديمقراطية واحدة في فلسطين؟ حتى الفلسطينيين ما عاد واحد منهم يفكر فيها!

يبادر يمود رفيقه منتهزاً أول فرصة سانحة بعد انفضاض الرفاق، في وقفة قصيرة أثناء الطريق إلى المطعم، يمهِّد ليسأل عمّا لم يفهم من موقف رفيقه في عدة مفاصل هذا اليوم.

ـ هذاك شغلهم.

يردّ مصطفى في اقتضاب، يذكر أنّ إسرائيليين أنفسهم كان بينهم دعاة وأنصار ـ مهما كانوا قلة ـ لفكرة الدولة الديمقراطية تلك، ولا

تسأل عن الرفاق التقدميين الفلسطينيين؛ وطالما تذكر مصطفى في باكر حياته الطلابية، عندما انتدب من الإدارة لتمثيل جامعته في الجامعة الصيفية المتوسطية (إكس أن بروفانس) بفرنسا أواسط الستينيات، كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها وجهاً لوجه مع إسرائيليين، السفرة كانت بالقطار عبر إسبانيا، وفي محطة الوصول النهائية بفرنسا، يستقبله وفد طلابي مختلط، يقدِّم نفسه على أنه إسرائيلي؛ ويستطيع مصطفى إذ ذاك، إقناع رفاق من الجزائر وتونس بخوض هذه النقاشات واللقاءات مع الشباب الإسرائيلي ومع أساتذة من جامعاتهم من المحاضرين، أمام مقاطعة تامة لمثل ذلك، من قبل المشاركين من بقية الأقطار العربية بالمشرق، وأسخفها ذاك الذي رماه شخصياً بأنه ضحية الأنوثة الإسرائيلية، باعتبار علاقة عادية عابرة له مع إحداهن من ضمن الوفد الإسرائيلي لا تزيد عمّا لغيرهم مع مثيلاتها من وفود عالمية أخرى.

موضوعات شتى وقضايا يلقى فيها مصطفى معارضة قوية من الخصوم، لكنه يتلمس إنصاتاً أيضاً لفكرة الدولة الواحدة تلك، وحتى بعض الرفض إنما يعزى تبريره إلى صعوبة التطبيق وتعذر تجسيد فكرة الدولة الديمقراطية على أرض الواقع، وأيضاً تكمن أقصى الصعوبة في الآلية الحاسمة للتحقيق، وهي حشد الرأي المؤيد الداعم المحلي من الجانبين، والدولي بعد ذلك؛ ويذكر مصطفى أيضاً رفاقاً فلسطينيين التقى بهم وناقشهم، كانوا يحملون التوجه ذاته، بل المطلب نفسه، وهو في رأيهم ما يستحقّ نضالاً مستميتاً إنسانياً دولياً رغم ما يبدو من استحالة.

طيلة الأسابيع الجامعية الثلاثة الصيفية، يخوض يمود مع

الإسرائيلين وغيرهم من شباب القارات والأساتذة المحاضرين، ضمنهم يهود وإسرائيليون، في قضايا الحرية والتحرُّر وضمنها فلسطين؛ لا يهمه الآن إنْ كانت الأمور والاتجاهات، إسرائيلياً وفلسطينياً، قد اتخذت مناحي أخرى ووجهات، بعد هزيمة عام 1967 أو بدونها، ممّا تلاها أو سبقها، الفكرة مشروع سياسي إنساني كبير لدولة حقيقية، بمزيج عبقرية متوازنة، قائمة على الثقة والانتماء المشترك للوطن الواحد، قادرة على قيادة المنطقة؛ طبعاً هناك تعقيدات ليس أقلها ولا آخرها، معيار حلّ معضلة الواقع ما بين مهجّر لاجئ ووافد مستوطن، تعقيدات وتفصيلات، يلمس إذ ذاك أنها من مصادر الرفض والاعتراض، من كلا الطرفين.

ـ في ذاك الوقت، الفكرة كان لها وقع، وموقع أيضاً. . .

يؤكد مصطفى بقوة وأسف في شبه تنهيدة من أعماقه، بينما يعود يمود إلى نقطة انطلاقه ومشاغل خاطره، مهموماً حقاً بما لم يفهمه من موقف رفيقه، من ورود القدس في البيان، لدرجة كادت تنسف دفعة واحدة، كلّ ما بذلوه لتوحيد المواقف؛ كيف تأتي من مصطفى حول القدس، وهو الأكثر تشبُّعاً بمطلب الحق الفلسطيني ووعياً بأهمية وحدة الصف الطلابي، في الظروف المعلومة!

لا يتحمل ذلك، يقول مصطفى باقتضاب، لا يتحمل. . . لا أقبل بصمة دينية في بياناتنا، ولا أريد سابقة في هذا الباب!

تكتظ القاعة الكبرى بالجموع من الجنسين، تضيق جنباتها وتمتلىء الدرجات المنحدرة صفوفاً فاصلة بين المدخل باتجاه المنصة، يمتلىء ما بين الصفوف باتخاذ مرافقها الفاصلة شبه مقاعد،

حتى الأفاريز الجانبية على خط النوافذ وجدت في طاقات الطلاب من يتشبَّث بحافاتها، يرفع كيانه بخفّة قفز، يقتعد عرضها مرخياً ساقيه في الفضاء، ماداً يديه لمساعدة غيره ليقتعد جنبه، مكونين بذلك مقاعد معلقة وثنائيات أقدام مدلاة في غير تجانس؛ الكلّ ينتظر بداية الأشغال، الأبواب الجانبية نفسها تفتح وتظل مشرعة تمتلىء بواباتها ما بين مقتعدي عتباتها وواقفين ومتطلعين من خلف، تتجمَّع وراءهم في فضاء الحديقة جموع لا تجد لها منفذاً غير المتابعة السمعية من بعيد دون مرأى، وقبل ذلك فهي في شؤون من موضوعات مختلفة، تتجمع نقاشاتها في هرج تمتصّه سعة الفضاء، يناظر هرج القاعة الذي يضخمه ويضاعف من قوته، انحصار بين ارتفاع قبَّتها المركزية وامتلاء الجدران.

الندوة الطلابية تدور حول «حركة التحرُّر ومواجهة الإمبريالية العالمية»، ولا أحد ينتظر أن تغفل الأشغال عن مجريات الواقع المحلي المشحون وتطوراته في انعكاساتها العامة، وعلى الجامعة والحياة الطلابية خاصة، بل الكل ينتظر المحور المحلي الساخن في الندوة وما يترتب عنه؛ فالندوات من هذا النوع بقدر ما هي فرصة للتحليل الاجتماعي والسياسي محلياً ودولياً من قبل التنظيم الطلابي، بقدر ما هي كذلك تعلة ومركب، لخلق مناسبة تنفيس وتعبير للأحزاب الوطنية والتقدمية المعارضة والمقاطعة للسلطة بالأحرى، بعد المضايقات التي تعاني منها في أنشطتها وميادينها السياسية المباشرة.

شعور يمود أن لا شيء يمكن أن يخرج عن مجراه المألوف، لا شيء تغير لا في واقع حركات التحرر، ولا في المطامع الإمبريالية

وحليفاتها من برجوازية وإقطاعية محلية وإقليمية وعالمية، لذلك فرغم الحماسة الشبابية وردود الفعل الفورانية الطلابية إزاء التحليل التقدمي المتياسر ومرادفات المعجم الثوراني، تبدو لمشارك متمعّن مثل يمود ترديدات مقصودة لذاتها أو تكاد؛ يتساءل ألا نمتلك الجديد؟ يحاول الجواب: كيف يكون ثَمَّ جديد، إذا لم نبارح موقف التحليل إلى الفعل؟ الفعل، هذا ما ينقص ليكون لدينا جديد عدا الترديد والتحميس المتكرِّر، لا، لم يكن أبداً عدمياً تجاه فعل الكلمة الواعية الموعية، لم يكن لينكر أثر الأفكار في خلق الأفعال والأحداث، وهو على أتمّ استعداد ليقول: «إن التاريخ هو الفكرة امتطت زماناً ومكاناً» على قياس أن «نابليون هو الفكرة امتطت حصاناً» ولا داعي لأن يقلب العالم أو الكون ليمشي على قدميه بدل رأسه؛ إذ إنه يبدو أو يكاد يبدو ليمود، وكأنه أصلاً بلا قدم ولا رأس، مجرد حركة في الزمان والمكان واقعه من واقعهما، ووهمه من وهمهما كذلك... لا، لا ضرورة لانتظار أن تأتي تحاليل الندوة بجديد، والرفاق كما يعرف يمود وهو مشارك منهم، لا يكادون يجدون فرصة للاطِّلاع على جديد معرفة أو معطيات، عدا ما هو عام أو ما تأتي به العلاقات داخلاً وخارجاً، وهو عام ونافل في أغلب الحالات، ولا يسفر إلّا عن تضامنات في اتجاهات ضد أخرى، أو يأتي من مصادر السلطة نفسها تسربه لغرض أو آخر، بطريقة أو أخرى، ولغرض دائماً. يتساءل لم لا نملك قدرة معرفة وعلم سباقة، لنقُلْ قدرة استعلاماتية حرة من أجلنا ولصالحنا، أو على الأصح، متى يتوافر لنا ذلك لو وضعناه نصب أعيننا؛ وأحزابنا حلفاؤنا أنفسهم وذوو انتماءاتنا منهم، ليسوا في مجال المعرفة والاطلاع

المسبق، إلا عالة على ما يتسرَّب إليهم من معرفة بالمتغيرات بقصد ومقدار، لقصد ومقدار كذلك. . . أيمكنها هذه الأحزاب، أن تستقلّ عن مصادر معلوماتها المسرَّبة المتسرِّبة من السلطة ذاتها، لتقيم تحليلها على معلومات يقينية نابعة منها وإليها؟

بيْد أنّ الجديد حصل ووقع، وبقاموس جديد ونبرة جديدة؛ لم يكن يمود ليصدق، بل إنه أخذ على غرة، شارداً أو شبه شارد كان بلا شك وبعيداً عمّا يدور، تائهاً في أسئلة لا يستطيع أن يجهر بها، وحتى لو فعل لما وجد مصطفى نفسه جواباً مقنعاً عنها، أيّ جواباً موضوعياً عملياً مباشراً، لا جواباً سياسياً، يقول ما يقول ولا يقول ما لا يقول أو أكثر مما يقول. . . كان يمود في غفلة حقاً أو فيما هو شبيه بذلك، يشعر بتحرك الرفاق باتجاه المنصَّة، وردود فعل القاعة وخارج القاعة، في تأييد عارم يغتال كلّ اعتراض، يعرف أنها المرحلة ومتطلباتها، وسيكون أمام التغيير الثوري كل الوقت فيما بعد لفسحة الديمقراطية، كل الديمقراطية، ولا شيء غير الديمقراطية. . . لم يتابع كلمة مصطفى لكنه يعرفها عن ظهر قلب منهجاً ومعجماً، هذه القدرة الولادة المولِّدة للتصورات التقدمية الراديكالية، لا يحدّها حدّ ولا يعجزها مدّ. . . مع ذلك فاجأه غير المنتظر، الجديد جدّة، معجماً وتصوراً ومصدراً. . . مجيدة، نعم مجيدة تنتهي عائدة أدراجها باتجاه المنصة، والقاعة تغلي بالتصفيق والهتاف والتصفير على نحوٍ مغاير للمألوف ولكلّ ما سبق من مظاهر الحيوية والحرارة؛ انتهت وولَّت راجعة وهو يمود لا يملك إلا أن يصفق كالغير، وكان حرياً به أن يصفق أكثر وبكلّ ما أوتي من قوة، ما دامت قد فعلَتْها مجيدة وخلقت الحدث الذي تجاوبت معه الجموع. . . هكذا يتردَّد

الصدى، مجرد الصدى وهو يخترق لاوعي يموود في شروده وغيابه، يصفق أكثر ويستطيل تصفيقه، وهو يستردّ في وعيه الآن، ما اخترق لاوعيه من خاتمة تحليلها في اتجاهها المفاجئ غير المعهود في تعقيب على مداخلة طلابية ربما بدت لها مستفزّة أو مثيرة: أيها الرفاق... دعونا ننزل قليلاً إلى واقعنا، ننظر قضية التحرُّر من جانبها اليومي الفردي، علاوة على ما نعرضه من جانبها الوطني والعالمي... التحرُّر للإنسان، تحرّر إنسان، إنسان بلا جنس، كائن بشري، لا هو ذكر ولا هو أنثى ولا هو خنثى لمن يهمّهم ذلك... التحرُّر جمعي وفردي، مادي ومعنوي؛ واللاتحرر كذلك وعلى الدرجة نفسها من القوة والعمق والشمول، إنه التيار السالب المعاكس للتحرُّر، وكما هو كامن متجسد في وسائل الإنتاج ورأس المال ومظاهر السلطة ومواقعها، هو كذلك أقرب إلينا وكامن فينا، فردي وجمعي فكري وسلوكي، إنه قوة إيديولوجيا خرافية في أذهاننا، تنظر إلى الإنسان بفارق، هذا الذي وجد بلا فارق، إلا التكامل في الوظائف والأدوار؛ وبداية تحرُّرنا منا، البداية من النقطة الأقرب إلينا وفينا، وهي ذواتنا الرفاقية بكلّ سعة المساواة وعمقها، فلنغادر قوقعة اللاتحرر ولنعلنها منذ الآن بقوة اقتناع ألا وهي: أن يتقدم الذكر والأنثى، الفتى والفتاة معاً، إلى علاقة ما معاً، أو إلى مؤسسة الأسرة معاً، عذراوين معاً أو غير عذراوين معاً كذلك... رفاقي إنها نقطة بداية التحرُّر وربما منتهاه أيضاً، في ذواتنا وليست بعيدة ولا خارجة عنا، وكم هي بسيطة وعفوية، وكم هي عسيرة وشاقة... شكراً.

تتراجع نحو المنصَّة مغمورة بالحماسة والتصفيق، يستفيق يمود

من غفوة يقظته على تيار حي خلاق يخترق لاوعيه، يستفيق قائماً يصفق يكاد يهتز عن موقع قدميه؛ من أين لها المعجم والتصور؟ رفاق المنصّة أنفسهم، مصطفى ذاته، جميعهم مأخوذون بالمباغت. . . تشكر مجيدة متراجعة بعد أن فعلتها حقاً، خلقت حدث الندوة المدوي بتعقيب مقتضب بسيط، يسترجع يمود مقولتها، يستعيد ولا يكاد، تخونه ذاكرة العبارة وغفلة الخاطر، بودّه لو يحفظ عن ظهر قلب، يستعيد مكرراً كأنه يخشى النسيان: يجب أن يتقدم الجنسان معاً، عذراوين معاً، إلى مؤسسة الأسرة، تعاقد ندٍّ لندّ؛ والعذرية لا يريدها الرجل للمرأة جسدية فحسب، يريدها فكرية أيضاً، يريدها ألا تتصور أو تتخيل أو تحلم لو استطاع، لو استطاعت أن تعلن له تصوراتها، تخيلاتها وأحلامها الوردية، يريدها بلا تاريخ ولا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، إلّا ما يجمعها به، ومنه سرّ ميول الهيمنة بكل أصنافها ومظاهر التسلط والطغيان بكافة أنواعه، أين التحرر، وما هو اللاتحرر؟

تحرر؟ ولنقل حرية أيضاً. . . ألسنا نحبو في رحاب الديمقراطية أو ندعي؛ إذن فقد ادَّعت مجيدة مثلهم أنها تنعم في مجتمع الحرية والديمقراطية، كانت تخاطب طالبة أميركية باحثة تعدّ أطروحة حول «تفسير الأحلام وعلاقته بالقيم السلوكية في المجتمع الجبلي بالمغرب» صححت للباحثة مفهوم «المجتمع الجبلي بالمغرب» في أطروحتها، لأنه ملتبس حسب الجغرافيا المحلية، مما جعلها تستعيض عنه بعبارة «المجتمع المغربي» وتضيف تدقيقاً يلي ذلك بعنوان فرعي «دراسة تحليلية لقرية بجبال الأطلس نموذجاً»؛ لكن الحديث الجدي انطلق بمناسبة ما ذكرته الباحثة عن سهولة حصولها

على الترخيص بإجراء البحث، فانفلت لسان مجيدة ولا تدري كيف حصل منها ذلك، لتعلق على قول صديقتها بأنها في بلد الحرية، أو شيء من قبيل ذلك. . . لا تدري لِمَ صدرَ عنها التعليق على هذا النحو المتساهل غير المألوف منها، أكانت نزوة انتشاء واعتزاز بالوطن أمام طالبة أجنبية؟ كلّ ما تذكره جيداً أنّ الطالبة انتبهت جيداً لعبارتها، وحدقت فيها متسائلة بجدّ، إن كانت مجيدة تعني أنها في مجتمع حر ديمقراطي؟ طبعاً تؤكد مجيدة في إحساس بالتورط وصعوبة التراجع، مستشعرة في داخلها تردداً، كما لو توقعت لها فخاً ساهمت ذاتياً في نصبه. . . تصرف الطالبة نظرها عن مجيدة في شبه لا مبالاة، لتصدرها كرة ثلجية باردة وسعيرية بركانية: إنها لا تفهم ولن تفهم كيف يكون المجتمع حراً ديمقراطياً، إذا كانت الحال كما خبرت على سبيل المثال في فتاة جامعية مدخِّنة في العادة، لكنها تمنع نفسها عن التدخين في مناسبة معينة، وأمام حضور معين. . . عرق بارد تحسّ مجيدة أنها أغرقت فيه، يتلوه استشعار فورة سخونة فائرة على الوجنتين. . . ماذا قالت؟ سمعت؟ ماذا تقول؟ خيِّل إليها كما لو ضبطت متلبِّسة، الأمر قد يعنيها هي، بل لا يعنيها بالتأكيد فالطالبة الباحثة تتحدث عن حالة معينة كانت شاهدة عليها، لكن مجيدة تشعر أنها بدرجة احتمال كبيرة، ربما كانت ستأتي السلوك نفسه. . . تلك الرقابة الداخلية الخارجية في آن، ذلك القهر الجاري مجرى الدم. . . ذلك الحق الرجولي الذكوري المحفوظ إلى الأبد. . . ونقول حرية؟ تحرر ومساواة؟!

مغمورة بالتصفيقات تتراجع مجيدة باتجاه المنصَّة، تنتظم التصفيقات الطلابية في القاعة لتأخذ إيقاع دقة مراكشية منتظمة،

يتلقاها رفاق المنصة وقوفاً مصفقين بإيقاع الدقة الطلابية الطاغية في الفضاء، يحتضنونها جميعاً، تقبِّلهم مجيدة واحداً واحداً، يقول يمود وهي تنفلت من حضنه كم هي ساخنة، سيكرِّر ذلك بمجرد ما تقتعد مكانها بينهم، يخشى أن تكون بوادر نزلة برد.

(15)

ولئن كانت حياة الديصور في مقامه الجديد، تتطلب ما تتطلب من جهود في تحمل العديد من المهام وشتى المسؤوليات، فهي لم تكن أقل فيما تتطلب من جهود التآلف مع نمط عيش غير معهود لديه؛ ولا يذهبن بك الظنّ مستمع هذا القول الكريم مذهب الغافل الساذج، فتظنّ أنّ تغيُّر الحال نحو الأحسن والأفضل والأرفه والأرقى، وما شئت من صفات ونعوت على هذا القياس، لا يتطلب من صاحبه جهداً أو يستنفد طاقة؛ فالعكس هو الصحيح، والطبيعة البشرية وإنْ كانت ميّالة بالفطرة إلى التطبُّع والتآلف، بما وهبت من مرونة عدة وعتاد، فهي لا تثمر ذلك بمجرد نية باطنة وقصد مضمر، ولا حتى بلفظ قاصر وقول عابر، بل تتحقق باكتساب حركة وتعبير وسلوك يبلغ حدّ التمام والكمال أو يكاد، وكلَّما ارتقى فيه الفرد درجة أغرته فيه مستويات ودرجات؛ ذلك أنّ ما يتلقاه المرء نظير ذلك من إقبال وقبول، هو ما يزكي منه الأقوال والأفعال، ويمنح مقاصده ما أنجز منها وما لم ينجز قوة اليد والسند؛ ويذهب العارفون ببواطن الأمور وظواهرها إلى جمع المنشود من ذلك في هذا الباب، بمقولة متداولة يتوارثونها ماجداً عن ماجد، مؤداها أن الأهم في الموقف: كيف تبدو لا ما تعمل؛

وفي الكلام: كيف تقول لا ما تقول؛ وفي الفعل: ما تهيئ أو تُخطط لا ما تنجز...

ثم إنك أيها السامع الفطن اللبيب، إذا لم تأخذك سِنَةُ غفلة أو سهو، تعلم جيد العلم أنّ ما يعتبر مجهوداً وصرف طاقة متعباً في موضوع أو اتجاه، لا ينحصر فيما يصبب العرق ويلوي العضل من شغل وأداء، فتعب الأكباد أقسى وأقوى من نصب الأجساد، وقلق الضمائر، كدر الخواطر، أمضى في الكائن البشري من سنّ محدّد أو مهنّد، ومنه قولهم يلتئم ما جرح السنان ولا يلتئم ما جرح اللسان! وكله كناية عن شدة المعنوي وبعد غوره وعمق أثره، إذا قيس بالمادي المحسوس المحدود؛ لذلك لا تستغرب ممّا تصفه لك الروايات من عنت ما يُقاسيه الديصور لجهة ما يتحمله من نمط عيشه الجديد، وبخصوص ما يثمره ذلك من رازح ثقل في ضميره؛ فرغم ما تزخر به أركان القصر من طيب شراب ووفر طعام، فإنَّ ما ينال منه الديصور منتقى محدّد بقدر ومقدار؛ ومع ما تعوده الديصور يومياً في سابق عهده من جهد ساعد وكتف وقدم، ممّا كان في ذاته يشكل ترويضاً كاملاً متكاملاً بالعفو والطبيعة، فإنه أصبح ملزماً ببرنامج صباحي يومي، يتولى تحت إرشاد ومراقبة، إنجاز حركات مضبوطة منظَّمة ومحسوبة، تختص كل منها بتنمية جهة أو عضلة في الجسم، علاوة على استحمامات متتالية في درجات الحرارة والتدليك؛ وذلك كله وغيره وغيره في الملبس والمجلس والحركة والسكون، يقصد به تحقيق المقولة الذهبية السالفة، كما أنه يوفر سعادة الأجساد التي تؤدي حسب الوجهة هذه إلى سعادة الأكباد، وذلك على قياس قولهم اليوم: «العقل السليم في الجسم السليم»؛

سلمنا اللّه وإياكم من كل شر، وعافى أجسامنا وعقولنا من كل ضر.

واعلم أننا لا نريد الإطالة في هذا الباب الذي يطنب فيه الرواة ويكثرون، لكننا لا ننتقل منه قبل أن ننقل إليك نافلة من نوافله، لتفهم الدرس المستفاد ويتضح لك القصد والمراد، ومفاده أن رياضة الصيد البري أو القنص، علاوة على الفروسية وما إليها، تعتبر من متممات واجبات المقام، وهي كما ترتب فردية، تنتظم جماعة بين ذوي القيمة والمقام، كلّ مع شاكلته وما يليه، فكانت من ذلك نزهات وخرجات مع بعض من المجمعيين الأعظمين، ويتم ذلك بمواكب وطقوس ونصب أخبية وقرع طبول، ممّا يجعل اليوم بتمامه فرحاً غامراً ومرحاً عامراً.

وكان على الديصور أن يتمرن فردياً قبل أن يشارك المجموعة في قنصهم المجمعي، ولم يكن هذا مجرد رأي شخصي منه، بل إن مواليه وما إليه من القائمين بأمور إقامته، فتحوا ذهنه لذلك فرَضِيَ وارتضى، وإذا موكبه ناجز وركبه جاهز، وساروا باتجاه مشارف غابة ليجدوا نصب الأخبية قائمة، بكامل معدات إقامتها الخفيفة، مكتملة من كلّ ما يلزم من طيب وممتع لحسٍّ وعقل؛ وحين أخذ الديصور عدة القنص من واقي قدم ورأس، ومن عتاد قوس وسهم ورمح، عرضوا عليه سريراً محمولاً مجهزاً بوثير من رياش فرش ومستند، وبساتر سقف قماشي يقي من قوة الأشعة، يتمدد أو يتكئ فيه محمولاً مدة ما يشاء، أو فترة استراحة حين يرى ويريد؛ ورغم ما أظهر الديصور من زهد ونفور من مشهد السرير، فإن من هَمَّ إليه من المكلفين ما كانوا ليخالفوا المقتضيات، فساروا معه في هيئة

قناصة يرافقهم السرير المحمول على وجه الاحتياط وحسن التدبير.

قال... وكانت أول طريدة تبدت في مواجهة الديصور بفعل الحيّاحة(*) فأعد سهمه ليسدد ويطلق، فإذا رميته لم تنطلق في اتجاهها ومداها لارتخاء طارئ في وتر القوس، وإذا الطريدة تحمل إليه مصابة في مقتل! قالوا مهلّلين من حوله إنَّ رميته لا تخيب، ولم تحِدْ عن قصدها، وساروا معه باتجاه طرائد، لا يسدِّد نحو واحدة منها، إلا وتأتيه مصابة في مقتل بسهمه حيناً وبغيره أحياناً، بينما يعلو التهليل أثناء ذلك والسعي وراء طريدة إثر أخرى.

ولعاقل أن يتساءل عن السرّ في كلّ ما سمع أو شهد، وكان صاحبكم الديصور من العقلاء المتسائلين، لكنه يجيب نفسه بنفسه بمقتضى حال قبل السؤال: لا يجوز لهدف المجمعي المبجل أن يفلت أو يزيغ، ولا لإرادته أن تنعكس أو تفل، ومع كل عزيمة سهم ينطلق باتجاه طريدة، تنطلق سهام مرافقة، إن أخطأها سهم فلن يخطئها غيره وكلها سهام المجمعي الأعظمي ورهن إشارته وفق إرادته.

وإذا كان لمتعجب أن يتعجب من بعض ما سمع أو رأى، فإنّ الديصور قبله اندهش وارتاع لما خبره حساً وعياناً، ليطمر سؤاله في حلقه، أو ليبلع لسانه بلغة أصحابنا اليوم، ويمضي في متطلبات مهامه ومسؤولياته، متحملاً ما يرتضي وما لا... ومن جملة ما عجب له وأعجب به، بعض ما تمثله مشاركة وعياناً في خرجات قنص جماعية مجمعية أعظمية، فقد رأى من آل المجمع الأعظم من

(*) مقابل ما نطلق عليه حيّاح وجمعه حيّاحة، وهم طائفة تنتشر في منطقة القنص تحدث حركات وأصواتاً مستنفرة للوحيش مستفزة.

يقضي فترة القنص كلها محمولاً في سرير، متكئاً وسائده بين الدغل والأحراش، حتى إذا تبدَّت طريدة أصدر المكلف التنبيه إشارة يلتقط بها المجمعي قوسه وسهمه ليسدِّد في لامبالاة كبيرة، لتمثل أمامه الطريدة بعد لحظة مصابة بسهمه في مقتل! ومنهم مَن يختصر الأمر كله عند التنبيه، فلا يأخذ قوساً ولا يسدِّد سهماً وإنما يرسلها إشارة مؤذنة بالرمي، وكأن قد رمى فعلاً، وإذا الطريدة . . . إلخ، وبعضهم الآخر يستبدل الإشارة تلك، بكلمة قوية (مدفعية بلغة اليوم) يطلقها كالسهم: اضربْ، فتسقط الطريدة مضرَّجة بدمها، وتُحمَل إليه مصابة في مقتل. . .

ولا بدّ أن تعلم والعلم لعلّام الغيوب، أن صاحبك الديصور عانى في كلّ ذلك وجالد، واحتمل الكثير وكابد، لتسري السفينة مسراها، على اللّه مجراها ومرساها.

لم يكن لمشاغل الديصور وقت ولا حدّ، رغم جهود مواليه كتابه ومساعديه في القيام بكل شيء عنه، وتهيئة كافة ما يلزم، فلا يبقى له وعليه إلا الرأي الأخير أو المصادقة، لكنه مع ذلك لم تكن لتغيب عنه أن ثَمَّ دائماً من يحتاج إلى مساعدته من ذويه ومستضعفي البلدة عموماً، لذلك كانت أوامره واضحة صريحة لحاشيته في القصر، بأن تستجيب لما يطلبه القاصدون؛ وكان في بداية أمره يسمح باستقبال هؤلاء ومحادثتهم شخصياً كما أعطى أوامره بتيسير ذلك، إلى أن تعذَّر عليه الأمر لاكتظاظ برامجه، فأوكل ذلك كله لصفوة حاشيته، مع الإصرار على أن يتلقى باستمرار، تقريراً يومياً عن حاجة القاصدين ومطالبهم، وظلَّ في هذا الحرص يخصِّص فترة يومية قبيل النوم للاطِّلاع على ما يَرِدُ من ذلك.

ويمكن القول بأن الحاشية المتفانية في الخدمة، لم تكن تبخل بجهودها في مساعدة الديصور في مختلف مهامه، وفي طليعة ذلك تنفيذ ما يأمر به، بل وتوقعُ ما يميل إليه من رأي وقرار في معالجة مطالب القاصدين، لدرجة أنه لم يعُد يجد سبيلاً إلّا إلى الموافقة على ما تراه الحاشية، وذلك لسبب بسيط، وهو أن ذلك كله كان دائماً في اتجاه ما يراه، لذلك لم يعُد يستشعر حرجاً عندما تمرّ فترة بعد أخرى دون الاطِّلاع على مثل هذه التقارير، وذلك لسببين على الأقل، أولهما ضيق وقته لامتلائه بالأنشطة والالتزامات، وثانيهما أنها دخلت في حكم المعتاد ولم تعُد تحمل جديداً، خاصة مع تفاني الحاشية في الاستجابات المتوافقة مع إرادته المفترضة، علاوة على أنّ الخلاصات من تلك التقارير، وهي آخر ما أصبح يطلع عليه أو يخبر به في غالب الأحيان، كانت دائماً مطمئنة.

لكل ذلك، ولكثرة ما تعود عليه الديصور، فإنه وجد نفسه وهو ينهي فطوره ذات صباح، تتوقف نظرته على ملامح تردّد من قيّم القصر، مما جعله يتساءل عما وراءه، فازدادت حيرة القيّم وتردّده، وانصرف ذهن الديصور إلى أنّ وراءه شيئاً يريد أن يقوله بدون شاهد، فيومئ إلى الفتاة عازفة الهارْب في ركن القاعة أن تأخذ استراحتها، تستجيب بأدب، تنسحب محتضنة بكلتا يديها آلة العزف إلى صدرها.

يستدير الديصور نحو قيِّم القصر، ليتقدم هذا في غاية أدب وبشاشة لا تخفي معالم تردده وحيرته، وبعد إلحاف وإلحاح من جهة، ومعالم تحرج ومناورة من جهة ثانية، يفلت القيّم جملته القصيرة متهيباً نتائجها، وهو ينهي أن امرأة تبدو غريبة الأطوار، تتردَّد يومياً ومنذ شهور، مصرَّة على رؤيته هو بالذات والتحدث إليه!

تتجمد ملامح الديصور، ماذا؟ امرأة تريده؟ وتبدو غريبة الأطوار فوق ذلك؟ الأمر كما قدر قيّم القصر، لم يكن له ليرفع هذه التفاهة إلى مقام الديصور، في خضمّ ما يخوض فيه ليله ونهاره، والخطأ مضاعف لأنه لم يعرف اللحظة المناسبة لإفشاء مثل هذه التفاهة إلى سيده؛ كيف يغيب عنه أن بداية الصبح لا تبدأ بمثل هذه الأمور؟ لا عذر له فيما اقترف، ولا يدري كيف تخونه فطنته وحسن أدبه وتأدبه!

يعمل القيّم على تهوين الأمر على الديصور، فالأمر عابر، والخطأ منه مرجعه فقط طول ما ألحت وتلحّ هذه المرأة، مع أنه بذل لها كل ما يمكن أن تطلب، لذلك رأى خطأ أنّ من واجبه أن يخبر بالأمر، والمهم هناء سيدي وارتياح باله وتفرُّغ اهتمامه لمشاغله الكبرى، وهناك ألف طريقة وطريقة لصرف المرأة، المأمول أن يعتبر سيدي كأنّ الأمر لم يكن، وكأن لم يُعلمه بشيء أحد، والخطأ يستوجب الاعتذار وحلم سيدي أوسع وأفسح، وليسمح سيدي بأن تعود العازفة إلى ما كانت توقع من شدى النغمات، فهي كفيلة بتهدئة الخاطر، وبعث التوازن في الذات لمواجهة معضلات اليوم، وإن سمح سيدي فإن بضع دقائق من حركة المدلّكة على الكتفين والعنق، كفيلة بزرع النشاط مع كوب من نقيع شقائق النعمان الدافئ.

ينصرف القيِّم لمأموريته، لتتسلل الأنغام هادئة منبعثة في خفاء، وتخطر المدلكة في شفافية ثوب وقوام، تداعب ارتخاء الديصور في أريكته، وعبير شقائق النعمان ينساب رائقاً في الحلق، يسري مداعباً جيوب الكيان. . . فعلاً ما كان للديصور أن يحتمل سماع ترهات من قبيل امرأة تصرُّ على رؤيته. . . وغريبة الأطوار تبدو فوق ذلك! لم

يبقَ إلا أن يكون عليهم أن يطرحوا عليه قضايا المطبخ ومشاكل روائح الثوم والبصل ليجد لها الحلول؟ كل هذا مع ما نبههم إليه مراراً، وما يجب أن يعرفوه قبل غيرهم، من أنه لا يجد الوقت حتى لتناول طعامه، يعلمون هذا، يعلمون ما هو أكثر، ومع ذلك هذه يا سيدي امرأة تلحّ في رؤيتك شخصياً، أنت بالذات لتتحدث إليك عينياً ومباشرة، وأيضاً على انفراد لم لا؟ ألا تطمح مع هذا الشغف في لحظة هانئة معه على سريره؟ . . . وغريبة الأطوار! لم يبقَ إلا ذلك وتكمل الباهية(*) كما يقول المغاربة لاعبو الورق والمقامرون . . . أي نعم تبدو غريبة الأطوار! أليسوا هم الأغرب أطواراً؟ وفوق ذلك، قبله وبعده، أكانوا يعجزون عن صرفها بكرامة وإكرامية زائدة عن المألوف، ما دام إلحاحها زائداً عن المألوف؟ شهور. . يقول إنها هنا تتردَّد يومياً منذ شهور، يا للصبر! صبرهم قبل صبرها. . . شهور. . . شهور، لمَ لا يقول سنوات؟ حقاً لم يبقَ إلا أن يقول ذلك. . . امرأة؟ كأنما له الوقت. . . لها؟ ماذا يمكن أن تقول، ماذا عسى؟ وغريبة الأطوار تبدو. . . ما شاء اللّه، أي صباح هذا، وأمامه عرض يلقيه ويناقش تدابيره التطبيقية مع الهيئة القانونية للمجمع الأعظم!؟

ينتفض الديصور، يسرع صاحب اللبْسة(**) يخطو أمامه إلى

(*) نوع من انسجام الأوراق المطلوب في يد لاعب الورق.

(**) وظيفة عادية يختص بها شخص مهمته الاعتناء بالهندام والمظهر الشخصي لأعضاء المجمع الأعظم، وهي لا تعني تميزاً أو امتيازاً كبيراً، إذ إنها حق شرعي وقانوني لهيئة المجمع؛ وكثير من خاصة المتملكين لهم مثل ذلك إنما على حسابهم.

قاعة الملبوسات، يفتح خزائنها أمام نظر الديصور ورغبته، مع إشارة خفية إلى ما يقترحه لليوم ومهامه من أشكال وألوان، فعلاً يومئ الديصور بالقبول، وما يكاد صاحب اللبسة يتحرك لاكتمال مأموريته حتى يفاجأ بتجمُّد الديصور في موقفه كتمثال لا يريم، منعدم الحركة مما لا يساعد على لبس أو تلبيس. . . امرأة. . . امرأة. . . يتردد التنفس في جمود كيان الديصور، كأنما يخاطب أحداً أمامه غير منظور أو أنه يهذي. . . سيدي. . . امرأة. . . شهور. . . وتبدو. . . سيدي سيدي . . . امرأة يقول. . . ماذا يقول ماذا يسمع؟

يترك الديصور قاعة الملابس لا يلوي على شيء يطلب المرأة، قيّم القصر؛ المرأة مهما كانت وتكون ستظل تسكن خاطره، هاتوا المرأة، هاتوها، أدخلوها، نفرغ من أمرها ولتفارق إلى الأبد، هيِّئوا ما يمكن أن يخطر ببالها لتطلبه وما لا يخطر لها ببال أيضاً، هيِّئوا لتُصرف بأسرع وقت وأقل جهد، على ألا تعود مطلقاً، وألا تعودوا للإخبار بمثلها مطلقاً. . . امرأة. . . كأنما لديه ثروة وقت وفائض زمن ومزاج ليصرفه على مقابلة امرأة . . . وغريبة الأطوار فوق ذلك!؟

سيدي سيدي. . . ماذا؟ صرفت الملعونة تلك المرأة، وانتهينا منها، لن تعود سيدي أبداً لن تعود. . . لا، وكيف؟ ألف طريقة وطريقة. . . إنما انصرفت صرفت وانتهى الأمر. . . لا، ما انتهى شيء ولا ابتدأ. . . المرأة تلك أين هي؟ صُرفَت سيدي وانصرفت بطريقة. . . انصرفت راضية صرفت. . . لا. لا يمكن. ماذا قالت وكانت تقول؟ لا شيء غريبة الأطوار تحدِّث نفسها، وانصرفت راضية حتى أنها لم تأخذ شيئاً من كلِّ ما قدِّم لها، إنما انصرفت ولم

يكن من عادتها أن تفعل قبل حلول الظلام؛ هاتوها، هاتوها قبل الآن، أريدها، أريدها لتنصرف من داخلي، إنها هنا في صدري وحلقي وملء سمعي وبصري هاتوها هنا هنا... الآن...

يشير الديصور إلى صدره يدقُّه بعنف وهو يحدِّد مكانها منه، حرقتها فيه وشغل باله منذ أخبر، يريدها قبل الآن ليصرفها بنفسه من نفسه، يراها رأي العين، يكلمها، وتنصرف عنه، قبل الآن أيضاً، يريدها فانظروا، اسعوا واجروا وراءها، أمامها، من تحت أرض فوق سماء، من كل حدب وصوب... قبل الآن... هاتوها...

تقف حاشية القصر كل حسب موقعه يعتصرهم التوجس من حال صاحب القصر، لم يروا الديصور في حال كهذه، ولا كان يخطر لهم ببال، في صمتهم وعميق تخوفهم وحزنهم، يتحسَّس كلّ منهم مشاعره، كما لو كان المذنب وكلهم مذنبون، كلهم مُسيئون إذا استشعر صاحب الأمر سوءاً أو مسه أذى... كلهم بدون استثناء، وإن كان قيم القصر أعمقهم شعوراً بذلك، كلهم... ويمثل القيم في هيئة انزواء أمام ناظر الديصور، ما الأمر؟ وجدناها سيدي، هاتوها، قبل الآن، حالاً... قبل... لحظات سيدي... الآن... سيدي إنها في حال... نهيئها لحظات وتتهيأ... كما هي، وعلى حالها أحضروها، الآن، وكما هي... الآن...

ينفرط عملة القصر وحاشيته، فما لأحد أن يحضر مقابلة السيد مع غيره، فأحرى في هذه الحال، قيّم القصر أكثر شعوراً بالمسؤولية، يضع احتياطاته مع من يختار من مساعدين للتدخل السريع في حالة ما... من يدري، هذه امرأة غريبة الأطوار، يشير على مساعديه بالتزام ركن منعزل بقاعة جانبية، معتبراً بدون علم

سيده، ما يتيح له الوضع ومن معه عند ضرورة التدخل؛ غريبة الأطوار هذه، من يدري؟ يتخذ الديصور سمة الهدوء، يجلس على أريكة تتحفز مشاعره للقاء، هيا. . .

متواهية، منحنية، متشعثة الشعر في فوضى وخبل يغطي كافة ملامحها، متهدلة يشي انتفاش ملابسها بقوة ما تعرضت له من تفتيش وتدقيق، تتقدم ببطء وارتخاء لا يخفي قوة عزيمة وإصرار، يوقف تقدمها قيّم القصر على مبعدة متحفزاً لأي طارئ وإحدى يديه على كتفها، يتأمل الديصور ما أمامه، هيكل منطوٍ لامرأة ليست عجوزاً على كل حال، لكن الإهمال والضياع باديين، وقد لا تكون إلا ممسوسة أو على شيء من قبيل ذلك، تتوقف المرأة بإرادة ماسكها حيث أراد، يحدق الديصور في كل شيء في كيان المرأة، من أخمص القدمين إلى قمة الرأس، أية قمة لرأس؟ لا يرى شيئاً واضحاً، يشير إلى قيّم القصر إشارة، يعدل هذا قفاز يديه القماشي الأبيض، ويجهز على شعر المرأة المخبول المهدل يجمعه ويلويه لية على قنتها، مخفياً علائم تأففه، تبدو المرأة أطول قامة مع نحافة تنبئ بسوء حال، يتأملها الديصور في وضعها المنحني، متبيناً قوسي حاجبيها المرتسمين وحدهما بقوة، في هزال ما يحيط من معالم جبهة ونتوء عظمتَي الخدين، يبادر قيّم القصر يقوّم وقفة المرأة بقبضة وشدة، وكأنه يسحب كيانها إلى أعلى. . . تستقيم المرأة في موقفها إلى حدٍّ ما، يشير الديصور بتقدمها، يحركها القيّم أمامه دمية متجمدة، ماذا ومن؟ يتساءل الديصور. . . وماذا تريد إن كانت تريده هو فعلاً؟ لا تنبس المرأة، يحركها القيّم أن هذا سيد القصر إن كنت تطلبين، فماذا تطلبين؟ لا تبين وإن كانت الملامح تشي بحركة خفية

تحت الشفتين المزمومتين القاسيتين، يسألها الديصور ببعض قوة يترجمها القيّم انتهاراً، من هي؟ . . . تلك الحركة الخفيفة وحدها الحية الميتة تحت إصرار الشفتين، ولا بيان. . . يُظهر الديصور سِمْتَ هدوء، يرتخي إلى ضهر الأريكة، لم لا تجلس؟ يبادر أحدهم بإيماءة سريعة من قيّم القصر، بإحضار مقعد خشبي قائم أملط، يدفعه من وراء المرأة، يقعدها القيّم في استعصاء حركة وكيان، من تكون وماذا. . . ؟

يمعن الديصور في مظاهر هدوئه، لعلّها خائفة أو غير مطمئنة لغريب أو لا شيء عندها وينتهي الموقف، يومئ لقيّم القصر بالانصراف، يتريث هذا متردداً، ينظر حواليه مطمئناً إلى ترتيباته الخفية لتدخلٍ ناجع عند الضرورة قبل أن يغادر. . . الآن، الآن لا خوف عليها إن كان ما بها خوف من. . . وما. . . ؟ أُخرجْ، يلتقطها من بين إصرار الشفتين. . . ما؟ أُخرجْ، واضحة يلتقطها هذه المرة ممّن، لمن؟ ترفع المرأة ناظرها لأول مرة تلتقي بناظره، أُخرجْ تقولها العينان والنظرة الخاوية الجامدة، يسمعها كلمة مجهولة المصدر، مجهولة الاتجاه، مجهولة الدلالة، مجهولة. . . من وما؟ أُخرجْ، الصدى يردد ويتردد دون بنت شفة تنبس أو حركة من لسان، والنظرة ذاتها الخاوية الجامدة واردة من أعماق زمن سحيق، سحيق. . . من؟ سابينا! أية أغوار وتلاطم أكوان، سابينا؟ الاسم يتردد، تتلاشى المسافات متقاربة متباعدة متداخلة. . . سابينا سابينا! يتقرى ملامح المرأة كأنه لم يرها قبل اللحظة، يتفحص مستحضراً من عمق غياب سحيق كل دانٍ وبعيد، يراها الآن، يمتلئ خداها قليلاً وتصفو نظرتها من جمود وخواء، تخلو من كل حاضر إلا من

مسحة انكسار خفية خفيفة معهودة لا تفارق ولم تكن لتفارق، تتفتح أعماق وأغوار: ماذا حصل؟ والأولاد والرجال أزواجاً وغير أزواج، والرغبة عن كل شيء إلا أن تتمتع بدفء أسرتها مع ذريتها، ماذا حصل؟ ماذا تشكو ماذا تقول؟ . . . أُخرجْ، وحدها الكلمة المجهولة، لفظة المجاهيل وحدها تتردَّد تحت إصرار الشفتين المزمومتين. . . أُخرجْ. . .

ينتفض الديصور، ينادي، في ارتعاب يمثلون. . . يخرج. . . الآن. . . وحده. . . ليحتفظوا بالمرأة، يرعوها حق الرعاية لحين عودته، رعاية كاملة، ضيافة، عناية. . . يخرج. . . وحده، وحده فقط. . . العربة. . . العربة. . .

يفاجأ الديصور، قل يُصعق يُهدرُ ينثر هباء رماداً رميماً. . . يفاجأ، ماذا يرى وما لا يرى. . . العهد كان تقديراً تعظيماً محبة. . . طلعة الديصور كانت فرحة وابتهاجاً أي ابتهاج حتى مواقع خطوه، رسوم عربته على مسارها كانت بشائر إنجاز تتلقى هتاف النصر والتصفيق، والعبارة منه كانت قبل لفظها تستقر في القلوب، تينع أزهار امتنان وعرفان. . . الجموع حيث ما حلّ وارتحل، حيثما ارتسم ظله، تحرك أو توقف خطوه، تلتفّ مسرعة في تحايا وترحاب، ماذا يرى يلمس ويدرك؟ يُفاجأ، قل يُصعق يُهدر يُنثر هباباً يباباً. . . ما شأنهم؟ ما شأنهم، ينفرون من مظهره، يلتفتون عنه مزورّين جاهلين متجاهلين، ما بالهم بنو قومه هؤلاء، بنو قومه العدّاية ما بالهم؟ ما شأنهم معه؟ لو كان الحال حال المجمعيين، لما أخذ الأمر منه مأخذاً، ناهيك عن أنه لا يتصور مثل هذا أو أقل أقله منهم، إطلاقاً لم يجد هناك إلا الترحيب الدائم والقبول، وكله كان

من أجل هؤلاء النافرين المتجاهلين، أتراه البطر يفسد البشر؟ ولم يفسد هؤلاء دون أولئك، أهي لعنة الأبد وعلى مَن؟ على العدّاية وعليه هو أيضاً بالذات، فمن أجلهم وجد، ولصالحهم عمل وتحمَّل، وبعلمهم وتعاونهم أنجز ما أنجز للجميع... ما بالهم هؤلاء؟

يُوْقف عربته أكثر من مرة وهو يمرّ على الحقول، ينتظر تحية أو حتى إشارة ردّ، فإذا الوجوه تلتفت دونه، ترجّل في العراء وفي الشوارع تاركاً عربته لشأنها، يقترب من تجمعات ما تلبث أن تنفض شيئاً فشيئاً، بمجرد أن يلامس حلقتها كأنه أجرب أجذم، ترى أحدهم ما يكاد يدرك أنه قربه، حتى يتنحنح ويترنّح في موقعه قائماً أو قاعداً، قبل أن يخطو متباعداً لاكزاً الأقرب فالأقرب إليه، حتى الأسواق جربها، جرب أن يسأل عن ثمن بضاعة ليرى صاحبها يلمّها وكأنه لا بيع ولا شراء ولا لفظ، تعمَّد أن يوقف الأطفال هؤلاء الذين كانوا يرشقون موكبه بنثار الورود، يطوِّقون هامته بأكاليل زهور برية يرعونها لمَقْدَمِه ولقائه، يعانقونه ويُقبِلون متعلِّقين به وبكلّ ما حوله، الكون كله كان يحتضن سيره ومساره، يلفّه بألوان مسرة وحبور... ما بال الملامح والوجوه... قل ما بال الجحود والنكران، قل ما بال الاغتيال العمد المتأني الصريح، يغتالونه الآن أشنع اغتيال لا بمجرد الصدود وتولية الظهر والقفا، وإنما بما يلمحه حازاً في النفس جارحاً عميق الجرح، ابتسامتهم الناكرة المنكرة، مخايلها تظلِّل كل شيء، والصغار وحدهم يعبرون عنها بفصاحة فاضحة معهودة!

يتعمَّد الديصور في حال كآبته وخيبته، أن يمسك أحدهم باسماً

قبل أن يولي عنه الأدبار منفلتاً، يمسكه مسكاً يودّ أن يعرف سرّ تلك البسمة الماكرة المغتالة، يلتقي نظره بالرجل فإذا به يغالب ما به لينفجر ضاحكاً، ضاحكاً ترتخي له قبضة الديصور فيسلمه إلى حال سبيله دون كلمة، جرب أن يمسك صبياً. . . ما باله يضحك أيضاً، يمسكه متقرباً إليه منحنياً عليه، يظهر الطفل تبرماً شديداً تنعقد له ملامح وجهه الصغير غماً وحرجاً، ما باله توشك عيناه تطفران دمعا من ضيقه، يطلقه، يطلق الطفل ساقيه للريح ضاحكاً ضحكة صغيرة مجلجلة!

يؤوب به المساء، متأبطاً ثقيل الخطو منكسراً، يتدلى ذراعاه على جانبيه قطعة كيان مستعارة، كدر القصر، غمة الأنوار، زكمة الروائح ولا شيء يطاق في الديصور وما يحيط به، يتعثرون في أذيالهم، يقترحون الخدمة المعتادة: إزاحة نعل تغيير طيلسان، وثير أريكة، رائق شراب، طيب نغم ومأكول. . . لا شيء في كون يطاق، اتركوه، يتركونه مجفلين تغمهم الحيرة، يغمه ثقل كمد وهمٍّ، يخطو مترنحاً متواهياً متباطئاً يتلمس الجدران تلسعه تلك النظرات، تغتاله تُعيد وتكرر اغتياله التفاتات وانفلاتات عن منظره ورؤياه، أَإلى هذا الحدّ نفور ونكران؟ ما بهم؟ ما بالكم أهلي وقومي؟ ما به هو؟ تلك البسمات الساخرة الذابحة، من أين جاءها غور المكر، عمقه الخبيث الأخبث، بسمة الصغار واسعة حتى القهقهة الكونية، ما بهم؟ ما به؟ يتحامل، يتحرك متمايلاً، سكران بقرحة ذبح واغتيال، يزورّون عنه، ينفرون يبسمون ويضحكون دون عبارة ولا لفظ، ما بهم؟ ما به؟ يتمايل مسانداً ذا الجدار وذا الجدار، ما به وبهم؟ ترتسم صورته على مرآة، ينظر، أينظر فعلاً؟ يفتح جيداً عينيه مقاوما

كليل بصر لعله عارض، ينظر. . . من؟ هو؟ هو غير هو! يحدق ما أمكنه ذلك، هو مَن هو؟ ترتسم ملامحه مباعدة مفارقة، يحدق جيداً، ينتفي طوله والعرض، الملامح متداخلة في قزمية لا تخطر ببال، يمرِّر كفَّيه على وجهه وعينيه، أكثر من مرة يفعل ذلك، لا جديد إلا الغريب الأغرب، هذه القزمية المتداخلة لا ينفصل لها رأس عن جذع ولا أطراف، ينتفي القيام والقعود وكأنها حركة ميتة لا تثمر إلا تحركاً متداخلاً في أبعاده القزمية، يمسح عن عينيه ما يرى، فعلاً مرآته معطوبة ولا يمكن إلا أن تكون كذلك، أختها القريبة ليست أحسن، والأخرى الأبعد ليست أولى ولا أفضل، ماذا؟ يمسح عن ناظريه ما يمكن من غشاوة، يسرع في ترنحه باتجاه المرايا من واحدة لأخرى، كلها يستوي فيها قيامه والقعود، يستوي رفع اليدين وتباعد القدمين، يستوي تحريك رأس وجذع، كل الجدران مرايا، من أين كل المرايا هذه؟ كل المرايا جدران، كلها تعكس الشيء نفسه، الشيء الذي ما كانه يوماً ولا يكونه أو يرضاه لغيره، أيرضاه لنفسه؟ ماذا يرى؟ يمسح عينيه جيداً، ليس إلا حركة مكركبة محددة محدودة في أبعادها القزمية، متداخلة لا تنبئ عن أكثر من تمايل لكيان ملتمٍّ ملتئمٌ على ذاته، هو غير هو! مديد قامة، قوي هامة وشموخ كان، هو غير هو! وحدها ترتسم، قزمية تبكي وتكاد تضحك، تضحك من بكائها، تضحك من فرط فرجة وإغراب. . . يتمالك على نفسه ليخطو، تتخاذل ركبتان، تثاقل قدمان، تترنح أطراف، يتهاوى على بلاط الأرض كيان، ظلام، ظلام، ظلام. . .

(16)

ـ وحدك؟

يتحرك يمود في المطبخ الصغير ملتفتاً باتجاهها، دون أن تتوقف يداه عن حركاتهما في ترتيب بعض الأواني في مواقعها، يسألها إن كانت تريد بعض قهوة أو شاي، لا، تجيب مجيدة وهي ترنو إلى هيكله في جلستها الجانبية، وهو موليها ظهره منهمكاً في التنظيف والترتيب والمسح على الطبلة الرخامية للمطبخ؛ تقول وهي تتحرك لتقف إلى جانبه مشاركة، إن وزنه يبدو زائداً عن المعتاد، تربت على كتفيه بخفة مهمهة: بصحتك يا أخ. . .

يهزّ كتفيه في لامبالاة، كيلوغرامات زائدة تحتاج إلى مجهود بسيط ولكنه يومي عتيد؛ كيلوغرامات عديدة يقول، لعلها بعدد سنوات لم يلتقيا أثناءها ولا رأيا طيلتها بعضهما البعض، ولا تبادلا خبراً أو حديثاً؛ سنوات هي، ومنذ عودته هنا لم يمارس تمرينا رياضياً باستثناء بعض المشي، على حدود ورشة الموقع وجوار القرية، تمشّي من قبيل النزهة بلا جهد أو بذل طاقة، من نوع يساعد على الارتياح أكثر ممّا يشطب الدهون، التمرين الحقيقي كما تعرفين، هو كالعادة مؤجَّل إلى الغد، وإلى الذي بعده وما بعده، غد غير محدَّد، ولا يكاد يحل. . . أتريده في رشاقة ما تعهده منذ عشرين

سنة وأكثر؟ أيقول إنّ زيارتها المفاجئة بلا مبرر واضح حتى الآن، وقطع كل هذه المسافة للقائه، إنما هي لمجرد أن تلاحظ زيادة وزنه؟ لا يمكنه أن يغفل ولا هي، أنها بدورها اكتسبت زيادة وزن ملحوظة، لكنها في حدٍّ معقول، بل يراها لم تزدها إلا نضجاً واكتمالاً. . . اللبو. . . اللبؤة. . . لبؤة يقول يحدث نفسه، وهو يتابع اهتزاز صدرها المكتنز على إيقاع حركة يديها في الترتيب إلى جانبه في المطبخ الصغير. . . لبؤة. . . يتنسَّم نفحات واهنة من عبيرها مزيج نكهة أنثوية بجانبه، اللبو. . . . اللبو. . . اللبؤة. . . تنهي، تفتح أنبوب الماء تنظف يديها، تسحب المنشفة ثم تعيدها إلى معلقها، تربت على كتفيه، توصيه خيراً بصحته وبنفسه، تخطو باتجاه الحمام المجاور، يتابع هيئتها من صفحة الزجاج السميك تتحرك، يسمع صنبور الماء، يلاحظ حركتها ويلتقط بعض حمحمة وهي تنظف أسنانها، لتخرج ملقية تحية المساء، متجهة إلى فراشه بغرفة النوم الصغيرة المقتطعة من المكان، يرد التحية بمثلها؛ فراشه كان أول ما لاحظت عند قدومها، وهو يريها أركان مسكنه الصغير، في جزء من متحف المحفوظات الأثرية، قالت إذ ذاك تفتعل شهقة اندهاش:

ـ وحدك؟

ينظر باتجاهها، سؤال لا جدّي، لم تمضِ على استقراره هنا سوى شهور منذ إطلاق سراحه، أيكفي ذلك ليكون غير وحده؟ أم تلمِّح إلى أنه يجب أن يعوِّض ما فات؟ تبتسم كالمعتذرة، مجرد سؤال استهلالي عفوي، وحدك؟ أجل وحده، كما كانت تعرفه، وسيبقى. لم يتزوج؟ وكيف؟ رأيه الآن يشوبه بعض الوهم، لا يقول كما كان يحلو له ويعتقد، أو كما كان يبالغ في الاعتقاد عن وعيٍ

وعمد، لتزداد فكرته رسوخاً وانتشاراً: الزواج يكون عادة لجنس أو إنجاب؛ لا داعي لزواج لمجرد دافع الجنس أو حاجته، ومن أجل إنجاب لا داعي له أيضاً، يجب أولاً أن نرتب أمور المجتمع بما فيه من أفراد حاليين، قبل أن ننجده بإنجابات لا تفيد إلا في عطالة أو عمالة رخيصة، يبالغ في التأكيد أن ترتيب البيت بحاضر سكانه حالياً، أسبق من زواج وإنجاب، يؤكد كأنما يصنع شهوداً عليه خشية أن تكذِّبه الأحداث يوماً...

لا، رأيه اليوم من وجهة أخرى عملية، وهي أن الزواج كلما تأخر زادت متطلباته وتعقيداته لحدّ الاستحالة.

ـ وحدك؟

شهقتها الخفيفة العميقة، تتردَّد عابرة صدى أكثر من عقدين.. اللبو... اللبو... اللبؤة، يحلو له إذ ذاك وهو يرى قوة شكيمتها وصلابة منطقها في المواقف، أن يسميها لبؤة، اللبؤة يكرِّرها على مسامعها أكثر من مرة دون أن تعبأ، إن لم تكن تخفي بعض الرضى؛ أحياناً كثيرة وعندما يكون معهما ثالث أو جمع، ويحلو له أن يداعبها، ينطقها منقوصة بصوت خفيض اللبو... تلتقطها وحدها ويتفاهمان؛ حتى مصطفى تحرّج مرة وهو يلحظ تبادل تيار ملغز بينهما ليسأل، ولينطقها بدوره مرة واحدة كأنما يتذوقها في لا مبالاة، ولا يعيدها إطلاقاً... اللبو... اللبو... اللبؤة... أول ما أوقفها عليه يمود، وهو يطوف بها أركان البيت المُتْحفي، القصر الصغير كما يسميه، أنه أشار إلى فراشه الوحيد في غرفة النوم الصغيرة قائلاً:

ـ فراشك. . .

ـ وأنت؟

ـ . . . هنا

يجيب يمود وهو يهزّ كتفيه مشيراً إلى حيثما كان، البيت الصغير يصبح كبيراً بحضورها، والبسيط الأبسط فخماً بقدومها؛ ويمكنه أن يصنع له غرفة نوم جديدة حيث يشاء وفي أية لحظة، هنا على الكنبة، أو هناك على البساط بمجرد سحب إسفنجة مغطاة أو. . . لبؤة، يتابع وهي تومئ بتحية المساء من جديد، لتلج غرفة النوم دون أن تعبأ بغلق الباب دونها. . . لبؤة. . . يتناهى إليه صوتها تسأل عن زرّ المصباح الليلي الخفيف الذي لا يشتغل، ينبِّهها إلى إدارة المصباح الصغير نفسه في موضعه اللولبي ليثبت جيداً في موقعه. . . لبؤة، كان يسميها وتستحلي ذلك خفية، يستشعر ذلك منها دون أن تبديه، لو يجدِّد النداء الآن؟ لا يستشعر مذاقاً ولا موقعاً لذلك، ولو أنه يهمه على سبيل الفضول، مجرد الفضول أن يرى ملامح وجهها وهي تستحضر حمولة النداء. . . لبؤة. . . أكثر من ذلك، يود أن يستشعر منها ما لا تعبِّر عنه. . . والآن، بعد عقدين وأكثر، ماذا يكون الطعم لديها؟. . . لبؤة . . . يحدّهما فضاء بلا حدود، يجمعهما في رحابة أمن وخوف. . . كان إذ ذاك خائفاً فعلاً أو متسائلاً على الأصح إن كان هو الخوف حقاً؟ لم يجهر بسؤاله، لا لها ولا لأيٍّ من الرفاق؛ في عتمة تلك الظروف، كانت الأغلبية من قياداتهم في السجون أو في منافي اختيارية بقهر، الدور عليهم ولم يكن ببعيد، بعد أن سبقهم مصطفى إلى الزنازن هذه المرة، ولم يفلح في اجتياز الحدود كما كانوا جميعاً يقدرون.

غادرا العاصمة إذ ذاك خفية، يمود ومجيدة، أَوَيا إلى صديق في إقامة طلابية صغيرة بمدرسة عليا على هامش الدار البيضاء، ليقضيا أكثر من أسبوع منتظرين خبراً بإمكان رحيل إلى خارج الحدود أو مكانٍ ما أكثر أمْناً. . . لكن ما يداهم بُعيد غروب، هو أن حملة تفتيش عامة سارية، ومحتمل جداً أن تشمل مأمنهم الحالي، إذ ذاك لم يكن بدّ من مهرب وخروج، ليجمعهما فضاء شبه غابوي على مقربة من الإقامة ومؤسستها، يفصله عنها فضاء خالٍ. . . أكان خائفاً؟ لا يدري طعم الشعور ذاك، لكنه لم يكن ليبوح به أو يعترف؛ كل الرفاق يعانون من ذلك في مثل هذه اللحظات. . . يقول لنفسه، كلنا بشر من لحم ودم؛ يؤكد لنفسه أنه طعم المجهول وطعم التوقع في أحشائه، ولا يمكن أن يكون خوفاً أبداً، مطلقاً؛ يجتازان الفضاء العاري في عتمة مقدم ليل مبكر، ثالثهم الصديق يحملون بعض ما يستعان به بمثابة فراش وغطاء في العراء، في انتظار ما يجد.

يضمّهما فضاء. . .

يتمدَّد على ظهره فوق طيات بطانية قطنية، تبدو السماء من خلال فرجات شجر سامق وبداية عتمة، كما يلاحظها لأول مرة على هذا النحو، في غاية إبهار مع نجوم متردِّدة لا تزال، بين التماع وتوارٍ، في انتظار عتمة، مزيد عتمة وإظلام. . . لعله الهروب، الهروب إلى الأمام كما نسميه أو إلى الخلف لا أدري، ربما. . . هروب إلى الأعالي والمجاهل، غوص في عالم داخلي من خوف، يدعوني لاستحضار صور ومحفوظات رومانسية طفلية، لماذا تجوبني الآن بحيرة لامارتين، لماذا صورة ريح هوجاء أمام عاتية دوح وصفصاف مع مائل رطيب من قصب وطويل أعشاب، لماذا رعشات

خشوع كوني من بجعية شتراوس تراود... الآن... لماذا الآن؟ هروب إلى ما لا يدري من وجهة، إلا أن تكون بطعم هروب... إلى أين؟ لم لا قعقعة عنترية وليلة زنج... معرية؟

يلتفت إلى يساره، مجيدة مقرفصة متكئة بظهرها إلى جذع شجرة، لم تبسط فراشاً بعد، يرنو إليها، تبدو في غياب شبيه بلحظة غيابه، فرق ما بينهما أنه لا يتبين وجهة نظرتها، لكن لن تكون إلى السماء مثله، في وضع قرفصائيتها واتكائها إلى الجذع، لا تتجه لغير الأرض، يستشعر حرمة ما يحتويهما من هدوء شامل تام، كلّ أوى إلى وكن، تصدر تنهيدة مسموعة من أعماقها؛ لعلها مثله فيما يشبه الخوف، تركب الهروب داخل الذات أو بعيداً، بعيداً خارجها.

يغمض عينيه، وكأنما يضع كفاً على فمه حتى لا يتكلم، ليلهما الطويل، ليل رفاق في زنازن، وآخرين في غربة مفروضة بلا حدود، ألا أيها الليل الطويل... مرة أخرى يجرفني تيار الهروب إلى صور طفلية مهما تكن شعرية، في ليل يبدو في أولى عتباته بلا آخر، ولا ينجلي.

يستشعرها تتحرك، بل تدنو منه، يُدرك ضعف اللحظات وعليه أن يكون الأقوى ليجنِّبها السقوط، كما تفعل هي في لحظات مماثلة تكون الأقوى، كما نفعل كلنا نحن الرفاق، الخوف والرهبة مشعر طبيعي، والإرادة المنحوتة من صبر وتحمل بشرية كذلك؛ لا ينسى لها مواقف الصمود في لحظات صعبة، ولن يسألها أو يجيب عن سؤال الخوف، فلقد أجاب نفسه بنفسه وتهيأ له؛ حرارة كيانها الآن تلامس كيانه، ردفها في نصف جلسة يجانب خده في وجهته المغمضة نحو السماء، لو كان يعرف ضعفها، لولا أنه يأبى أن يزرع

في فضائهما مشاعر ضعف لاحتواها بين ذراعيه، مؤنساً مستأنساً. . . أتجاهلُ ضعفها إذن، كما تجاهلتْ ضعفي، بل خوفي مراراً. أوّل ما لا يفترضه المرء، أن الآخرين على قدر من قراءة مشاعره بلا لفظ، ذاك ما كررتُـه مراراً في حالات مشابهة، وهي بالذات تحسن قراءة أفكار الغير، لكنها. . . ربما كبقية الرفاق، ينكرون كل سلبي عن اقتناع: ماذا يفيد خط السير والتطور، أن تقول لصاحبك إنك خائف أو أنه هو كذلك!؟

تمرر يدها على جبهته بلطف، يستشعر حرارتها ربما من برودة جبهته، يفتح عينيه على التماع نجوم مسترقة ما بين فرجات الشجر، لا يلتفت لكنه يحرك يده لتمسك بيدها، حركة يريدها إيناساً لهما معاً، تشدّ على يده بقوة، كأنها تتشنج، كأنها تجهش منتحبة في صمت، ينهض يمود يقتعد متجهاً إليها بكليته، تدفن رأسها في صدره، يمرِّر شفتيه على شعرها المنسكب، تفعمه أفواح عطر متنائية، يتخلله بأصابعه يميل صفحة وجهها باتجاهه، يلتقيان في قبلة عميقة قصيرة ما تلبث أن تقطعها منتفضة. . . لم تكن أبداً مطمئنة إلى العزلة هنا، محتمل جداً وأكثر من محتمل، أن الصديق كان ونحن عنده تحت المراقبة، وثم شيء غير مريح يدبر، محتمل وجدّ محتمل، العزلة هنا ليست حلاً بقدر ما هي أشكل مشكل. . . تقول مجيدة وهي تجرّه من ذراعه باتجاه قامتها المنتصبة.

ـ نُضْ يا اللّه

تجره ليقوم، لا تريده لنفسها ولا لأحد من الرفاق، أن يُصطاد في عزلة كهذه، قد يكون الأمر مدبراً وقد لا. . . إنما تفضل ألف مرة أن يلقى عليها القبض، أو تلقى نهايتها إذا قدر، إنما في

الشارع، بين الناس، بين أهلها على ظهر هذا الكوكب حيثما كانوا، ونهاراً لو أمكن، تحت أجهر أشعة شمس فاضحة لو أمكن، إنما لا في عزلة معزولة، ودكنة عتمة.

ـ نُضّْ، قِفْ...

تكرِّر عزمها أن ينهض معها، أن يتركا العزلة وأن يخطوا أو يركضا بحثاً عن إيناس حقيقي ودفء، من بشر ونور... يقوم يمود شبه متردِّد، لا تترك له فرصة، تجرّه وراءها، تسحبه في انحناءة باتجاه ما كان لهما من فراش، تجره غير عابئة بشيء إلّا أن يتخلَّصا من المكان ويتحركا بسرعة وخفة، يطاوع حركتها ولم تترك له فرصة لمناقشة القرار، يسيران بقوة وعزم، يجوسان في الظلام يقودهما حدس المكان، حتى يتجاوزا دغل الغابة الصغيرة، وتبدو لهما أضواء حركة السير من بعيد، نشيطة ومتقطِّعة في هذه اللحظة وعلى طريق رئيس باتجاه الجنوب الغربي خارج الدار البيضاء، طريق معروف يقدران به موقعهما وهما يتَّجهان صوبه صامتين، إلا من تيار خواطرهما في اتجاهات متعدِّدة؛ أية وجهة يتخذان، ومن يقصدان في هذا الوقت، ومن هذا الموقع؟

يقتربان شيئاً فشيئاً من الطريق، حركات السيارات في اتجاهين تبدو على موجات متلاحقة، تتقطع حيناً لتتصل حيناً آخر بغير انتظام، قادمة باتجاه المدينة ومغادرة لها في وجهتين متعاكستين، على خط طريق واحد؛ يقتربان باتجاه الطريق، وبقدر ما يدنوان بقدر ما يزدادان توجساً وبطئاً في حركتهما، وهما يحاولان أن يتبيَّنا ما إذا كان هناك ما يشير إلى تواجد سلطة، من قبيل ما ينصب من حواجز أمنية ونقط تفتيش، مطلوبان، مبحوث عنهما ويعرفان ذلك، لكن لا

أحد منهما يودّ أن يقع صيداً سهلاً في يد العدو، قل في واحد من فخاخه المنصوبة من أجلهما ولمن على شاكلتهما.

يحدِّقان كلٌّ من جهته إلى اتجاهي الطريق، يتبيَّنان جيداً ما حولهما وحول الطريق، لا شيء وأغلب الظن أن الخطو منهما باتجاه الطريق في هذه النقطة، يكون قد رماهما إلى ما بعد الحاجز الأمني أو أنهم رفعوه قبل الآن؛ يمضي بهما وقت وهما يرصدان الطريق، متماسكي اليدين، ثم وكأن تياراً يسري بينهما، تطبع على شفتيه قبلة خاطفة، تترك يده من يدها وتمضي، يتبعها وتخطو بسرعة باتجاه الطرف الثاني للطريق، تلتفت تشير إليه بيدها إشارة توديع خفيفة، وتسير محاذية لخطّ سير السيارات، تخطو رافعة يدها مرة وأخرى، لتتوقف شاحنة على مبعدة منها، تسرع إليها، ينفتح مصراع كابينة السائق، بضع لحظات لعلها تبادل جمل عن الوجهة والمقصد، ثم ما تلبث مجيدة أن تقفز دون التفاتة أو تردُّد، لتغيب بالداخل، وتزفر الشاحنة زفيراً غليظاً كالشخير تنفث معه خطّ دخان متدافع، متحركة بقوة وثقل، لتخِفَّ حركتها، ويتباعد متناقصاً هدير محركها.

يظل يمود في موقعه متعلقاً بشبح السيارة المتباعد، متابعاً حركته المتنائية بالتماع جمرتَي ضوئه الملتهبتين على طرفيه، حتى تدخل على المشهد نقاط جمر لسيارات أخرى تقطع حبل المتابعة، ليعود إلى نفسه حيث هو يمود؛ لا يعرف له ولا لها وجهة محدَّدة، إنما قررا، أو أصرَّت هي على الأصح، أن يفترقا في الظلام، على الطريق، في اتجاهين مختلفين.

(17)

ـ الحب أيام السجن كان أحلى

ـ لا أسهل من أن تعود إليه

ـ الحب؟

ـ السجن

ـ بل هو الأصعب، الآن!

ـ من جانبك؟

ـ ربما

ـ لماذا؟

ـ واضح أنني لا أستطيع أن أقوم بما كنت أقوم به، أو أفكر فيما كنت أفكر فيه

ـ قم بغيره، أي شيء يوصلك إلى السجن!

ـ لا يمكنهم

ـ ما ينقصك؟

ـ الكثير، كل شيء: الحماسة، الإيمان، الروح

ـ إذن تمنّ أن يمنوا عليك بظلم ما، بافتعال تهمة ما...

ـ لا يمكن

ـ ما ينقصهم؟

ـ الكثير، كل شيء: الحماسة، الإيمان، الروح

ـ إذن؟

ـ مرحلة كانت مرسومة من طرفين...

كأنما يستفيق من غفوة خاطفة، يغير وضع رقدته من على الظهر إلى جنبه، ماذا كان يقول؟ يشخر كان؟ ربما، وصوتها ألم تتحدث إليه؟ السجن... الحب، هذيان منه أم حديث بينهما؟ يتحسَّس بسمعه، أنفاسها تتردَّد بالقرب، في غرفة نومه هناك في ليلتها معه بالموقع الأثري، تحدثتْ، ربما... ولا شيء يشي بحديث منها، ربما هي رهافة سمع زائدة منه، يستدير إلى جنبه الآخر، يستعصي النوم، تستعصي اليقظة، حال يعرفها من دهور السجن ورفضه الدائم لمنوم طبي، تستعصي يقظة ونوم ويغمر ما بين... رافضاً أي منوم طبي يظلّ إذ ذاك، مصنِّعاً لنفسه منومه الخاص، رياضته لينام أدمنها في عزلة الزنزانة، أن يعدّ الأرقام في سره من واحد إلى اللانهاية، هكذا ببساطة إلى شبه غيبوبة نوم في يقظة في نوم، منومه ذاك البسيط أبعد عنه اليوم من أيّ شيء آخر يريدونه له أو منه، منوم طبيعة أخرى مغايرة، من جنس المرحلة وطبيعتها! هكذا يقولون أو يمكن أن يقولوا: طبيعة المرحلة! الظروف الآن تختلف، المتغيرات، المستجدات... يقولون ويكررون؛ ومتى لم تكن الظروف مختلفة متداخلة ومتباينة؟ متى كانت واضحة فصيحة بسيطة؟ لم يكن صريحاً

في ردّه على التلميح الوارد: لم لا يقولون مستنكرين، لم لا على الأقل... مركز دراسات، لم لا على الأقل؟... يقترحون ويبررون...

ـ ... استراتيجية؟

يتساءل يمود في برود، شبه حياد

ـ لم لا؟

هذا ما يريدون له بعد رفضه كل العروض طوال جولات معه. إدماج؟ قولوا تدجين قولوا تقييد... منطقهم: في تمنُّعك المطلق، ما القول في مركز أو سَمِّهِ... دراسات أو ما تشاء؛ سموه أنتم ما تشاؤون، أما هو فله الاسم، يكاد ينفلت من بين شفتيه المزمومتين على مرارة في الحلق وحرقة جوف؛ لم يكن صريحاً حتى لا يكون جارحاً إلى أقصى حدّ، يريدونها وكالة دراسات تبريرية، لما جرى ويجري ويمكن أن يجري من جديد؛ أليست طبيعة المرحلة تقتضي أذرعاً وأعمدة اقتصادية، إعلامية، وعلمية أيضاً... لم لا؟ ألا ننام؟

ـ ربما قبل السجن كان أحلى...

ـ النوم؟

ـ الحب...

صوتها؟ لعلهما كانا يتحدثان بدون خلاصة عن الحب والسجن أو... صوتها؟ لا، إنما يستشعر صوتها، بقايا نهاياته واهنة لا تزال حقاً ممتدة في السمع، صوتها؟ لا جواب. يرهف السمع، ربما

تتحرك في فراشها كالمتأوهة بصمت، لينمْ بدوره، ليستنمْ بأية مادة أو طريقة؛ يتحرك يسوّي وضع الوسادة تحت رقبته، يحاول. . .

ويتعرج الطريق جبلياً بهيجاً راقصاً، جموع الطلبة في ثلاث حافلات، يغذي مسيرتها طرب وغناء، في رحلة سياحية الظاهر، أريد بها في العمق تمتين الروابط بين طلبة الجامعتين بعد شقّ الجامعة الأم إلى نصفين، على مسافة مئتي ميل بعداً، الأزمة تحتدّ، والقراءة الأولية لا تدلّ على أكثر من تدبير لشق قوى الجامعة المحركة.

مرح ونشاط تهتز به أركان الحافلات، لم يمنع من أن تكون إحداها مخصصة لاجتماع القيادات الطلابية في حصانة من منع ورقابة، يتوّج في محطته الأولى باحتفاء فخمٍ يستقبل به الطلبة في الجامعة الفرعية نظراءهم الزائرين، معانقين مرحِّبين راقصين، في امتزاج والتحام، لم تخفِّف منه فترة تناول الغداء المشتركة في المطعم الجامعي، بل تخلَّلتها أهازيج وأشعار وكلمات تحميسية هادفة، وإن لم تكن محددة ولا مباشرة في مراميها الآنية بالذات، تلك التي شملتها المرحلة الثانية من الرحلة، بانضمام حافلات أخرى من طلبة الجامعة المستقبلة، ووجهتهم جميعاً سياحية بالمناطق الجبلية القريبة.

قوى التفكير وقوى التغيير، خطة هذا الربط الضروري، هو ما دار تدارسه في لقاء القيادة الطلابية، في اجتماعها المتحرك في جوف حافلتها في المرحلة الثانية؛ المنظور الذي طالما كان مصطفى يلخِّصه، وهو الآن يفصل فيه بكافة الأبعاد ويطرحه للنقاش، قوى التفكير وفي طليعتها الجامعيون، تمثل نخبة ضرورية لكنها لا تكفي

للتغيير، لا بد من الالتحام بجموع تمثل قاعدة التحرك، تشكل ضغطاً جسدياً على النظام؛ المصدر الممكن لذلك والمنجم الحقيقي: طلبة المدارس الثانوية، والعمال في المصانع.

متألقاً واثقاً كعادته كان مصطفى، الإخوة والرفاق باختلاف تياراتهم، ناقشوا وأقروا المنظور على أن تترك آليات وطرق التنفيذ للجنة محدودة، من هنا مدخل حملة الاعتقالات، تلك التي ستشمل الرفاق أعضاء اللجنة، وتترك مصطفى استثناء مقصوداً، الاتصال بالمدارس كان قوياً وسريع النتائج، إذ عمَّت المظاهرات معظم الشوارع المؤدية إلى المدارس، وأصبحت أكثر من مزعجة وداعية لردّ الفعل من السلطة الأمنية؛ والأهم ما شُرّع خفية من مفهوم «الخدمة الجامعية التطوعية» غير المعلنة، والمتمثلة في التخلي والتضحية من جانب من يتطوع بذلك من طلبة الجامعة، بفترة أو فترات متقطعة من تكوينهم، وذلك بالتوقف عن الدراسة مؤقتاً بدواعي عديدة، من بينها المرض والوضع الاجتماعي، وفي أقصى الحالات يمكن افتعال الفشل الدراسي، وذلك بقصد الاندماج في صفوف العمال وطلبة المدارس بطرق مختلفة في الفترة المذكورة؛ اعتبرت الفكرة ضرباً من أنواع الخدمة التي تفرضه أنظمة ومؤسسات معينة، على أطر أو أفراد بالتخصيص أو التعميم، وهي مستوحاة من مثيل ذلك، إلا أنها لأول مرة تستعمل على هذا النطاق وبصفة منظمة سرية وغير رسمية، النتائج جاءت باهرة مبهرة، أخرجت السلطة عن طورها وردت بعنف.

يقول مصطفى إنّ ردّ الفعل ضروري ومتوقع وغير ذي أهمية تاريخية، الفعل وحده يبقى ويترك أثره الداخلي؛ أننكر ذلك الآن؟

ننكر التاريخ وننسحب من مختبر صناعته؟ يجب أن نحسن قراءة الظروف، يقول مصطفى الآن؛ ألم نكن نخلق الظروف، نعمل لخلقها على الأقل؟ يلاحظ مصطفى بقوة أن إيجابية تجربتنا عن إدماج قوى التفكير والتغيير، وأن التقييم بصددها إذ ذاك، لم يكن إلا نصف الحقيقة، والنصف الآخر؟ يتساءل يمود بنصف ابتسامة، نصف الحقيقة أو وجهها الآخر؟ سؤال لم ينكره مصطفى إذ ذاك من رفيق يقدِّم تقريره عن المشاركة في تظاهرة العمال احتفالاً بعيد الشغل، يسجل ابتهاجه بالتجربة، ابتهاج العمال وهم يرون طالباً جامعياً في صفوفهم يردِّد هتافاتهم، إلا أنه يتأسَّف على أنه بقدر ما كان يردِّد بحرارة ما يردِّدون، كانوا، يقول الطالب في تقريره، لا يشاركون إلا آلياً في ترديد شعاراتنا، وينظرون إلينا نظرة استفهام واستغراب، كانوا فعلاً لا يفهمون ولا يتفاعلون، أه نصف الحقيقة ذاك. . .

إذ ذاك يعجل مصطفى باستنتاج أنّ هذا طبيعي وعادي، ومؤشر على أننا على الطريق الصحيح في الارتباط بقوى التغيير. . . أننسى؟ يقول مصطفى إذ ذاك، إن نصف الحقيقة الذي هو كل الحقيقة، يكمن في أننا كنا دائماً، أبعد ما نكون عن الواقع العملي، في تفاعلاته ومتطلباته الحية.

ألا ننام؟

لا صوت يتساءل أو يجيب، لا منها ولا منه في الغرفة المُتْحفية، السؤال منه فيه بلا صوت ولا حرف، لينمْ بأية طريقة.

لا صوت يتساءل أو يجيب. الصمت الآن بينه وبين مصطفى

هذه المرة، والواصل زنزانة يمود السجنية؛ يلتحق به فيها مصطفى ضيفاً فوق العادة، خلاف كل عادة سجنية. ينقطع صوت مصطفى، يتحسسه يمود في الصمت بالقرب منه، يتحسس أنفاس توقعاته منه، كأنما على يمود أن يرد. يسود الصمت، تشملهما به هدأة الزنزانة المشتركة كما كانت تشملهما به ضجة العنفوان: شقة صغيرة مشتركة وسرير لثاني اثنين لا يفترقان، لا يختلفان: مصطفى ويمود. تخشخش وحدها أوراق الجرائد بينهما في صمت سجني، ربما لا أحد منهما يركز بحق فيما يقرأ، ربما همود فضاء الزنزانة لحد الموت إلا من تردد أنفاسهما، هو ما يدفع إلى تحريك الأوراق بهدوء. . . الضجة والاحتداد كل الاحتداد، في الأعماق.

أكثر من أي وقت مضى يستشعر يمود ضياع الحقيقة أولاً، قل تميُّعها على نحو تصبح بلا شكل ولا حجم ولا مذاق، أيجوز؟ أيجوز أن قراءة الحدث الاجتماعي، لنقل التاريخي تمثل على هذا النحو من الاختلاف في الفكر الواحد والشخص الواحد؛ نحن إذن أشبه بمن يبحث عمّا يريد فلا يجد غير ما يريد، ذلك الساحر الديكارتي يخفي تحت سترته ما سيجده فيما بعد، من طريق البحث الخالص والمنهج! كيف يكون التاريخ إذن، كيف يكون المستقبل الذي نصنعه تاريخاً، أو يجب أن نسير باتجاهه وصناعته؟ أم نبقى مجرد قراء لحدث وواقع؟ الأستاذ الكبير لم يكن واهماً وهو يعطي الأهمية كل الأهمية للمتبقيات الأثرية، لغة الطبيعة والكون والإنسان والحضارة مهما كانت درجتها، بلاغة الأثر في المحيط والإنسان وبهما معاً؛ ماذا نحقق إذن، ماذا نترك من أثر؟ الأستاذ العظيم يقف كثيراً عند محاضرة علمية في مؤتمر ذهبت صاحبته إحصائياً، إلى أنّ

نسبة عالية من مجتمعها ـ حدَّدت النسبة في إطار بحثها التجريبي الميداني ـ يتشكل من ثنائيات زواجية، لا ينتمي إليها عديد من أبنائها بيولوجياً، وأكثر من ذلك أن الغالبية من عينة البحث الثنائية الزوجية هذه، تعرف ذلك، يستنتج الأستاذ العظيم مستنكراً صوت مناقش يربط الأمر بظاهرة الدعارة المجتمعية والتفسخ الأخلاقي، يقول الأستاذ إنها الحرية الفردية، نمط تحرر يرتبط بفترات التحول الكبرى في أنظمة المجتمع والحكم؛ مع الاعتذار للأستاذ العظيم ومقصده الكوني، ألا نستعير الدعارة وننقلها إلى ميدان آخر فكري وسلوكي سياسي، يستقل فيه كل عن الآخر أو يتصل، بغير انتماء حقيقي ولا رابط مبدأ؟

تتواصل الاتصالات الرفاقية بشتى الأنماط على زنزانة الاثنين، مهنئة أو متسائلة، السجانون أصبحوا سعاة بريد أوفياء، حريصين على تبليغ كل شيء في أوانه بالدقيقة وأختها، ولا يبدو على الاتصالات أنها مراقَبة ولا على الرسائل أنها مفتوحة للاطِّلاع والاستطلاع المعهود، لا. لا رقابة مطلقاً على الصادر والوارد كالمألوف، ولا منع. طمأنينة تامة وأمان يبدو متبادلاً، مكالمات الهاتف المحمول الذي نادراً ما كان يُرى إذ ذاك، يقدم لهما بكل طلاقة وترحيب، وعبره يتبادل يمود التحية مع مجيدة على البُعد، بين جدران سجنها، تطلب مكالمة مصطفى أولاً، يتبادلان التحايا والمعلومات عن الجديد بلا مواربة ولا ترميز، تسريح على عتبة التنفيذ، أحوال إيجابية، معنويات رفاقية مرتفعة، والمسؤوليات المنتظرة عالية، تبادر مجيدة على البعد مسائلة يمود، إن كانت ضيافته السجنية مغرية إلى حدّ أنّ ضيفه يؤثِرُ الحبس معه على فضاء

الحرية؟ يقول إنه غير مقصِّر في شيء، تهدِّد بأن ذلك يغري أياً كان، بالهجوم عليك والنزول ضيفاً في زنزانتك. . . هي مَن قد يفعل ذلك على الأقل، ووحدها تتوق، لا لشيء رغم الشوق للقاء، وإنما للاطِّلاع قبل أي شيء، على ما هو منهمك في كتابته للإفادة منه، وحتى لا يتكرَّر بعض ذلك في مذكراتها الخاصة.

(18)

ـ زارتنا البركة، أهلا بالدكتور

يرحب المدير بمقدم الأستاذ مرّوني، يقوم من مكتبه لتحيته، يشير إليه بالجلوس على أريكة ويجلس على أخرى بالقرب منه، يضغط على زرٍّ وهو يسأل ضيفه عمّا يشرب: بارد أم ساخن، قهوة، شاي...؟ يومئ مرّوني بالشكر والاعتذار، ولا داعي لإضاعة وقت... لا. لا. لا يمكن، زيارةٌ مبروكة، الشرف لنا يا أستاذ.

يطلّ الشاوش منتظراً الأوامر، يشير المدير بإلحاح إلى ضيفه، قهوة... إذن قهوتان؛ يعود إلى ضيفه مرحباً، متعارفان سبق لهما الالتقاء، مضى زمن على ذلك، ينظر كلٌّ منهما في ملامح صاحبه كأنه يسترجع اللحظات... لا داعي لإضاعة وقت، وزيارة مدير الشؤون العامة بقلب وزارة الداخلية، خطوة غير مريحة لمرّوني، لولا الضرورة.

ـ خلنا نشوفك يا أخي، مالك مستعجل؟

يرد المدير بتلطُّف على هيئة مرّوني المتسرِّعة، تحضر القهوة، يمد المدير لضيفه الفنجان بالصحة والعافية، يقول مرّوني إنه مُحرَج ويريد أن...

ـ تفهم...؟

يومئ مرّوني موافقاً، هي فعلاً كلمته التي كان سينطق بها، يريد أن يفهم، وهو في غاية الحرج، البحث الجامعي مشترك مع مؤسسة دولية معروفة، الموضوع علمي بحت، التكليف بالبحث صادر عن جامعتنا، عن مؤسسة حكومية، المدة محدَّدة والوقت يمضي بدون طائل، في انتظار الرخصة، يريد فعلاً أن يفهم.

يبتسم المدير، بهدوء يبتسم، يا سيدي افرض أنها الزيارة منك هي السبب، نريد أن نتشرف برؤيتك، لم لا؟ ألا يكون هذا سبباً، ألا يكفي؟ يساير مرّوني مجاملة المدير بملامح غير المقتنع، زيارته؟ طالما حصلت، لكنهم كانوا يسعون إليه سعياً، يحملونه حملاً بسياراتهم، وقلَّما يتيحون له فرصة الاستعداد لمرافقتهم، ذاك شيء مضى، ويمكن أن يحدث في أية لحظة. لا يهم، يريد أن يفهم وهو على وشك أن يقدم استقالته من التكليف بالبحث، وسيكون صداها مدوياً خارج البلد، لأنه سيدلي باعتباراته، ولن يكون المانع إلا سياسياً أمنياً في غير محله.

ـ لا تسيّسْ الموضوع يا أخي.

يرد مرّوني بقوة، هم الذين يسيّسون الموضوع، أنتم تسيسون كل شيء، أما هو فمواقفه السياسية معروفة، لها وسائلها ومجال نشرها وأسلوبها، لا يخفيها ولا ينكرها ويتحمَّل مسؤوليتها، لكنه الآن أستاذ باحث وحسب، بعيداً عن السياسة، أنتم تسيسون كل شيء بحجة وأخرى، لكنها وهمية على كل حال في مجال البحث العلمي، والخاسر الأكبر هو تقدم العلم والمعرفة، كيف يتقدم البلد، كيف يتطور المجتمع بدون حرية فكر وبحث؟

بابتسامة هادئة يتابع المدير، لا أحد يتدخل في حرية الفكر والبحث، لا أحد مطلقاً ولا من يعمل على تأخير أداء علمي، وإذا كان من مستفيدٍ من البحث الموضوعي فهو المؤسسة الوطنية أولاً، لا. لا مشكلة في هذا الباب.

ـ إذن؟

يحدِّق مرّوني في صاحبه متسائلاً، يظلّ المدير هادئاً صامتاً ممعِناً نظره في ملامح مرّوني، قبل أن ينهض بتثاقل، يمكن أن يفهم من يريد أن يفهم، إذا لم تكن ثَمَّ أحكام مسبقة، هي هذه المشكلة بين طرفين أحدهما في جحيم المسؤولية، والآخر على الضفة الأخرى، قد تكون الضفة تلك بدورها مرارة وعلقماً، لكنها أرحم بكثير من الموقع المقابل، تريد أن تفهم؟ مَن يستطيع أن يفهم؟

يتقدَّم المدير نحو ركن في زاوية مكتبه، يشرع باباً صغيراً ويدعو مرّوني إلى التطلع، فراش وغطاء على سرير معدني... هنا يقضي عمره المسؤول الكبير؛ الصورة الأخرى، صورة الرفاه، الرخاء، الليالي المقمرة والسهرات الحمراء مغرقة في الوهم، مَن يتصوّر موظفاً سامياً، مسؤولاً كبيراً يقضي جلّ لياليه هنا، في حيِّز ضيق على فراش كهذا؟ مَن يتصوَّر أنّ القاموس خلو من عبارات العطلة والراحة.

يغلق المدير الباب الصغير ويعود إلى جليسه، يؤكِّد أنه وغيره نسوا أنهم بشر ولهم أسر وحقوق، بل وعليهم واجبات، يقول ضاحكاً بمرارة عن زميل في مؤسسة أخرى مماثلة، اغتنم فرصة سانحة كانت بمناسبة تقبُّله إطراء مشهوداً من رؤسائه، على مهمة وفِّق

في إنجازها على خير وجه، كان ذلك تشريفاً كبيراً له، ونادراً ما يحصل نظيره؛ وجد الزميل نفسه على كل القرب من أعلى رؤسائه، فأبدى ما يوحي بأنه يريد أن يسرّ إلى الرئيس برغبة شخصية متواضعة.

ـ تفضل، اطلب ما تشاء.

قالها الرئيس بأريحية، وهو ينتحي بالزميل ركناً ويناوله سيجاراً من علبته الفاخرة.

ـ ندخن أولاً

أريحية الرئيس الكبير تبلغ ذروتها الإنسانية، يعرف بالخبرة مبلغ الصعوبة والتردُّد في الإفراج عن الرغبات الشخصية، ولا سيما بالنسبة إلى الأفذاذ المستميتين في أداء الواجب، ينشقان الدخان سوياً برضى متبادل وهناء.

ـ هه؟

يستحثّ الزميل بلطف بالغ، يريد أن يزيح عنه كلّ ارتباك، ينفثها الزميل بصوت خفيض مع زفرة الدخان، يريد أسبوعاً للسفر مع أسرته!

لا يتأخر الردّ رغم معالم الخيبة على ملامح الرئيس، كان ينتظر رغبة أخرى غير هذه، ولكنك مسافر دائماً، وعدت للتو من مهمة، وبانتظارك أسفار في مهمات أخرى...

يستشعر الزميل كامل التقلُّص في كيانه، والرئيس يستدرك في النهاية مربتاً على كتفه وهو يستدير عائداً إلى حيث كان، لا بأس، سنرى.

يضحك المدير بمرارة وهو يؤكد أنه لا يزال إلى الآن يمازح ذلك الزميل، بما لا يزال وسيظل ينتظر، وهو في حالة ندم على كبيرته تلك، في الإعراب عن رغبة شخصية متواضعة.

تلتقي نظراتهما. عودة إلى الموضوع، يريد أن يفهم؟ الأمر خالٍ من كل سياسة أو قُلْ مغرق في السياسة إذا أردت، الأمر لا يتعلق بالبحث العلمي وموضوعه، فهذا حقّ مشروع وضرورة وجوب، ولا يتعلق بالجهة المشتركة في البحث وهي دولية معروفة، كما لا يتعلّق بجهة التكليف الثانية المحلية وهي جامعتنا، لا شيء من ذلك، والرخصة نفسها جاهزة. تريد أن تفهم؟ الجحيم يتعلق يا أخي بمن أو ما. . . بالجهة التي يمكن أن تستغل البحث، في أيّ اتجاه، وبأية كيفية يمكن أن يتمّ ذلك؟

(19)

اجتماع لم يخلُ من خيبة، بدون نتيجة فيما كان يرجى من تشكيل جبهة قوية من تحالف فصائل طلابية، يقول يمود إنه لم يرَ مصطفى منهكاً كما رآه اليوم وأقل إقناعاً، رغم ما بذله من جهود لإيجاد خيوط مشتركة مرحلية لا عابرة؛ قال أكثر من مرة، إنه لا يريد تكرار حالات الاتفاق العابرة حول موضوع طارئ؛ أفضل من ذلك الخلاف وانفراد كلّ برأيه ومسؤوليته، يريد اتفاقاً ملزماً على تدبير المرحلة، مرحلة محددة، ثم نرى بعد ذلك.

اجتماعاً مخيباً كان، وبدا مصطفى مرهقاً حين لم يكن متيسراً إلا التأجيل لفرصة أخرى؛ بينما يضمر الكلّ حرج الموقف، من سنة جامعية توشك عملياً أن تكون بيضاء.

في الطريق إلى المطعم، يعتذر مصطفى عن العشاء مع الجماعة، متوجهاً لالتزام سابق بموعد يوشك أن يتأخر عنه، بينما يتَّجه يمود صحبة مجيدة نحو ساحة أكدال لتناول أكلة خفيفة؛ تبدو مجيدة طيلة الوقت متفائلة بحصول اتفاق؛ بيد أنها تقول إنّ ما تخشاه هو هذا الاتفاق لأنه لن يكون إلا وسطياً.

ـ هذا إذا . . .

يعبِّر يمود عن تشاؤمه. . . هذا إذا. . . وهو يرى أنّ الفجوات عديدة ومتباعدة، اللحظة تتطلب سرعة حسم والوقت لا يرحم؛ يشير يمود إلى بّا شعّوب النادل من أجل براد شاي، لكن مجيدة تعتذر، تحبّ الشاي فعلاً من يد بّا شعّوب، لكن لا وقت لها للشاي وأمامها لا تزال رحلة إلى مشارف سلا، أطرافها النائية على الأصح، فهي لم تحظَ بعد بسكن قريب منذ اضطرَّت إلى إخلاء الحي الجامعي، لم لا يتناول الشاي من يديها في مسكنها الجديد؟

بملمح متسائل ينظر إليها، لا تجيب ونظرتها لا تقول أكثر. . . لم لا؟ يشير يمود إلى النادل في حركة ليؤدي الحساب، تسارع مجيدة بنظرة كافّة وحركةٍ أسرع، تؤدي المطلوب وتضيف نفحة بسيطة لبّا شعوب، يقومان ويُناول يمود النادل نفحة إضافية.

الوقت يُجاوز منتصف الليل بقليل، محطّة التاكسيات الكبيرة إلى سلا شبه خالية، يقصدان التاكسي الوحيد الرابض في انتظار زبائن آخر الليل، وبداخله اثنان يبدو عليهما ارتخاء ثقل انتظار أو شبهه، يركب يمود تتلوه مجيدة ويدعو السائق إلى الانطلاق، في إشارة لتكفُّله بأداء المقعد الفارغ المتبقي ولا داعي للانتظار؛ في محطة سلا يستقلان التاكسي الصغير صوب حيٍّ متطرف من الأحياء الجديدة باتجاه المطار، تقوم مجيدة بإرشاد السائق عبر انحرافات وأزقة، لتتوقف به عند بناية من أربعة طوابق بلا مصعد، تقول مجيدة إنها رياضتها الليلية المألوفة، عقب كلّ أوبة مماثلة.

الشقة كبيرة حقاً بالنسبة إلى طالبة واحدة وحيدة؟ قالت مجيبة عن تساؤله، إنها فعلاً كذلك، لكنها لا تنوي المكوث بها طويلاً، لذلك لم تبحث عن طالبة تشاركها السكن، وأضافت أنها تدرك

مسبقاً بتجربتها، أنها لن تقدِّم خدمة لأية طالبة لو أهدتها الشقة إهداء، فهي بهذه المسافة مكلفة وشاقة.

أثاث الشقة غير مكتملٍ ولن... في الصحن ثلاثة كراسي حول طاولة خشبية، والمكتب يحتل جزءاً من إحدى الغرفتين، مع حاملة رفوف تفيض عن سعتها الكتب، لتنتشر أكواماً ومرصوصات على الإسفلت؛ أما الغرفة الثانية، فتضمّ سريراً تحيط بأرضه بضعة سجاجيد صغيرة، وعلى جانبيه منضدتان صغيرتان على إحداهما راديو مسجل صغير.

يتجول يمود في الشقة مستقرئاً، ليعود إلى غرفة المكتب يتصفح الكتب، بينما تنصرف مجيدة لإعداد الشاي، وما تلبث أن تضرب يداً بيد متأسفة... مالك؟ تقول إن الشاي الذي وعدت به لن يكون كما أرادت وكما يتمنى. يعني؟ ستتأسَّف على كأس بّا شعّوب، تقول وتؤكد متابعة، ليس عندها سكر البراد وستحلي بسكر القهوة الصغير، ولا داعي لأن يسألها عن الفرق أو يقول أن لا فرق، فالفرق كبير، تدركه ولا تعرف إلامَ تعزوه، إن لم يكن إلى درجة تركيز السكر المختلف بين النوعين.

لا يبدي اهتماماً يمود ولا يعلق، لكنه ينتظر الشاي وعندما تواجهه في جلسته حول الطاولة، تظلّ منتظرة تعليقه وهو يرشف الجرعة الأولى، يجعلها ممطوطة ويتأوه من طيبتها، تبتسم.

ـ هذا إذا...

يتساءل:

ـ إذا...؟

مبتسمة ترنو إليه وتتمّ جملتها، تعني. . . إذا لم يكن مجاملاً جداً؛ يؤكد أن الشاي من يديها فعلاً طيب متميز، وهي شهادة يسجِّلها للتاريخ، ولله في الله، تضحك لإطرائه.

ينهي يمود كأسه الأولى، تهمّ بأن تصب له ثانية لكنه ينهض، تتساءل أمام حركته إنْ كان فعلاً يفكر في الرجوع إلى الرباط؛ ينظر إليها، تقول إنها في هذه الحالة ستضطر لمرافقته إلى الرباط.

ـ ثم . . . ؟

يتساءل مندهشاً، تقول إنه بعد ذلك سيضطر أن يرافقها إلى سلا حيث هما الآن، ثم تردُّ المجاملة بأن ترافقه بدورها مرة أخرى. . . وهكذا!

يضحكان، يضحك من أعماقه للصورة التي رسمتها لاثنين، تسود بينهما المجاملة واللطف، يقضيان الليل مترافقين ذهاباً وإياباً ما بين الرباط وسلا، يمعن النظر فيها. . .

ـ بغيت. . . الآن!

جسورة تقولها مقبلة عليه، عابثة ضاحكة يكتشفها، جريئة أكثر مما كان يعرف وذات عوالم؛ يغيب بهما الليل، يغيبان في دفء وفراش. . . لبؤة. . . لبؤة. . .

تسأله هل كان جاداً عندما فكر أو أظهر أنه راجع إلى الرباط، تردف قبل أن يجيب: ألم تخامره خاطرة ما، بأنهما قد يقضيان الليلة معاً؟

ممدَّدان تحت الغطاء، تمدّ يدها باتجاهه متجاوزة له، تتناول

علبة السجاير تشعل واحدة تتقاسمها معه، تمتص منها وتناوله بالتناوب، مكرِّرة رأيها الذي طالما رددته: سيجارتان في آنٍ واحد، هما أكثر مما يحتمله فضاء غرفة صغيرة، غرفة نوم.

يشاركها التدخين دون تعليق، تعود إلى سؤالها أو نطاقه على الأقل، تقول إنه لا بد أن يكون قد فكر أو راوده عابر خاطر، بأنَّ دعوتها له كانت بمثابة استدراج، ينظر باتجاهها، يعبِّر بحركة من شفتيه عن لا شيء، ثم يقول ربما، ولكن ذلك لا أهمية له الآن، وحتى قبل الآن. صحيح؟ تتساءل مبتسمة بملامح غير مصدقة، تقول... إنما يبدو الأمر عديم الأهمية من زاوية واحدة، زاويتك أنت الرجل، أما بالنسبة إليها فتفضل أن لو كان قد فهم قصدها على حقيقته، وسار معها في اتجاه واحد، رغبة واحدة؛ لم تبدُ عليه مسايرة لأفكارها، لكنها تتابع أنه إذا لم يصدر في موقفه عن نفاق اجتماعي أو لنقل مجاملة، فمعناها أنّ الصدفة وحدها جعلتهما في فراش واحد، صدفة؟ تضحك وهي تكرِّر الكلمة، صدفة، صدفة؟ ذاك ما لا تجد له معنى، إنه قتل... اغتيال للإرادة والعقل والقانون وكلّ الضوابط الكونية... صدفة، إلا إذا كان معناها التعبير عن جهلنا بالروابط والأسباب.

يدرك الآن أنها في دورة نقاش معقَّدة، يسأل إنْ كان بالإمكان إعداد قهوة خفيفة، تشير موافقة، ينسلُّ من الفراش، يتناول من حافة السرير روباً نسوياً يلفّه حوله محاولاً أن يحشر فيه كيانه النقيض، تخطفها ضحكة قصيرة من وحي مشهد بدت فيه أطرافه إضافة غير هندسية لحجم القماش، وأرشدته من مكانها إلى حيث يجد القهوة، أطفأت السيجارة، أغمضت عينيها وعادت تلتحف كلها بالغطاء، كما

لو اكتست برداً أو اعترتها فجأة قشعريرة، متتابعة في سمعها قعقعة بعض أوان في المطبخ، ليفعم الفضاء فواح نكهة قهوة شهية.

يأتي بكأسين على صينية صغيرة يضعها جانباً على المنضدة قرب الفراش، ينحشر بدوره في الفراش وهو يزيل الروب، يكشف عن وجهها المغطى مقرباً كأس القهوة، تعتدل قليلاً تتناول الكأس، ترشف منه متذوقة، لتعبِّر عن طيب القهوة من يديه.

ـ كالشاي من يديك؟ يتساءل

ـ أكثر...

ينظر إليها

ـ وأكثر

مبتسمة مفتحة العينين على فسحة عالم، يتناول من يدها الكأس، يضعها جانباً، يغوص معها في الفراش، تثيره عوالمها المخالفة لكلِّ ما هو ظاهر ومظهر، تثيرها برودة أطرافه، تثيره فعلاً، كثيراً وعميقاً مبادأتها... ليست مجرد نضال، وأعزّ ما فيها ليس مجرد الفكر، بل البشرية، ذاتها الصميمية المعلنة الفصيحة، ذاتها البشرية تلك لا تتبادلها إلّا عندما تريد ومع من تريد. عذرية؟ مَن ولمن؟ تريد المرأة ذلك أم يريده فيها الرجل؟ ليرضَ لنفسه مَن يريد ترقيع البكارة وأختها المصنعة!

ساخنة عوالم، نارية أفكار، ساخرة من مفهوم خجل أنثوي، لا بل تستدرك أنه خجل ذكوري، خجل إرادة ذكورية زرعت في الأنثى زينة وزيادة بهجة ومتعة لها، خجل أنثوي مصطنع لمتعة مصطنعة ووجود مفتعل، لم لا حرية جنسية؟ أو مساواة اعتبارية للجنسية لدى

الطرفين، كل حرية تبدأ من هنا؛ لا تحدثني عن بهيمية مزعومة متضمنة، لا تقل إنها فوضى سلوكية، إنما قل لِمَ يتمتع الرجل بحرية مرتبطاً وغير مرتبط، متزوجاً وأعزب، صبياً وراشداً، حياً وميتاً (أكاد أقول) دون المرأة؟ دعني من القول إنه يقوم بذلك خارج المشروعية أو خفية أو ما شئت؛ إنما أسألك عن ردّ الفعل الصميمي لكلّ الذكور وللمجتمع عامة إزاء ذلك؛ أليس سلوك الذكورية الجنسية حراً مقبولاً وطبيعياً، إلّا في حالات نادرة عند حدوث مشكلة أو معضلة؟ قل مثل ذلك عن المرأة، أترى مبادرة الدعوة إلى الحب، ممارسته جنساً أو إعلانه وجداناً محفوظة للرجل؟ كل ما تفعله المرأة إن فعلت، فهو أن تومئ أو تتحايل، لكنّ الحسم يبقى له، الحسم نفسه الذي يملكه بالقول: أنت طالق. . . لتبادرْ المرأة بأنْ تقول له: أنت طالق أو نحن طالقان. . . طليقان؛ لا يكفي أن تُقال استثناء أو صورياً على الورق أو حتى قانوناً ملزماً، إنما أن يقبلها ويتقبلها صميمياً الرجل وكل المجتمع، بمثل ما هو واقع لصالح الرجل إلى اليوم ودهوراً سابقة غابرة.

* * *

المناسبة ثقافية خالصة، يقولها يمود لبعض أطراف يساره الطلابي، وقد بدت له منهم معالم حسابات سياسية توشك أن تبرز، بقصد تحديد المواقف أو مراجعتها على الأصح، بناء على خلافات سابقة؛ لا شأن لنا بالسياسي اليوم في هذه المناسبة، يؤكِّد يمود؛ لا شأن بتاتاً والتظاهرة ثقافية فنية، كانت مبرمجة ضمن أنشطة فصيله الطلابي، والقصد بها، افتتاح أنشطة ترمي إلى استقطاب الطلبة الجدد من الملتحقين بالجامعة مفتتح السنة، إنها تدخل ضمن أوجب

الواجبات الطلابية الأولية. . . موضوع الطلبة الجدد على عتبة الكليات، أولى وأسبق من كلّ حسابات بين الفصائل، يستدعي الأمر التصديق على برنامج التظاهرة بلا تأخير، لا بأس بما يلزم من تعديلات، إنما ضرورة المشاركة والتكاثف، والخشية مبعثها الفراغ أو ترك فرصة الاستباق للغير. . . الغير؟ غير محدد طبعاً لكنه متعدد ومعروف. . . كلّ أطياف اليمين، وفي مقدِّمة الكل، السلطة والإدارة باصطناع ما يمكن أن تصطنع من أقطاب مستجدة؛ لا حسابات غير هذا، بعد ذلك لا حرج في الاتفاق أو الاختلاف، لا حرج في استقطابات خاصة وفق خطة كل فصيل.

يقول مصطفى في افتتاح الحفل مرحباً بالضيوف الرفاق الجدد، إنّ حياة الطالب الجامعي أهم من أن تضيع بدايتها في التردُّد أو هدر الزمن، لذلك يتعين ملؤها منذ البدء بما يُتاح من وعي ومعرفة وتعارف، وهي أيضاً مرحلة اكتشاف مستمرّ لإمكانات فكرية وفنية لا حصر لها، من قبيل ما نكتشفه الليلة عبر فقرات هذا الحفل، فهي على اختلافها وتنوّعها إنما تمثل بعضاً من ثمار إمكاناتنا الطلابية.

ضيوف السنة الجامعية الجديدة، ردوا التحية بأجمل منها، تحدثت باسمهم سعيدة طالبة حقوقية، لتعبر عن مشاعر زميلاتها وزملائها بالمناسبة، ومدى تأثُّرهم بالاستقبال الطلابي الأخوي، ولتؤكد على الإرادة الواحدة الجماعية للزميلات والزملاء الجدد، في أن يكونوا فاعلين بكلّ إيجابية في الساحة الجامعية والنشاط الطلابي.

ممتلئة حيوية وحماسة كانت سعيدة، تميل إلى القصر في ملامح دقيقة حادّة، عبارات تصدر عن غور أعماقها، تشقّ سبيلها تياراً يهزّ جمهور الطلبة تصفيقاً وترديد لشعارات، تقاطع مفاصل كلمتها

المركزة القصيرة، لتنتهي بموجة عارمة من التعاطف ما بين تصفيق وصفير وزغاريد، يقف لها الجميع مردِّدين نشيد الطالب، تصعد أثناءها مجيدة إلى المنصَّة متجهة إلى رفيقتها سعيدة، تبادلها قبلات وتسلِّمها باقة أزهار، تشير بها سعيدة إلى جمهور الطلبة محيية، متحرِّكة رفقة صديقتها إلى مقدمة الصفوف لمتابعة الحفل.

تتألق فقرات البرنامج، تتألق تمثيلاً وموسيقى وغناء وأشعاراً. . . «السحاب» مسرحية أرسطوفان الساخرة من الأبراج العاجية لمعرفة ووعي مفارق، تجد طريقها إلى المعاصرة، ترحل بلمسات فكرية إبداعية حاذقة وأداء مميز، لتعانق هموم اليوم، وطن اليوم وعالم اليوم، تناغمُ عوالم ما بين يوناني حرفي عتيق، ومشكلات نظير صناعي عمالي جديد، تندمج فيه أطروحات مواطنة واستعباد، من إقطاعي وطني وإمبريالي إلى اغتصاب استيطاني لحقِّ حياة ووجود في فلسطين. . . تنوع وغنى، ينزل بالنظر من أعالي السموات إلى سطح الأرض، معانقاً عرقاً وتراباً كادحاً، بإرادة صنع عالم جديد، بنيَّة تغييره بدل تأمله، بقصد الاعتبار به وبما فيه من أجل خلقه وصناعته، لا مجرد نسخه أو قراءته.

تتداخل الأصوات مشاركة إيقاعات «الشيخ إمام» ومقامات «الغيوان»، في تضافر بين الكلمة المعبِّرة الملتزمة، وطبقات اللحن المنسابة في عفويتها الشعبية الأصيلة، لتنتهي بنوبة رقص جماعية، يلتفّ لها الجميع شبه حلقات متكاتفة دائرة حول نفسها، أو متحركة في مواقعها متماسكة الأيدي متسلسلة في دائرة وامتداد.

يتبادلون عبارات الإعجاب بنجاح الحفل فوق ما توقعوا، وبمدى تجاوب الطلبة الجُدد معه، فوق ما توقعوا وتصوروا؛ يعبِّر

مصطفى عن دهشته البالغة، يؤكد ملاحظته بأنّ الوعي يتنامى في الأجيال بقوة لا تصدّق، وما يرونه ليس إلا تعبيراً صادقاً عن ذلك، قوة أجيال جارفة، لا تحتاج إلى أكثر من محرِّك، كأنّ الفكرة والاقتناع وراثة اجتماعية فيها، تبدو فعل زمن وفكر، أو فعل جدل دينامي، دينامية جدل اجتماعي وتحوّل، وهو ما يعني أنّ جهود التحريك، لنقل التوعية، تقلّ تدريجياً مرحلة بعد أخرى، حتى وكأنها تتوالد من ذاتها بذاتها، ولا تحتاج إلى كبير جهد لدخول مرحلة الإعراب عن نفسها في الميدان. . . يقول إنها أشبه ما تكون بما تطلبه الحركة الأولى لجسم ثقيل من جهد جهيد، ولكنها ما تلبث أن تخفّ بعد ذلك، وتتسارع مكتسبة من حركتها الآلية حركة ذاتية مُضافة. . . صحيح، صحيح يردِّد يمود مؤكداً مقالة رفيقه، لكن المشكلة ليست في الكتلة المتحركة، القابلة للحركة، المشكلة في الكتلة الهامدة المصلتة، الأكثرية الطويلة العريضة الساحقة، تلك هي ما يجب أن يتحرك حركتها الحاسمة المنشودة.

لا جديد في النقاش، لا شيء جديد في الموضوع كله من أصله، كلهم يراوحون مواقعهم في أطرافه، يتبادلون المواقع في رقعته كأنهم يصطنعونها اصطناعاً، ما بين تأكيد من هذا ومعارضة من ذاك، لتعود مرة أخرى عكساً من هذا لذاك؛ كانوا ثلة على مقربة من مطعم شعبي يقصدونه كلما تأخر بهم الوقت أو لم يسمح بإدراك المطعم الجامعي. . . يقول مصطفى في الطريق باتجاه المطعم وكأنه ينهي الموضوع، الوعي دائماً، والقيادة عبر التاريخ لنخبة، نخبة هي قلة، لكنها أقلية نشيطة فاعلة، أقلية محرِّكة للتاريخ.

(20)

يقول الأستاذ في شبه ضحك وجدّ، والامتحانات على الأبواب، يوصي بالتركيز وترك الإنشائية، لا تكتبوا كثيراً، سمعتم بمقولة ما قلّ ودلّ، إذن فاستثمروها؛ كلماته المأثورة عمّن تسحرهم بلاغتهم أو يأخذهم اللغو، يقول لا يمكن لمن يكتب كثيراً ألّا يخطئ ويسقط في التكرار والسطحية، يقول إنه لا يستحضر في حياته شيئاً بقدر ما يستحضر حكمة تقول: أُكتبْ كما لو كنت تؤدي مقابلاً مالياً عن كلّ كلمة تصدر عنك؛ اعرضوا إذن، حللوا شرّحوا واتركوا الوقائع والشواهد من ذاتها تتحدث.

يقول عن الكتب إنها تحتوي المعارف مبدئياً، ولا مفرّ منها، بل هي ضرورة، لكن لا مانع من القول بأنّ الكتابة إنما هي توثيق للظواهر وللواقع التجريبي والميداني، ولا يخلو التأليف من آفة الاحتراف والتصنُّع؛ الكتاب الأول للمؤلف يمثل في غالب الأمر أفضل ما لديه، أطروحته ورؤيته الأساسية، وكلما تتالت مؤلفاته في الترتيب تتالت في الغالب أهميتها كذلك، والمؤلف قد يكتب عمله الأول لأن له ما يقول، أطروحة أو فكرة متميزة في الأغلب، ثم يأتي عمله الثاني لأنه أصدر عمله الأول، وهكذا. . .

يقول ويؤكد: اطلبوا المجلات الجادة في أي ميدان: علمي،

أدبي، حقوقي، سياسي أو إنساني عام، فهي وسيلة تجديد المعرفة، أما الكتاب المتكامل، فهو حسب نوعه وطبيعته يأخذ وقتاً في جمع مادته، ووقتاً في تحريره وإنجازه، وربما ضعف ذلك لإخراجه، ومثله لتوزيعه ورواجه حتى يصل إليك، لكن المعرفة والعلم والعالم أثناء ذلك، كل شيء يكون قد تحرك وجاوز.

يقرأ مرّوني ويعيد، يضع الصفحات جانبياً على مكتبه، يتمطى في شبه كسل واسترخاء يفرك عينيه ويعود يقرأ بإمعان، يقفز ضاحكا يا أولاد، يا أولاد... أوه... يعتصر جبهته محدقاً في كل شيء حوله، هكذا إذن، يقوده الحدس، لم يكن واهماً وما كان ليكون، يا أولاد، يا أولاد... سيظلّ يكرر فيما بعد أنه تمنى في هذه اللحظة لو لم يكن وحيداً، تمنى لو جيل طلبة حوله بجانبه، يسجِّلون لحظته ويعيشون فرادة الزمن معه، ليكن ولا بأس، فليست هذه إلا البداية، إنما ماذا يفعل بفيض ابتهاجه، التلفون، التلفون... يضع يده على السماعة ليُدير بضعة أرقام، ثم ما يلبث أن يتراجع، لديه كل الوقت، إنما عليه الآن رسم خطة كاملة، مشروع متكامل من كلّ جوانبه.

كان في صبحية أحد أيامه بالمكاتب المركزية للشركة المعدنية بالعاصمة، التقرير جواب مقتضب عن إرسالية استكشافية موجَّهة منه إلى المختبر الرئيس للشركة بالدار البيضاء، النتائج الأولية في اتجاه ما توقع، أكثر ممّا توقع، وربما بكثير وكثير... مَن كان يصدِّق أنّ تلك الخطوات العابرة لتمضية وقت بلا معنى، تقود إلى مثل هذا الجواب؛ السؤال كان منه بسيطاً جدّ بسيط، وإن كانت حيرة قابضة غير مفارقة تلفّه منذ مدة، شيء ما هنا... هناك... هنالك، جنب أو فوق أو تحت، حيرة غير مبيّنة الأسباب، وبلا وجهة محددة أو خطة.

ـ أشنو هذا؟

بساطة العبارة عفو خاطر وسؤال، يصدر بلا وعي كسبق لسان، مع خطو بلا قصد بين الحشائش البرية وبقايا حصاد، في بقعة تازودانتية غير خصبة وبادية إهمال.

ـ زطْمة لحْصان(*)!

جوار المقابر، على بعد نصف ميل جوار تازودانت، قبل بداية رقاع الأراضي الفلاحية في توزعها غير المنتظم، فقيرة التربة تتناوبها صخور ناتئة متباعدة، تخفي مطالعها غلال الزرع أو تبرز مع يبس الأعشاب حسب الفصول: زطْمة لحْصان!

ينطقها أحدهما السيمو أو حماد، فلا يذكر مرّوني أيهما كان رفقته أثناء ذلك. زطْمة لحصان يلفظها الرجل بإهمال المعتاد؛ والحكاية أنها أثر قائمة حصان سيدي بوباها، وهو مصاب في معركته الأخيرة ضد العدو، لقد لفظ أنفاسه في هذا الموقع، على ظهر جواده الذي توقف بعد أن أحسّ بوفاة صاحبه على متنه. وهذا؟ ينبش مرّوني مزيلاً بعض أعشاب زاحفة على البقعة من كلّ جانب... كل شيء، كل شيء... يشير الرجل بما يفيد أن كلّ ما هو هنا يعتبر زطْمة لحْصان، كومة حجارة مختلفة الأحجام مقببة على شكل قمع هرمي بلا لحمة، تبدو على جوانبها آثار إشعال شمع وبقايا تمر وتين جاف وأشرطة قماشية حائلة الألوان من مختلف أنواع وأشكال؛ الناس، النساء خصوصاً يتبركن بالمكان، يتعوّذن به

(*) موطئ قائمة الحصان.

ويتقربن إليه للوقاية من «التابعة»(*) ومن عين حاسد وشرّ ساحر. . .

تنتهي مرحلة التنقيبات والاستكشافات عن رصد باطن أرض لا يخلو من ثروات، ينتهي بذلك دور الشركة أو مرحلة من أشغال برنامجها، ويبقى تقدير الأهمية والجدوى وحدود مدى الاستغلال والتكاليف؛ تقف أشغال الشركة عند الرصد وتحديد المواقع على خارطة المسح الجيولوجي، في انتظار مرحلة لاحقة يتدخل فيها شركاء أقوى وأوفر عدة، لتعميق الاستكشافات وربما بداية الاستغلال؛ ولم يكن مرّوني في ظروف توقف النشاط هذه، وفي انتظار مغادرة المنطقة إلى جهة أخرى، ليجد شاغلاً أكثر ممّا كلف به من السهر على ترتيب المغادرة، في شقّها المتعلق بمعدات الشركة، والاكتفاء كالمعتاد في مواقع مماثلة، بترتيب حراسة عادية على البقعة المسيَّجة حول قطاع المباني الجاهزة، وبقايا آلية لا فائدة من نقلها. . . وتبرز زطْمة لحْصان مستقطبة جاذبة.

لم يكن مرّوني ليدرك قيمة تلك الخطوات غير الموجّهة لأكثر من مبادلة سير وحديث مع أحدهم بفعل العادة، فكما يقول مرّوني، صدور الناس صفحات لمن يحسن ويريد القراءة، يماشي مرّوني أحد الرجلين إذ ذاك، لا يذكر إنْ كان السيمو أو حماد، فقد تكرَّر ذلك معهما معاً مجتمعين، كما تكرَّر مع كل منهما على حدة، لدرجة لا يستطيع معها الجزم بخصوص مَن كان رفقته منهما تلك اللحظة بالذات، لا تستوقفه من ذاتها زطْمة لحْصان، بل هو الذي توقف لغير غرض؛ لم يستشعر حتى فضولاً تطلعياً، إنما حركة آلية منه أن

(*) كناية عن عين السوء، نحس حظ، حظ نحس في ذرية أو زواج أو تجارة.

يسأل وينبش بعض الأعشاب، يستمع كما يستمع دائماً بدرجات متفاوتة من التركيز، ويمضي لحاله.

يمضي لحاله، لكنه على البُعد يجد خاطره يعود إلى ما ارتسم في ذهنه، يبدو أثر الخطوة، معالم القدم مغروزة في البقعة الصخرية شبه الكلسية الغريبة في تشكُّلها عن محيطها الصخري الترابي. يشده الأمر، يعيد الزيارة أكثر من مرة، منفرداً ومرفوقاً، يتحدَّد عنده السؤال، ذاك الضوء الكشاف كما يعرفه، يسأل عن وقائع ومقارنات، متى، مَن، كيف؟ هكذا وُجدت زطمة لحصان كما يُروى ويروون، لا أحد يعرف متى ظهرت، ممَّ وكيف؟

يجهد مرّوني نفسه لمعرفة أكثر، الآن لا شيء يوقفه، يروون القليل بشأنها والكثير، متنافراً ومنسجماً، متكاملاً ومتعارضاً؛ لكنها تبقى غير ضاربة في عمق التاريخ، عرفتها أجيال، ممّا تلا تاريخ سيدي بوباها، لكنها لم تكن ظاهرة، لم تظهر بمجرد نهايته أو بعدها بقليل، يتأكد أنها ظهرت فجأة بدون سبب مفهوم، والجوار حولها أراضٍ خلاء، قلَّما تدركها عناية الزراعة، ظهرت ربما بانحراف الزارعة عنها بعامل صدفة أو قصد، ليتفادى الزارع والمحراث ما يبدو صخرياً من سطح، وتعاقب ذلك مع الزمن لتبقى بقعة عارية بين ما يحيط بها من زرع أو عشب، لتعرف على أنها أثر قائمة حصان الزعيم القائد الراحل، سند القرية ومدخلها إلى مجد التاريخ من أوسع السبل والأبواب.

قائمة الحصان، لكن أي حصان هذا؟ قائمة واحدة من أربع تبدو ضخمة ومنقوصة الجوانب؛ مناقشات حجج ومقارنات في كل اتجاه، تضرب في خاطر مرّوني، حتى يستعصي النوم لأكثر من ليلة

وليلة؛ ولأكثر من ليلة وليلة، لأكثر من نهار ونهار يستقصي خرائطه حول المنطقة، قطاعية وسطحية، أفقية وجوفية، يستعرض وثائق الشركة، يسائل التاريخ والجغرافيا، يستقرئ معطيات الحفريات الأولية وما قبل وما بعد، المنطقة وتربتها الضاربة إلى الحمراء في معظمها، تحمل في طياتها آثار وبقايا عصور جوراسية، تحيل إليها شرائح طبقات من الجورا السوداء والجورا البيضاء؛ مسطَّحة مغرّفة بشبه تقعر يمتد لينتهي عند منحدر شبه أخدودي، مواصفات لا تتطلب كثير جهد لاكتمال صورة تقليدية لما كانت عليه المنطقة فيما مضى من عصور، على شكل من بحيرة مائية غامرة على شساعة وامتداد، قبل أن تنفتح نهايتها نحو وادي؛ صورة غائبة المعالم في ظاهر الحال، لكنها تبدو متكاملة في ضوء زحزحة وتحولات رافعة خافضة مولدة لسلاسل قمم وهضاب؛ بينما عرفت المنطقة أواسط القرن الماضي أو قبله بقليل، تنقيبات لأغراض معدنية بوسائل مختلفة أقل تطوراً، رافقتها أبحاث جيولوجية وشبه ذلك، ومنها تجمل بعض الوثائق وصفاً لطبقة صخرية أو نحو من صفائح سقف ممتد بشكل طبقة، ويحيل إلى لون خمري أمغر. . . ما الدلالة والمعنى؟

ويمضي مرّوني وحيداً هذه المرة، قاصداً زطْمة لحْصان، مجهزاً ببعض أدوات أولية من مكشط ومقراض وحقاق، مع لُمّة فرشات ليفية متنوعة الهدب والطول، وعجين صناعي وأوراق وآلة تصوير، يستغرق وقتاً في التردُّد على المكان وتهييئه بعناية التنظيف والإبراز، يأخذ له أكثر من صورة، عديد الصور من عديد زوايا، ينسخ بالشمع والعجين مجسَّماً للأثر، ويكشط بلطافة على مواقع دقيقة مختلفة من

سطح الأرض والمحيط، واضعاً ذراراته في حقاق يختمها بإحكام، واضعاً عليها علامات للإفادة والتمييز.

زطْمة لحصان... إذا لم يكن حصاناً بقائمة واحدة، فأية ظروف جعلت باقي قوائمه منعدمة بلا أثر؟ أتكون واحدة وحيدة منها فقط، وطئت في البليل الرطب دون غيرها التي وطئت في الصامت الصلد؟ وكم مدى ما بين قائمة وأخرى في الخطو، ليحصل فارق ما بين أثر قوي ولا أثر بالمرة؟ الأولى أن يكون الأثر لخبطة جمل أو ما شابه مع شبه ظفر... ظفر أم ظلف أم ...؟ وأي حجم؟

وهذا العمق المرسوم في الصخر، يجب أن يكون فوقه ثقل لا تتركه حتى الجِمال على أرض متربة طينية، فأحرى على صخر! قوة وقع القائمة في وطئها تحيل إلى حجم وثقل لا يعرف لفصيل أي حصان في التاريخ، اللهم إلا إذا كانت شدّة رطوبة الموقع الطيني من درجة رخوية شبه قصوى، تعطي للأثر عمقاً وسعة أكثر ممّا هو في واقعه وطبيعته، لتعمل بعض ذلك عوارض الطبيعة وعواملها من قوة أشعة شمس مائلة وعمودية، ومن رياح وتقلبات، على تسليح الأثر المتبقي بصلابة صخرية، وكم يتطلب ذلك من آلاف آلاف السنين؟ ... أم يقف التصور عند حدود المعروف من تاريخ سيدي بوباها، هنا على بعد أقل من عشرة عقود ماضية فقط؟ لا التاريخ يسعف بمدى ما يتطلبه التكلُّس والتصخر، ولا الجغرافيا تنبئ عن وجود بحيرة قريبة العهد، لو كانت حقاً لما كان للقرية نفسها من وجود بشري حيث هي الآن، وعلى نحو ما هي عليه اليوم!

ينحني على أثر القائمة أيها تكون؟ خلفية؟ أمامية؟ يمنى يسرى؟ لا ينبئ شيء إلا بتكلف وتأويل بالغ... أين بقية القائمة؟ ينهمك

مرّوني متفحصاً بكل ما لديه من أداة وحرقة سؤال، لا شيء يفيد. . . لكن لم لا البحث عن غير ذلك من آثار لبقية قوائم الفرس، إلا أن تكون فرضية الوسط الرطب متضافرة، مع فرضية سقوط الفارس بعد (زطمة) أولى، ممّا يعطي للحصان خفة وزن لا تكفي لترك أثر على موطئها الرطب على هذا النحو، أو كأنها تتيح للحصان قفزة أشبه ما تكون بطائر تحرَّر من قيد، فلا يترك غير الوطأة الأولى بإحدى قدميه. . . يستقيم؟ يقنع؟ ثم دافع مجهول يحفز على البحث بدءاً في دائرة حول «الزطمة»، بقطر لا يقلّ عن عشرة أمتار، ثم بعد ذلك يُرى ما يُرى وما يمكن.

لا. ليس الماضي ما يكتشف ولا العصور الغابرة فحسب، وإنما الحاضر القريب منه والماثل، وأهم منه وفوق كل اعتبار، الذهن البشري الفاعل في الأحداث وما يجب أن تكون عليه الوقائع، لا ما هي الوقائع كما كانت وتكون، تلك المقولة الدفينة في أعماق مرّوني: التاريخ، كتابة الوقائع، مهما تكن مرجعياتها فهي تتضمن جزءاً من إضافة وتأويل. . . أو. . . تحويل! الكشف الأهم متمثل في ظاهرة اشتغال الذهن البشري، للتأليف ما بين الأسطورة والواقع؛ الروايات ليست معدودة ولا محدودة عن بطولة الزعامة القبلية لسيدي بوباها، وحقيقة معاركه وانتصاراته في المعارك قبل الأخيرة الفاصلة واستشهاده على صهوة جواده، حقائق وثَّقها الأعداء قبل الأصدقاء، وحتى بعض الصور التقريبية لملامحه منشورة في مختلف المراجع والزمن ليس ببعيد، إنها الحقيقة والواقع، إنما الكشف والسرّ في عدم مطابقة الزطمة المزعومة لأيّ مقارنة ممكنة، إلى أن يُسفر استكشاف مرّوني وعمليات كشط وحفر متأنية في

المحيط عن القائمة الثانية، لكنها على مدى لا يناسب خطوة أي جواد، أكثر من ذلك أنها بحجم أكبر بكثير، ربما بعشر مرات من حافر الفرس وليست بحافر... والأكثر من كلّ ذلك أن العودة إلى «الزطمة الأولى» من جديد، بفحص وتطلع جديد، تبيِّن أنها قد طالها تدخُّل أو عبث، منه ما قد يرجع للطبيعة، ومنه ما قد يرجع لغيرها على أغلب افتراض، وهو ما جعل حجمها ينتقص ليقارب أثر قائمة الفرس، حتى وإن لم يتحقق ذلك بالتَّمام، فالفكر قابل لأسطرة الحصان أيضاً، كما يؤسطر كل جارحة ونأمة فيه، مثلما هي أسطرة واقع الزعيم القبلي نفسه، مصنع بشري فكري للتاريخ والتطور يؤكد مرّوني، ذاك كشف أعظم.

(21)

أغفى؟ كيف ولم... يقظة حلم، حلم يقظة؟.. إنما هفيف... لمسة ودّ خفيفة تعدل على كتفيه الطيلسان، يستشعرها هبة نسيم، يغالب ليفتح عينيه، يعانده ثقل أجفان رازح، شيئاً فشيئاً ترتسم أمام ناظره الكليل... يراها، واقفة منتصبة كما كان يعهدها منذ زمن سحيق، يرنو إليها متبيناً ملامحها، لا يخطئ ويتذكر أنه تركها وراءه في القصر: سابينا، من أية أغوار تأتين؟ واقفة منتصبة تمسح بكفّ يدها على رأسه في حنو، يستشعره دفئاً يبعث قشعريرة ممتعة معذبة. سابينا، من أيّ ظلام إلى أيّ ظلام؟ تبدو له صورتها قويمة في المرآة أمامه، وحدها مرتسمة دونه، وكأنما استعادت بعض انتعاش من عناية، منسدل الغامر من شعرها على الكتفين، مديدة قامة، مفصحة صفحة جبينها عن أقوى ما في ملامحها، يغالب ضمور الخدين: قوسا الحاجبين.

من سحيق أي زمن تنبعث، وأي زمن بها ينبعث؟ تمسح برفق على رأسه ببالغ بطء حني، يغمض عينيه، غامَرُه إحساسُ خدر متعة وعذاب، هفيف يستشعره نأياً متباطئاً، خطواً هامساً في عمقه أنها تنأى، متباعدة تغادر، بودّه لو يقاوم الإغماض، لو ينتصر على

الصمت المارد المتمرد في جوفه، لو يصيح بالحلق المبحوح المفقود، لو يعرب اللسان المجمد المشدود، لو يقول تعالي لن تغادري، لا، لن... لو يصيح في المحيط، أوقفوها لا تغادر، لن... أمسكوها إلي...

ينأى الهفيف، تنأى كل قدرة فيه على الحركة والسكون، ينأى كل شيء، كل شيء، كل شيء... كـ...لـ... شـ...

* * *

قول في شرح ما جرى:

اعلم رعاك اللّه، أنّ طلب العلم فريضة على بني آدم، واطلبوه ولو في الصين، ولكن اللجاجة الفجة والفجاجة اللجة تأخذ بعض ذوي النيات (...) والعياذ باللّه، فأحدهم من «أيها الناس...» يقول ما معنى كلّ ما نسمعه ممّا لقيه الديصور بدون موجب معلوم، وأنّ هذا التهامي الفكاوي إنما هو مخرف يخرف، مخربق يخربق، ولا فائدة من مجلسه ومجالسته والاستماع إليه، فهو مضيعة وقت للبلاد والعباد، وكلامه باطل في باطل لا يصلح لعادة أو عبادة؛ ومثل هذا أيها السادة الكرام، يقال في حقه: اللّه يعمّي من أعماه اللّه، العلم بجانبه أمامه ولا يراه، ولا يرتوي منه، لأنه لا هو مقدر له ولا هو له بأهل، وعندما نقول اطلبوا العلم ولو في الصين، فهو لا يطلبه حتى ممّا هو أقرب إليه من حبل الوريد.

مفاده أيها السادة يا كرام، أنَّ تتمة كلامنا عن الديصور، نبدؤه بالحمد للّه الذي لا يُحمد على مكروه سواه، ولربما يبادر ذو

الفجاجة اللجاجة صاحبنا المعلوم يقول في سره: وما بالنا وهذا الكلام، ما مناسبته ومكان إعرابه؛ أقول له، لماذا يحمد اللّه وحده على المكروه دون سواه؟ فلتعلم يا صاحبنا وما أنا لك بصاحب إلا إذا تركت جهالتك الجهلاء، وأنصت لحديث الحكماء العقلاء، أمّا الحكمة في حمده وحده على المكروه، فلأنه حكيم الحكماء، مدبِّر الأكوان خالق الموت والحياة ليبلوكم أيكم. . . . والحال هذه، أن ما وقع للديصور ويبدو لبعضنا بلا تبرير ـ وسيأتي تبيانه ـ إنما هو لدى المدبر الحكيم مفسر مذيل ومبيّن واضح السبب والغاية لمن فتح اللّه عليه، حتى وإن غابت عن عقولنا الضعيفة وأبصارنا الكليلة، وجوهُ الحكمة فيه.

قال. . . وكما هو سنن اللّه في خلقه، وسنة المخلوق في معاشه، فكلّ شيء يتطور ويتغير ويتحوّل، وعندما يكون ذلك من تقدير الخالق الرزاق، وفق ناموسه الأزلي، كما عندما يكون من سنن الطبيعة الخالصة، فيما هي مسخرةٌ له ومسيرة به وفق القانون الطبيعي، فهذه السيرورة التطورية تكون خيراً، حتى وإن غابت على الأفق المحدود مراميها الكونية البعيدة، إذ إنها لا تكون ظلماً ولا عسفاً إلا من قصر النظر وقصوره، ومن عشاوة رؤيته ومحدود بصره وبصيرته، بينما مراميها البعيدة تمثل دائماً خيراً كونياً كلياً، وسبحان مَن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ وأما من لا يفهم هذه الحكمة، ويغيب عنه المراد من هذا القول الجليل، فما عليه إلّا أن يتدبَّر قصة سيدنا الخضر نبي اللّه، فيما أظهره من إدراك لباطن الأحداث والحوادث، ومن استشفاف رباني لمآتيها الغائبة عن الأبصار، وهذا يا سادة ويا كرام، سيكون موضوعنا بتفصيل الحكي

في زمان ومكان آخر، إن رزقنا وإياكم الرزاق الوهاب، بقية عمر وفضلة من حياة.

أما الآن فالمقصود بهذا التدبيج في مكانه وزمانه، أن الديصور يا سادتي، عندما انغمر فيما انغمر فيه من حياته الجديدة، بما فيها من مهام واهتمامات وعلاقات وما يرتبط بها من معارف واتصالات، وما تتطلبه من أسفار ورحلات، علاوة على المشاركات المتوالية في المَشاهد والتظاهرات العامة، من أعياد ومناسبات مختلفة وأنشطة صيد ورياضة، مع العناية الفائقة الضرورية بالمظهر والسمت، من بدن ولباس وخطو وطيب وطريقة خطاب وكلام. . . كل ذلك وهو أكثر من كثير، لو رُمنا تعداده لأتحفنا المجلدات الضخام، ولما كفانا مداد البحر ولا فساحة أرض وسماء لتسجيله، فأحرى ذكره؛ لذلك نكتفي بالاختصار المفيد: فالرجل يا سادة، لم يعُد له متَّسع لتفقد الأحوال عياناً وما كان له ذلك، لكثرة التحولات ووفرة الوقائع والأحداث، ستقول لي ولكن له كتاباً ومساعدين، أقول وهل الآفة إلا هؤلاء المقربون المتزلفون المتملقون!؟ ستقول لي ولكن له محبين وأصدقاء من بني قومه العدّاية، وأقول لك نعم نعم، ولكنهم كما رأيت معي، آثروا العودة إلى ما كانوا فيه، مؤثرين السلامة وعاشقين ما رأوه تحقق من حرية لهم ولمن يليهم، وأيضاً فهم لم يكونوا إلا بسطاء في جهالتهم أو جهلاء في بساطتهم، لا دراية لهم ولا استعداد لتعلُّم وممارسة آليات القرار، ثم أيضاً إنّ هؤلاء ما لبثوا أن وجدوا شيئاً فشيئاً، أن سداً منيعاً يضرب بينهم وبين صاحبهم، وأنّ الديصور بدوره ما لبث أن وجد نفسه في حصن حصين، ومانع اتصال مكين متين بدواعي كثيرة، ولمَ لا نقول إنه ما

كان له إلّا أن يطاوع ويطيع مسايراً ما هو فيه من تيار؟ ولنقل أيضاً، إنه كان مطمئناً إلى سير ما أنجز من قوانين تحررية متحرِّرة لبني قومه جميعاً، لكن ما لم يكن له به علم، هو لبّ البلية وأس المصاب، وإليك بيانه.

فاعلم رعاك اللّه إذا اهتديت، أنْ لا أحد ينكر تمتُّع القوم بما تجدَّد من واقع استشعروه نفعاً وخيراً، ونعني بهم أساساً القاعدة العريضة من العدّاية وما إليهم من عجزة ومستضعفين، فهؤلاء وجدوا أنهم تحرروا فعلاً، فهم أحرار في أن يشتغلوا وينتجوا أو يقنعوا بالراحة التامة لا يكدّرها مكدر، ولا تشوبها شائبة من أي نوع، لكن من جهة أخرى، فإن كل من يشتغل منهم(*)، يؤمن عيشة راضية له ولذويه، لكن مرة أخرى، فإنه يبذل جهداً أكبر وينال أجراً أكثر، ممّا يدعوه في غالب الأحوال إلى المضاعفة في البذل لقاء وفر في الدخل، وهذا لأنّ المتملك يترتَّب عليه وحده فرض «المناتجة»، لأنه هو الذي يروِّج الإنتاج وما يسوقه من ربح مهما كان، بينما العدّاي يكون قد دفع ضمناً ومسبقاً من جهده في ذلك الإنتاج، ولا شيء عليه.

واضحٌ سادتي إلى هذا الحدّ، أنّ الأمر على ما له وما عليه مقبول، لكن مرَّة أخرى ليس هذا إلا ظاهر جبل الجليد، أمّا المغمور منه والخفي في الأعماق فهو الأجل الأعظم، وهنا نقول إنّ المتملك، أصبح يبالغ في تبخيس مترتب المناتجة، ولنقل تبخيس الشغل الذي ينجزه العدّاية، مما جعل نصبهم وكدهم مضاعفاً، كما

(*) يناتج على الأصح حسب التعبير والتصور الجديد للعلاقات.

أن المتملك أصبح «يناتج»، ولنقل يشغل نصف ما يتطلبه الإنتاج أو أقل، فبدل ما يستحقه من جهد عشرة أشخاص، لا يناتج المتملك إلا نصف العدد أو أقل، فكان أن سرَت العطالة بين العدّاية وزاد طلبهم لوظائف المناتجة، وبالتالي قلَّ مردودهم تبعاً لذلك، هذا علاوة على أنّ المتملكين وهم أحرار لا يقيدهم شيء، كما لا يقيد العدّاية شيء بالمقابل، فإنهم وجدوا في القانون الجديد، أن المال (الثروة) كيفما كانت طبيعته، لا يترتب عنه واجب تجاه الخزينة، إذا لم يكن منتجاً ومروجاً، ومن ثم وجد بعض المعنيين فرصة للنقص من ترويج الأموال بالطرق المنتجة، إلى طرق أخرى ملتوية أو مشبوهة، وهكذا عمد البعض إلى تجميدها فيما يحسن احتكاره ممّا خف وزنه وغلا ثمنه، كما يقول العارفون.

واعلم أن ما يروى على هذا النحو ليس كلّ المشكل، فللمعضلات دائماً عدة وجوه ومداخل، ومنها فعلاً أنّ بعض العدّاية ممَّن استهوتهم حياة الحرية والتحرُّر، فضَّلوا الكسل وخلدوا إلى الراحة، ممّا يسميه بعضهم «القناعة والكرامة»، وما لبثوا أن وجدوا أنهم يفضلون الكسب السهل بدون جهد، إذ ليس من المعقول أن يقضوا جوعاً لمجرد أنهم لا يناتجون، ففتحت أمامهم أبواب الانحراف مثل السرقة، وربما توجه البعض في ذلك إلى المتملكين، لكن المبدأ الأصيل عندهم، لا يميز بين متملك وعدّاي في هذا الموضوع، ومن ثم افتقد الأمن وتفشى التعدي والاعتداء على الحقوق والملكيات، ممّا لم يكن لـتازودانت به عهد من قبل؛ وأكثر من ذلك وبسبب منه، صدرت نصوص وطبقت قوانين وإجراءات زجرية من جهة، وحامية للتملك والملكيات من جهة أخرى، وصفت

بأنها مؤقتة، لكنها ذهبت بجزء كبير من مكتسبات العدّاية، وبخاصة من حيث التعسف في استعمال النصوص والقوانين الزجرية، بمسببات أبعد ما تكون عما وجدت له في الأصل، ولأغراض خاصة ونفعية بالأساس، علاوة على تولد ظواهر ارتشاء نتيجة إمكان التعسف في استعمال الزجرية القانونية، وبقصد الإفلات من نير ذلك وسعيره، كما أنّ هناك مَن يذهب حسب قول بعضهم، وقد تكون فيه مبالغة واللّه أعلم، إلى حدّ التحسُّر على عهود «الودنيات» بكافة الأصناف التي كانت في السابق، باعتبارها على الأقل، كانت تضمن أمنهم الشخصي وقوتهم الحيوي مهما تكن نوعيته، ولا تعرِّضهم لضررٍ تعسُّفي مقصود.

ومن المعلوم أنَّ كل القوانين كانت تصدر باسم المجمع الأعظم، وبالتالي بمصادقة ضمنية من الديصور، إن لم تأتِ بجهد إقناعي منه، مسايرة منه للمستجدّ من الظروف ومقتضياته وحسب ما عرف عنه من قوّة منطق وحُسن بلاغة وبيان، ومن شدَّة إقناع في كلّ موقف وحال، بل يُقال إنه كان يقدم ويُختار لهذه المهمات لما يتميز به ويمتاز من كلّ ذلك؛ ولا يمكن أن يستوعب أصدقاء الديصور هذا الوضع، فقد دافعوا عنه كثيراً، وحاولوا الاتصال بصاحبهم دون جدوى، ثم استسلموا للواقع مشيعين أنه مرغمٌ على المصادقة، لأنه مكبَّل الإرادة، وهو دفع ضعيف كما يرى العقلاء، كما دافعوا بأن ذوي الأمر من المجمعيين يستعملون شبيهاً للديصور في مآربهم، ولم يكن لدفاعٍ كهذا من فائدة، وذهب بعضهم في مثل هذا الدفاع، إلى أنّ هناك مَن يوكل إليهم إقحام مخدر في مأكل ومشرب الديصور، واقتناص مصادقته في تلك الظروف؛ بيْد أنّ هذا الدفاع كان أضعف

من غيره، إذ أوحى لآخرين أن يقولوا إن الديصور أصبح في حالة تخدير دائم لا بالمعمول له، بل بإدمان إرادي نتيجة انغماره في الملذات الحسية من شكل ولون، وأعظم القيل في هذا المقام، ما بدا همساً أو شبه همس، إلى أن أصبح إشاعة، ثم حديثاً يكرَّر ويُعاد في المجالس ولدى السابلة في الطرقات وملتقيات كل مكان، وهو المتمثل في أنّ كلّ ما يجري علناً جهاراً في المجمع الأعظم، وكذا التصفيق والهتاف الظاهري، وحتى المقابلات الساخنة بين كل فئة وأخرى في المحفل المجمعي، أو ما يبدو من عراك وشبهه بين تأييد ومعارضة، بما في ذلك كامل الترحيب وشامل الاحتضان لآراء الديصور ومبادئه، كل ذلك ليس إلّا مظهرياً وواجهة عرض، أما جد ما يجري فهو الأخفى من ذلك والأبعد، وهو الأفعل فيما ينزّل من تدبير، أو في صناعة القرار حسب تعبيرنا اليوم؛ والخلاصة أنّ الديصور عندما وُجد مَن يصل إليه بطريقة ما، مهما كانت معقدة ملتوية ومعذبة، وهو ما أبانت عنه حال سابينا، كان إذ ذاك السيل قد بلغ الزبا كما يقول العقلاء، وعندما خرج الديصور للاطلاع والاكتشاف بناء على ذلك، مستوعباً صدى أمر المرأة سابينا له في عبارتها المقتضبة. . . أُخرجْ. . . أُخرجْ تبدى له هول أهوال وكوارث، فيما رأى وسمع وتلمس بالعيان، ونتيجة نظرة الناس إليه، ونفورهم منه، وكذا استخفافهم بمنظره وضحكهم على مظهره، مظهر العاجز الجاهل الغارق في جهله وعجزه! وكان ذلك آخر ما تمّ، قبل أن ينقطع ذكر الديصور ومشهده، وسيأتي الخبر عن ذلك، واللّه أعلم.

* * *

تـذيـل:

اعلم أيها المتتبِّع اللبيب أن سؤالاً يخامرك، كما يخامر أي عاقل، ويتعلق بواقعة المرايا التي رأى فيها الديصور قامته متقزِّمة بعد طول فرع، متداخلة بعد قوة استعراض، ممّا كان يعرفه في نفسه، وكانت تعكسه المرايا على أحسن وجه وأكمله في السابق، وهو ما خدم به قومه أجمعين، فوصل بهم إلى مراتب الخير، وأزاح الظلم ونفع به الزرع والضرع، وقد كان له من ذلك كله ما يملؤه رضى عن نفسه وإعجاباً بحاله، ويجعل صورته عن ذاته تنعكس على نحو إعجاب طبيعي بخلقته كما بجاهه ومكانته، كما أيضاً بفكره ورجاحة عقله، وهو ما كان ينعكس عليه إيجاباً وتعكسه المرايا كذلك، كما تعكسه نظرة الناس وبخاصة المقربين إليه؛ واعلم في هذا المقام أن المرآة ليست إلا عيناً من عيون ترى، وهي عين غيرية ابتكرت على سبيل المحاكاة، لتحلّ محلّ عيون الناس في غيابهم، وتنوب عنهم في توقُّع إفصاحهم، تهيؤاً لحضورهم ومحضرهم؛ فهذا الإعجاب والرضى عن الذات، كانت له كلّ المبررات الذاتية والموضوعية لدى الديصور، كما كانت له كل المسببات والآليات لينعكس على سوي المرايا وصقيل الصفحات.

وإلى هنا أيها السامع اللبيب، يكون كلّ شيء طبيعي أو قريب من ذلك، إلى أنّ الصورة المنعكسة لكيان الديصور في قزميَّتها المضحكة المبكية كما قال واستشعر، لا تفهم إلا في ضوء أنه كان ينظر إلى نفسه في المرآة نظرة الناس إليه، عندما خبرهم أو خبر نفسه فيهم على النحو المنحرف المستجدّ وخلاف السابق، فإذا هم عنه

مزورّون ملتفتون فساخرون هازئون ضاحكون، تلك هي الصورة التي ترسَّبت لاهبة حارقة، جارحة ذابحة في مشاعر الديصور، فلم يرتسم منه على المرايا كلها، مرايا القصر، إلا ما رآه في نفسه من خلال نظرة الناس إليه وتلك مأساته الحقيقية: قزم، متداخل الأبعاد، في كيان بلا قامة ولا قوام؛ وهذه حال يعرفها المدركون لأسرار النفس البشرية، فصورتنا عن أنفسنا ليست إلا صورة الناس عنا، ومن هنا كان الإيجابي من آراء الناس عن الشخص تشجيع وتحفيز، وعكسه باتجاه عكسه أيضاً.

وإذا كان العقل السليم يسير باتجاه ما أوردناه من وصف الحال، وهو ما يميل إليه العبد الضعيف، فلا نخفي على السامع الفطن، رواية تقول شيئاً آخر أو تضيفه إلى ما سبق، وكلّ ذلك إنما هو زيادة علم ومعرفة، وقديماً قال الأسياد العلماء: تعلُّمُ الأشياء خيرٌ من جهلها؛ فاعلم رعاك اللّه ووقاك شرّ الخلط والشطط، أنّ خروج الديصور استجابة لوحي سابينا أو إيحائها بعبارتها الغامضة المقتضبة... أُخرجْ... أُخرجْ... وهو ما اقترن بأوامره الصارمة إذ ذاك بالاحتفاظ بها في القصر، وإحاطتها بالعناية والرعاية اللازمة؛ هذه المرأة الغامضة التي لها ذكر قوي في اختلاف الروايات، مع تواضع شأنها، إنما استغلت بقاءها في القصر، وانتعاش روحها بما طالها من نعمة ولو أنها كانت عنها عازفة زاهدة، وجدت ما يلهمها أن تموه في المرايا ـ واللّه أعلم ـ بمادة تعكس الصور متداخلة بلا أبعاد، لتنبيه من يرى نفسه على غير صورتها أو كما هي في واقع الأمر، أو كما يراها الناس (وهو الديصور أولاً وقبل كل شيء)، هذه المرأة التي لم تكن قادرة على

النطق عجزاً وضعفاً، أو خيبة ويأساً من تبدل حال، يمكنها بهذا العمل شبه السحري، أن تنبِّه إلى ما لا ينبّه إليه الخطاب البشري المعتاد في المقام المراد، وهكذا صار واللّه أعلم(*).

(*) توضيح: يقول العبد الضعيف التهامي الفكاوي عن هذه المادة، إنها تركيب مزيج من ذائب سكر وزيت خروب؛ وقد جربناه لكنه لم يعطِ النتيجة المطلوبة، ولم يتعدَّ أكثر من تعتيم على صفحة الزجاج، وربما يرجع الأمر إلى مقادير المزج أو إلى نوعية الزجاج نفسه، مع اختلاف في مفعول مركبات المزيج، نتيجة اختلاف طبيعتها مع تتالي الأحقاب والدهور، ما بين مركبات عصرنا الحالي، ومثيلها في تلك العصور الغابرة، والله أعلم.

(22)

تفاجأ مجيدة قبل أي غيرها، صباح ليلة لم تكن هانئة، يبدو لها يمود متخندقاً في سلبية لا تفهمها أو غير مقنعة على كلٍّ حال؛ تناولا فطوراً بلدياً، بكَّرت بإحضاره صبية من معارف يمود في القرية. قال إنها بنت حماد حارس الموقع، مضيفاً أنها أصبحت عادة معه هنا؛ لم يستشره أحد في البداية، لكنه عندما وجد نفسه كلّ صباح وربما على امتداد الصباح، يزوّد بعدة إفطارات من قبل العديد، فضَّل أن يتدخل فيقترح من يرتضيه أو يسمح له بإحضار فطور واحد أحد ولا غير، ففضل الحارس الذي اكتشف أنّ له معه به بعض روابط عائلية، عبر مَن تبقى في ديار الهجرة من أقارب يمود، ويقول إن الدفع بتلك القرابة هو وحده ما أقنع عائشة، بأنْ تقبل على مضض باستمرار تلك العادة، مكرِّراً ربما لمجرد حديث صباحي، ما فهمته مجيدة منه البارحة، عن دخول عائشة في خدمته بالبيت، وتغيبها الحالي مع ابنها لطارئ عائلي.

مجرد مفتتح حديث صباحي، ينتقل به إلى ما يثير همته ويحفز ذكراه من أبخرة خفيفة بعبير رقائق الرغيف، مزيجها أفواح سمن وعسل زعتري تضوع في استحياء، مشهية منعشة تكممها لفة غطاء صوفي أبيض، تحت غطاء أشمل يلمّ كامل ما في الصينية، يقول

يمود مظهراً بشراً لا يخفى بعض تصنعه على مجيدة، إنه ما يفتأ يموج بذكريات طفولة حية، كلما فغمَت حواسه أفواح فطور على هذا النحو.

تتابع حركاته وهو يسوي آنية السمن الصغيرة، ويرفع إليه عن قرب آنية العسل يتبين طيبها. . . طيب رائحة زعتر برية أصيلة، يؤكد مقرباً منها الآنية، تتنشق مجيدة عن بُعد، فعلاً نكهة طيبة فريدة تؤكد مجيدة، متملية ما يرتسم أيضاً من آثار نوم غير هانئ على ملامحه.

رغم كل مظاهر الارتياح التي يُبديها يمود، تستشعر مجيدة أن الحديث كان متقطعاً. شبه غائب رغم الكلام يبدو يمود، وإفطارهما كان أسرع وأخفّ ممّا يمكن أن يقدّر لمثلهما، في مثل لقاء كهذا؛ يقول بعد صمت كأنما يتمِّم حديثاً سابقاً، يذكر أياماً كان مثاله والرفاق بجانبه، مثالهم المبتغى إفطار كهذا، يذكرونه مطنبين في الوصف، منوعين في الأطباق، مستلذين متفنِّنين في الحديث والسماع، بقدر ما يسعه ملكوت دهور من حرمان، طيلة مرحلة طلابية أو شبه. . .

ـ . . . السجن؟

تفاجئه بالسؤال، ويبدو متفاجئاً أكثر، بورود الموضوع برمَّته في نفسه في هذه اللحظة بالذات، ذكره وذكراه، لم تتعمَّد إثارته إنما كانت تريد أن تؤكِّد له مرة أخرى، ميسم الأيام التي طبعت شخصه، زمن السجن، بل أزمانه وفتراته، لكنه لم يكن وحده: رفيقات ورفاق لم ينكرهم أبداً، طبعتهم المرحلة أيضاً، لكنهم يتعالون أو يتجاوزون على الأقل تجاوباً مع نداء الوجود الحي الآن؛ ذكَّرته بالسجن واختارت لفظها قصداً حتى تثير، دون أن تستفزّ مشاعره. . . سنوات

الرصاص كما يسمّيها الكثيرون وكما تسمى، لكنه إذ ذاك ثار، وبالأمس فعل مثل ذلك عندما جاءت العبارة على لسانها، أي رصاص يا رفيقة؟ ينتفض مستنكراً التسمية والعبارة، يقول إنها تسويق إعلامي وابتذال وتهرُّب من مواجهة، سنوات النضال هذا هو الاسم، نضال والتزام، حتى مع الأخطاء وحركات المدّ والجزر الضرورية لحياة الأفكار، دون التراجعات، ودون الكذب على التاريخ.

لم تكن تريد إلا صحوة مشاعره، دون ثورة ولا فوران، نظرته سادرة في شبه ارتحال بعيد، ساهمة كأنما يتهجى غير منظور، وفي تأفف صامت من لا شيء، يقوم متناولاً كرزاً قماشياً من فوق الرفّ، يمدّ يده إلى عصاه القصيرة، يعتمر قبعته العريضة، في هيئة متجه إلى ورشة الموقع، يمكنها أن تظلّ مستريحة أو تختار السير في مماشي القرية أو في الطبيعة، يمكنها... تقول إنها تفضِّل مرافقته ومتابعة أشغاله من كثب، يسبقها إلى الباب يخطو في اتجاهه، تقوم بدورها لاحقة به.

يمضيان بصمتٍ باتجاه البقعة المسيَّجة تبدو من خلال الشباك متقاطعة أقسامها أشكالاً مختلفة بشرائط ملونة، تبرز بينها لوحات صغيرة مرقَّمة مغروزة في الأرض في عدة نقاط بلا انتظام، يدير يمود مفتاحه في قفل السياج، بينما يسرع من أقصى شمال البقعة رجل مهرولاً مهللاً، يسلِّم على يمود باحترام:

ـ صباح الخير نعم آس...

يومئ يمود بردِّ التحية مشيراً إلى مجيدة بأنه حماد الحارس.

يلجُ إلى الداخل تتلوه مجيدة، تبدو البقعة موزَّعة أقسامها إلى

أشكال مختلفة، تتقاطع أشرطة حدودها بغير انتظام، يشمل أغلبها حفريات متنوعة، نصبت فوق بعضها من الأكثر عمقاً أغطية قماش مرتفعة عن الأرض، مما يشكل حماية خاصة لها من قوة أشعة الشمس، ويتيح عملاً متأنياً في حماية من شدة حرّ؛ يرنو يمود يتفقَّد ما حوله، يخطون جميعاً داخل البقعة والحارس ينهي آخر ما عنده جواباً عن تساؤلات يمود، الذي ما يلبث أن ينحرف بهمة تجاه الرقعة التي قدم منها الحارس. عاملان مشتغلان في الحفر، أحدهما يغيب في عمق الحفرية منثنياً على ركبتيه، يزيح برفق طبقة تربة شبه متكلسة، بينما الآخر على مقربة منه يعمل بقوة الفأس في الطبقة الأولية العليا، يحيِّي يمود ويقف متأملاً سير العمل، وما يلبث أن يستخرج من كرزه كراسة، ثم ينحني يمدّ للعامل في عمق الحفرية طرف سحّاب متري، يثبت يمود عمق الحفر من عدة نقاط، يسجل الملاحظات في كراسته، ويمضي إلى الجهة المقابلة بقرب المدخل، حيث يضع الكرز القماشي مستخرجاً جملة وثائق وخرائط، يتملى أوراقه، ليتجه صوب سلم صغير يهبط درجاته المعدودة وسرعان ما يغيب في عمق الحفرية المظللة، تنحني مجيدة على حافة الحفرية، تقرفص متابعة حركاته، يأخذها انهماكه الكلي السريع، غيابه عن كل شيء حوله، يلفه الصمت والهدوء. . . أفعلاً هو صامت أم باطنه يهدر ويحاور؟ تعرفه كما يعرفها ورفاق الأفكار والسنوات، ولا يمكن لوضع طارئ أو مقيم مهما كان أنْ يغيِّر الأعماق إلى النقيض.

تظل متابعة الفرشاة الليفية الطويلة اللينة، في حركة يده الآلية ذهاباً وإياباً، تهشّ برفق وبنفخ أنفاس رقيق غبار وعوالق، تتملى حذق الحركة وغامر الانشغال، ثم ما تلبث أن تقوم، تخطو قليلاً بين

مختلف أشكال مربعة ومستطيلة مقسمة خطوطاً أو خيوطاً، لتتجه نحو مخرج السياج تسير بتؤدة، في نزهة لتمضية الوقت بلا هدف أو غاية.

ليلة لم تكن مريحة لأحد منهما، وظلَّت مجيدة كلما تقلَّبت في فراشها تشعر به مثلها يتقلب، كأنهما معاً تحت غطاء شائك أو على حبات جمر، تؤرقها تلك الأفكار التي فضَّت موضوعاتها معه، والتي لم تفضّ بعد.

لم تنكر عليه ما جاءت من أجله ولا ناورت حوله، بل دخلت في الموضوع مباشرة منذ اللحظات الأولى لوصولها، كانت حريصة على أن يُدرك مرماها منذ البداية ولا يخطئ فيما يضيع وقتهم جميعاً، لا يمكنه أن يبقى خارج السرب، الرفاق الآن كلٌّ من جانبه يهيئ له المكان والمكانة اللائقة بماضيه ومستقبله، مستقبل الجميع ومستقبل هذا البلد بالذات، بلدنا الذي ضحينا بزهرات العمر في سبيل كرامته وإنسانه، الآن نحن في وقت البناء، لا يمكنه أن يبقى خارج السرب، وعملية العفو التي أطلقت سراح المناضلين وفتحت صدر الوطن للمنفيين والمغتربين منهم، لم تأتِ تصدقاً من أحد أو تبرعاً، بل هي ثمرة عقود النضال، ونتيجة تفاوض وتفاهم سياسي بعيد الأبعاد والآفاق، وليست مطلوبة لذاتها: لا إطلاق سراح السجناء، ولا عودة المغتربين؛ لا التعويضات والمكافآت، لا بلسم الجراح ولا تولي دفة السلطة بالهدف المنشود لذاته في ذاته؛ المنشود يا عزيزي لا يخفى على أحد، ولا يخفى على مناضل خبير وسياسي مجرب، ولا على الحكم والنظام ومنظومة الدولة بكاملها، المعادلة شاملة كل عناصرها، والمرحلة تأسيسية بكل المقاييس،

تأسيس مجتمع العدالة والديمقراطية والمؤسسات، الطريق طويل، والمناضلون أدرى بالصعوبات، وكل شيء يمر عبر التفاهم والحوار.

منصتاً يظل يمود لرسالتها، قضت في ذلك طيلة يوم قدومها وجزءاً من ليلتهما غير الهانئة، غير الهادئة فعلاً، لا بما كان يتجاذبهما كلّ في عالمه، كما في عالمهما المشترك من قضايا سياسية جدية، وإنما بما كان لا بدّ أن يتجاذبهما أيضاً، كل في عالمه من وجدانيات باطنية هادرة في تساؤلها بصمت: أليست امرأة؟ أليس رجلاً؟ اثنان هي وهو، ثالثهما اثنان هو وهي، والليل وذكرى دفء فراش ورعشة كيان ذات ليلة في شقة سلا. لا تراود رغبة وإنما هي الفكرة، أكانا في زهرة عمرهما التالف بين القضبان والبوابات وخطو الارتعاب في المختبآت، يميزان فاصلاً بين رغبة وفكرة؟ مثلها لا بد أن يراوده السؤال والفكر في الآن وفي الحال، مثلها... لولا أنها لن تكون من كانت تقول له بجرأة فكر وكيان: بغيت الآن! لا هي تقول، ولا هو يقول أو يقبل منها، في الآن والحال... ليست رغبة إنما هي الفكرة، لا تريد له ولا لها، امتحان رجولة ولا تكلّف لعبة أنوثية متأخرة عن زمانها، معقلنة الحافز، مُلجمة الجامح.

تنتفض محرِّكة رأسها في ظلام الغرفة، كأنها تنفض عن رأسها العوالق، سخافة فكرة لا تُجارى، أوف... ولم يأتِ صامتاً تأففها، بل مسموعاً حتى منها، لدرجة أن يستجيب معها يمود متسائلاً، ما لها؟ لا تجيب، أو بالأحرى تُظهر ما يفيد استغراقاً في النوم، تاركة لذهنه الساهد أن يعتبر صوتها ذاك، عن حلم... لم لا؟ حلم بالماضي إن يكن! حسبها، وفوق حسبها في ظروفهما، إنجاز ما جاءت من أجله، أن تبلغ الرسالة وأن تنجح، تنجح...

يُدرك كما تدرك في نفسها استماتتها المعهودة عندما تكلَّف بمهمة أو تتحمل واجباً، لا شيء يوقفها أو ينال منها إلا أن تبلغ المراد، هكذا تأتي إلى يمود بعد شهور من وداعه السجن، قدَّرت أن المدة كافية لاستراحته، وأعجبت برغبته في أن يستريح بمرتع طفولته إنْ صحَّ أنها كانت مرتعاً لذلك، أو قابلة لتكون أيضاً مرتع كهولة تفتقد منفرط شمل منذ عقود لأقارب معدودين بتغييب قسري أو بمنفى ومهجر، كما تفتقد زهرة عمره المتآكلة سلفاً، بين القضبان وبوابات السجون.

يقول في أول عبارة له خارج مجاملات لقاء واستقبال ما بعد الإفراج، ليس كالطبيعة العفوية المطلقة من فضاء يعيد للذات اتزانها بعد انشطارات قرابة عقدين، في فساحة ما تسمح به قضبان سجن على اختلافها، ورحابة أمزجة السجانين على غرائبيتها وشذوذها؛ إشارة عبارة تفهم منها، كما يفهم الرفاق قصده. . . اتزان الذات، أي ذات وأي شخص تبقى من جيل بعد زهرات أعمار أهدرت؟ إنما تبقّى حقاً لكافة الرفاق حسّ المسؤولية، إرادة الفعل الإيجابي والبنّاء، وهو ما تحاول مجيدة أن تمسّ شغافه في صمت يمود وتصامه العتيد.

تترك بقعة الحفريات المسيجة، تتمشى وضحى يوم معتدل يبدو مغرياً بنزهة تطول في قرية لا تزال ملتحفة بطبيعتها البكر في حمرة تربتها الغامقة وبيوتها الطينية الواطئة، لدرجة أن أسافل العديد منها منغرزة في الأرض، وبعضها الآخر مستنبت في حافات هضبية أشبه ما تكون بطفيليات متسلقة تطلّ رؤوسها العنيدة متطلعة من أي شيء، في لباس ناسها وطعامهم كما في خطوهم ونظراتهم، وفي ألوان

وجدانهم، كل شيء منهم وفيهم ناطق مطبوع بإرث وتواتر.

ضحى يوم مغرٍ حقاً بجولة تطول، يبرِّرها استغراق يمود المعهود في ورشه إلى ما يقارب العصر، نزهة بنكهة خاصة حقاً، لولا أنّ مجيدة يحاصرها استشعار فشل لا يُحتمل في مهمتها مع يمود كما تريدها أن تكون وتنتهي؛ كان المفروض أن تقف عند حدود استطلاعية لمدى ما يمكن أن يكون طرأ عليه من تغير، وفي حالة ما إذا بدت فرصة ما أو إمكان لمفاتحة فلموعد لاحق وتهييئ، الرفاق حريصون على إشعاره بمكانته في السرب، وليأخذ الموقع والدور المستحق.

كان حاداً معهم ومع نفسه، ولا ينسى أحد منهم ذلك، عندما هيأوا له احتفالية إطلاق سراحه، من بوابة السجن إلى الفيلا الصغيرة لإقامته المؤقتة ريثما... ريثما... يكمل يمود الجملة التي تعثَّر بها لسان الرفيق المسؤول عن تدبير استقباله وإقامته، يكملها بما يفيد استهجاناً ضمنياً، ويرفض اللقاء الصحافي معلناً لفريق الإعلاميين باقتضاب، أنه من يحدِّد اللقاء بهم، في موعد لاحق قريب، ثم صباح الغد، يكتشف الرفاق أن يمود غادر باكراً باتجاه فندق متواضع، وهناك بعد أيام معدودات يعلن عن لقائه الصحفي، وينجزه كما أراد، لم يقل شيئاً ذا بال، لكنه لم يقل ما كان مطلوباً، تحدث باقتضاب شديد وصراحة شمس صيفية، لا يريد مقابلاً لما مضى من زهرة عمره، لأنها كذلك كان يجب أن تمضي، لتصبح معنى زمن وتاريخاً، ولا يدَ لأحد على سلطة زمن وتاريخ، وعلى الأصح وعلى الأقل أيضاً، لا يريد أن تكون له يد على معنى زمن وتاريخ؛ هل يحاكم أحداً أو يطالب بجزاء أو...؟ يقاطع سائله ناكراً مستنكراً أي

ميل منه أو رغبة في شيء من ذلك. . . . سجانوه أو قضاته وجلادوه؟ يقول إنه لا يغفر لهم أو يصفح عنهم، ولا يطالبهم بشيء في الآن نفسه، هو يمود ليس له دور ولا مسؤولية، كما لا رغبة له ولا نية في أيّ تعامل مع سجانيه وجلاديه وقضاته على ما كان. . . ما كان هو معنى زمن وتاريخ، ويجب أن يبقى كذلك بلا ضغائن ولا حسابات بدائية، حتى التجاوز لا معنى له، كعدم التجاوز سواء بسواء، سجانه كان ضرورياً ليكون حيث كان أو حيث صار في معنى الزمن والتاريخ، لا أكثر؛ هو كسجانه معاً، كانا عنصرين مكوّنين في معادلة زمن وتاريخ، كلٌّ كان ضرورياً في مكانه وموقعه للآخر؛ في كل المعادلات من طبيعة كهذه، لا بد من سجن وسجان، وظيفة ودور ولا يهمّ ما ومَن. . . كما لا بد من سجين؛ لا بد من منفى ونافٍ ومنفي. . .

عدمية إذن؟ يسألونه: أتهرُّب أو انتفاء ونفي لمسؤولية عن فعل تاريخي واقع؟ يقول إنه لو خيِّر عن أحب عمل أو وظيفة لديه، لقال إنه يكره ويرفض أن يكون قاضياً محاكماً، لا يريد لنفسه وظيفة متابعة آثار الناس، وبالمقابل يريد أن يكون له أثر يتابعه الناس أو على الأقل مَن هُم في موقع يحتِّم ذلك.

هكذا تكلم زرادشت، قالها مصطفى إذ ذاك بحياد، وهو يطالع تفاصيل اللقاء الصحفي لرفيق دربه، هكذا تكلم زرايمود عن الزمن والتاريخ، صارفاً نظره عن معنى المرحلة والتطور، مجانباً كل مساهمة في لحمة الزمن والتاريخ، مجافياً نسج لحظات الانتقال إعداداً لمعنى جديد لزمن جديد بأدوات جديدة؛ وكأنما النضال قدرٌ مقدور، غاية الغايات في ذاته، خالد وثابت على قدم واحدة. . .

تكلم زرايمود. . . هكذا تكلم. . . وكان أوضح ما قال زرا. . . ربما أقربه إلى الصواب أيضاً، حاجته إلى كامل وقت لتتضح الرؤية، ولا يكتمل أسبوعان على حديث يمود بعد ذلك، حتى تكون وجهته مرتع خياله وصباه: تازودانت.

تتمشى مجيدة متقاطعة أفكارها ورؤاها، مع إيقاع الخطى، حتى ليصبح سيرها خفيفاً قوياً مكتسباً سرعة ما يتبارى في خواطرها من أفكار متعارضة متقاطعة، وكأنما حركة هذه من تلك، لتجد نفسها في قلب القرية، نقطة مركزها الجانبي، لو أمكن لقرية مثلها أن تمتلك نقطة وسطاً تمتدّ منها إلى جهات أربع أو ضعف أربع، وإنما هي تمتد بغير انتظام في ثلاث جهات، متداخلة في نفسها، متآكلة من جهة أو أكثر بدواعي زراعية؛ نقطة مركز تبدو على غير عادة، حتى لوافدة مثل مجيدة، بل تتوقف مجيدة خطواً وأفكاراً، يأخذها المشهد. . . أفراد وحدة أمنية إضافية بأسلحة خفيفة متمركزة في شبه منحنى، والأهم نقطة مركز هؤلاء، حيث تتميز من بين السيارات الأمنية، واحدة مدنية صغيرة، يبدو نازلاً منها للحظات، هيكل رجل يوليها ظهره متحدثاً بهيئة وصوت أقله استنكار، وأكثره عنف وتعنيف، يقابله تقبل في شبه اعتذار خافت: تعليمات، تعليمات. . .

تتناهى إليها أطراف جمل:

ـ التعليمات سيدي

ـ لا رسميات، قلت

ـ الأوامر. . .

ـ لا أوامر ولا رسميات

يبدو الطرف الثاني متقبلاً شبه معتذر، يعطي إشارة للمجموعة الأمنية بالابتعاد، لا يبدو الطرف الأول، هيكل الرجل المولي ظهره، مقتنعاً بذلك أو مكتفياً، يتحدث من خلال هاتفه المحمول، ويتسارع التفاف الأمنيين بالقرب من سياراتهم في انتظار إشارة ما، قبل أن يغيبوا داخلها بانتظام متحركين من حيث أتوا، باتجاه خارج القرية... يوقفها المشهد، يأخذها عن نفسها وأفكارها قبل أن يستدير الرجل وهو يعيد هاتفه إلى حزامه... م...؟ لا يمكن؟ هو... أسرعت باتجاهه، هو... مصطفى، ينظر إليها مقبلة، يتبادلان قبلة على الخدين... مبكرة؟ لا بل أفاقت متأخرة أو عادية... كيف أتى؟ كما ترى..

تتوقف بقربهما سيارة قائد المنطقة، يترجل ويحيي مكرراً اعتذاراته عن الإجراء الأمني، شيء روتيني تماماً وجد عادي، لا شيء؛ يبدو مصطفى محافظاً على بعض من ملامح تذمره، أمام اعتذارات الرجل المتكررة، مكتفياً بتأكيد عدم الحاجة إلى ذلك، وأنه ضد رغبته، قبل أن يومئ بإشارة المنتهي من الموضوع ويعود إلى مجيدة، يخطوان يداً في يد ومصطفى يتملى ببعض حياد بساطة معالم القرية، يعلق بصره حيناً بعد آخر بعبارة منتقصة لملصق انتخابي أو ملامح وجه مقصوص منها؛ وطيلة مسارهما باتجاه مقام يمود، تعمل مجيدة على شرح ما تعرفت عليه بخبرتها القصيرة من نمط حياة الناس هنا، وبينهم يمود.

يتحرك مصطفى متملياً المسكن المُتْحفي لرفيق دربه، يتأمل بعض الأثريات: قطع حجرية، كتل ترابية متماسكة، عظام، بقايا بكلّ الأحجام والأشكال، رسوم تخطيطية لكائنات وأشكال مختلفة،

مجيدة تعد قهوة في الركن المطبخي ما تلبث أن تعود بها إلى مصطفى، يسألها وهو يرشف عن الحال، كيف؟ توجز أن الأمر في بداياته، مُظهرة مؤاخذة خفيفة على مجيئه وراءها بهذه السرعة. لا بأس، يتقبل منها ما يستشعر، لا بأس، لكن ثَمّ جديد يتطلب الإسراع والحسم، على الأقل كسب وقت ثمين في حالة الإيجاب، أما في الحالة الأخرى، إذا لم يكن جديد في موقف يمود، فيؤخذ في الاعتبار ويُتصرف على أساسه، يبرر مجيئه مؤكداً أن عليه مباشرة، عليهم جميعاً، الإحاطة بنتيجة الموقف بأسرع وقت، وإلا ما كان ليأتي، ينتظرهم الكثير، يلزم الإسراع.

يستخرج مصطفى هاتفه مستجيباً لإشارة النداء، ينظر إليه متبينا طالبه، وفي حركة عزوف عن الجواب، يعيده إلى مكانه مستأنفا حديثه مع مجيدة، لا وقت لانتظار، فرصة سانحة لإقامة مؤسسات بنكهة طموحاتنا، لن نترك الفراغ لأحد، وفرصتنا لن نضيِّعها، الزمن لا ينتظر أحداً، يمضي ويلغي من ذاته المواعيد.

يستجيب مرة أخرى لنداء الهاتف، يحدق في الشاشة الصغيرة، إنعام، السكرتيرة، تدرك مجيدة ذلك من نغمة حديثه، تدرك الموضوع من مشهد ما رأت، يردّ على إنعام أنه لم يردّ لأنه كان مشغولاً، وعليها أن تعتذر بذلك، لا. لا. لا داعي لاعتذار، فقط أخبري ومن موقع قوة، بأنهم أخطأوا، زيارتي خاصة وشخصية جداً، لم أطلب أي إعداد أو حماية، لا شيء، لا شيء؛ أكثر من ذلك، نبهتُ إلى عدم إحاطة زيارتي بأي مظهر رسمي، إنهم يستبقون الأمور، يفسدونها منذ البداية ببهلوانيات كهذه.

(23)

ـ ولدي؟

تنظر إليه عائشة محدِّقة ثم تخفض كالمستحيية من هيئة تعجبها. يتردَّد سؤاله في سمعها أكثر من مرة، يسأل عن إبراهيم. بهوادة وهدوء تتحرك، تتفقد ترتيب البيت، لمسات خفيفة هنا وهناك، حول السرير والأرائك والطاولات القصيرة، حركات لمسية خفيفة، في انتظار مغادرته، لتتفرغ لأشغالها، كان يمود ينهي إفطاره في جلسة بالسقيفة المظللة أمام الباب، بينما تتحرك عائشة في الأركان بانتظار قيامه.

لم تأبه لتردُّد السؤال في سمعها لأول مرة عن إبراهيم، تردد كالوَهْم بينما هي منصرفة البال إلى ما تتحرك فيه، تلتقط السؤال مرة أخرى، عن أيّ يسأل؟ وبالأحرى يسأل من؟ اضطرت إلى الاقتراب باتجاهه تتأكد من مخاطبه ومصبّ سؤاله، تتحرك بتردد تتفقد لوازم إفطاره، شبه تعلّة لمحاولة تأكّدها مما تسمع... معي؟ تشير إلى صدرها وهي تعود بنظرتها الملتوية إلى الوراء، تتأكد من أن لا أحد غيرهما، يسألها هي إذن، عمّن؟

ـ إبراهيم؟ ولدي؟

متعجِّبة تحدق فيه لتخفف من نظرتها تجاهه، يؤكد يمود أنه

يعنيه بالذات، ولدها إبراهيم، كيف هو؟ آه، تستردّ أنفاسها تنتصب قامتها، لا بأس... لا بأس عليه، ما عنده باس...

ينظر إليها باتجاه المزيد؛ يدرس، الثاني ابتدائي، تأخذها بسمة خفيفة، شيطان.. أوه، كثير الشغب حقاً، عمّته تستحمله أكثر مني، يقضي جل الوقت معها في غياب عائشة، أم بنات عمّته وهو متشيطن بحق، عمّته أيضاً تقول عنه ذلك، عفريت من صغره، لكنها تحتمله، تحبه كثيراً يذكّرها بأخيها والده، شقيقان وكانت هي الكبرى، تتوقف عائشة كأنما أفرطت في الحديث والتكرار، سبق أن ذكرت له بعض خصوصياتها، بمناسبة أو أخرى، بإسهاب أو اقتضاب حسب الظرف، إنما التركيز بالسؤال عن إبراهيم يفاجئها.

ـ لا بأس عليه

تلخص وتنهي، بينما يسأل يمود لم لا تَصحَبه معها ... هنا؟ متعجبة أكثر وغير مصدِّقة: تأتي به معها؟ هنا؟ لم لا... أحياناً، إذا شاءت؟ عمته متعلقة به، ثم هو يدرس، يدرس ويساعد عمّته، بنات عمته، يشترك مع الجميع فيما يقدر عليه، عطلته طبعاً يوم الأحد، إضافة إلى يوم السوق، المدرسة على حاشية السوق ولا تمكن الدراسة ذلك اليوم، فضلاً عن أنها فرصة ليساعد الأطفال أسرهم في هذا اليوم، ويقضون لأنفسهم شؤونهم الصغيرة أيضاً، متشيطن ويحتاج إلى مراقبة، يفضل المشاركة في كل شيء مع عمته والبنات، طبعاً على حساب واجباته المدرسية، لا بد من مراقبته وإلا مع تدليل العمة، لن يكون مجدياً في شيء؛ تحرك رأسها متبرمة من سلوك الطفل مع بسمة خفيفة مراودة.

تفاصيل صغيرة لم يكن يمود يجهلها أو يسمعها منها لأول مرة،

إنما الجديد فيها عنصر الولد، تشكره على اهتمامه منصرفة إلى ما كانت فيه، ينهض يمود بعد لحظة منهياً جلسة إفطاره في يوم مشرق معتدل، يخطو إلى الداخل يتناول قبعته وبعض كراريس، متهيئاً للتوجه إلى ورشة الحفريات، تسأله كالعادة عمّا يمكن أن تهيئ له، سؤال مألوف يجيب عنه أحياناً بشيء محدَّد، بينما يترك لها الخيار في غالب الأحيان، طلباته محدودة قلَّما يغير؛ لا يجيب وإنما بإشارة معتادة منه تفهمه، ليجد بعض الغداء جاهزاً عندما يعود شبه مبكر، عند الزوال، فتشرف بنفسها على تقديم وجبة الطعام، وتنهي يومها بتنظيف الأواني قبل الانصراف، وقد يأتي متأخراً إلى ما بعد العصر، حيث تنصرف قبل ذلك، تاركة كل شيء معداً كما يجب، حينئذٍ يقوم يمود بتنظيف الأواني بنفسه، وإعداد ما يلزمه بعد ذلك من قهوة أو شاي... عكس رغبتها يفعل ذلك، تتأفف كل صباح عندما تجده قد أنجز ذلك، تعلِّمه أكثر من مرة، كيف وأين يضع الأواني في انتظارها لحين رجوعها الصبح، لكنه أبداً يفعل ذلك، يقوم به حتى عندما يظهر قبوله لاقتراحها، يجاملها بموافقة شكلية، تدرك ذلك لكنها لا تنفك تعبِّر عن تأففها، ليقول أكثر من مرة بأن ذاك يروقه ويرضيه... وما لها، آش فيها!؟

يسوي قبعته على رأسه بعناية قبل أن يخطو في الفضاء المشمس، يلتفت إليها مشيراً تجاهها ببعض تأكيد، لا بأس أن تأتي معها بإبراهيم... لم لا؟ إذا شاءت!

* * *

ـ خلّيه

تمسك بذراعها يدُ يمود، خلّيه... في اتجاهها لإيقاف حركة

إبراهيم أو بالأحرى فضوله المتحري للأشياء في فضاء يمود، من سكن وملحق محتويات متحفية؛ إشارات يمود وحركاته إلى عائشة، تتكرر منذ عودته إلى البيت في أول حضور لابنها إبرهيم معها؛ تبدو قلقة متوترة بمتابعة حركات الطفل، خشية إحداث منافاة لشيء بلمس أو حركة عابثة، ينظر إليها يمود متفهماً، لا شك أنها لقَّنت الطفل كثيراً من التحذيرات والتوجيهات قبل إحضاره، والطفل يبدو مشدوهاً ممّا يرى وجدٌّ محافظ متحفِّظ في حركاته، بين حين وآخر تصدر همهمة أو نحنحة، دون لفظ مبين عن عائشة في خضم أشغالها، يستجيب لها الطفل بمثابة تنبيه موجّه، يُعيد على إثرها بسرعة وآلية مضحكة، وضع يديه خلف ظهره أو بسطهما إلى جانبيه أو تصليبهما على الصدر، دون أن يكفّ عن انهماك عميق في استيعاب فضولي مستعرض لكل ما يحفل به المكان؛ مرة بعد أخرى يصدر الصوت المحمحم عن عائشة من مكمن انشغالها، ليتكرر المشهد بكامل آلياته.

تمضي عائشة فيما هي فيه، ويمضي إبراهيم غير ملتفت لشيء حوله، ولا مولٍ انتباهاً لغير ما يمرّ به ويتوقف عنده البصر الصغير الحاذق، من غرابة كائنات وأشياء تأسر بالغ تطلعه؛ بين حين وآخر، تنزّ عنه نأمة حركة يد لاشعورية للتمدُّد والتفحص، سرعان ما تلجمها إرادة تنبّه كامن، لتتقلص مجرد إحساس عند حدود الأنامل، شبه أكلان داخلي يحرك أطراف الأصابع بعضها لبعض، دون أن يتعدى أو يجاوز، قبل أن يستجيب بحزم وبفعل همهمة من بعيد غير مبينة أو بدون، إلى تغيير وضع اليدين كليهما، إلى مقام أكثر أمناً، ببسط أو تصليب أو تشبيك خلف الظهر، ممّا يجعل يمود يبتسم لنفسه متابعاً

مشفقاً في آن، قبل أن يغالبه الأمر مفجراً فيه ضحكه بصوت مسموع، تبرز معه عائشة مطلّة مستطلعة ما يجري، يغذي ملامح هلعها المسبق، مزيد تيار من ضحكة يمود.

تتطلع إلى الطفل، تعود بنظرتها شبه آمنة. . . خلّيه عليك، تقول إشارة يمود ونظرته في خضم ما يرواده من عبثية موقف، تبادله نظرة كاظمة تسجل ندمها على اصطحاب الطفل معها، لم تكن راضية عن ذلك، توجُّسها كان في محلِّه وإن لم يحدث شيء حتى الآن، إنما. . . تستشعر يمود قربها إلى جانبها من خلف، تلتفت باتجاهه، مسحة سمرتها الخفيفة وحدّة حروف ملامحها الدقيقة، يمر بيد رفيقة على جبينها، يرفع طرف خصلة فاحمة متمردة عن لفة المنديل حول هامتها، خلّيه عليك، خلّيه في حاله.

يتجه يمود نحو قاعة المتحف، الطفل سادر في جاذبية الأشياء حوله يتملى ويعيد، في معركة غير مهاودة مع انعطافات حركته نحو اللمس، يضع يمود يده على كتف الطفل، رعشة مفاجئة تمس كيان إبراهيم، هزة ارتعاب مفاجئة سرعان ما تفارق، ويد يمود تربت بحنوّ على كتفه متئداً حذوه، في شبه حركة وتوقف تستعرض الأشياء. . . ترتخي حركات الطفل، يشير بالأصبع متسائلاً عن هذا وذاك، يمسك يمود يد الطفل يوجِّه بيده أصبع الصغير المتوتر المتقلص خشية جمر، يضع بلمس خفيف سبابته على فقرة الصوربودي. . .

ـ ما يعضش!

يلفظها يمود محرِّكاً بقوة كيان إبراهيم من كتفيه، يرفع الطفل بصره بواسع بسمة وانشراح باتجاه يمود، ما يعضش، هو عظام؟ لكن. . .

ـ ما نمسّوش؟!

يردف الطفل سؤاله بسرعة.

صحيح، لا يلمس؛ يؤكد يمود محبذاً تدارك الطفل، وسرعان ما يقترح عليه جولة في القرية، يقفز إبراهيم باتجاه الخروج يتلوه يمود، تتحرك عائشة، تتوقف عند العتبة مستندة بكتفها إلى إطار الباب... يمود يسوي عقدة قبعة على رأس الصغير، يسيران متحاذيين يداً في يد، متجاذبين متشابكين، ترمقهما باستكانة وهدو، عين وامقة.

* * *

ـ آش هذاك في يدك؟ منين جاتك

يعمل الطفل على الإفلات، تلحف عائشة في استكناه حقيقة الأمر، شيطان... تعرفه، قدرت دائماً مخاطر المجيء به، آش هذاك في يدك؟ عفريت... طفلها إبراهيم... ما في اليد؟ ما هو؟ والمصدر، منين؟ تعمل جاهدة على الإمساك به وبما لديه، يناور الطفل بخفة متحاشياً حركاتها للاطلاع، لإزالة ما بيده، يخبئ شيئا ويأبى أن تنتزعه منه، أعطاه لي صاحبي! صاحبه؟ من؟ تلحف محاولة الإمساك بقبضة يده الملتوية في كل اتجاه، صاحبك؟ من صاحبه؟

ـ أنا

يجيب يمود يملأ بحضوره المدخل، يهرع الطفل نحوه بسرعة محتمياً، يؤكد يمود أنه صاحبه، صديقان... هكذا ارتضيا هل من مانع؟ مسحة حيرة تغمرها، معالم تردُّد... صاحبه أعطاه شيئاً.. ماذا في الأمر؟ يفتح إبراهيم كفه بطواعية في معالم خيبة على محيا أمه، لا شيء، قطعة حجر صغيرة صقيلة ملونة.

وات إيزيت؟ ثلة الأطفال عابثة تتقافز متطلعة متحلقة، والأجنبي الأشقر غير حافل بمناداة صحبه في الحافلة الصغيرة، يستعجلونه لانطلاق العودة. الرجل مسمر النظر والخاطر إلى ما في يد الصغير يمود... وات إيزيت الخبز والزيت... واتـ... تتداخل الأصوات: بع... لا تبع... بع...لا... دفع إغراء لجم إحجام والأصوات وموج الخواطر في صدر الصغير، عشقها تلك... ذاك الشيء، يبيع لا يبيع، يبيع لا يبيع... يتدخل دليل السائحين بطربوشه الأحمر مذكراً بعرف ديك... يبيع، لا يبيع... واتـ...؟ يتردد اللفظ محدثاً أثره السحري بلهجة ملحفة ملحَّة في التملك، تتقلص أطراف الصغير يمود، يتصامم السمع، تتداخل ذراعه ويده الممسكة بالشيء لتلتصق بالكيان ببصر زائغ متحيِّر يتحين فرصة إفلات، إذا ما...

زوينة... يردِّد إبراهيم طروباً بحاله، معتزاً بالقطعة الحجرية نادرة اللون مغرية غاوية، يؤكد يمود أنها له، هو مَن وجدها، ويستحقها مكافأة ليوم عطلته يمضيه بجانبه في ورش الحفريات، زوينة... يكرر إبراهيم متملياً ألوان القطعة يقلبها في كفه، مقلباً نظره بين الصاحب يمود ووالدته، تنظر عائشة بصمت، تتراجع باتجاه ما كانت فيه، لتتوقف داعية إبراهيم ليستعدّ معها للذهاب.

يستريح يمود على الأريكة، يمدّ يده إلى مجموعة من صحف تصله بتأخُّر منتظم عن موعدها، يمر عابراً على العناوين الرئيسة، تفغُم أنفه رائحة قهوة يعمّ فوحها المكان، تضع عائشة فنجان قهوته الخفيفة المألوفة في موعدها، كلّ شيء جاهز، تنادي إبراهيم للخروج، يظهر الطفل من عمق المطبخ محملاً محفظته إلى ظهره،

يقضم من شطيرة في يده، يقبِّل صاحبه ويغادر مودعاً، تظهر عائشة متأهبة للحاق به، تتوقف عند العتبة، تلتفت مترددة، ينتبه يمود، ترياه شيئاً، لكنها تظلّ صامتة، يضع الفنجان، يقف باتجاهها، تبدو مرتبكة، تريد شيئاً، لا تقول وإنما تغضّ من بصرها لتتلعثم معتذرة... عن ماذا؟ شاكرة... ماذا؟ هي وابنها، شاكرة صنيعه مع طفلها... عنايته... تتلعثم... يدنو منها، تستكين إلى نظرته وسرعان ما تغض وتنخفض، ظهر يده ملامس على صفحة خدها، يستكين إلى نظرتها الهادئة الغائبة، يقارب صفحة جبينها بشفتيه، تغمض لشبه خدر ودفء أنفاس؛ تلتقي متداخلة في قبلة أنفاس.

(24)

«قبر الحياة» يسمونه، بسطاء الناس يقولونها ويقصدون بها المنزل المأوى لضرورته؛ أن تملك سقفاً يؤويك فقد امتلكت قبرك، أي ما هو ضروري لك، تلطُّف منهم هو أم تواضع أم استكبار يتخفى بكناية واستعارة ومجاز؟ حذق الصناعات الكلامية، تلك الحذلقة؛ ليكن، فما بال من يبتنون القصور المشيدة والقلاع المقلعة والحصون المحصنة... أية قبور حياة هذه، لهم هؤلاء؟ تلطفاً تواضعاً أم استكباراً مصطنعاً يرمون في وجوه بعضهم بعضاً؟ بمنطق أن تشيد لك قصراً بحدائق غناء، وتقول لمعدم في حاله إنه قبرك للحياة... لا بأس، وبمنطق آخر تقول لمن له مثل ما لديك من فاخم قصر، إنه قبر حياتك، ليجيبك وله مثل ما لديك أو أكثر، أن نعم صدقت يا أخ!؟

ماذا يكون السجن إذن مقابل ذلك؟ أن تحرم الحركة والشمس والهواء، تفتقد المأكل والشراب والملبس والمأكل؟ أن يصبح النور في خيالك نعمة النعم، ورؤية السماء أبعد وأحلى حلم، فأحرى رصع العبارة ببهاء الحق والحقيقة وطلاقة الجنان واللسان... أنقول إنه نعيم الجنان، إذا كانت تلك إنما هي قبور الحياة؟ أتزاحمون السجين حقه القبري، تسلبون فخره اللفظي... أم هي مكيدة واقع

أيضاً: كل شيء عكسه وخلافه، وكل شيء هو هو في الآن نفسه، وكل آن؟

يجتر يمود خواطره بوعي اجترار حقيقي، بشعور حيواني كئيب في يوم لا يُنسى، يذكره ولا يذكر اسمه، فقد ورد اليوم ذاك، بعد أن فقد يمود لعبة عدِّ الأيام وترتيبها بأسماء مختصرة، لعبة السنوات الأولى، مرسومة نتفاً على اختلاف، على جدران قبور حياة حقيقية بلا حذلقة أو صناعة كلام؛ دأب بحماسة البداية أن يسجل أسماء الأيام وترتيبها، قال إنه بذلك يسنن ذاكرته، ويحفظ خيط رابطه بالحياة خارج قصره السجني! سوّد كثيراً من الجدران، سود الجدران كثيراً، على اختلاف ما احتضنه من زنازين، وعلى كثرة ما تنقل بينها كذلك، تلك القصور القبور بلغة أخرى حقيقية، قبل أن يكتشف أن مسوداته عبث لا طائل تحته، وبالذات في الوقت الذي منعوهم من كتابة أي شيء على الجدران، لتتوقف همته عن متابعة الخط على الجدران؛ ماذا يفيد أن يكون اليوم جمعة أو أربعاء وأن يسجل ذاكرته على كآبة الجدران؟ العجيب هذا التوقيت الذي جعله يتوقف من ذاته عن الكتابة في الجدران، عندما جاء الأمر بمنع ذلك تحت طائلة العقاب، وبأمر أن يطلي كلّ سجين جدران زنزانته بلون كئيب، لا يزيد ولا ينقص عن لون جدار مملس بإسمنت حاف... قالوا: بعدها لا تخطيط ولا رسوم على الجدران وإلا...

وقالوا أيضاً: للسجين حقٌّ يومي مقابل ذلك، في أن يسأل سجانه عن اسم يوم وترتيبه في الشهر وحتى عن الساعة، مرة واحدة في اليوم، حق جديد مكتسب، ولا يدري يمود إنْ كان الأمر يعنيه وحده، أم يعني سجناء آخرين يمارسون اللعبة نفسها،

لسبب بسيط وهو أنه لمدة طويلة، وعبر تنقلات معتمة من سجن إلى آخر، لم يكن أبداً متأكداً من أنه في سجن مع آخرين، أم أنه وحده في قبر حياة بالمعنى الحقيقي حتى السريالية؛ ذلك وجه من المأساة الهزلية، يتصور أنـ «هم»، أحدهم أو هم، بموقع من يتملى حاله في هذه العتمة من جهله بما حوله وفي تساؤله الملحف العميق، إن كان وضعه الحالي في السجن يماثل شريكاً أو شركاء آخرين، أم أنه يتميز وحيداً بتفرُّد وعزلة وانفراد؟ أهو جزء من عذاب وتعذيب؟ والآن، يتركونك لفترة قبرية لا تقدّر، وأنت تخربش برمزيتك الخاصة على كآبة جدران معتمة راسماً حلقات عمرك، ليقولوا لك: ممنوع؛ ويضيفوا ما الفائدة ولك الحق أن تعرف ما تشاء من أسماء الأيام وحسابها، وحتى عدّ النجوم ما تشاء منها عندما تشاء، ومواقع الأفلاك ومدارات الفصول بشموسها، بمجرد إشارة بسيطة منك؟ ومتى يحصل هذا؟ عندما تكفّ من ذاتك عن لعبة الرسم على الجدران، مكتشفاً عبثية ذلك لأسباب تخصّك؟ قمة هزلية المأساة؛ أيكونون قضوا وطراً من قراءة ترميزاتك، وكانوا من أجل ذلك يتركون لك حقّ الخربشة الكئيبة تلك، يتملّونها ويغوصون تحت مغمضاتها التي ليست في الواقع إلا نقصاً وتقصيراً عارياً عن كلّ معنى، فيجدون لذلك المعنى وما وراء المعنى؟ ألذلك كان تنقيلك مرة بعد أخرى، تنقيلاً معتماً، لا تدري إنْ كان من قُرب أم عن بعد، أهو مجرد قبر حياة مجاور ملاصق، أم قارة مقبرية جديدة ونائية متنائية؟ أين حدود الهزل وبدايات التأسي، أين؟

يجتر اجتراراً خواطر يوم لا يسأل عن اسمه ولن يسأل، كآبة

هذا اليوم تكفي لتمييزه عن باقي الأيام؛ ولماذا يجعلون لمقابر الحياة، متنفساً عندما يشاؤون؟ لماذا ومتى يشاؤون... هم، ذلك المعلوم المجهول؟ يصمّتون كل شيء حولك ويصلّدون حتى لا ينفذ نفس أو قبس، وإذا هم كأنما أزاحوا بحركة سحرية كل الجدران والحواجز والأسوار، لتهاجمك صاعقة أخبار الدنيا من خارج القبر، أيهدفون إلى نسفك مفككاً أشتاتاً بصعق فجائي... يهاجمك الخبر من حيث تدري ولا تدري، من كل مصدر تقدره أو لا تقدره؛ هم من قدره، ما تعرف منه وما لا تعرف... أكثر من سجان يفاجئك، أكثر من احتكاك عابر لم يكن مألوفاً، أكثر من زيارة! تصور عين الإبرة الذي تمرّر من خلاله الزيارة بعد كمّ وحتى... تصورها تنهمر زيارة المعارف من قريب وبعيد، لمجرد أن تزفَّ إليك الخبر الوحيد، كأنما اشترطوا على المعارف ألا يقولوا كلمة واحدة إضافة عن الخبر فقط لا غير، وإلا... من يدري ماذا اشترطوا ضمناً وعسفاً، لتطالعك وجوه زائرة بغير توقع ولا طلب ولا انتظار، هكذا ملامح غير معبرة عمّا تحمل من خبر، ليوم له ترتيبه الخاص في كآبة أيام القبور: قضى الأستاذ! مات!

كأنما الهدف نسفك دفعة واحدة، وحتى لا يجعلوا لك فرصة للشك؛ أمثله يموت؟ مات مرّوني، ذاك الجبل الشامخ؟ أيموت في فراشه مثلُه، موتة بعير كما نعى نفسه نظيره التاريخي المقاتل؟ يموت مرّوني خارج قبر الحياة، قمة هزلية التأسي، تلك الصناعة! ذاك الحذق المقصود! ألم يكونوا من كرم وجود بحيث يهبونه هدية مستحقة: موتة سجين في سجن أو حتى اغتيال؟ ألم يكن يستحق؟ لِم لَمْ يفد سنان الموت زائراً له في إحدى فترات السجن؟ لا، في فراشه

يموت. لا أحد يختار موته ولا مولده. مات. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان!

لا يتأكد موت الأستاذ فحسب، ولكنه الدفن أيضاً، في تازودانت، حسب رغبته قبل القضاء، وعند مبصم الديناصورات وفي ثراها الخوارقي، ولِمَ يا أستاذي العظيم؟ وما المعنى أنت الذي، لا يأتيك الخرف ولا يعتريك السخف؟ لم فضاء معارك الأكفان وجوار المنقرضات؟ لِمَ والمعنى يا صاحب المعاني؟

يجتر كآبة يومه يمود وخواطره، سيل الزيارت ذلك الذي لا ينقطع، لا كان مطلوباً ولا مرغوباً، يجتر الحكم والعبر وحرقة السؤال لِمَ والمعنى؟ لا زيارات، لا يريد؛ ليكن قضاء الأستاذ، غيابه الأبدي الجسدي، ليكن ما يكون، ومثل الفقيد إن يكن يستحق حزناً، فليس في القاموس بعد، كيفه ومبناه؛ وإن يكن يستحق فخراً واعتزازاً، فليس في النفوس بعد، غوره ومرماه.

يتحرك يمود، في رحابة كآبته الزنزانية، يأخذ يمود ما تصادف يداه من شيء يخطّ، أي شيء لا يدري كنهه، يقوم إلى الجدار متلمساً قتامته الصارمة، يخطّ بخادش صلب بقوة أصابع متخشبة، أي شيء يأتي بمعنى أو بدون، المهم حركة العصب واليد، والأهم التخطيط على جدار ممنوع، فليقرأوا قراءتهم، ليمنعوا أو يشفعوا. . . «مات شامخاً مات حياً لا يزال أستاذ مروني» يخطّ الآن ببعض وضوح «مات عظيماً. . . عمري السجني 9 س 7 ش، 26 يـ يمود» ليطلقوها ناراً أو جليداً، ليتأسوا أو يهزلوا، لينسفوا متى وكيف شاؤوا إن قدروا قدرهم، فله أيضاً قدره، منطق وسبيل: إرادة طوع فكر، حركة طوع هدف واتجاه.

يخط بقوة على كلّ الجدران، يخطّ أسفل، يخط فوق، يخط بعينين مغمضة مفتحتين في العتمة، يخط في كلّ اتجاه بلا انتظام، على امتداد كلّ ما يمسه ويلمسه في الخشونة والعتمة، أسفل وفوق، يخط يخطو بعزيمة تحوّل الزوايا والأركان من تقاطعاتها إلى اتجاهات مستقيمة تزيد ولا تنتقص، لينسفوا كيف متى شاؤوا . . . يخطّ بقوة يحتكّ لها جلد الأظافر بخشونة العتمة الجدارية. . . يخطّ بعزم متعرِّج. . . مات شريفاً قائماً عاش كريماً حراً عظيماً مترفعاً كونياً إنساناً حكيماً زاهداً وطنياً متواضعاً عالماً أنوفاً قويماً نزيهاً متطلعاً مجدداً متجدداً حـ. . .

(25)

يسأله يمود بعد إدمان سماع، وفي صفاء إيناس واستئناس، ضمن جلسة لا ثالث لهما فيها، عن مصدر معرفته، أية كتب يقرأ؟ يا سيدي كم من قارئ كتب، وإنما مثله مثل حمار يحمل أسفاراً، صمٌّ بكمٌ فهُم لا يفقهون وصدق اللّه العظيم، إنْ تنظر إليهم تعجبك أجسامهم وإن تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة؛ يا سيدي: العلم من اللّه يؤتيه من يشاء، وما القراءة وما السماع إلا وسائل، وكذا الحواس؛ وكم من سامع لا يسمع، وكم من ناظر باصر لا يرى ولا يبصر، وكم وكم وكم... قل إنها لا تعمى الأبصار، ولكنها البصائر التي في القلوب...

يتحدث الرجل في ثقة وطلاقة، يغمر ملامحه بشر وانشراح، وما يفتأ يدعو لمحدِّثه بالخير والفلاح في ثنايا الكلام وبدايته، وبين كلّ وقفة وأخرى من حديثه، يتناول الفكاوي ممّا حوله ما يبل به ريقه، إنْ كان كأس شاي أو قهوة أو قراح ماء، فقد كان حريصاً على أن يكون بجانبه وفي متناوله ماء، مذكراً في ثنايا حركته، بأنَّ المرء يشرق بالكلام، أشق وأسوأ مما يشرق بالطعام، وقانا اللّه وإياكم شره، وشرّ بني آدم الذي عرفت منه عياناً في سنواتك، كما عرف بعضه العبد الضعيف أمامك.

يتوقف الفكاوي قليلاً أمام النظرة المتسائلة ليمود.

ـ حتى أنا (أعوذ باللّه من قولة أنا) غيَّبوني. . .

يتملى يمود ملامح صاحبه، يضيف الفكاوي بسحنة غير معبرة

ـ استدعوني صْحابنا، صْحابك وصْحابنا كلنا، صْحاب الحال. . .

يستمع يمود غير مصدق ولا مستوعب، كأنها حكاية جديدة من حكايات التهامي الفكاوي، يكرر يمود للرجل أنه يسأله سؤالاً جدياً عابراً عن معنى ما يقول من غيابه أو تغييبه، فلا ينتهزها فرصة لصنع حكائية ديصورية؛ يلزم الفكاوي صمتاً لا يبدو ليمود مفيداً في شيء ولا مقنعاً بشيء، طالما ناقش مع الفكاوي أو بالأحرى سأله في تغيير موضوع حكيه عن الديصور، ليبتكر أو ليبحث في الكتب ـ حسب قوله ـ عن موضوع وشخصية جديدة. طالما سأله في ذلك، يمتد صمت الفكاوي، يبدو أشبه شيء بموقف احتجاج مكتوم.

ـ سألتك يا أخ ولكلِّ سؤال جواب!

ـ ولكل جواب سامع. . .

استدعوه حقاً لا حكاية وقصة، استدعوه. . . صْحاب الحال كما يسمون، السلطة؛ تصور كأنهم لا يعرفونك، الدرك الذين كنت تعرفهم ويعرفونك والقائد والأعوان، والشرطة وكنت دائماً معهم في علاقة طيبة وعلى ودّ، يبدون خلقاً جديداً، طبعاً لا ينكرون معرفتك وشخصك، لكنهم يرسمون مسافة بمقاس، يخفضون نظرهم عنك وهم يمرون بك منتظراً في الممر، أو وأنت على سجيتك تريد أن تؤنس نفسك ببسمة متبادلة، يومئون بما يوحي إليك بوضوح أن الأمر «من فوق»، ليس بيدهم ولا يعنيهم شيء. . . هكذا! تصور! ولإتمام

الصورة يقابلك المحقق بوجه لا تعرفه، الأمر «من فوق!»، وهو خطير، أنت في خطر وخطير، ولا يفيدك في شيء أن كانوا لك أصدقاء، أو كنت تعتبرهم كذلك.

استدعوني يا سيدي، حققوا معيَ قال لك: ما بال هذا الديصور جامع الناس من حوله، وحده من دون كافة الحلايقية، وما هذا الكلام المرموز وما هو بمرموز، وإنما معانيه واضحة فاضحة كشمس النهار، ترمي بها الحكومة والنظام والدولة كلها، أم تحسب أن الناس مغفلون، وأنت وحدك الفاهم القادر على اللعب على الأفهام؟ المحقق وجه جديد جاء خصيصاً من «فوق»، ليتحرى هذا الموضوع، المقصود أنني فيما أحكي عن الديصور لست بريئاً في فرجة بريئة لأبرياء، بل ثَمَّ قصد واضح وهدف مبيَّت ومدفوع عنه ولأجله، من جهة ما، على الأقل لتلويث عقول الناس بأفكار مشوشة، وشغلهم بأسئلة وبمقارنة أحوال ونظرات ممّا هو خلاف ما هم فيه وما حولهم، أو يمر بهم من أشياء؛ هذا معروف، يعرفونه عني ويتقنون ضروب استنتاجه، إنما السؤال المهم: لحساب مَن أعمل، ومَن ورائي وأمامي؟ أي مَن وما الدافع والحافز وما الغاية؟ تقول لهم لا غاية إلا الحكي في ذاته لذاته، لا غاية عدا تحقيق الفرجة ومتعة تحلق الخلائق حول السرد، يقولون لك هذه قديمة. . . قديمة. . . ابحث لك عن علة أخرى تُنجِّيك، أو بالأحرى والأسلم، أن تبحث لك عن نشاط آخر، أو على الأقل اعمل أي شيء غير الحكي والحكاية، التغيير المقصود من وجهة نظرهم، ليس في اتجاه ما نتحدث فيه من مجرد تغيير من أجل متعة حكائية جديدة، وإنما التغيير المقصود هنا في الوجهة والمعنى، أي أنْ تأتي بحكي ليس له

معنى. . . أقول يا أسيادي جَمال الحكي وسحره في مبناه ومعناه البعيد، وهو الأهم، وأهم منه ذاك الذي ربما لم يخطر بذهن الراوي نفسه، يقولون ها أنتذا قلتها من ذاتك، اعترفتَ بكل شيء! تقول لهم يا إخواننا كلّ خبر ـ والحكي لا يخرج عن خبر ـ إلا وهو من أجل العبرة والاعتبار، الحكي تاريخ وخبر، وقديماً ربط الجهابذة الفطاحل بين «الخبر والعبر» قالوا صراحة: إن ما يجري في حلقتك، وما يتضمنه حكيك هو تحريض، وهو من باب تفتيح العيون للعُمي، تقول لهم لو كان الأمر صحيحاً كما تقولون، لكنت مشافياً للأَكْمَه والأبرص والمجذوم ـ معاذ اللّه تلك معجزة الأنبياء والرسل ـ ولكفيت بذلك شرّ الحكي والحكاية.

يتركونني في قبو رطب، لا أعرف ليلي من نهار، بلا أكل ولا شرب، أفترش أرضاً إسمنتية قاسية، أتوسَّد ما استطعتُ يدي، وألتحف الفضاء والظلام. . . أيام وكل ما استطعت أثناءها أن أفعله، هو أن أصلي بلا وضوء ولا قبلة، فقد رأيت نهايتي قريبة لألقى ربي مستغفراً. . . حتى انتهى لأحدهم ـ كما قيل لي ـ وهو قرب الباب صدفة، صوت دعائي وصلاتي، ففتح مستطلعاً ما هناك ليجدني وينجدني بجرعة ماء وبساط للصلاة، وقبل ذلك كله ليستجيب لاستعجالي في طلب دورة المياه، فقد كنت على وشك انفجار من الداخل، رغم محاولات تنفيس محدودة عديدة، آذتني في آدميتي ولباسي حاشاكم!

ـ أهلاً بحبيبنا السي التهامي الفكاوي!

تصور، ها هم أولاء من جديد في صورة أخرى، الصورة التي عرفتهم بها وعرفوني بها، أصدقاء يحيون أحسن التحية ويهلِّلون لك

مرحِّبين مستبشرين، هم أنفسهم الدرك والشرطة والقيادة والمشيخة والمقدمية، كلهم الآن يعرفونك كأن لم ينكرك أحد منهم من قبل، قالوا يا سيدي إنّ أمري خرج من بالهم، نسوا ـ وسبحان من لا ينسى ـ أن شخصاً يسمى (عبد ربه) رُمي به في القبو تحت أقدامهم؛ أحدهم مؤكداً بأغلظ أيمانه، يقسم أن قدمه تستحقّ البتر، لمجرد أنه يتصور أنه كان يخطو فوق مكان (قبو)، كان يعمره محشوراً محبوساً محروماً العالم الفنان التهامي الفكاوي؛ يا سيدي هو الشخص نفسه الذي سبق أن قادني إلى القبو وأغلق دوني الباب؛ قال يا سيدي، إنه فعلاً قام بذلك حسب التعليمات التي جاءت وصاحبها من فوق، يقول ولكنه بعد ذلك انصرف إلى مهام أخرى، طبّق تعليمات أخرى كما هو الحال، وكله يقين بأن قضية عبد ربه الضعيف عابرة، ولا شيء يستوجب أن يبقى الفكاوي في القبو أكثر من دقائق، دقائق فقط لا غير!؟ معلوم، ولماذ أكثر من ذلك؟ ولم يكن لها مبرر تلك الدقائق المفروضة المفترضة نفسها، إنما لا بأس... لا بأس ما دامت التعليمات وصاحبها كله جاء من «فوق»، ويجب أن يرفع النتيجة إلى «فوق» أيضاً، ولا يعود أبداً... أم يعود خالي الوفاض إلى «فوق»؟

قالوا يا سيدي، إنهم جميعاً بدون استثناء وبالأيمان المغلظة، أدلوا بشهاداتهم لصالحي، وذلك رغم أن أمثالهم في مهامهم، ليسوا للشهادة لأحد أو في أحد، معه أو ضده، شهادتهم تعتبر لاشرعية، لامشروعة، فهم ليسوا للشهادة، ومع ذلك خرجوا عن ناموس مهامهم ووظائفهم كلهم بدون استثناء، وهو ما جعل الإفراج عني، بل الاعتذار لي وارداً مقرّراً في الحين، أي في الدقائق الأولى نفسها التي أُرتِج عليَّ فيها داخل القبو، لكنه النسيان من الشيطان الرجيم،

بل وإنها العناية والاعتبار لشخصي الضعيف المذنب، ما جعل كُلّاً منهم يظن أن الآخر بادر بإطلاق سراحي قبلهم جميعاً، ولم يتصور أي منهم عكس ذلك... ما حصل قد حصل، ولا يدري أحد كيف نُسي أمرك، ربما هي الطوارئ ما أكثرها وأسرع... طارئ ما نزل في اللحظة نفسها وأنسى الجميع أمر القبو، وكلّ يعتقد أنني انصرفت لشأني سالماً معززاً، كل كان مطمئناً إلى أنّ الآخر، هو الذي فتح عني الباب مطلقاً سراحي؛ هكذا وقع، واللّه العظيم، لا أقل ولا أكثر، وهل يعقل: الفكاوي سجين في قبو، وهو الذي لم يُفتح حتى ملف رسمي بتحقيق حوله أو معه، وهل أمضى على شيء، أو طلب منه التوقيع على شيء؟ أبداً وهذه تكفي وتدلّ على أنّ الأمر لم يكن مقصوداً... ولو كان مقصوداً: أتعتقد أيها التهامي الفكاوي ـ هنا شبه ضحكة غريبة من المتحدث مع غنة تطويل في النطق باسم محدثه ـ أن الدنيا كلها عاجزة عن إيجاد ملف كامل متكامل يزجّ بك في الغياهب البعيدة السحيقة؟ لو كان ذاك المقصود، لكنه لم يكن وكلّه خطأ غير مقصود، والخطأ عن غير علم أو بحسن نية ليس إجراماً، والعفو أسلم والمسامحة والأخوة...

آخرهم في الحديث معي، وكان يشاركني طعاماً شهياً أقسم كما أقسموا، على ألّا أغادر إلا بعد أكل وشرب، بل واستحمام، وسألني الشاوش عن رغبتي فيما أريد أن آكل وأشرب كأنني ضيف في مأدبة الكرام، قال مؤانسي في الأكل وقد زودني كما أمر قائدهم بلباس كامل، ساحباً كلّ ما كان عليّ ممّا به من أوساخ وروائح، قال لي في نهاية الوجبة ونحن نحتسي الشاي، لو كنت مكانك لعرفت كيف أثبت معرفتي بالناس وأوثق صلتي بهم، فلا أبقى كأيّ

غفل مجهول القدر، يُشار إليه بالشك كلّما طرأ طارئ، وما أكثر الطوارئ... تساءلتُ عن المطلوب والممكن... قال سهل وقريب كاحتساء ماء، قال أنت دائماً في قلب السوق، تجتمع حولك نخبته، ولك جاذبية وعندك صوت وصيت واسم ولسان... فما أسهل أن تستوعب ـ وأنت مستوعب ـ ما يروَّج بين الناس، ما يميلون إليه، ما يعبرون عنه ويفكرون فيه... ببساطة شديدة، هذا كل شيء، كل المطلوب؛ ولا تظنّ أنّ أصحابنا من «فوق» لو كان اسمك وارداً عندهم عن هذا السبيل وبهذه الكيفية، كانوا يفكرون في شيء من تحقيق معك، أو حتى سؤال باتجاهك، فأحرى أن يصل الأمر مستوى قبو، ونسيان... و... بالمناسبة احمدْ ربك، أنت مؤمن حقيقي ودعواتك مستجابة، ليأتي الأمر في صورة قبو، ولمدّة قصيرة لا تذكر وبمبرر نسيان... واحمدْ ربك على النسيان، واشكره على أنْ جعلهم يتذكرونك... أو تعتقد أنّ مهنة الحكي والحلقة المتحلقة نفسها، كانت لتستقيم لك كلّ هذا الدهر، لو أرادوك أو أرادوا لك شيئاً، الوسائل كثيرة فلا تغترّ ويركبك من رأسك شيء، لا يغرَّنك شيء في الماضي ولا في الحاضر والمستقبل، احمد ربك... أقل القليل أنْ يسلط على حلقتك زمار أو طبال، مقارب ومرافق أو غير مفارق، ما تكاد تفتح باب الحكي حتى تنطلق عقيرة آلته الهوجاء في عنان الفضاء، ولم لا يكونون جماعة؟ ولم لا يُسلم الأمر معهم إلى شباك بالألسن وعراك بالأيدي، وإلى تعدي وجرح ومحاضر وملفات طبية، وإلى ما هو أسوأ من قبو مؤقت ونسيان... اسمع وافهم كما تريد لسامعيك أن يفهموا ويعوا، اشكرْ ربك على سلامتك واحمدْ من أنجاك، احمد مَن لا يُحمد على مكروه سواه.

لا تعجب، يقولها الفكاوي كالمستنكر ملامح يمود من وقائع يذكرها، لا تعجب يقول الفكاوي الدنيا حبلى تضع في كلّ لحظة أعاجيب، لا ، وليس الأمر من قبيل الحكي؛ اسمع يا أخي ولك أن تقول بعدها إنني ذو وساوس، فلقد قلت هذا في نفسي، قبل أن يفعلوها هم، صْحابك وصحابنا: عندما دعوني أودعوني القبو ونسوني ثم. . . إلخ. قبل ذلك يا سيدي، ورأسي فارغة من أي شيء عدا الحكي للّه في اللّه، كنت منغمراً مع صاحبي الديصور فيما كان فيه، والناس منصتة صامتة كأن على رؤسهم الطير كما يقول أسلافنا الرواة، وإذا أحدهم ينبري، وقد كنت عرجت على الحكمة في انقلاب الناس على الديصور، بعد ما حصل من شأنه عند انخراطه في مهامه المجمع الأعظم ومعامعه، قال يا سيدي وكنت مستأنساً بهؤلاء الذين تأخذهم الحمية، فيتدخلون في الحكي الساري بإشارة أو تعليق، تكون مقبولة في السياق ونافلة قول لا يؤبه لها، فأتابع ما كنت فيه؛ بَيْدَ أنّ صاحبنا كان له شأن آخر، لم يكن مجرد محمس متحمس أو معبر عن تفاعل مع حدث الحكي، وإنما وجه إشارته إليّ؛ بالمناسبة كانت له أصابع طويلة بطول قامته المعوجة، وإبهامه متجه صوبي كرمح كسيح ولسانه: يا هذا الفكاوي كفى من الهذر، وتجارة الكلام، أنت تبيع الكلام، لا كلام الحكي الذي تنصبه طعماً للعباد، وإنما تبيع كلام الناس هؤلاء المحيطين بك، مصدِّقين في بلاهة أنك عالم وأديب سارد، أنت تقتلع الكلمات من حلوقهم قبل أن ينطقوا بها، تجلو الغموض عن أفكارهم قبل أن يتمثَّلوها، تلج التجاويف من خيالاتهم قبل أن يعبروا إليها أو يعبروا عنها. . . وتحمل ذلك كله ساخناً تفرغه لأصحاب الحال بيد ولسان، ممسكاً

مقابله ثمناً وأثمنة بيد ولسان، وأنت تبيع سلعة خطيرة، تبيعها وقد أخذتها بلا ثمن ممَّن لا يعرف من هؤلاء المتحلقين حولك، فاغرين أفواههم كالعجماوات، فارغين كالقرب، وأنت أيضاً تبيع مخدرات، مخدرات وأخطر مخدرات، أفكارك وعصورك وبطولاتك الفارغة مخدرات، وأنت تؤدي بذلك وظيفة مدفوع عنها أجر، وما أدراك ما هو! بئس الأجر والتجارة، أنت عون للظلم والسلطة على العباد؛ لعنك اللّه، وقبَّح مسعاك وجهنم مثواك...

قال ذلك وانصرف تاركاً لديّ فراغاً في كلّ شيء، حتى لفظ الحكي غاب، جفَّ مني الحلق والقلب، نظرت إلى مَن حولي في غرابة مشهد قال عنه أحدهم، وهو ينصرف مع المنصرفين من حولي: اللّه يبقيّ. الستر... وهكذا أصبحتُ أسائل نفسي مرة بعد أخرى مَن أنا؟ وحتى في الحكي أثناء اشتداد العقدة وتلهُّف الأسماع والقلوب، يعتريني الغياب ويأخذني توقف بلا مقدمة، مردداً السؤال نفسه: مَن أنا؟ وما يظن بي الناس من حولي؟ هل نظرتهم هذه المتحلقة المتعلقة، هي الحق والحقيقة أم ثم غيرها؟ مَن أنا ومَن هم؟ يدوم بي الحال لحظات لا أدري مداها، والأبصار متعلقة والأسماع، واللفظ ذاته في حلقي معلق والحدث، فأسمع من يقول منبهاً: سبحان اللّه نعم أس، سبحان اللّه... أعود أتعوذ وأقول: غفر لي ولكم اللّه، سبحان اللّه، سبحان مَن لا تأخذه سِنة ولا نوم، وأتساءل أين كنا من حديثنا، أراجع الذاكرة متمهلاً، مستعيذاً من الشيطان الرجيم، ليستقيم إلى حين حكي ولسان، إلى حين...

(26)

تازودانت، لا شيء من ماضيك يرتسم، ماضي طفولة ضاعت معالم ذاكرته البشرية، وجوهٌ غير الوجوه، أقارب محتملون بملامح غير تلك الموشومة في ذاكرة صبا أو مخيلة شباب؛ الأمنية ظلَّت وكانت منذ مغادرة أولى لإتمام الدراسة، أن يعود به الدرب مرة بعد أخرى، لتملي معالم المكان، وتصفح الملامح المألوفة، تازودانت كنت في القلب دائماً وتبقين.

يعود، غيّبته دهور نضال مبكر، يافعاً خبر المنافي واستوطن السجون، وظللت في القلب دائماً يشعّ منك شيء ما، بمسافة لانهائية وغموض. . . تازودانت أعود هادئاً جد مستكين، على غير ما عرفت في طفولة غواية وطيش، ذاك الشغب الذي كان يملأ الدنيا في حناياك، وتملئين به حنايا يافعين صغار.

الوجوه غير الوجوه. . . والمكان؟ المكان رغم تغيرات عمرانية أشبه بالكثافة، يبدو كالمحافظ على معالمه الكونية، تلك التضاريس خصوصاً والمعارج والمدارج، لكن كهلاً مجرباً يدرك أنه لا بد متغير بدوره بدرجة ما، ذاك التغير الذي لا يُلحظ بين لحظة ولاحقتها، وإنما يتطلب عقوداً وسنين، لا يُستشعر لكنه حاصل؛ يتأمل ما حوله يمود منذ محيط القرية إلى مدخلها، محاولاً أن يكتشف مواقع بصره

القديمة إنْ عزَّت مواقع القدم؛ الوجوه غير الوجوه، يحملق برهة يتطلَّع إلى مسار السيارة في ممرات القرية ليصرف نظره عن المواكبة. والأطفال؟ يراهم حقاً من زجاج النافذة، يراهم بدورهم في شبه تطلُّع عابر سرعان ما ينصرف غير آبهٍ. يراهم، لكن أين هم حقيقة؟ أين حرارة الفضول، خطوات الطيش المسابقة لحركة العجلات، أين الشغب الصبياني المحايث لحذق اليفاعة والبراءة؟

يتابع متخيلاً مواقع القدم، متلمِّسة مشاعره نتوءات الجدران، زوايا الأركان حيث مدار تواطؤات ومؤامرات صغيرة بريئة وغير بريئة، هنا، هناك، أبنية يتخلَّف بعضها ويتقدَّم آخر في التحام وغير انتظام مشكِّلة أزقة ومسارب، تاركة في مساراتها شبه الملتوية شبه المستقيمة، مختبآت ومكامن طالما ملأت تجاويفها كائنات أسطورية تعبث بها خيالات الصغار، كما تعبث بخيالاتهم، هنا، هناك... كنت ترى تخطيطات عابثة ماجنة تحيل إلى لمزٍ في صديق أو فريق أصدقاء، يرد عليها بتخطيطات مضادة، هجوماً بهجوم، قبل تدخل وسيط صلح، تليها تخطيطات مرحلة جديدة هنا، هناك... ذلك العبث الطفولي المعاكس تحت شعار جادّ تخطه غالباً سلطة الكبار: ممنوع البول هنا... مستفز صبر المثانات الصغيرة أو محرض طيش فيها ورغبة الإفراغ هنا، هناك... يلتحف الصغار أنفسهم أحياناً ضمائر الكبار، يخطون بأنفسهم شعارات ممنوع... ليخرقوا مبادئها قبل إنهاء العبارة ذاتها هنا، هناك...

لا أثر يلمح لشغب طفولي. بقايا ملصقات تحمل وجوهاً مزَّق العَمْد أو الإهمال والقِدَم ملامح بعضها على نصف نظرة أو ثلث ابتسامة أو ربع هيئة، شعارات أحزاب: الشعب، الديمقراطية،

الحرية، المؤسسات الدستورية... شعارات تمزّق بعضها على نصف جملة أو ثلث فكرة وربع عبارة... بقايا معارك الانتخاب، ملصق فوق آخر، وتخطيط مربعات مرقَّمة تحدد مواقع ومقاسات اللصق هنا... هناك... كون طفولة يغيب، براءة شيطنة وسباق، تحلّ بلاغة لاعبين كبار وسباق: مقعد لكلِّ طفل، مشفى لكلِّ حي، شغل لكل عاطل!

ـ لقيت راسك؟

كل شيء تغيّر، يتغير ظاهراً أو باطناً، المكان في سريته وحتميته، والملامح البشرية في شفافية عبارة لا ملفوظة، والزمان عبر اختلاف المشاعر، الزمان أيضاً عبر ما طوح به من أقارب أقربين، بعضهم هروباً من شبهة القرابة ذاتها، تلك التي تصبح تهمة وجريرة، بعضهم آخر بدافع هجرة وراء الكسب، وراء البحر، وبعضٌ طواه التغييب أو مَحْتِد القبر... الزمان ذاك الفعل الدؤوب فينا ذاكرة مخيلة وشعوراً، حركة جسماً وإحساساً.

يشير عون الإدارة المحلية المرافق إلى مجيدة، يدلّ على معالم مبانٍ متفرقة تبدو على طرف القرية، «الكارتي» حيث منشآت الشركة، حيث كانت تنشط مرافقها، تنحرف مجيدة مع الاتجاه.

ـ لقيت راسك؟

تكرِّر سؤالها ليمود، لمجرد طرد شبح الصمت المخيم فيما يبدو؛ شبه آه صامتة تصدر عنه؛ يمود في شغب فتوة على مشارف نهاية الابتدائي تقرع سمعه كلمات «الكومبانية، الطاشرونا، لوزين...»، معجم غامض لا يفصح عن أكثر من قلق التطلُّع، لما

يمكن أن يحصل في قرية ألفت على الدوام مرور العابرين، يبدون مشدوهين بالمنطقة لسبب غير معلوم، فرادى وجماعات، عزَّلاً ومجهزين بمناظير وآلات تصوير وأجهزة أخرى لاقطة ما تلتقط، تقيس ما تقيس وتنتقي ما تنتقي، ليعودَ كلّ شيء كما كان هادئاً كالمألوف، تاركاً خلفه حدّة توقُّع تبدأ من حدس مقالع الفحم، إلى مناجم الذهب الحر الأحمر الخالص...

حين يهدأ كلّ شيء فعلاً، يهدأ حتى الخمود، حتى خيال الأطفال العابث ينصرف إلى مشاغل أخرى، تفاجأ القرية بإنزال حقيقي لكوكبة من رجال أوروبيين رجال الكومبانية الطاشرونة يجدّون في البحث والتقصي وأخذ العينات، من تراب وحجر ونبات، ومن بشر حي كذلك، فهم يتقرون السحنات ويفصحون عن أسئلة، ثم عندما ينصرفون ليعود كل شيء كما كان، يأخذون معهم بعض النماذج من بشر القرية، ليشتغلوا معهم في مناطق أو أشغال أخرى فيما يبدو، إنْ لم يكن ذلك من أجل أن يقتطعوا من جلودهم، ما يقارنوه بعينات ممّا أخذوا من كل ما يمتّ بسبب إلى القرية، من جامدٍ وحيّ!

مياه كثيرة جرت تحت الجسر كما يُقال، ما بين مراحل فاصلة واصلة من حياة يمود، وها هي ذي معالم شركة مجسّدة المعالم تجدد الحكاية نفسها في غيابه، تاركة آثارها واضحة للعيان، أهو تطابق في الحال إلى حدّ إشباع، جعل ملامح الساكنة وتعابير الأطفال لا تنبئ عن تطلع؟ ذاك الزمان، هذا المكان، كل يتحول؟

ـ لقيت راسك؟

تكررها مجيدة وإشارة العون المرافق تتجه إلى طرف المدخل لمحيط مؤسسات الشركة، أشبه ما يكون بمعسكر، هنا. . . يسعى على مشهد ظهورهم خلف السياج الحاجز، باتجاه الباب من الداخل، شخص يبدو أنه المكلف بالحراسة، يلفظ العون اسمه ومهمته معرفاً به: السيمو حارس مباني الشركة؛ يفتح لهم بعبارات وملامح ترحيب، يقودهم بإشارته باتجاه مركب شبه سكني مشرع الباب، ويبدو أثر الغسل والتنظيف واضحاً من البلل الساري على أرضية سقيفة المدخل، وندى الرش على أطراف عشب يبدو من تفرُّقه أنه حديث استنبات.

ـ هنا

يقولها العون وهم يترجَّلون ليلجوا المكان. عناية خاصة أعدّته لاستقبال يمود، مع مراعاة ما أفصح عنه: بقدر الإمكان لا يزاح شيء من أساسيات ما كان الأستاذ يستعمله. . . كل شيء هو هو، يبقى كما هو، كما كان؛ يكرّر العون ذلك كأنما يقرأ التعليمات في لوح، كل شيء ما عدا التجهيز الضروري، يتقدم باتجاه المطبخ، يفتح باب الحمام، يشير إلى الغرف المشرّعة يتحسَّس الأثاث بصمت ناطق، على أنّ كل شيء جيد، كل شيء على ما يرام، يريهم الصالون المتحف، شبه المتحف حيث كان مرّوني يتحرك ويتمدَّد، يتراجع العون ويخطو إلى الخارج ينتظر، تقترب مجيدة من يمود، ممرِّرة يدها على كتفه كالمشجعة أنه سيألف؛ تعرف ويعرف أنه سيألف، هذه قريته ورغبته، الزمان هنا يبدو شبه حفيّ بذكرى الأستاذ مرّوني وحافز، هنا أراد أن يكون، أن يتنفس ويعمل ويكشف. . . وهنا أراد أن يوارى الثرى. . . هنا. . . أيّ قدر جامع بينكما، أية توأمة؟

تتركه لخواطره مجيدة، تخرج تشير إلى العون بإنزال الحمولة من صندوق السيارة، يباشر ذلك بمساعدة السيمو؛ ترتب الأشياء في أماكنها، صناديق تموين وعلب وأكياس، ترتب كلّ حسب طبيعته، بعضها بخزائن المطبخ ومرافعه، وبعضها بأعماق الثلاجة المشغلة سلفاً، وما يلبث الرجلان أن ينتهيا ليقفا مستعدين لأية خدمة أخرى، تشكرهما مجيدة، بينما يلتفت إليها يمود يمدّ يده يصافحها مودعاً.

ـ لا قبل قهوة

تقولها مجيدة رداً على يده الممدودة، وهي تخطف أو تطبع قبلة من على خده. تسرع نحو المطبخ، تقول إنها تريد التأكد من أنّ كل شيء في مكانه، وعلى ما يرام حقيقة لا افتراضاً، تشعل الموقد وتضع الغلاية فوقه، تتحرك في الفضاء متفقدة، لتعود إلى الغلاية مطمئنة، وهي تقول إن مصطفى لا يرضى بأن يترك أي شيء للصدفة أو العبث، تصمت قليلاً لتستدرك: ولا أنا ولا أيّ من الرفاق.

لا يترك شيئاً للصدفة، مصطفى! ترنّ وتظلّ مترددة في سمع يمود جملتها تلك، أحقاً؟ يتساءل في دخيلته، والرفاق أيضاً، معظمهم على الأقل والأصح، هم أيضاً لا يتركون شيئاً للصدفة؟ ومتى كانت الصدفة مشكلة؟ مشكلتنا في القصد، وجهة الوعي ومنطقه عندما ينحرف عن مبدئه ومرماه، أهذا ما كنا نبتغي؟ لو كان هذا ما نقصد لوَصلناه بأقصر وقت وأقلّ تضحية ومنذ وقت طويل، بل إنه كان معروضاً علينا بلا عنت ولا مقابل، على الأقل بلا مقابل من جنس ما دفع من عزّ العمر. . . التيار لا يتخلى عن أدبياته ومرجعياته، وإلا فيمَ الفرق بين اتجاه واتجاه، بين تيار وآخر؟ كيف التمييز إذن بين الشيء ونقيضه؟ بين فاقد الشيء ومنتجه ومالكه؟ لا

ولم تصلح للتغيير أبداً، ولا لعدالة مفقودة، قيمٌ محافظة؛ لا تُلتمس محصلةً مبادرة متحرِّرة وتنافسية شرسة، في تراكمات ناتج فردي أو مؤسسي، بل في الثمن الإنساني الباهظ مقابل ذلك؛ التنافسية الحقّ المنشودة تسابقٌ مع المثال وصورة النموذج المبتغى في منظومة عادلة، ولتكن تنافسية الفرد مع ذاته في هذا السبيل، وتنافسية الجماعة مع نفسها في السبيل ذاته، وحريّ بنا هنا أن نقول بحقّ: لا مجال للصدفة، لا نترك شيئاً خارج المعادلة.

ما الوجه الإنساني لقيم تنافسية مزعومة، مولية كلّ همّها واهتمامها لرياح سوق وانفلاتٍ من كلّ قيد؟ وكنا نقول ونتقصَّد عدالة اجتماعية علمية قبل كل شيء، لا بد من تأطير الحراك رغم التحولات التاريخية الكارثية المضادة، وإلا فهو التسيُّب وهي الصدفة حقاً، أي كل ما هو فوضوي ولاإنساني. تحليل رومانسي؟ منظور طوباوي؟ ما شئت... إذا شئت يا صديق...

(27)

ـ لا

ـ إييه. . . نعم

لا ، يلفظها يمود من قوة المفاجأة، لا ، يلفظها وكيان مجيدة ينزاح قليلاً بتؤدة كاملة من مواجهته، متيحاً فرصة ظهور لشبح مصطفى المتواري خلف وقفتها. . . لا ، مندهشاً يلفظها يمود، يزيح ويعيد نظارتيه يتأكد؛ أراداها معاً مفاجأة له، مصطفى ومجيدة، تركاه لما هو له من شغل شاغل في ورشه الأثري إلى اقتراب العصرية أوان انتهائه، ليقصداه بمنطقة الحفريات، ينتظرانه خلف السياج، منتصباً أحدهما خلف الآخر شبه متوارٍ وراءه.

ـ لا؟

ـ نعم ، علاش لا؟

يخطو يمود متسرعاً في بهجة اندهاش غير مصدق ما يرى، يقطع الخطوات الأخيرة باتجاه رفيقيه خارج السياج، فاتحاً ذراعيه لمصطفى، يتعانقان يضمّ كلّ منهما الآخر إليه في التحام وتداخل ترحاب، لا ، لا . . . ويفعلها مصطفى، لحظة يضيء بها غشاوة الرؤية عن ناظرَي رفيقيه، تماماً كما فعلها عندما جعل الزنزانة

الانفرادية ليمود على ضيقها تتسع برحابة كون، تضيء عتمتها إشراقة كوكب شمسي، تشيع رطوبتها دفئاً وعفونتها عبير إيناس وصفاء إذ يحلّ بها على غير توقع ولا انتظار مصطفى؛ أكان ينتظر أن يُزف إليه مصطفى في عزّ وحدة انفرادية، زفة ما كان يتخيلها أُمنية مراودة عابرة، فأحرى أن تتحقق في زنزانة انفرادية؛ قال إذ ذاك بصدق: إنه لو كان حول عنقه حبل مشنقة، وطلب كآخر أمنية أن يعبِّر عن مُراده الأخير، لما اختار غير لقيا مصطفى من قريب أو بعيد، يصدق نفسه أنه حتماً ما كان ليعبّر فعلاً، عن رغبة غير تلك، أمنيته تلك كانت ستبقى مكنونة له وحده، عمق ذاته، حشو أعماقه إلى آخر رمق. . . حتماً ما كان ليعبِّر عنها رغبة في لحظة من حبل المشنقة، لأنه بكل بساطة، ما كان ليخطر بباله أنها أمنية تتحقق.

ـ لا

يمود في زنزانته إذ ذاك، في استغراقه بقلم رصاص حظي به في لحظة امتياز، يخطّ على أوراق هي بدورها بنت لحظة امتياز، كما هو امتياز طارئ، غضُّ النظر من حرص عين حاذقة لا تخطئ؛ منهمك يسجِّل بعض مذكراته يمود، أو على الأصح بعض ما يرد من أفكار وخواطر عن مفهومه للثورة والتغيير، تحت شعور بثقل من مطاردة الزمن، منكفئ ما كان ليهتمّ بحركة الباب المعدني المصمت في دورانه الثقيل على محوره، ولا بصوت الأنين العميق الصادر عن صريره، وقبله دورة القفل المعتادة؛ في واقع الأمر، هم يفتحون الباب وقلَّما يكون ذلك إلا للتأكد، زيادة التأكد على الأصح، ممّا يتراءى من بويبة الطاقة الصغيرة فوق إطار الباب من الخارج، كثيرا ما يكتفون بإطلالة خاطفة من طاقة البويبة، إلا أنهم حيناً بعد آخر،

كانوا يفتحون مصراع الباب لشأن ما، مجرَّد تعلة لا يتكلفون حتى التعبير عنها؛ ما كان ليعبأ بانفتاح باب أو انغلاقه في انهماكة يخط فيها على الورق ما يعن، مسارعاً مطارداً زمن الضوء القصير المتسلل من طاقة عليا، أشعة ما تلبث أن تعبِّر عن حركة الكون السريعة، بغياب يأتي دائماً قريباً، كأنها تنافس ضيق المكان بعمرها القصير؛ ويعي يمود في جمود استغراقه شبه وعي غامض بعيد، أنّ شبه حركة ما، مرَّت عبر صوت يسمعه ذهاباً، لا يزال وعيه الغائب في انهماكه، ينتظر رجعته إياباً... ماذا يفعلون؟ وما عسى أن يفعلوا، أكثر من إلقاء نظرة خاطفة لامَّة جامعة، كأنما نظراتهم كل هذه المدة، لا تفي بيقينهم أنه دائماً هنا، ويظلّ هنا دون فعل أي شيء، أو إصدار حتى كلمة، بمجرد أن يتنازلوا أمام إلحاحه المستميت، وعصيانه السلبي العنيد عن أن يتناول قطرة ماء، إنْ لم يبادروا بمنحه القلم والورق، يسجل بذلك لحظات امتياز خاطفة، ليعود كل شيء كما كان، ما عسى أن يفعلوا غير ذلك؟ ماذا يفعلون ووعيه الغائب يلتقط انتظاراً لحركة رجعة باب، يطول فاصلها ويستطيل، حتى ينبهه ذلك إلى أن يرفع بلا وعي رأسه...

ـ لا، لا...

يُصدرها يمود بعد لأْيٍ متتابعة، لا، لا...

ـ نعم

يردّ مصطفى بلهجة هادئة، وشبحه يرتسم عند عتبة باب الزنزانة، مالئاً فراغ مصراعها المنفتح

ـ مصطفى!؟

يخطو مصطفى ويهُبّ يمود غافلاً عن قلمه وأوراقه، ليصرّ الباب منغلقاً دونهما، ويتعانقان؛ أي ريح، أي عبير، من أية جنة يفوح؟ يلتحمان بأذرع متخالفة، يشهقان بلحظة اللقاء، تلك اللحظة داعية للبكاء فعلاً، لِمَ الضعف؟ يقول مصطفى فيما بعد، لا نخجل من ذلك، فالدمع طاقة دفع في قوتنا، لهيب بركاننا المكنون، وبرد جنان.

لحظات استرجاع حميمية عميقة، لم يكن أحدهما ليسأل أو يجيب عن طبيعتها، مستغرقين معاً، في تمصُّص دقائقها، كأنما يخشيان في العمق عن أي تساؤل مهما كان، أن ينتقص محتسباً من عمرها، في كون ضيّق وما يفتأ يضيق، بوجودهما مفردينِ وثاني اثنين.

ينفتح الباب بسرعة ويدفع الحارس في غير احتراس من بطء، حشو فراش مع بطانية ومخدة... ضيافة تطول إذن؟ وتأتي أكثر سراً وخفاء في القصد، من مجرد لقاء عابر لم يكن بدوره دون سر غامض! أينقلون مصطفى إلى سجن يمود وغرفته، بعد أن لم يعد أحدهما يعرف مكان الآخر ولا وضعه إلا تخميناً وتقديراً، أو بإيحاءات غير دقيقة من وسائط وزوار؟ نقل مصطفى إذن إلى هنا، وربما يكون قد كان هنا قبل الآن، لكن بمسافة وحاجز، فتسقط المسافة وينمحي الحاجب والحائل... هكذا؟ هكذا حقاً؟ ... أم أنه ضيق السجن، ونِعْمَ الضيق الذي يجمع رفيقين... كأنما هي الجنة الموعودة، تتأتى فيها الرغبات بمجرد النوايا، أو كانت نيتهما لقاء من هذا النوع؟ أيكون الحال خاصاً بهما، أم أنّ نعيم هذا الضيق معمم على كل رعايا السجن، نعيم ضيق لا يجمع يمود أو

مصطفى بين زمرة مجرمين من النزلاء، ولا حتى بين غرباء، وإنما يجمعهما بخاصة أنصافهما المفقودة، أي ضيق، أي نعيم!

ما يكاد الحارس ينثني على عقبيه وقد رمى إليهما الفراش، حتى يظهر آخر قبل انغلاق الباب يضع أمامهما أكلاً، وبعض جرائد سرعان ما يختطف مصطفى بعضها؛ يرنو يمود بدهشة لا تخفى، أمام بسمة مصطفى الخفيفة، أكلٌ لا هُوَ بطعام السجن المعهود، ولا بشبيه ما تزوِّد به الأقارب سجينها في مناسبة من زيارة عندما تحصل، أو خارجاً عنها عندما تتعذر... خبز مع قطع جبن ومربى وشاي وزجاجة ماء معدني معلب، وصحف مهما تكن...

ـ تهدّأ

يقول مصطفى ويكرِّر لرفيقه أن يهدأ ويهدِّئ روعه، يوْقِف سيل خواطره المتقاذفة، اهدأ، يهدأ، لم لا؟ ليغنمها ليغنماها لحظة مهما تكن... أكانَ يخطر بباله مجرّد خيال عابر، أن تفاجئه فرادة لقاء نوعي على نحو ما هو الآن؟ مصطفى في ضيافة زنزانة يمود؟ حكمة أم منتهى هزء وسخرية أقدار!؟

لا هذا ولا ذاك سيقول مصطفى في سهرة زنزانتهما الأولى، وسيكرر فيها تحليلاته المستفيضة حول جدل الفكر والواقع؛ لا ليس ذلك الجدل المألوف، ربما يمكن القول من وحي مصطفى، إننا الآن بصدد النزول بالجدل من عليائه النظري، أو الارتقاء به من سحيق حضيضه إلى عالم الناس، ذلك الكون الوسط الذي يبقى الكون الحق والممكن، ما بين علياء تصور وحضيض تراب.

... أأنا أنا حقاً أم غير ذلك؟ أأنت مصطفى حقاً أم الكون

آخر؟ لحظة انعطاف تاريخية تقول، وظرفية صنع تاريخ، وماذا كنا، منذ كنا، نفعل؟ ويحتمل الموقف أنَّ خللاً ما ينخر نسغ الحقيقة، إذا لم نؤمن بأنّ الحقيقة واحد أحد يمتلكها، وإذا كان من بقية ليقيننا بجدل الحقيقة والنقيض، هذا الذي بضده تتميز الحقيقة، وكلّ دوره أن يجليها أو تتجلى به؛ لكنك تقول لا داعي لكل هذا الإغراق في التحليل (تقصد التفلسف)، وكنت الأشد تصلباً ووضوحاً مع توجهات الرفاق في اختلافات الطريق الواحد المشترك، فكيف أفهم منطق المسايرة والاتفاق مع نقيض المبدأ والغاية؟

ـ لا

يقول مصطفى دون أن تفقد ابتسامته شيئاً من مرارة الطعم وغور الغصَّة؛ لا، يقول إنّ الضرورة تفرض قراءة جديدة لكل شيء؛ أو كانت قراءاتنا السابقة، أكثر من تصور بديل للظلم والاحتكار واستغلال الإنسان للإنسان، مجتمعاً وفرداً؟

تأتي مقولة الفراغ السياسي في البلد، لا يجوز ترك الحبل على الغارب في مرحلتنا الآن؛ يجب ملء الفراغ، وهو حتماً يُملأ بنا أو بغيرنا، لكن إذا ما تجاوزنا الموعد فلن يتكرر، صحيح كنا وكانت لنا قراءة، تركنا الفراغ لعدم توافر الوسائل، أو لاختيارات كانت ممكنة، وكانت تبدو واعدة، على الأقل من منظور تهييئ تربة التغيير، وبثمن وجب تحمله إذ ذاك، إذ ذاك... بينما تمّ اغتنام الفرصة إذ ذاك أيضاً، من قبل قوى المرحلة، صنعت نفسها إذ ذاك، إذ ذاك...

ـ هناك فراغ، فراغٌ لا يُنكَر، يجب أن يُملأ

ـ فراغ نضالي؟

ـ التساؤل عن المثقف والمفكر، أين هو وما دوره؟

ـ والمناضل السياسي؟

الآن، الآن، ظرف مختلف من كل الوجوه، الخوف كل الخوف من الفراغ، مِن تركِهِ مرة أخرى ومن جديد... الخوف أكبر، أكثر وأعظم، لا على حركة التغيير، بل على المجتمع في كليته، خوف الفراغ الآن لا على النظام، بل على الدولة في مفهومها ونظامها العام... لاحظ رغم الخلط والخبط: فكرة التغيير إن كانت ضد شيء أو أشياء، فلم تكن ضد الدولة، كانت ضد نظام في الحكم؛ لم تكن ضد المجتمع، كانت ضد تركيبة المجتمع... الفراغ الآن يبدو ضد كل شيء.

لم نفقد مواقعنا، ولكننا نتحسَّس الجيل الجديد والأجيال القادمة الصاعدة الآن، نتحسَّس فلا نجد الصدى المعهود، ولا حتى التعارض ذلك المألوف، لا تقاطع وإنما توازٍ خطير وتشتت انفلات أخطر؛ لا بد إذن من تغيير، مجاله ومصدره حركة التغيير لذاتها من ذاتها، لا للمجاراة ـ والمجاراة ليست عيباً ولا خطأ إذا أحسنت قراءة الظروف ـ وإنما لإدارة الدفة نحو مجالات التقاطع الممكنة.

ياه، كم تبدو الأيام قادرة على تجديد قشيبها، كأننا في ظروف الجامعة، كأنك، كأني بك مصطفى في عزّ الأيام تلك، بقوة المنطق والموقف تُقنِع، تحفِّز، وتُغنِي المعرفة بالتحليل؛ نكهة الجدل لا يزال لها الطعم، ورياض الفكر الخصيبة يبدو لم تجفّ ولن... إنما مع الفرق والفارق، النكهة ذاتها تقتنص، تفيض ولو في غير اتجاه،

أو في اتجاه محتمل بعيد الاحتمال، مقارنة بالسابق أكيد الاحتمال.

يبدو يمود متابعاً معقباً في ملامح غيَّبت معالم بسمته النصفية، لترتسم انتشاء جدياً ومرارة... ياه، كأننا في لقاءات معتادة في أجواء رفاق طلابية، إنما في اتجاه وآخر...

يخطون ثلاثتهم مبتعدين عن سياج ورشة الحفريات، مصطفى ويمود ذراع كلٍّ منهما على كتف الآخر، تتقدمهم مجيدة بخطوٍ أسرع، يضمهم في جلسة ثلاثتهم بيت يمود المُتْحفي، وطوال فترة اللقاء يتصل الحديث وينقطع ما بين يمود ومصطفى، بينما تظلّ مجيدة خارج الخط تاركة فرصة لرفيقيها، بعدما قضت من يوم وليلة في حوار متصل مع يمود، مكتفية بين حين وآخر بإيماءة أو تعليق مقتضب.

تضمُّهم جلسة ثلاثتهم بهدوء ما بعد وجبة عادية لا تتعدى معلبات سمكية، مع جبن بلدي وبيض مع بعض خضر طازجة، ممّا ساهموا جميعاً في تحضيره السريع، مع تذكير مستمر من يمود، إنه لو كان يعلم، لما أتاح لعائشة فرصة التغيب في هذه المناسبة بالذات؛ رغم غيمة ملامح بعيدة غامضة، يبدون ثلاثتهم في غاية انشراح كمن يستعيدون أجزاء مفقودة منهم، يذكر يمود أن باستطاعته أن يطعمهم ثريداً حقيقياً قاتلاً بلذته، فقط لو يتيحون له بعض الوقت، وقتاً كافياً ولن يصنعه لهم بنفسه، إنما يعرف من يهيئه بالدجاج البلدي المحمر، ملفوفاً في قماش ورقه العجيني الرقيق، يرفل في مرقه الخاص، تحضن سفرته أوان العسل الجبلي الحر... يكفي الوصف، أثَرْتَ ما يكفي من شهية ولو بعد أكل... أكل؟ الثريد ليس أكلاً، نعمة هي، قل جمع نِعَم ومتعة، فوق الوصف،

فوق الذوق والمذاق، لمكتفٍ عازف وريان شبع، فأحرى لنَهِمٍ جائع ومشتهي.

كم تنفسح الزنزانة رحاب فكر بلا حدود، لثاني اثنين يلتقيان على غير موعد وإعلان، يشكل كل منهما نصف الآخر أو كله المفقود منذ حقبة زهو فكرٍ بائدة، كم لهما أن يتحدثا بالصمت ويصمتا بالحديث؛ ثاني اثنين في ضيافة رحابة من زنزانة تأخذهما فترة سكون. . . يطول النقاش، تتجابه الحجّة والدليل، تتفاوت الحدّة، تأخذهما فترة سكون وهدوء، راحة محارب أو هدنة؛ أحياناً يتيهان في نقاش كوني، مواجهات دولية ومواقف أبعد ما تكون عن شواغلهما الأساسية والمباشرة، تلك التي من أجلها رتّب مصطفى ظروف اتصاله بيمود في الزنزانة، ترتيبٌ في نطاق خطة سياسية واسعة، باتفاق مع أطراف كثيرة أهمها تيار الرفاق ونظام الحكم، اتصالات في غاية التعقيد والطول والتداخل، لم يكن يمود لتخفى عليه أو يجهلها، بل كان له رأي ومنظور. . . من أجل ذلك يتَّخذ مصطفى مبادرة الاتصال بيمود في سجنه، ليحلّ ضيفاً على زنزانة رفيقه، يتحاجّان بألف مبرِّر ودليل.

فترة هدوء وسكون بينهما ألفا أنْ تسود بعد جولات الحوار على مدى أيام، يتساءل يمود إلى متى تطول إقامة مصطفى معه، لا ليست إقامة الرفيق التي تقصر أو تطول، وإنما هي ترتيبات الإفراج؛ قبل مدة ومنذ شهور بدأت إقامة يمود تتغير، أدرك أن الأمر لا يتوقف عنده أو يقتصر عليه، وإنما هي حركة طالما حدثت بطارئ ما، وطالما عادت إلى الأسوأ، لكن ما أبلغ به واستشعره كان غير مألوف ويوحي بتغيير كبير، إنْ لم يقل عنه إنه حقيقي أو بغير رجعة ولا

تراجع، تغيير في المعاملة اليومية للسجانين إزاء النزلاء السياسيين، ليبلغ الأمر حدّ الهمس: قرّب يطلق اللّه السراح، يرفع يمود رأسه المنحني إذ ذاك، يتأمل قطع لحم تبدو نظيفة مكتنزة بارزة في صحن الشعرية، على خلاف العادة، يتفرّس في ملامح سجّانه الذي يوشك أن يتجاوزه... يتجاوزه فعلاً ليعود إليه خطوتين مكرراً وناظراً إلى جهة أبعد، كأنه يروم إبعاد الشبهات: قريب إنْ شاء اللّه يطلق سراحكم...!

همْسٌ ما يلبث أن يتجاوز سريته إلى بعض العلن، ثم الإخبار عن أكثر من طريق وأكثر من وسيط، بأنّ الأمر في أيديكم!

ـ في أيدينا؟

ـ وبأيديكم أنتم!

ـ كيف؟

كيف هذه، هي ما يحتاج حديثاً، لكن لا أحد يريد ذلك في البداية، إلى أن تسري في فضاء السجن إفادة بلا مصدر، أن عفوا شاملاً يهيأ للجميع... ثم يهمد كل شيء كالموت، حتى السجانين، وبالأخص هؤلاء بالذات، غابت البشرى عن ملامحهم فجأة، فسحناتهم أقنعة مُعدّة لتعكس ما يُراد في كل ظرف، أقنعة لا أكثر، وتتحول ملامحها بين طرفة عين وأخرى إلى عكس ما كانت عليه أو توحي به، مما لا يعزى لغير عامل مهنية وتمرين ناجع؛ على كل حال، لم يتغير معروض الأكل إلى الأسوأ، على امتداد فترة كافية للإقناع بأنّ الأمر لا يتعلق بواجهة إيهام مقصودة لغرض آني، كما يحصل عندما تزور بعثة ما أو تفتيش، وهو مقياس ومؤشر لمن يريد أن يفهم أنّ شيئاً ما إيجابياً يتطور.

أخيراً، آخر الأمر يُنادى على يمود إلى الإدارة، حفاوة استقبال لا تخفى، حرارة شاي أو قهوة؟ أي شيء؟ سيان. يردّ يمود، لكن الإلحاح على تلبية الرغبة دالّ، يقول يمود بصوت لم يعهده في نفسه، حشرجة إمساك لعلها... يقول في نفسه بعد أن لم يطاوعه من صوته إلا حمحمة، إنه تعوّد على ألّا يطلب شيئاً وأن يقبل كل شيء... لا. لا. بابتسامة رضى وترضية دالة، يرد الآخر المبعوث على حمحمة يمود: لا، الأمر لك، اطلب حسب رغبتك، والأكثر من ذلك، الأمر لك في طلب الإفراج وإطلاق السراح.

تلك هي الكيف إذن... ذاك الشيء الذي كان يتطور في الخفاء، إيجابي؟ لم لا؛ سلبي؟ لم لا؟ ... كل شيء متداخل، وأنت الذي لم تطلب في حياتك شيئاً إلا عدالة اجتماعية ومؤسسات نظام، أنت الذي لا تطلب شيئاً لنفسك، وتتهيأ دائماً للأسوأ في ذاتك من ذاتك، لاحتمال ما لا يُحتمل، ها هوذا موقف جاهز بلا عناء فِكْر ولا تبديد طاقة: إطلاق السراح، قلْ طلب إطلاق السراح... لا. لا. وإن شئت لم لا تقولها: طلب عفو؟ طلب معناه جلب منفعة، وعفو معناه اعتراف بجريرة، إعلان توبة؛ وهما معاً معناهما ألا معنى لكلّ ما كان له معنى... هذا كل شيء وباختصار شديد.

يترك يمود جلسة المكتب الإداري أو ضيافته، وقد أحضر الشاي والقهوة ومعهما الحليب وكوب الماء جميعاً، لتلبية رغبة لم يحدِّدها الضيف لمضيفه؛ لم يستأذن يمود ولا أعلن شيئاً بمناسبة ما سمع من عرض، لكن كلّ النقاش وعكسه، كل منطق وخلافه، كان يجري في باطنه، يغلي... ويحسّ شديد الحاجة إلى سماع أو

إسماع الرفاق، ماذا يجري ويُراد له أن يتطور؟ . . . ثم . . . إذا به فجأة يحلّ ضيفاً، نعم الضيف مصطفى. . . بعد الهمود مرة ومرة، وبعد إغراءات جلسة القهوة والشاي مرة وأخرى، وبعد أن يتأكد ويستمر تحسُّن الحال والعناية أكثر من المعتاد وأدلّ بوجه خاص على أنّ الأمر خلاف الخطأ، خلاف الحركة المجانية والحدث العابر. . . يحلّ ضيفاً نِعْم الضيف مصطفى، وألف ترحيب به في زنزانة يمود.

يستغرقهما الهدوء والصمت، تتخلله حيناً بعد حين خشخشة أوراق الجرائد يتصفحانها، راحة فكر محارب ريثما تنتهي، لتعود بينهما في تمام الصمت والضجيج، بينهما ثاني اثنين في وحدة عزلة وجدران، تنتهي لتعود في تمام الصمت من خلال السطور وعناوين الأعمدة، مظاهرات يومية تعرضها الصحافة لطاقات شابة جامعية، كلّ شعاراتها طلب التشغيل. . . أكانت شعارات مثل هذه تُرفَع في مراحل سابقة؟ الشعارات كانت تقدمية وطنية تحررية كونية إنسانية. . . ليس القصد العيب على الشباب اليوم، ولا مؤاخذة المطالبين هؤلاء، فذاك حقهم وواجبهم، إنما هي قراءة. . . ولا يُقال إنّ المراحل السابقة، كان شبابها، جامعيون وغير جامعيين، لا يشكون العطالة والفقر وما هو أكثر من ذلك، لكن شعاراتهم كانت فوق ذلك وأقوى، من كان يتحدث عن شغل أو فاقة؟ لم لا نقول إنّ الأهداف تلك والشعارات، قد تحققت ولو جزئياً، بكيفية أو أخرى بما يتيح الفرص الآن للمطالبة الشخصية والذاتية، علاوة على انتفاء الجامع أو حتى المشترك الكوني، بالنسبة لما كان سابقاً؛ الواقع تغيَّر، يجب فهمه والتعامل على أساسه. . . تغييره؟ ذاك ما كنت وكنا نقول: تغيير الواقع لا احتماله، منطق التعجيل بصنع التاريخ أيها

الرفيق، صنعٌ يبقى الرفض والأداء الذاتي مقدِّماته الصغرى والكبرى.

ضجة صمت بين سطور، صمت ضجة ونقاش، لا يمكن تجاهل مرحلة، لا يمكن إنكار منجزات مجتمعية مؤسسية وتقدمية، إيجابيات لا يمكن إغفالها، حقيقة وواقع لا يمكن تجاهله بغض النظر عن فاعل ومصدر مهما يكن، زمن لا ينتظر وتاريخ يشتغل في غيبة بعض وفي حضوره، سيان غياب حضور وحضور غياب، يشتغل تاريخ ما حتى باستقلال عن بشر... أعودة لمنطق تبرير؟ نعود لذاك المعهود من منطق، عدونا الأكبر في تحليلنا المعتاد؛ مَن قال إن الماضي لم يكن له إيجابيات كما للحاضر سلبيات؟

ـ كنا نرفع رؤوسنا لنطير، ربما كان الأَوْلى أن نغمِسَ ونغطس في الواقع

ـ مركب السلطة مثلاً... هذا الغطس؟

ـ جزء من هذا الواقع، مستوى منه إذا شئت

ثورة الثورة، ثورة التغيير... يتساءل يمود إنْ كان في حاجة إلى مراجعة ما يصوغ من مشروع مذكراته، ليأخذ كلٌّ مكانه الحقيقي في السياق، أو في سياق مختلف، خلاصة تجربة نضالية يعمل بتفانٍ يمود على أن يصوغها بإخلاص، العنوان مؤقت لكنه لن يكون إلا في الاتجاه نفسه؛ يعلق مصطفى إن لم يكن ذاك نفسه هو مضمون «الثورة دائماً...» أو «ثورة داخل الثورة»، ويعلق إنه لا يوافق على منهج أو رؤية تصوِّر حركة التغيير على أنها دائرية مغلقة، أو تجعلها تقارن بنار ثورية تأكل من ذاتها، إنْ لم تجِدْ ما تغتذي به، وهي أبداً إلى انطفاء.

التساؤل عن فكر مناضل ومثقف ملتزم وسياسي، معجم يبدو

متقادماً والزمن لا ينتظر أو يتراجع. . . صحيح؟ أصحيح، ينقرض المعجم بمسمياته وكائناته كلها؟ لا مجال لاستعارات، عالم المنقرضات تلك الدياصر والديصورات كون مختلف، وعالم مغلق على نفسه، لنقل تلك دائرة تمت واكتملت حول ذاتها الطبيعية؛ لا مجال لاستعارة أو مشابهة مع الإنسان، هذا الخلاق لمصيره وتطوره، مجتمعاً ونظاماً؛ لا خلط في المعاجم، لا يجوز، الثروة البشرية مقابل حقيقي ومعادل للثروة الطبيعية في الغنى والتعدُّد، بمعنى التجدد والتغيير، لا فناء ولا انقراض في الطبيعة والإنسان، لكن بزائد وفارق الوعي والإرادة هنا. . . الكفاءات والزعامات في البشرية، ليست سوى مظاهر من ذلك، الخشية وأكيد الصدمة، أن السعي وراء ثروة أركيولوجية، بوْصلة معكوسة الوجهة؟ وهل ثَمّ وجهة حقيقية لما يقترح اليوم؟ لم لا؟

ـ السياسة هي أم الحقيقة؟

يؤكد مصطفى أنْ لا منافاة بالضرورة بين سياسة وحقيقة، يستدرك ملاحظاً معالم بسمة جانبية خفيفة على محيا يمود، يستدرك أنّ ثم أخطاء فكرية جسيمة، كما أن هناك أخطاء مادية جسيمة، قد يكون من أخطاء الفكر في الماضي وربما في المستقبل، تركيزه على الحقيقة الواحدة، الأمر ليس بهذه البساطة طبعاً، فلنقل إنه التركيز على جانب أو مظهر واحد من الحقيقة، حينئذٍ تبدو السياسة بدورها وبالمقابل أحد وجوه الحقيقة، حيث التعارض والاختلاف ممكن أو لا مفرّ منه، لكن عندما تؤخذ أوجه الحقيقة على نطاق أوسع، بتعدُّد أوجهها، يبدو اللقاء وأحياناً الانطباق ممكناً، المسألة تتعلق بالتحليل وزاوية المشهد.

لا إلزام بشيء إلى الآن، الإفراج يتم شاملاً كاملاً وضامناً لكل الحقوق، ما ضاع منها وما يمكن أن يضيع، الأبواب مشرعة لفعل شيء لم يكن أبداً ممكناً قبل الآن، وفق تصورات مشتركة، لا بد من مقاسمة واقتسام، لا بد من خلق تقاطعات؛ إفراج بدون شروط، أي بدون إكراهات بَعدية، إلّا ما يلزم به الدور المرحلي لبناء مجتمع ومؤسسات، هنا أيضاً، لا وهمٌ ولا إيهام، الواقع صلد مقاوم من ذاته وبفعل فاعل، التقدم مرحلي ليس إلا، ونسبي لا أكثر، إنما هو يسير في الطريق المنشود؛ وطلبُ الإفراج، ذاك الذي لا تطيقه ذاكرة مناضل ولا مخيلته، لا ماضيه ولا مستقبله؛ ذاك العفو الإقرار، إقرار جريرة وتوبة يبقى مثارَ شفقة وإشفاق؛ أي تاريخ يرضى ذلك، أيّ نضال؟ لا لم يعُد مشروطاً أيّ طلب، الإفراج شامل كامل وتام، بمنتهى الكرامة، لا. لم يعد مطروحاً أيّ شرط، ولم يكن وارداً في الأصل، إطلاق السراح الآن ليس منَّة ولا تطوعاً من أحد، إنه الحق والواجب جميعاً، لنحدِّد ونؤكد: العودة إلى عالم الحرية ليست متعة، لا نزهة ولا استمتاعاً، إنها عودة إلى الصف من جديد، بأدوات ورؤية جديدة.

(28)

الخبر عن خاتمة الديصور

اعلم رعاك اللّه، أيها السامع الكريم، ووقاك شر الخلق وما خلق، أنّ مشهد الديصور مع نفسه في المرآة أو المرايا كما مرّ بنا، لم يكن إلا ليكون شاقاً وعسيراً على الإدراك لمَن ينقل إليه فأحرى من يعانيه في ذاته، وكان العجز الشامل الكامل للديصور عن التمسك بتلابيب سابينا أو الأمر بإبقائها رغم رغبته الأكيدة في ذلك، محنة في طيّ أختها وأخوات، لعلها من قبيل ما يراود عند جثوم الكوابيس الخانقة ـ وقانا اللّه وإياكم شرها ـ إذ يشعر ضحية الكابوس ويتعذب، بغياب قوته وعجزه التام عن تنفيذ رغبته وإرادته؛ بَيْد أنّ الفرق الأقوى والأفدح، أنّ صاحبنا الديصور لم يكن في نوم ولا تحت فعل كابوس سرعان ما ينقضي ويزول، وإنما هو الواقع المحسوس المعكوس.

وهكذا يزداد الحال سوءاً على الديصور، ولم يجرؤ أحدٌ من عَمَلَة القصر والحاشية على لمسه أو مكالمته، وهو في حال لم يعهدوها من قبل لا فيه ولا فيما يصدر عنه من حركات وأصوات متقطعة، هي أشبه ما تكون بمقاطع حشرجة بلا دلالة؛ والحق أنه لم

يكن ليكلِّم أحداً، إذ لا صوت تبقَّى ولا حلق، قل ولا نفس ولا إدراك.

ويتحامل على نفسه الديصور، يرمي الطيلسان، يزيح النعل، تنتفض فيه قوة الضعف الكامنة، يغادر ناشراً أطرافه، كأنما ينسلخ عمّا حوله، كأنما يتهيأ للطيران بجناحين، يغادر مهرولاً في غير اتجاه؛ ويقال إنه لم يعُد منظوراً لأحد، حتى ممَّن حاولوا متابعته لصالحه وأملاً في أنّ حاله تتحسن بكيفية ما، ليستدركوا الوضع ويعودوا به إلى قصره، لكن روايات كثيرة تقول ولها ما يؤكد وجهتها، أنه اتجه إلى حالق جبل، كيف وبأية قوة؟ لا شيء مؤكد، إلا أنْ تكون ساعدته وجهة ريح في التسلق، أو تداركته طاقة مجهولة الوجهة والمصدر، أو قلْ هي قوة الضعف الكامنة، تلك التي تبين عنها لحظات الاحتضار الأخيرة في الخلق، حيث تنبعث قوة آخر رمق، تعبِّر عن نفسها في حركات أقوى ما تكون، لكنها مهما تكن، لا تزيد عن كونها لاإرادية، ومن طبيعة تشنجات عشوائية.

ومن حالق الجبل ـ كما تذكر الروايات ـ يسرح الديصور بصره الكليل فيما تحته وحواليه، من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ربما تراوده المقارنة بين مقام ومقام، ربما عبرت ذهنه سابحة حرة، أسراب أمان وأحلام، صور . . . ربما كما يقتضي الحال والمقال، غممت ضميره معتصرة كلّ ذرة شعور فيه، ربما حدَّث نفسه بدون صوت ولا نفس عن جراح واغتيالات، ربما طفق يمتصّ مرارة الموقف والمصير متلذذاً بعذاباته، ربما أسرَّ إلى الأكوان اللانهائية حوله حديثاً أو شبه حديث . . . وربما . . . ربما . . .

ربما. . . والأكيد المتواتر حسب الروايات أنّ الديصور فيما ارتضى لنفسه وذَكَرَته عنه الروايات، صاح صيحة ألمٍ مدوية، واحدة وحيدة ردّدتها القمم والوديان، وأجفلت لصداها النسور والعقبان، وارتمى في الفضاء من حالق شماء قنة، فاتحاً ذراعيه لمتلقّف يتلقف أو متقبل، وكتلته في اتجاهها لأسفل سافلين. . . يُقال إنّ الارتماءة رغم شاهق القمة وتلاعب الرياح بتساقطه المطلق على الرؤوس الصخرية المسننة، لم تكن قاضية في الحين، وأن الديصور بنفس لا يكاد يتردد، وغشاوة نظرة لا تكاد تطرف، عايَشَ جوارح الطير تنهش ذاته، فترة فترة، قطرة قطرة. . . عيناه على فسيح مدى وآفاق، إلى أنْ غَشِيَتْه رعشة وخانه إحساس، ربما خامره شعور كرم المضيف وليمتُه ذاته، ربما مرَّت عابرة به فكرة الترحيب بضيفه الكواسر، ربما هفا منه جنان إلى حكمة يلقيها أو يبقيها، لجوّابات وديان وقمم وفجاج، ربما. . . ربما. . .

يُقال ولم يُعرف عنه خبر إلّا بعد دهر، أما ما تبقى من كيانه، كتلة العظام الدالة على خلقته، في موقع بين وعر نتوءات ومعارج غير مطروقة من قبل، لا معروفة ولا مسلوكة، فقد جمعت كاملة متناسقة أجزاء هيكله، ينقصها عظام أطراف من مفاصل الجانب الأيسر: يداً وساعداً وعضداً ثم قدماً فخذاً وساقاً، ويقال إن البحث المضني المتتالي لم يصل إلى تكملة النقص، ممّا لم يسمح بدفن الرفات نهائياً، وهذا ما جعلهم يضعون ما تجمَّع من كيان عظمي في صندوق، متناسقاً في الوضع الطبيعي لهيكل الديصور، في انتظار ما يكتمل من نقصه، والبحث لم ينقطع منذ ذاك إلّا ليبدأ دون جدوى، وهو أصل ما يعتقده بعض الأتباع والأشياع من أن الديصور سيعود،

ناهيك عمَّن يشكِّك في موته وهيكل عظامه... فلا باقي إلا اللّه ولا غالب إلا هو... لم يمت الديصور في ظنهم، فلا شيء يدلّ على ذلك، ولم يبقَ حياً فلا شيء يدل على ذلك أيضاً، إنما يعود ليملأ الدنيا عدلاً بعد ما ملئت جوراً...

(29)

ظلام. ظلام. ظلام. كلّ شيء يسبح في ظلام. الشعور بالغرفة ظلام، عمقه الأعمق من ارتعاب ذات في الظلام. . . يبدو الحال وكأنّ نوراً كشافاً لو انقشع ما كان لينير أو يفتح بصراً على شيء، شعور بالظلام أعمق من كل شيء مظلم، ويبدو أنه داخل الذات أعمق من فقدان البصر ذاته. . . فقدان البصر؟ صحيح كأن الفكرة كانت غائبة، فقدان البصر. . . يتحسَّس يمود عينيه، ما زالتا حيث كانتا وكما يعهدهما، لكنه لا يرى شيئاً، لا يمكن للبصيص المتسلل عادة من طويقة أعلى الزنزانة، أن يشي بذاته لأن الوقت ليل مظلم، لكن الآخر المتسلل من الممر، من شقّ ما بين الباب المعدني والأرضية الصلدة، لا يخلف في أي وقت من ليل أو نهار، كيف إذن لا يمثل ولا يراه، ذلك البصيص؟

يتحسَّس الفضاء بجانبه حيث يعتاد علبة كبريت، لا شيء. . . يحاول أكثر من مرة متزحزحاً يتلمس في كل اتجاه. . . اتجاه؟ إنه فاقد الاتجاه، شعوره فعلاً أنه لا يدرك وجهة رأسه من قدميه في فراشه، أيهما كان باتجاه ضلع يسار الباب وأيهما. . . يتلمس بحركة آلية رأسه ورجليه، يمسح أكثر من مرة عن عينيه، لا شيء وتكاد تغشاه دوخة. . . ظلام ظلام ظلام . . . ظلامُ بصر أقوى ويصبح

مؤكداً، أنذره الطبيب، نبهه إلى الاعتناء بمراقبة ضغطه، قولته ترنّ في السمع، التيار الكهربائي في دارته المغلقة عندما يختلّ الضغط، يرتجّ إيقاعه في غير انتظام، فالضربة تتلقاها أضعف نقطة في المسرى، تمتصّها إلى حد الذوبان. . . الأمر أصحّ في جسمنا البشري، اختلال الضغط يصيب أضعف النقط: عصبنا البصري والكليتين. . .

عرق بارد جاف يغشى الجسم. رغم بعض البرد في غرفة باردة أصلاً يضاعف برودتها الظلام، يشعر يمود بالحاجة إلى انسلاخ عن لباسه، هَلَعه أشدّ من أنْ يفقد البصر، هكذا ببساطة، بعد أن لم يفقد عقله بكلٍّ ما مرّ به واختبره؛ يتخيل كلّ غرائب السجن والسجان، حتى قبل أن يختبره حقيقة وواقعاً، وعانى عملياً من ويلات ما كانت لتخطر له على بال، إنما أن يتساقط وجوده هكذا حاسة حاسة، عضواً عضواً، شعوراً شعوراً، فبلوى فوق كلّ احتمال، موت مريع بالتقسيط الطويل الأمد؛ ينسلخ عن لباسه، يمرِّر يده على نصف جسده العاري في الظلام، عرق بارد جاف ينزّ، يمرِّر يديه ويعيد، لا رطوبة على كامل البشرة ولا عطن في المظال، والشعور أقوى ما يكون بالعرق البارد الجاف. . . أهكذا يحلّ فقدان البصر؟ دفعة واحدة وبلا مقدمات قوية ومتكررة على الأقل؟ يعمل على استحضار حالات عرفها عن بُعد أو قرب، أو حكايات سمعها عمّن فقدوا أبصارهم صغاراً أو كباراً، بعض ذلك لا يخلو من إغراب، إنما لا تستقيم ظاهرة فقدان فجائي هكذا. . . الظروف. . . بلا شك، هي الظروف، ظروفه الظلامية في السجن، وحتى في نهار الساحة الناصع أثناء فترات الاستراحة المحددة المدونة والمدروسة من أجل مزيد عذاب وتعذيب.

سيقضي رخيصاً على النحو التجزيئي من القتل المديد، هو الذي لا يتصور المناضل يقضي إلا في ضجة كون وارتجاج وجود، باحتجاج كوني صاخب يردِّد صداه التاريخ والأجيال. . . أيقضي بالتجزيء فاقداً بصره دفعة واحدة، قبلها بدأ يدبّ ثقل في السمع، قال الطبيب بلغته الخاصة ما معناه: لم يعد ما يستحق السمع والاستماع، قالها ربما ببعض تعاطف واحتجاج؛ سمع يتثاقل، يفهم ذلك ويعمل بين حين وآخر بعض العلاج، ولم يفقد سمعه مرة واحدة، كما يحصل الآن مع بصره. . . قبلها استشعر نقصاً في قواه الجنسية، خبره في نهاية الخمس أو السبع سنوات الأولى من سجنه، غاب إلى حدّ الندرة ما كان يعهده بين حين وآخر من إنعاظ المنام، قبلها افتقد بعض أحلامه الوردية رغم اغتمام صورتها، على كلٍّ لم يكن سعيداً بتلك الأحلام، كان يعتبر إرادته كافة لميول فطرية ضرورية، لذلك لن يستطيعوا ترويضة بإغراءات الإشباع مهما كانت، ولم يعمل على تمرين نفسه على تفريغات استيهامية، مقولته لنفسه صريحة واضحة وحاسمة، لا شيء، لا شيء مطلقاً يروضه، ولا مطلب له أو رغبة في شيء ضروري أو غير ضروري، لو أرادوا قتله تجويعاً أو تعطيشاً لوجدوا كلّ تيسير من طرفه؛ وحدها الحياة تلك النعمة الكبرى والسمة الوجودية الأصيلة، وحدها لا يتحمَّل ولن. . . ممارسة فقدانها مباشرة من قبله وعلى يديه، فليفعلوا. . .

ليفعلوا، لكن فعلهم فوق التصور، من أين لهم العلم، وتفاعلات الفيزياء لافتقاد بصر فجائي؟ أكانوا يقدِّرون لذلك فترة معينة. . . وهي الفترة التي بلغها الآن، قرابة منتصف العقد الثاني من حبسه؟ قال الطبيب مرة بلغته الخاصة بعد فحص شامل: شف طريقة

تنفس بها! يعني؟ طريقة تفرغ بها... قالها الطبيب ربما لامزاً، فقد كان يطلب صراحة في الحديث، وأفضى إليه يمود بكل ما عنده، إذ لم يعد له بعد كل هذه الفترة ما يخفيه، أو يخشى من استخدامه ضده بقصد الترويض، جربوا معه القوي والكثير، وواجه بالأقوى والأكثر... يقول الطبيب آخر الفحص، يقول بالحرف هذه المرة: قلّته تعمي وكثرته تعمي!

ـ الجنس؟

يسأله يمود وهو يستعيد ارتداء ملابسه، إنْ كانت المقولة علمية، فهو كان يسمعها من العوام؛ يتجاهل الطبيب سؤاله، ويقدم نصيحة نهائية ليمود: اعتنِ بنفسك.

الظلام والموت التقسيطي: حاسة حاسة، عضواً عضواً، وشعوراً شعوراً؛ أكانَ يناضل على نحو ما فعل، لو كان يعلم حق العلم هذا النوع من الترويض؟ يتساءل جاداً ولا يملك الجواب بعد انصرام عمر نضالي، يضاعفه السجن أضعاف أعمار أخرى... يتحسَّس جيداً ما حوله يلمس الجدار، لكنه لا يعرف أي ضلع هو من غرفة الظلام، يجتاحُه الضيق، يعتصره اعتصاراً حتى ليتنفس بجهد، بإرادة التنفس حتى لا ينقطع، وحتى ليسمع بقوة جهد أنفاسه من حوله، يمتصها ببالغ مشقة ويزفرها ببالغ ألم، إن يستمر به الحال فقد تخور الإرادة والوعي، ويفقد كلّ ما يحرص إلى الآن على الاحتفاظ به، عقله، عقله الذي لم يخذله أبداً... وها هو ذا عقله ينبئه بأنها قد تكون حالة تعذيبية ترويضية أخرى، هو الذي يحسب أنه شاخ عن أن يجرِّبوا فيه شيئاً جديداً... ففقدان البصر على هذا

النحو الفجائي، حتى بدون ألم عضوي عدا ألم الذات العميق، قد يكون ابتكاراً آخر، فيه أجر وثواب حتى وإن أخطأ مبتكره. . .

يتقوى إحساسه بأنها خدعة، وإلا كيف يختفي خافت البصيص المتسلل دوماً من شق ما بين المضراع والإسفلت الأرضي؟ يتقوى شعوره بعقله وإرادته، يستحضر كامل الوعي ويشرع في استعراض يومه السابق وما قبله وقبله، من دقائق حركات ومشاهد وعلاقات ومن مأكله ومشربه. . . لا بد أنهم كانوا يدسّون له مقادير محددة من شيء ما، يشي في نهاية الأمر بفقدان بصر حقيقي أو وهمي، ويغلب على وعيه الآن، أن المسألة وهمية تمويهية، فليعمّ الظلام ما شاء ظاهراً وباطناً، ليشمل ويتضاعف، ليتكاثف ويتراكم، فهو هنا من معدن نضال لا يلين، بعقل وإرادة ووعي. . . ينقشع ضوء، لا كالضوء، لا من طاقة ولا من شق، لا من فوق ولا من تحت أو بين. . . إنما ضوء خلقه كيان مضيء لا يتعداه الضوء أو يتجاوزه أو يغمر ما حوله، الضوء منه أو هكذا يبدو، منه على قياسه وقدره، قل كيان نور، يبدأ يتحرك ممّا يمكن أن يكون طرف الغرفة، أي طرف، فالظلام يمنع التحديد، ولا يدري من أي ضلع يستضيء الكيان المتحرك ببالغ بطء وأناة، مع الافتراض الوحيد الممكن أن كيان الضياء ارتسم ويجب أن ينبثق من ضلع الغرفة المقابل، ما دام لا شيء من نور أو صوت يشعر بانفتاح أو بانفراج طاقة أو شق؛ كيان مضيء بذاته لذاته، في حدوده، لا لشيء ولا بشيء من حوله أو يليه.

يتقدم الكيان المضيء، الشعور قوي بأنه يتحرك حركة لا محسوسة ولا قابلة للإحساس والقياس، فاصل ما بين الضلع المقابل

لا يسمح بأكثر من أربع إلى خمس خطوات، إلا أنَّ تحرك الكيان المضيء يبدو أزلياً أبدياً في حركته باتجاه يمود، وكلما بدا أنه يتقدم بذلك المقدار اللامحسوس، كلما بدأ التوتر يزايل كيان يمود، ويتسلل فيه ارتخاء أشبه ما يكون بسريان مخدر خفيف، يدنو ضياء الكيان بتباطؤه الأزلي باتجاه مقام يمود، وينجلي عنها... هيفاء فارعة عارية، تدنو بضيائها اللازم الكاف لها بها... تدنو مشرقة المحيا ناهدة نافرة الصدر، منثورة فاحم الحرير، ضامرة الخصر مديدة... تدنو ببطئها الأزلي، تتضح كامل معالم فتنتها، حتى ليستطيع عدّ شعيرات عانتها الغامرة الفاحمة، تدنو حتى تغمره بحيرة عبيرها، تلمسه في جلسته، خده على ضامر بطنها اللين، يستشعر زغب عانتها دغدغة تحت خده المتمرغ وشمه المنفتح على نكهة الجسد الأنثوي، ينشق عبيرها عبير امرأة أنثى من لحم ودم وكمون فورة، يمد يده في جلسته على امتداد قامتها، يلمس بيد اللهفة زغب إبطيها متتبعاً استطالة ذراعيها المرفوعين إلى أعلى؛ أي كيان! يغمره عبير أنثى وفاتنة فائقة، يغمره كل شيء فيها ومنها، إلا الضياء فهو خاص بها، حتى وهو في جلسته بنصف جسده العاري ملتصق بها، لا يشمله الضياء، إنما ينبعث منها؛ يشتم ينشق يتنفس يشهق تثور فورته، تقول بصوت لا يعرف له مصدراً، بغنة ملأى أنثوية لا يعرف لها نظيراً ولا خبراً: أعجبتك؟ لا صوت منه يجيب ولا لسان، إنما يشهق في العبير، فوار اللهفة... تقول في غنة لوم... وإنه لمتهم باستعصاء عن ميل وإغراء؟ ينشق يشهق في العبير، لا صوت منه ولا لسان... يستشعرها تتحرك، يدها لأول مرة تمتد تجاهه بدفق مشاعر، يستشعر مشاعرها، تريده هو دون غيره، وحده لا أحد

غيره... ليكن تحدياً بتحدٍّ، ليكن ما يكون، ها هوذا لها، ها هي ذي له... ها هي ذي اللهفة والفورة والعبير... تلحم بتماسّ عطوف كفيها بكتفيه، تضمه تغمره، يمرر يديه على مرمرها العاري، يشهق يغرف يغرق... تبادله لهفة، يحترق... تنهضه إلى فرع كيانها، تتلمسه تَنْيَة تنية، نقطة نقطة، نبع فورة وانتفاض... أهو الذي قال... عصياً ممانعاً ممتنعاً؟ حرقة خد تدعك طري نهد مكتنز... تزيح ويزيح سافل لباسه، يلتحمان فرعاً لفرع، تداعب كل رعشة فيه، تنعش كل خامد، توقد فورة، تداعب، تلاعب بسحر، ندي نهدي مكتنز يعتصر و... هوب... واع... خطف لمع في الضياء... حد شفرة يقتص فحولته!

جافلاً يستفيق، مذعوراً... تداعب جبينه الأصابع، تمسح حبات عرقه مهدئة روعه، باسم اللّه عليك، عائشة جنبه، يرنو بغياب وذهول، متدلية خصلات شعرها منسدلة بفيض على كتفيها العاريين وعلى منطقة من صدره، منكسر رأس ثديها بضغط على جنبه، يستشعر حرارته ونبض حيويته، عبير امرأة... باسم اللّه عليك يا خويا... عبير... أي حلم؟!

تنزاح قليلاً بضغطها على جنب صدره، خافتْ عليه... كم ترنح، كم كان يهذي! يدمدم، يعارك... خافتْ عليه وما يفوق الخوف، خافت منه في حاله، باسم اللّه عليك آ خويا، حاولتْ تحريكه، خافتْ لمسه، خافت تركه لحاله، خافت من نفسها معه، ما دهاه؟ مرتعبة خائفة منتهى ارتعاب، ترقُّب متوجِّسة فحسب، وحبات عرق تتبلور على جبينه لتختفي ثم تعود، باسم اللّه وقول اللّه عليك آ خويا... مطارداً كان، هارباً، مهاجماً؟ تصف عائشة حال ما رأت

منه في نومه، يستمع ولا يبين، مجمد بنظرة غائبة لا يتحرك، تشرب؟ تنسرب من الفراش بمهل، تنثني باحتراس؛ يتابع بخمول حركتها، تغيّبُ حافة الفراش نصف جسدها المنثني تملأ كوب الماء، تمسح نظرته الهامدة من موقعه ما يبدو من عاري كيانها، متتبعاً انحناء ظهرها، نواتئ فقرات عمودها متتالية حبة حبة في انحدارها صوب الأسفل... تنتصب نصف واقفة، لتنزلق فوق الفراش متلملمة متحاشية عرض مكامنها، عبير امرأة، كيانها خفي السمرة فاحم المنسدل على هامتها، مع نافر النهدين... تنحشر في الفراش، تمرِّر ذراعها تحت رقبته شبه متربعة متقرفصة جانبياً، توليه الكوب، يرشف، كم كان ظمئاً! ناشف الحلقوم! تزيح الكأس، تنظر إليه متملية إنْ كان فعلاً بخير، أي حلم كان... يفتح ذراعيه يضمّها إليه طويلاً طويلاً، بصمت...

ليلتهما تلك، جوّابا صحراء في ملتقى الغدير، توهج قطبين، فراشتا احتراق على تاج اللهب؛ ليلتها مع يمود بوح متبادل، جابا كل الآفاق، حدَّثها وهما يستردان أنفاساً على حافة الغدير، عن شبح المرأة في تجربته السجنية، قيده الإرادي لميوله، تحدِّيه للترويض الذاتي والغيري، آلامه الدفينة المبرحة وكبرياؤه الماثلة على الدوام، صخر إرادته الصلدة التي لم تخنه أو تخذل، عذاب تسربات الحلم وحده يجاوز الإرادة، مرارة السنين الأولى، قبل أن يسلس بدوره الحلمُ قياده لآمر الوعي، يتوارى بكامل خضرته، يلم ظلاله وغدرانه مخذولاً، أمام صحراء عقل بلا حدود؛ هي أيضاً تعيش صحراءها الخاصة على طريقتها، صحراء عميقة في داخلها، حقيقية وعلى مقاسها؛ رغم المظاهر وقدر العلاقات، لم تعرف إلا قهر الصحراء

فيها، وبلا إرادة ولا قوة، ليلتهما تأتي بعد تجاهل مديد، ينسج تنكرهما معاً للمشاعر والميول، حاجباً حاجزاً، يأتيه الموج هادئاً يتهادى، يقارب يكاد ليرتدّ فجأة عن وجهة الشط؛ نسيم مسائي رخاء أو صبوحي منعش، ما يكاد يهب أنفاساً تسري بينهما، حتى ينتثر هباباً يباباً في غير وجهة... أكان كلّ منهما يخشى الاحتراق، عدم الاحتراق؟ تأتي ليلتهما بعد امتناع لداعٍ وغير داعٍ، ليلة من أيام عطلة مدرسية، إبراهيم في غياب قصير مع عمته، لا شيء يلزم عائشة برجوع مبكر أو غير مبكر، لم لا تنتعش أمسية بشهي من مميز مأكل ومشرب؟ لم لا تبين عائشة عن مهارة امرأة تسود بيتاً وتسوس؟ بأمرها يكفّ يمود عن حركاته المنفلتة محدودة الأفق في تدبير شؤونه. ليلة من عمرهما، أيهما متحايل بكل سبب وبلا... لخنق وريد التجربة؟ أيهما بحيلة أو أخرى ينعش التيار؟ أيهما إذن ينكبت أو يتحدى؟ يحترقان على تاج لهيب، كل من أفق وصحراء، يقول إنه أصيب جزئياً، آسفاً أو غير آسف في نوازعه، تقول إنها لم تملك فرصة تفكير، ولا تدري من حالها شيئاً؛ يلتمعان ما بين انطفاء وتوهج، قطبان في الظلمة والضياء.

(30)

اللهم اجعل آخرنا أحسن من أولنا، وكبرنا خير من صغرنا؛ وانظروا يا سادة يا كرام ما يقول الحكماء عن علامة التدبُّر والاعتبار: أولنا ضعف وآخرنا ضعف، انظروا الطول يصبح قصراً، والوزن خفة وهزالاً، والعقل ذاته حمقاً وهبالاً، وهو قانون الحياة وسنة الخلق، بداية ونهاية وما بينهما، والعاقل يعمل في هذا المابين من ضعف أول، لضعف آخر؛ يُروى عن الحكماء أو عن الإمام علي كرم اللّه وجهه واللّه أعلم: «خلق الإنسان من نطفة عكرة، ومآله جيفة قذرة، وما بينهما يحمل العذرة»، فاعتبر يا من كتب له الخير من أهل الخير، ولينظر منكم من كتب له التدبر والاعتبار، فيما يقال له «قصر فرعون»(*) ومآله ببلد زرهون: مَن عمّره ومن خلاه؟ وبالقرب هنا كما ترون، شاهدوا بأعينكم ما حلَّ بقوم يسمونهم «آل دينوصور» مسخوا مسخاً عمالقة وأقزاماً، وما بين ذلك، وها هي ذي بقاياهم أشتاتاً أشتاتاً، والناس لاهية عن كلّ موعظة واعتبار، عبدة أوثان آلهتهم الفلس والدرهم يكنزون، ولا دوام لشيء ممّا يخزنون، لا دوام لقوة ولا لضعف، تلك سنّة الخلق، والعاقل من احترز لآخره بأوله، ولشقائه برخائه، ولآخرته بأولاه ودنياه.

(*) التسمية الشعبية لمدينة وليلي الأثرية الرومانية.

ينعقد سوق لتلات في دورته كل أسبوع لا يخلف موعداً، باستثناء ما يحمله قدوم عيد من تغيير يحول انعقاده إلى يوم ما قبل العيد، مهما كان اليوم، دون أن يغير ذلك من اسمه بتلك المناسبة، ينعقد السوق في موقعه المعهود، جانبياً على هامش فضاء دوار السوق، حيث تبدأ حركته باكراً، لكنها تبلغ الأوج منذ الضحى حتى العصرية، وما تكاد الفترة هذه تحلّ بما تحمله من تسارع وشدَّة، حتى تبدأ حركات الفكاوي في التهيؤ لآخر فاتحة، تكون ختم الحلقة وختام نشاطه ليوم معلوم لديه، يبدأ ما بين الضحى والزوال، تتخلله دورات الفاتحة، يختار لها الراوي الحاذق مفاصل حيوية في الحكي، ليحتفظ بشدة التطلع من مريدي سرده، بينما يده تطوف ولسانه يدعو بالخير والصلاح، وهو يجمع ما تيسر من عطاء القوم، داعياً خير الدعاء لأهل الجود والعطاء، كما تتخللها فترات رواح وعودة، أو تسلل وتجدد بالنسبة إلى مَن يقتنصون من يوم سوقهم فترات، يستمتعون فيها بلحظات ومقاطع من الحكي السحري للفكاوي، بعضهم من مدمني السماع يعاود الكرة بين قضاء واجب وآخر من واجبات السوق، وبعضهم يأخذها وصلة سماعية واحدة ينصرف بعدها إلى شؤونه، وآخرون من هواة بين هذا وذاك، يتنقلون من حلقة لأخرى، منتهزين تفاوت فرص الفاتحة، وهي فترات تعتبر لدى البعض ميتة من وقت أية حلقة، تقطع السرد لجمع المقابل من نفحات المتحلقين المتفرجين؛ بيْد أنها بالنسبة إلى الراوي الحاذق مثل الفكاوي، لم تكن تخلو من حيوية، بل هي لعشاق فنّه ذات نكهة خاصة تخرج عن نطاق السرد المباشر، لتدخل باب النصح وإطلاق الحكم والنكات.

آخر فاتحة لجمع النفحات، إن كانت خاتمة الحلقة بالنسبة إلى الفكاوي، وتعني توقف الحكي والسماع، كما تعني انصرافه لقضاء مآربه الخاصة ليوم السوق، فإنها لم تكن نهاية نشاط اليوم، إذ غالباً ما يكون الفكاوي في غالب أيامه، مدعواً لجلسة خصوصية مسائية، لسمر حكائي يفضِّله البعض في مقامات محدودة، وعلى جلسة مزاجية، تحلى بعبير شاي وطيب حلويات، وتتوَّج بأكلة فخمة من طاجن أو قصعة كسكسو؛ وهو تقليد لم تكسر منه جزئياً إلا ما أصبحت عليه ليلته الثلاثائية، إذ صارت موعداً شبه مؤكد لا يكاد يخلفه التهامي الفكاوي من جانبه، إلا إذا كان مانع لدى الطرف الثاني في هذا الموعد، وهو الدكتور يمود.

لعل أحداً منهما لم يكن يقدِّر لنشأة علاقة بينهما على هذا النحو، لكن يمود أحسّ بانجذاب لشخص الفكاوي بمجرد السماع به وقبل رؤيته أو الالتقاء به، وبخاصة أن دوار السوق حيث الفكاوي، لا يبعد كثيراً عن مقامه، وهو من مكونات تازودانت ومحيطها، وغالباً ما كانت جولات يمود الترويحية مشياً على القدمين؛ تقوده في اتجاه دوار السوق وتتجاوزه، وما يلبث يمود أن يدمن التردُّد على حلقة الفكاوي كل أسبوع ببعض متعة وانجذاب، يعزى بعضه على الأقل، إلى ما يتخلل الحكي من تعليقات شخصية وحكم وأحكام من قبل الراوي، أكثر ممّا هي لمنطق الحكي، وهو أمر لم يُخْفِه يمود عن صاحبه منذ أول جلسة ثنائية بينهما في ضيافته، إذ إن سمر الليلة الذي أعدّ له الفكاوي ما يعدّ عادة من تنويع في السرد، إنما ابتدأ وكاد يستمر بينهما إلى نهايته، على نحو من حوار أو بالأحرى نمط أسئلة من يمود لم تكن مألوفة لدى الفكاوي، وخاصة بهذا

الإلحاح على جوانب الدقة في الجواب. . . قل لي عن مصادرك؟ ماذا يمكن أن يجد الفكاوي من جواب، عدا ملامح الدهشة إزاء ما ليس مفهوماً ولا متوقعاً؟. . . أقصد من أين تأتي بهذا الكلام؟ الحكاية؟ بل الأهم من الحكي والحكاية، هذه الأقوال فيما وراء المحكي، والتأويلات، وتوقع أسئلة افتراضية قد لا تخطر ببال، أو تخطر على نحوٍ مخالف. . .

تخفّ بعض ملامح الدهشة لدى الفكاوي، وإن كانت السمة العامة لم تفارق، يقول إذا كان قد فهم المقصود من سؤال يمود، فليعلم أنّ ذلك من عند ربي «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»! هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلتعلمْ أن قراءة الكتب تُوْرث عقلاً، والعبد الضعيف يقرأ الكتب، حكائية وغير حكائية، من رضي اللّه عنه وأرضاه ابنُ سيرين وتفسير الأحلام، إلى العنترية والهلالية وأبو محمد البطال. . . إلخ. وفي النهاية ما المعرفة أو ما يسميه الحكماء زيادة عقل؟ إنه بالذات هذا الذي تسأل عنه ولا تعرف له اسماً، لا أنت ولا عبد اللّه الضعيف أمامك، زيادة عقل هو ما نحسّ به من «مذاق»؛ واسمع جيداً واستوعب كلمة «مذاق»، إنه ما يعطي للكلام طيبة وطعماً عند ذا خلاف ما عند ذاك، والعوام يا سيدي تسمي ذلك «الملح» أو «السر». . . هذا هو، عبد اللّه الضعيف يقرأ ما في الكتب، ويسمع من غير الكتب من طريق فطاحل المشايخ، أثابهم اللّه وأجزل أجورهم دنيا وآخرة، ومن ذلك كله يتركَّب ما تسأل عنه، وإلا كيف تفسر أن حلقة العبد الضعيف وحكيه، يملك ما يملك دون الغير من الحكي والحكائيين، وأقول واللّه أعلم، إنّ بعض ما يخطر ببالي ممّا تشير إليه، لا يكون إلا وليد اللحظة، لا أعرف له مرجعاً،

وقد لا يكون له مرجع (وأعوذ باللّه من قولة أنا) خارج العبد الضعيف هذا!

يتوقف الفكاوي ليرشف من كأس الشاي بصوت مسموع ممططاً شفتيه، متململاً في جلسته على الأريكة ببعض اعتزاز، وقد عرج به الحديث إلى التعبير عما يرتبط بذاته وشخصه في الحكي، وهو مفصل من الكلام لا يخفي غنة الاعتداد بالعلم والمعرفة، رغم استدراكات «اللّه أعلم»، واستطرادات العبد الضعيف المفتقر إلى مولاه، وما شابه ذلك؛ وما يلبث بدوره الفكاوي أن يبادر متسائلاً باتجاه يمود: وأنت؟ كل إنسان عاقل في شغله وميدان تخصُّصه، إذا كان ممّن أوتي نباهة، فهو يمتلك زيادة عقل في فنه، وهو ما لا يوجد في باطن الكتب أو أفواه المشايخ، بل يتجاوز ذلك بكثير، ولا يستطيع أحد حتى الشخص المعني نفسه، أن يحدِّد له مرجعاً، أوَلَيس الكشف عن هذه الديناصورات يتجاوز ما تعلَّمه الدكتور يمود نفسه من الكتب والمشايخ؟

يرشف يمود من كأسه ويضعه بتؤدة مبتسماً لملاحظة الفكاوي؛ أولاً لا بد من التصحيح، فالمجال هنا مجال «ديناصورات»، وهي مخلوقات تشهد على وجودها ومخالفة نوعيتها بقاياها المحسوسة... ومالها؟ كلها ديصورات وديناصورات يا سيد العارفين، ديصورات بشرية وغير بشرية... منقرضة تقول؟ وماذا يقول العبد الضعيف إلا ذلك عن الديصورات البشرية، ولو شاء ربك لبدَّل الخلق تبديلاً في كلّ آنٍ وحين... والديصور أنواع وأشكال وأنماط، فمنها العملاق المتعملق، تندك الأرض لوقع خطواته دكاً، يسير كجبل متحرك أو يكاد، ومنها ما هو مُسوّى على قامة مخلوق

بشريّ أو في مستواه، ومنها المغمور البالغ الدقة لا تراه العين، ومنه ما دون ذلك؛ والديصورات على هذا النحو من النوعية، تختلف في الخلقة وأنماط الحياة والسلوك، فمنها الصالح المصلح ومنها الفاسد المفسد، ومنه غير ذلك ودونه، وسبحانه يخلق ما لا تعلمون؛ أما ما يرويه العبد الضعيف ويسوق عنه الحديث، فليس إلا نوعاً منها، وهو البضاعة الرائجة التي تستحليها الناس وتستعيد أخبارها دون ملل أو كلل، لعلة لا سبيل لذكرها أمام سيد العارفين، وإذا أَرَدْت الإشارة، قلنا إنهم يستأنسون بوجودها بديلاً عمّا هم فيه... إلخ. فالديصور الصالح المصلح وما يعتريه من غواية وسقوط في حبائل التغرير والإغراء... إلخ، إنما يرتفع بالناس حكيه إلى الجنان الفيحاء من المأمول، كما يغوص بهم في وحل الإضلال والضلالة المهدِّدة في كلّ آن وحين.

واعلم سيد العارفين، أن هناك «الديجور» كما يسميه العبد الضعيف بدلاً من الديصور، وهذا على عكس ذاك، لأنه يملأ الدنيا ظلماً وظلاماً، وهو لا يناقض القول بعودة الديصور في (كلامنا الأول والله أعلم) ليملأها عدلاً كما مُلئت ظلماً، بل يبرِّر ذلك ويجعله معقولاً لمن يتدبر يا أولي الألباب، وهذا باب لا داعي للخوض فيه؛ وكما تفجأ الناظر وتفجع الخاطر، مشاهد ديجورية غاية في الضخامة والفخامة وبالغ الظلم الفاسد المفسد والطغيان، فإنّ منه ما لا يخطر على نظر أو بال، ولا تراه العين إنْ رأت أحيانا إلا بآثاره، ومنه القارض والواخز واللاسع والناخر والسلول والسليل والمتسلل بخبث هوادة وتؤدة: جراد وجرذان وسوس وناموس وفيروس... وقانا الله وإياكم وخلق المؤمنين كافة أجمعين، شررها

المستطير وشرّها المغير؛ ويسألونك عن فساد ومفسد: ما. . . وأيان. . . وكيف؟ فانظر في أعجاز نخل خاوية، يحسبها الناظر ما يحسب، شجراً بشراً فما تكاد تستند إليها أو تهبّ ريح حتى تهوي، واعلم أنّ منه ما يأتي في صورة نمل عملاق، كما يأتي في هيئة فيل بحجم حبة بُرّ، وما يأتي في صورة الصادق الأمين والزاهد المتعبّد والناسك المترهب، ومنه أنواع المسخ من أشباه القردة والإنسان وما هم بهذا ولا ذاك، وقد ورد في الأثر أنّ ذلك من علامات الساعة، وعلامتها الأكبر: صمم العقول وانغلاق على سوادها القلوب، وهو ما يجعل كلام الصلحاء والحكماء وقبلهم الأنبياء، يلقى إعراضاً ونفوراً ومزيد صدود، والعياذ باللّه.

وكما أن حكاية الديصور ليست واحدة، فإنّ منه ما يسمى الديجور كما سبق في كلامنا، ومنه «الديغور» وهو العملاق المتعملق أو مقابله المسخ الأقزم المتسلق، وكلاهما تأخذه العزة بالباطل ويجرفه تيار الغرور، حتى يهوي من حالق أو ما يراه كذلك، إلى حضيض المذلة والهوان.

وتسألني عن مبلغ ما يفسد ديجور وديغور. . . فلتعلم أنّ أقله ما كان عندهم يقابل ما يمكن تسميته بـ«الخِدرية» (بالكسر وهي من الخدر، ويُقال في حقهن ذوات الخدور) ويقصد بها فرحة الليلة الأولى أو زفتها بالنسبة إلى العروس في أول زيجة لها، فهذه الليلة من نصيب صاحب الشأن سمه ما تشاء (ديغور، ديجور)؛ وبعدها، أي صباح اليوم الأول، تزفّ العروس تلك إلى عريسها الحقيقي في محفل مهيب، من مقام صاحب الشأن ذاك، وقد نالت وعريسها شرفاً، وامتلكا معاً لدى أترابهما رفعة وعزاً؛ تسألني عن أكثره؟ فلقد

مرَّ في كلامنا بعض ذلك من حديث الودنينية والودنية وهو ما يكفي ويفيد؛ وكل ذلك له روايات، وتجليه تتمات حسب المقام وتكملات، وما كلّ شيء يُقال في كلّ آنٍ ولكل شأن، وإنما نقدم للقوم على قدر عقولهم، فهم يريدون الصالح المصلح الذي يفتقدون، ويستأنسون بمن وما يبعث فيهم الأمل الذي ينشدون، ويرغبون في أخبار عراقيل الإجهاد والتعجيز في وجه الصلاح والإصلاح ممّا يعرفون ويلمسون، ويدركون انحرافات الغواية والإغراء أمام المنقذ المخلص ممّا يتصورون ويتوقعون، فأنت لا تضع الحكي لنفسك ولا تنشد العبرة والموعظة لذاتك... إنما تفعل ما تفعل، لتنفتح أبصار وتضل أبصار، وربك البارئ القهار، يهدي مَن يشاء لما يشاء لسبيله ويختار.

إكرام الميت دفنه، يكرِّرها الفكاوي بصوت مسموع ليمود قائلاً، وهو يرنو بمسافة لهياكل الكائنات ما بين متكامل ومنتقص، وقائم ومدعوم القوامة... إذا لم يدخل هذا في باب الحرام فهو في باب أقرب إليه، وقد يدخل في باب التشهير والتشويه المنهي عنه شرعاً، وبطن الثرى أكرم لأموات الخلق، من سطح أديمها وأرحم.

يعمل يمود على شرح العتيد والمفيد من البقايا الكونية الخلائقية، وما يجنيه الإنسان في حاضره من العلم بماضيه، مهما كان هذا الماضي بعيداً سحيقاً، تصوّر معي... يتأمل يمود في ملامح صاحبه ليعدل قليلاً من مستوى تصوره... انظرْ... لو أنّ خللاً ما، لنسمِّه فيروساً غير معلوم ولا منظور، حلّ بما لدى الإنسان اليوم من آليات المعرفة والعلم حفظاً وبحثاً من قبيل كمبيوتر و ج. س. م، وسي. دي، ود ف د. وج. ب. س... وغيرها،

فيروس قارض ناخر أو ماسح. . . ماذا يبقى من علم للماضي والمستقبل وللحاضر جميعاً؟ إنه بطن الأرض بما يضمّ ويحفظ بطريقته الكونية الخاصة من بقايا كائنات ونبات وجماد. . . بقايا نكشف أسرارها ونكتشف منها صور الماضي، ونبني على أساسها المستقبل، مستقبل الكون والخليقة جميعاً، هذا بكل بساطة، هو الدرس المستفاد ممّا حولنا ومن تحتنا، ممّا نعرف وما نجهل من بقايا.

يبدو الفكاوي مأخوذاً بجدِّية يمود في حديثه، أكثر منه مستوعباً لمرماه، إنما كله حكي، وفعلاً طالما وجد نفسه يستغرق في تأمل حكي عن مستقبل الديصور، الذي يدرك أنّ الناس تعشق إلى اليوم الحكي المتعلق به في الماضي، إنما ماذا عن عودة الديصور كما يعتقد البعض، أو عن نشأة مثيله في عصرنا اليوم أو ما بعد اليوم والغد؟ تتغير صورة الحكي ويكون الديصور بسيارة، ونظارات وجاكيت، أو بدلة على هيئة شباب اليوم وناسه على العموم، مع هاتف نقال طبعاً. . . إلخ، سيكون منه صالح بطريقته الخاصة، يشكّل حزباً، يؤسس جريدة، يهتم بنزاهة الانتخابات وعدالة القضاء ومؤسسات الحقوق والعلاقات الدولية. . . ويكون منه فاسد مفسد بعكس ذلك كله، وثالث بينهما، وإلى هذا وذاك، هناك مكانة المرأة في الحكي إلى جانب كل ديصور كيفما كان اتجاهه، ولها اتجاهاتها أيضاً في الصلاح والفساد بجانب هذا أو ذاك. . . لم لا؟ الناس يحبون الحكي ماضياً، لم لا يجرب حاضراً ومستقبلاً؟

ملامح استبشار تبدو طافية على محيا الفكاوي، وكأنه يجد رابطة ومدخلاً لفهم حديث يمود، ولتقارب الحكي لديهما. . .

فهمت، فهمتك. . . يكرِّر الفكاوي مقبلاً على تبادل الحديث مع صاحبه، منحّياً إلى حين ما كان قد أعد لسمرهما من سردية الماضي الديصوري، لم لا؟ يقول الرجل: الحديث كألوان الأطعمة، لكل مناسبة ونكهة ومذاق.

(31)

أي طريق تسلك؟ كلّ طريق تسلك. أية وجهة تأخذ؟ كل وجهة تأخذ. أين الحركة والأطراف والرأس؛ وما الوجع والألم والكمد، ما القتل وما الموت؟ كيف يخطر على بال ما يخطر بواقع؟ عائشة أكثر من رضيت بنصيب، أبعد من أن تفكر بتغيير واقع، ها هي ذي أمام التغيير، والتغيير من أي نوع؟

شيء ما تراجعه الآن لتقول إنه كان مقدمة ما حدث، تقول الآن إنها استشعرته، لكن لِم لمْ. . .؟ ولماذا كل هذا من أصله؟ رضيت أن تُزوّج زواجاً لم يكن لها فيه رأي، ولم تتح لها به متعة، رَضِيَت قبل ذلك أن تودِّع أحلام الدراسة قبيل الابتدائية، أحلام صور ربما لم تكن بينها طالبة الجامعة أو الطبيبة، لكن ملامح المُدرّسة على الأقل، أو الممرضة على أقل الأقل، لم تكن بعيدة ولا خارج الإطار تماماً، بيد أنها رضيت أن تنقطع دون حسرة، لا لعدم تفوّقها فحسب، ولكن لضرورة وظروف خصاصة عائلية، رضيت بعشّ زوجية لم تفكر فيه، ولا كان فيه ظلّ أو شبه ظلّ من قصر وفارس أحلام. . . هكذا تمّ وأريد، على نحوٍ تشتمّ فيه ريح صفقة ما، من طبيعة خاصة جداً، تنسَّمتها رفيقة غير محفزة، ثم تشبَّعت بها قوية نفاذة منفرة، كانت تعرفه معرفة القُرب والجوار، مع علاقة ودِّية

عادية مع أسرتها الصغيرة، أمها وزوج أمها بنعدّة؛ بوعزة مطلق لمرة واحدة على الأقل، وربما لأكثر بدون إنجاب، يعيش مع والدته مّي فاطنة الضريرة، يتنقل من ضيعة إلى أخرى ومن ورش بناء إلى آخر في القرية والجوار، وفيما أبعد من الجوار؛ بنعدة زوج الأم لم يكن يختلف عن بوعزة في شيء يتعلق بكسب الرزق، قلّما يجتمعان في مكان شغل واحد، يتفاوتان في فترات الشغل والعطالة، يتناوبان السعي حسب الحظ والظروف... رضيت نفسها زوجة دون رغبة منها أو استئذان... هكذا لبوعزة! رضيت بريح صفقة تنسَّمتها رفيقة قبل أن تملأ منها الحلق والخياشيم بعد فوات الأوان... تتساءل أكان فعلاً ثَمَّ أوان؟ أكانت لو... أكانت لترفض الزواج بأية ذريعة؟ أتنتظر أن يخطبها قائد أو ابن قائد؟ تقول أُمّ وزوج أم باستنكار، امرأة من سهم رجل ورجل سهم امرأة، ثم كيف لها أن ترفض هذا، ومن غيره إذن على الباب؟ تقول أُمّ ويقول زوج أُمّ، وكما يبدأ يقول الكون كله داخل عائشة نفسها وحولها؛ تتنسم ريحاً عابرة بأن بنعدة يشكّ في علاقة بين بوعزة وزوجته أمها، ولفك العقدة تأتي فكرة تزويج عائشة لبوعزة، أيرفض بوعزة أم ترفض الأم؟ كأنه اختبار إذا صحّ، ولم يكن وارداً أن ترفض عائشة، هكذا تملأ جوانحها منذ يومها الأول في بيت الزوجية ريح نفاذة قوية مقززة: أنها ضمن صفقة أو اختبار، لم يعلنها أحد جهاراً، لكن ملامح التذمر الطبيعية على وجه مّي فاطنة الضريرة، ربما تجد لأول مرة في حياتها مبرراً للدوام والاستمرار، ولفلتات لسان تأتي طائرة عابرة، لكنها دالّة في حسّ متهيئ يقظ، لا تتردد مّي فاطنة بسبب وبدونه في لعن الساقطات وبنات الساقطات، ولا تعني أحداً بذلك! وتخاطب نفسها ناعية بوار

سوق النساء المرتميات على الرجال في الحرام. . . والحرام! ومشفقة على أبناء هذا الزمان وابنها منهم، بأي زيت يضيئون قنديل البحث عن حرائر النساء؟ رضيت وكأنّ ذلك كله لا يكفي، وإذا الزوج لا يكاد يمضي معها أياماً حتى يهاجر إلى ما وراء البحر، لتجد نفسها مباشرة مع صواعق، ربما كان بوعزة على علاته، وإلى حدٍّ ما، واقياً من شدّتها؛ وها هي ذي رسائله تأتي موجهة باستمرار إلى مّي فاطنة، لم تنَل منها عائشة أو تحتل حتى سؤالاً عنها بالاسم، فأحرى أن يفردها برسالة، وتسرع مّي فاطنة، بحذق عصا وحسن توجّه، إلى الفقيه في مسجد الدوار، تُقرئه الرسالة لتنطوي على ما فيها، مكتفية بين الآن والآخر، حسب المناسبة والمزاج، لتذكر جزئية تتعلق بحال ابنها المهاجر، ولا تملك عائشة أن تسأل عن شيء منه يتعلق بها، كأن لا موضوع لها ولا شأن.

رضيت، تحمّلت وكأن ذلك لا يكفي، تحملت فطانة مّي فاطنة الزائدة عن الحدّ، وهي تتحسَّس كل نأمة ليلية وحتى نهارية، لتتشمَّم بمنخريها ما تعتبره وكأنه ريح رجل يحوم حول حمى ابنها الغائب. . . من هناك؟ تقوم ناعية حظّ مَن أسلمها مهمة الحرص على غيابه، مَن هناك؟ تقوم بحذق عصاها وقوة الصوت: من أنت؟ تتحسَّس متصيِّدة أية نأمة بأيّ اتجاه: أيعتقد أنه غير مكشوف، إنها تعرف قصده وتعرفه! تتوعّده بالصوت والعصا المحوّمين في كل اتجاه، دون أن تتحرك من موقعها ما بين غرف الدار، لكنها تعود إلى بيت القصيد أولاً وأخيراً منادية عائشة، وعلى هذه أن تكون بجانبها قبل ذلك، أي منذ بادرة التحسُّس الفطنة الأولى، وتسألها مهما بكرت: أين تأخرت؟ على عائشة أن تجيب بلمس أذيال الفطنة

المتحسِّسة إعلاناً عن أنها دائماً حاضرة، وبعيدة عن كلّ شبهة، وأثناء ذلك تكون يد مّي فاطنة تجوس في كيان الفتاة، تتلمس متحسِّسة كل شيء من هيئة لباس وغطاء رأس وحزام وصدر وبطن. . . تتحمل عائشة، رضيت وتتحمل، فدورها أن تثبت دائما بالفعل لا بالقول ـ أي قول للساقطات بنات الساقطات، وهذا لا يعني أحداً أو واحدة بعينها!؟ ـ أنها لم تكن في أيّ موقف مشبوه مع أحدهم، لا من قريب ولا من بعيد، ربما تطمح المرأة إلى ما هو أكثر، إلى تحسُّس الأنفاس والنوايا لو أمكن، وهي على كل حال حارس كنز ابنها الغائب، تذود عن كرامته، مانعة كلّ متوقع مهمَا كان.

ترضى وتحتمل تحسس المرأة الزائد لنأمات نهارية، تحرص على ألا تجعل الفتاة تنفصل عنها بأقل وأقصر ما يمكن من زمن ومكان، رابطة حبل الوصل بينهما بخطاب لا ينقطع، ما تلبث أن تردفه بحركة تتقدَّمها العصا المنقبة، حتى تقع على رأس الفتاة أو كتفها، لتقترب منها وتلامس، دون أن تسمح لحبل الكلام بينهما أن ينقطع؛ أما عندما تحاول أن تخلد إلى قسط من راحة نهارية، فتسند غالباً ركبة عائشة أو ما يصلها بها، بينما تصرّ على أن يكون لحاف غطائهما مشتركاً في الليل، ومع ذلك لا بد بين حين وآخر، بين غفوة وأخرى، أن تمدّ المرأة يدها تلمس كيان الفتاة، ويعلو صوتها في هدأة الليل، كما يحصل في النهار متسائلة بانتهار عمّن هناك؟

ترضى وتحتمل عائشة أن تقصد العين تستقي الماء يومياً، بالجرَّتين الكبيرتين المتدليتين في جانبي عدل على ظهر الأتان تمتطيها مّي فاطنة، وتماشي عائشة جانبياً خطواتها المتأنية إلى قرب

العين، حيث تتحرك عائشة منفصلة عن ركب مّي فاطنة بقدر ما يسمح به الاستقاء، دون أن تكفّ المرأة خلال ذلك عن الحديث مع زوجة ابنها الغائب؛ وعلى ندرة مَن يقصد المكان من الذكور في العادة، فإنّ مّي فاطنة ترفع صوتها سائلة بنفسها عمّن يكون هناك، من فتيات وفتيان أو نساء ورجال، وأن تشتبك مع المستجيب في حديث لا ينقطع، إلا بلحظة الرجوع؛ أما موعد الطاحونة وهو أسبوعي لدى المرأتين أو يكاد، يناسب بداية دوران آلة المطحنة عند العصرية من كلّ يوم، فلم يكن يختلف عن غيره إلّا في طول المعاناة لطول المسافة: مّي فاطنة على ظهر الأتان، مقدار الحنطة موزع إلى قسمين في طرفي العدل، عائشة تماشي الخطوات الوئيدة المتأنية، تُجيب بقدر ما يلقى من سؤال، تقترب وتلامس بقدر ما تومئ حركة المرأة حتى لحظة الرجوع، وعلى المنوال نفسه؛ وكأنّ ذلك كله لا يكفي، ليأتي يومها...

يوم البداية يعدل أياماً، دهوراً لم تكن متوقّعة، لا في ذهن عائشة بالتأكيد، ولا في ذهن مّي فاطنة، وإلّا لكانت هذه بلا أدنى شك اتخذت ما يلزم من احتياط، أكانت عائشة تتصور أن سبباً ما يجعل مّي فاطنة تتخلف عن مصاحبتها، لأمر ما، مهما يكن؟ أو لم تتوقع مّي فاطنة أنها في يوم ما لا بدّ آت، يعتريها ما يجعلها تعجز عن مرافقة الفتاة؟ مع ذلك تكابر المرأة لتتحامل على علّة طارئة، وترافق أكثر من مرة إلى العين، تكابر عائشة من طرفها لتجعل الحاجة للاستقاء وغير الاستقاء، أقلّ وأقصر ما تكون، مراعاة لوضع مّي فاطنة وشدّة نوبة السعال عليها بأقل حركة وبدونها، لكنها تضطر ومعها المرأة، لتسلما معاً، بضرورة توجه الفتاة وحدها على ظهر

الأتان للاستقاء، بينما تتحامل المرأة على نفسها لتقوم في شبه انتصاب، وتظلّ معتمدة عصاها في استنفار نفس وحواس إلى أوان العودة، تسارع متلمسة أطراف الفتاة، سائلة عن كلّ ما ومن شاهدت الفتاة في طريقها، ويمتدّ التلمس إلى طرفي العدل ومجلس الراكب وظهر الأتان نفسه، متحسِّسة مدى دفء المركب كأنما تنشد تقدير زمن ذلك، بالوقت الضروري للمسافة ما بين هدر واستغراق، ثم يحدث أحياناً في لحظة كهذه، والمرأة تتحرك متلمِّسة كل شيء في طريقها أو ساعية إلى طريقه، أن تدسّ يدها تحت حزام الفتاة وما تحت الحزام، متحسِّسة بالمباشر عمق مفرق الفخذين، متعرفة بأصابع النهم، مستطلعة كنه الأثر، متشمِّمة متذوقة، لا مستنكفة، متمتمة بنفس لا ينقطع...

ترضى وتحتمل، وكأنّ ذلك لا يكفي ليأتي يومها الموعود، كأنها استشعرت بوادره، تقول ذلك لنفسها كالعادة بعد فوات الأوان، أكان لها يوماً ما أوان لشيء وموعد؟ إنما كانت تستشعر في كلّ لحظة أن شيئاً ما سوف يحصل، لا بد أن يحصل، دون أن تدري كنهه، وتقول أو هكذا تحسّ: كان سيحدث شيء وكانت تشعر به قبل ذلك؛ مّي فاطنة عاجزة بحكم حالها الطارئ التوعكي عن مرافقتها فيما اعتادت أن ترافقها فيه، تحملت المرأة مرة أو مرتين حالها للاستقاء، ثم سلّمت واكتفت بما يمكنها من مراقبة على طريقتها الخاصة، والساقية قريبة والمدى أقصر، أما موضوع المطحنة فهو طعم آخر، حاولت كلّ منهما تأجيله إلى أبعد ما يمكن، باستلاف بعض المحتاج إليه من هنا وهناك، لتواجها معاً الواقع بضرورة توجه عائشة وحدها، واحذري... لا تريد مّي فاطنة تأخرا

أكثر من المعتاد، ولا ترهق الأتان بأسرع خطو أو تكبح بأقله، كسباً لوقت أو تضييعاً له، والمطحون يُنبه منذ البدء إلى درجة تليينه المطلوبة، حتى لا تكون هناك ذريعة لإعادة طحنه، وهدر وقت زائد، وانتبهي... لاحظي...

أيّ طريق تسلك، أي اتجاه؟ كل طريق، كل اتجاه... كان ذاك يومها الموعود كما استشعرته عائشة من قبل، أن تنهي المرأة وعيدها الذي تعرفه مسبقاً عن ظهر قلب، إنما امتطت الأتان ويد مّي فاطنة تتلمس كلّ شيء سائلة منبهة، وكأنما تعد بذلك مقياس راهن الحال، لتقدير المآل حين العودة.

يومها... تنتهي إلى المطحنة بُعيد العصرية، تترجّل، تعقد قيد الأتان تدفع بمقدار الحنطة مقسماً في جوالين إلى الفتى المناول كالعادة، يتقدّم نحوها بملامح يكسوها أثر سحيق الدقيق في بدعية قصيرة متلاشية اللون، تلامس بشرته مبينة عن فتوة الذراعين، كاشفة جزءاً من الصدر وأسفل البطن، يفرغ الفتى بنشاطه المعهود أحد الجوالين في الآخر، ثم يحمل المقدار على كتفه، ويتحرك بقدمين حافيتين مرتقياً درجات السلم نحو سدّة المطحنة حول البالوعة؛ كلّ شيء يبدو في خطه وعلى طريقه المرسوم ... يومها... أيبدأ مفارقاً من خطوتها الأولى وحيدة في اتجاه، أم أنه يفارق من لحظتها الأولى عند باب المطحنة... أم هي الخطوة الأولى باتجاه العودة؟ شعورها الغامض منذ نوّر اليوم، أنه لها موعود... غير معهود...

كل شيء يبدو في طريقه، آخذاً سبيله: هدوء يعمّ المكان، قل هو همود يثير انتباهها بعد لحظات، تنتبه إلى أنه غير مألوف هذا الهمود، تتساءل مُدرِكة أنّ الآلة لا تهدر بحركتها وضجيجها

المصاحب، يواجهها الفتى من على سدّة المطحنة، مشيراً إلى الأسفل حيث ينحني المعلم في حفرة قصيرة أسفل فم المطحنة يعالج شيئاً، ولا يُظهر من كيانه إلّا انحناءة ظهره، تفهم بالإشارة أن عطلاً بسيطاً طارئاً في طريقه إلى العلاج، وتمضي فترة قبل أن يستقيم المعلم وقد انضافت إلى سحيق الدقيق الأبيض على ملامحه وأطرافه، أمارات سواد من وسخ جزء الآلة المعالج بين يديه، يقفز إلى أعلى معتمداً على طرفي الحفرة القصيرة، ليستوي قائماً على الأرض يحمل الجزء بيديه، ويمر جانبياً ليغيب في جوف المطحنة يثبت الجزء في مكانه؛ لحظات تمضي بطيئة متمطِّطة، ليظهر المعلم مصدراً إلى الفتى تصفيرة حادة بطرف، يفهم هذا معناها التنبيهي، ويمدّ المعلم يده نحو مقبض التشغيل، لتبدأ الحركة وينطلق الهدير متثاقلاً، تعمل يد المعلم بتحكُّمها في مقبض التشغيل على الزيادة في قوته شيئاً فشيئاً، حتى يستقيم آخذاً إيقاعه المطلوب، تنطلق تصفيرة المعلم من جديد، ويقفز إلى قعر الحفرة، بينما الفتى في السدة يفهم الإشارة عامداً إلى إفراغ حصّة الحبوب الموالية بالتتابع في جوف البالوعة، رامياً بجوالها إلى المعلم الذي يتناوله ويربطه إلى فم المطحنة المغلق بلوحة خشبية صغيرة، وينصرف للحظة إلى تنظيف يديه بقطع قماش في حزامه، قبل أن يفتح فم المطحنة لينساب الطحين إلى أسفل الجوال، يمد المعلم يده إلى سيل الدقيق يختبر مستوى ليونته، معدلاً بعض اللوالب، متفحِّصاً درجة الناتج مرة بعد أخرى، ليأخذ كل شيء سبيله.

يأخذ كل شيء سبيله، وسبيلها هي؟ تنساب الحصص في جوف البالوعة، تظلّ عائشة منتظرة، وهديرُ الآلة بعد فترة همودها السابق،

كأنه نداء لمتغيبين ومتخفين، ما يلبثون أن يظهروا في الحال ويبدأون يسحبون حصصهم، ناقدين المعلم أثمان الطحن مقابل ذلك، وهو يقفز ما بين حصة وأخرى، إلى السطح يناول ويقبض ليعود إلى حفرته من جديد، ليخرج هدير المطحنة عن إيقاعه شيئاً فشيئاً يخالطه شبه نواحٍ مبحوح يتناقص بالتدريج، حتى تعود الآلة إلى همود!

ـ خسرتْ

يلعنها المعلم، يغلق فتحة فم الآلة بلوحة الخشب، يلعنها مراراً. . . مال بوها الكلب؟ الفتى وقد قفز إلى جانبه على الأرض متأهب للمساعدة والتنفيذ، يشير إليه المعلم متأففاً، يتّجه الفتى جانبياً إلى جوف المطحنة، حيث سبق لمعلمه أن ثبَّت ما أصلح من قطعة، يطوف المعلم في أرجاء المكان كأنه ينشد منفذاً ضيقاً أو يلتقط نسمة، تقع العين على شبح عائشة منتصباً بالباب يسبح في شعاع غامر مخترق لشمس منحدرة نحو مغيبها، يرفع يديه تجاهها بهيئة مَن لا يملك أمراً، ينهمك مرة أخرى في تعديل القطعة، والفتى يحوم حوله في تأهُّب، تلتفت عائشة خلفها لأول مرة باتجاه مهبط الشمس، يومها. . . ربما كان المقدَّر أن تصبح الآن على مقربة من منزلها، أو جاوزت منتصف طريق العودة على الأقل، ها هي ذي لا تزال تنتظر، تنظر خلفها جانبياً إلى ركوبتها، الدابة نفسها تبدو مترنحة متطلعة باتجاه الأفق، وإلى متى تنتظر؟ تنتهز فرصة يوجِّه فيها الفتى نظره باتجاهها لتسأل بحرقة.

ـ قربت؟

لا يجيب الفتى، وإنما يخفض بصره متابعاً نشاط المعلم

المنكفئ على نفسه في انهماك، وإلى متى تظلّ تنتظر؟ لم تعُد بحاجة لتنظر خلفها إلى مهبط الشمس، تخافتُ الشعاع الغامر على ظهرها، وارتفاع مسقطه على أعلى الجدار المقابل داخل المطحنة، يشير إلى تسارعه الهارب... إلى متى...؟ يشير الفتى إلى أن لا شيء بيده وقد رمى لتوه حصتها في البالوعة حين توقف كل شيء، فلتصبرْ؛ تصبر؟ أنى لها؟ تتحرق في وقفتها، قدماها لا تكفان عن الحركة في مكانهما، كلّ ما فيها يتحرق، تصبر؟ أخيراً يلفظها المعلم لعنة كبيرة، يلعنها مرة وأخرى المعلم، يلعن جذر المطحنة وأصل أصلها... يلعن بوها الكلب، ما لها اليوم؟

(32)

أيّ صوت؟ من غابر أيّ زمن ينبعث؟ الحرقة المألوفة، القصد الواضح الفصيح في اللفظ الكاشف المكشوف في العبارة العزلاء نضَّت عنها مظاهر الزينة والمزينات، منتصبة بحدّ حدودها ترسم خطوط السير والاتجاه، ونبض النظرة الخارقة المخترقة. لا التواء ولا التباس، لا استعارة ولا مجاز، من غابر أيّ زمن ينبعث؟ كأنما من سحيق عهوده ينبثق نافضاً عنه غبار الدهور صربودي؛ صربودي بشري، أهي دورة أجياله الجديدة، أي صوت وامتلاء وتشوُّف؟ لا تهم الحقيقة ولا حتى الواقع، إنما منطق الفكرة، روح الخطاب والوجهة والمنظور. . . من غابر أي زمن يأتي الصوت؟

يتريث يمود في جوابه عن السؤال المطروح، يتملى طلاقة الفكر لدى الشاب الإعلامي اليافع، واقتصاد العبارة ولحمة الجرأة، لا تردّد لا تعثر ولا التواء أو التفاف. . . يسأل الشاب، أم هو في الواقع يتدخل على هامش أطروحة يمود في محاضرته الإعلامية؟ يسأل الشاب أم يستحثّ ويحرّض؟ الخفقة هذي من أي زمن ولأيّ عصر تعود؟ من أي أجاج هذه النكهة المفتقدة، والنسمةُ. . . من أية ريح واتجاه؟ كأنه يمود أيام عزّ الطلبة والنضال، تلك النظرة، ذلك التطلع والمعجم ومنطق الأشياء. . .

المناسبة كانت أول تواصل مع الرأي العام العلمي والإعلامي ليمود، بمتحفه التازودانتي للأثريات، حيث نصبت خيمة متوسطة، لاستقبال الحاضرين بموازاة قاعة المتحف، على جزء من امتداد الساحة العشبية؛ الحدث هام أعلن عنه باعتباره فرصة للاطّلاع على مراحل البحث وكشوف الحفريات الأثرية في المنطقة، لكنه يرمي إلى أكثر من ذلك، وهو إيجاد الشركاء فيما يجري البحث فيه والكشف عنه، من قبل يمود وفريقه.

من أي زمن ينبعث الصدى والصوت؟ ينتصب الشاب الإعلامي اليافع، من وسط صفوف القاعة، ما تكاد تهدأ عاصفة التصفيق لعرض يمود، حتى ينبري الفتى بسؤاله، قل محاضرته، أطروحته المضادة المشاكسة، كأنه ينبعث من زمن التحريض، ذاك المنقرض بدوره أو يكاد، لتبقى مجرد مؤشرات على وجوده ذاك، منها هذا الصدى لصوت منبعث من زمن يبدو غابراً، زمن الديصور والصربود؛ يرحِّب يمود بالسؤال، يوسع صدره للإطناب، ليس المهم ما يقال، إنما المرجعية والرؤية والامتداد، لغة مشاكسة حتى في تعاملها مع المعروضات المحسوسة الداعمة لعرض يمود واتجاهه... صور منقرضات، تركيب لهياكل وأطراف لكائنات غير مألوفة في الأحجام وطرق العيش وسلم التطور. لا يرى الشاب في ذلك إلا اصطناعاً لعوالم، من وظائفها الأساسية، إبعادُ العقل والمعرفة والسلوك عن مواجهة الراهنية والواقع، بل أكثر من ذلك تبدو: فكثير ممّا يعتبر أو كان يُعتبر نظريات علمية، إنما هي مجرد آليات مسخرة لأهداف هيمنية كبرى لا تقلّ عن أختها اللاهوتية، بل لنقل إنها تأتي لتشكِّل الأسس التبريرية لقيام القوة أو القوى المهيمنة في الحال، والساعية

إلى ذلك في المآل، يمكن أن تنظر ذلك متتابعاً منذ النظرية اليونانية للكون والإنسان، إلى نظريات القرن التاسع عشر. . . خذْ منها نظرية التطوّر والارتقاء وفرضية اللاشعور. . . إلى «نهاية التاريخ» أو «صراع الحضارات» في يومنا هذا؛ أيّ تطور؟ البقاء للأقوى أو بتليين عبارة والتفاف: البقاء للأصلح. . . أصلح ماذا ومَن؟ إنها مركَّب الإمبريالية العالمية لنشر هيمنتها منذ ما يسمّى التنوير، تجسَّدت بعبارات وكيفيات إلى أن اكتست تنظير السير تشالز؛ ونهاية أي تاريخ الآن؟ المقصود بداية تاريخ إمبريالي جديد، قوامه معجم جديد وتكنولوجيا متطورة، عولمة اقتصادية وما تجرّ معها؛ صراع أي حضارات، إلا أن يكون صيغة جديدة لإيديولوجيا سوبرمانية؟ والفصيح الأفصح أن قوى الهيمنة من مالية وعسكرية وسياسية وثقافية، هي ما يقف وراء ذلك؛ من البلاهة أن يُظن أنّ ما يقدَّم في صورة من خدمات، هو كذلك بالفعل؛ انظرْ إلى التحذير من التدخين رغم وجاهته من الناحية الصحية، وحاسب من كان وراء الإعلام المتصل بنشره وانتشاره لعقود أو قرون، تجدها الشركات المؤسسات نفسها، بعد أن تصنع البديل الاستهلاكي المعادل أو الأكثر رواجاً ومردودية، في مختلف العقاقير الغذائية والتزيينية والتخديرية وغير التخديرية، دعكَ من التفافات العبارة، ولنرَ كيف تصطنع أسباب الغزو والحروب بزعم نصرة الحضارة والإنسانية والنور، على نحو ما شيّد الغرب وقبله غيره من عرب وفرس وروم إمبراطورياتهم، بدعاوى نشر الأمن والنظام وإشاعة نور المعرفة والحضارة والتمدُّن، كما يفعلها الغرب اليوم بدعوى نشر الديمقراطية، وكما فعلتها الإمبريالية قبل ذلك منذ القرن الخامس عشر وإمبراطوريات ما قبل ذلك بدون استثناء، ولننظر حالياً

حيث تصطنع، بل تخلق خلقاً، حملات محاربة الأوبئة، من أجل الترويج لصناعة وتصنيع الأدوية واللقاحات وما إلى ذلك، إنه الإرهاب البيولوجي والاستفزاز والابتزاز به، ما دام إعلامنا وعصرنا يتحدث عن إرهاب. . .

من أيّ معجم يستقي الإعلامي اليافع؟ ولأيّ عصر ينتسب؟ يتيه يمود في المتابعة: خواطره المتلاطمة من جهة، متلاحق أفكار الفتى المتائسل من جهة أخرى. ألم يقُل الرفاق إنها مرحلة مراجعة مخالفة، دورة كاملة: مصطفى، مجيدة، وسائر الركب الرفاقي؟ وهذا البائل الحارق في حدَّته وشبابه، أليس الأولى بأن يكون ناتج المرحلة الطبيعي وبمعنى ودلالة أقوى ممّا عليه الرفاق اليوم؟ من أي زمن ينبعث الصوت والصدى؟ ديصور جديد، يافع ديناصور. . . كم منه من مثله في المرحلة؟ يافع دناصير تنفلق عنها أرض المرحلة المصمتة الصماء، تنفلق كأنها متخلف بذار تحت الأرض، ما يلبث أن ينبثق بفعل قطر متسلل، مهما نزر القطر وتطلب من أحقاب؛ كم منه ومن مثله، ومتى تنشق عن صممها ومواتها الأرض بالأكثر الأوفر؟

يتيه يمود ببصره المتنائي في القاعة، كأنه الأستاذ مرّوني في نهاية من إحدى محاضراته العلمية المتروية الهادئة في آنها، الضاجّة الصاخبة في أثرها وامتداد فعلها؛ يقول الأستاذ في إحدى لحظاته مع طالبه اليافع المتشوف يمود: لو كان معي عشرة من أمثالك. . . أيقولها يمود الآن، يهمس بها في سمع الإعلامي اليافع أم يجهر بها على رؤوس الملأ: كم من مثيلك يا فتى في هذه القاعة، وخارجها؟ لا. يستعيد يمود وعيه باللحظة، مخفياً انتشاءه الباطني بما يسمع، مرهفاً بكلّ جوارحه لمنطق الديصوري اليافع.

يقول الصدى المنبعث من غابر أحقاب: لا بد من التساؤل الحادّ عمَّن يقف وما يقف وراء تصورات الانقراض والمنقرضات، ليس بالضرورة للتشكيك في المتن العلمي، ولكن للكشف عن محفزاته ووجوه استغلاله؛ وهنا لا شيء ممّا يقدم على أنه خدمات بريئة هو كذلك بالفعل، وكما خدمت نظريات التطور وفرضيات اللاشعور طفرة الإمبريالية، فإنّ نظرية المنقرضات ومصير الانقراض الحتمي، يُراد بها التدجين الفكري من أجل كلّ الأغراض، كما أنها ليست وليدة اليوم، فقد حفل بها الفكر السياسي والاجتماعي واللاهوتي والأسطوري، مع اختلاف في المظهر والصيغة حسب العصر والمرحلة؛ والآن أمام ظروف القطبية الأحادية أو مرحلة الانتظار والتوقع لازدواجية أو تعددية قطبية محتملة ومفترضة، أيّ أمام مرحلة شبه الفراغ شبه الامتلاء الكوني، دعنا نقول أيها الباحث المحترم والرفيق القديم: إن النظريات العلمية المزعومة، ورديفتها الاجتماعية، إنما تظهر وتطلّ علينا بين آنٍ وآخر، مواكبة لظروف مقصودة مع طلعات الموضة الموسمية الهيمنية؛ والمنبع اليوم والمرجعية مغرب الشمس، تنبعث النظريات اليوم من خلف العالم، من ظهره، العالم الجديد؛ لا بأس لولا الرديف الاستغلالي الاستهلاكي المكشوف، وتطلّ علينا نظريات اجتماعية سياسية وتنظيمات ومنظمات لا بأس بها مبدئياً نظرياً، أما من الناحية العملية فهي في خدمة الهيمنة وروح السيطرة، انظر إلى مفاهيم وقيم حقوق الإنسان ومعها سائر الحقوق، لمن هي ميسَّرة ولصالح من تطبّق وبأيّ ثمن؟ وانظر إلى ما يطلق عليه برامج مساعدات دولية وإنسانية، وما يطلق عليه عقوبات في شأن البعض من دول على حساب بعضها

الآخر، كيف يطبق ذلك وبأية معايير؟ وهناك باب العلم والبحث والتحديث، حيث تُحرَّم وتُمنع مستويات من التصنيع والتكنولوجيا الراقية عن مجموعات بشرية ومؤسسات علمية، لتبقى حكراً على القوى المهيمنة، ولحصر مجرى التقدم في القوى الصناعية الكبرى، بينما يُرسّخ مسار التبعية والاستهلاك في غيرها، ويبقى تبرير ذلك من طريق التلويح بالمخاطر الكونية المترتبة عن فتح باب العلم على مصراعيه للكل دون تحكم أو مراقبة؛ وكل ذلك وغيره، مجرد تلهية أمام المخاطر الكارثية المباشرة المرسِّخة للتخلف في هذه الميادين، مخاطر الجهل والفقر والمرض وما يتبع ذلك من المتضمن في المأثور: جوّعْ كلبك يتبعك، وقبل كل شيء وبعده، مخاطر الاستقواء التي تنفرد بها القوى المالكة للتكنولوجيا المتطورة، وفي هذا التوجُّه تنتزع عن العلم كل القيم، ويبدو في سبيله لتسخير الطبيعة، جد متجاهل لتسخير الإنسان نفسه لأخيه الإنسان من طريقه، وكله يؤدي إلى استفراد مجموعات قوية أفراداً ودولاً بمجمل خيرات العالم، وما يرتبط بذلك من استئثار واستنفاد للموارد الطبيعية. . . ونهايته، بل تتويجه: إضافة سنن التطور والانقراض المتحدث عنه في المحاضرة، إلى مثيله من قبيل «نهاية التاريخ» «صراع الحضارات»، بل وتدهور «الغطاء الأوزوني» و«الانهيارات القطبية»، وما شئت مما له من يقف خلفه ويعمل على إشاعته، لهدف أولي بسيط أكيد: صرف النظر عن ضرورة التغيير، وسلب الإرادة باتجاهه لصالح التوقعية الكونية الكارثية، ونشدان الخلاص، بكل الطرق والأساليب لاهوتية، فنية، غيبية، سحرية.

يستشعر يمود حركة يده ثقيلة عن أن ترتفع بقصد لتوْقف الفتى

المتحدث، استشعار يأتيه مسايرة للهمهمات المعترضة، أكثر منه رغبة في إسكات المتحدث؛ يفيض الفتى الإعلامي، صحيح، ربما يكرِّر، لكنه يملأ القلب ويُمتع... من أي زمن أنت؟ أم أنك أنا المنقرض، صوتي المنبعث بعد انقراض؟

(33)

تتحرق عائشة، وقفة لا تكاد القدمان أثناءها تستقران على الأرض، واقفة تتحرق. . . متى؟ ووراءها الدابة تبدو متحرقة مثلها. . . والغروب، إلى متى؟

أخيراً تدور الحركة، يرمي الفتى بالجوال الفارغ إلى المعلم عند فتحة فم المطحنة، تدور الحركة، تشعر عائشة بحركة قدميها لا تستقران، تستدير تفكّ قيد الدابة، تربط وتفك مهيئة كل شيء لكسب كل ثانية على ابتداء الطريق، تنفح الفتى وتلقف منه الجوال، ترمي به حيث يكون وترتقي ظهر الأتان تغذّ السير، تطارد تورُّد أفق متسارع الأفول، يومها الذي استشعرت صباحه يصله المساء، تغذّ السير ملء سمعها والبصر شبح مّي فاطنة يتنسم الأفق بحثاً عن ريح عودتها، ولسان يتمتم الشتائم على الساقطات بنات الساقطات. تغذّ السير والخطوات، تبدو أكثر من أي وقت مضى أشدّ بطئاً وأثقل، هذه الدابة كالمتعوّدة على هون سعي، لا تلتفت إلى إلحاف صاحبتها في الإسراع، غير عابئة تبدو بصوت أو سوط، تغذّ السير بقلب وجوارح، لكن الخطوات تشدّها إلى بطء وتثاقل، لو كانت في مثل وهْم مّي فاطنة وتوهماتها، لصاحت أكثر من مرة من هناك؟ تغذّ السير ملتقطة بين فينة وأخرى صدى خشخشة أو أثر سير متابع أو

محاذي، كله من وهْم مّي فاطنة وتوهماتها؛ تغذ السير لا تعبأ بشيء أكثر، مستنكرة هوادة الدابة الثقيلة وهوان الأمر عليها، لا تدرك ما بصاحبتها، وكيف تدرك المتبلدة ثقيلة الخطو؟

تجرِّب أن تنزل عن ظهر الدابة ممسكة لجامها تقودها دون جدوى، تعود لتقفز على ظهر الدابة، لتتلقفها من الخلف قوة ذراعين... مساعدة في الركوب؟ ممَّن وكيف؟ تلتفت لكن كفاً تزم أنفاسها وقوة ذراع تسند صدرها تجرها شبه مرفوعة خارج خط السير... ششتْ، تفتح عينيها جيداً متبينة، العينان جاحظتان، هيئة متهيجة، ملامح غامضة تكسوها مسحة شيء عالق ما بين سحاق طحين وغبار طين، ششتْ ششتْ... يكرر بوعيد واهتياج ششتْ، رافعاً كفه عن فمها برفق، توشك أن تصيح مستشعرة ما حولها من خطر، يعاجلها بكتم أنفاس، ويطيح بها تحته على الأرض، تكافح للخلاص تكافح باستماتة على كلّ نحو، كلّ حركة منها تفتح ثغرة في حصن دفاعها الساتر، تتركز استماتتها بوعي على جهد الركبتين، تزمّ بشدّة ملتمّة على نفسها بشدة؛ قوة قاهرة فارقة توشك تكسر مفرقها، تحسّ به ثقيلاً قوياً فوقها، يصدر عنها خافتاً لفظ استغاثة، مزوّجة، مزوّجة، تهتف... ويلها... ويلها تحبل... تعارك في موقع خاذل، تترجى، ترجو خوف الحمل... ويلها... مزوّجة... كأنّ كل لفظ منها، كل حركة استغاثة ورجاء، وقود يذكي الرغبة العارمة في كيانه... الآن يتملكها كلياً وكما يشاء... يخفت منها اللفظ يملأ سمعها ويضج باطنها باللهاث... لهاث لهاث... وتغيب عنها الرؤية، دون أن تدري كم مضى إلا أنه وقت طويل، طويل جداً ومديد، إلى أن تعي أنها ربما تستفيق، ربما... وها هي ذي صفحتا

يدين تحتضنان صفحتي وجهها، وشفتان قويتان تلتهمان شفتيها، ربما تبدأ تستفيق بعد كل ما وقع ويقع، ووجهها مغمور بوجهه وشفتاه تلتهمان كلّ بقعة في وجهها واللهاث، تستشعر انكتام أنفاسها التي بدأت تراجع الكيان، موقع عجز خاذل يجعلها ملكاً له بالكامل، تتلمس حولها بيدين مرتخيتين، لا شيء تتقوى به أو تتشبث، ولا بقية قوة أو مقاومة... مقاومة ماذا؟ قوة لماذا؟ تلمس شبه حجر يفوق كفّ اليد، تلمّ عليه بأطراف الأصابع، تستجمع شتات ما تبقى وترمي بجمع كفّ وحجر ما يصادف فوق وجهها تماماً، صفحة وجهه أمْ أُمّ رأسه يتردّد صداها في سمع حقد غاضب، تدفع وترتمي من تحته بقوة ما تبقى، تخطو تقفز بقوة ما تبقى، في غير قصد أو اتجاه...

أي طريق تسلك، أي اتجاه؟ يومها الطويل استشعرت إيقاعه الغريب من نبضها، أله من غدٍ ولها؟ ألهما من نهاية؟ تخطو تقفز في ظلام المجهول... أي سبيل، أي اتجاه؟

تخطو قافزة فوق كل شيء، تسقط تنهض بلا نفس تركض دون توقف، حتى تتبين بقربها أشباحاً متحركة وأصواتاً، وقعتْ إذن ولا مفر، يومها ذاك... بلا آخر ولا نهاية... وقعتْ، ما الفائدة؟

للا درواشة، تردّد في عمق سمعها الاسم متنائياً كما في الحلم، حلم يومها كان كابوساً طويلاً ثقيلاً... شيئاً فشيئاً تبدأ تعي ما حولها، ينتابها الذعر قافزة، تتمسك بها أيدي: بركة للا درواشة معك يا بنتي، تدير عينيها يبهرها نور النهار، وبضع نسوة يحطن بها، يربتن عليها، ينقعن وجهها برشات ماء بارد... بركة للا درواشة، يتردَّد في وعيها الاسم واضحاً، وقد عاد إليها بعض صواب... أي صواب؟ صواب ماذا ومَن؟ فقدت وعيها ليلتها تلك عند مرأى أشباح

متحركة، ركْبُ نسوة ورجال في الطريق قصد التبرك بصاحبة الضريح، أخذوها ما بين غيبوبة ووعي، هكذا تحكي النسوة، تتراقص في وعيها الغائب حركة أشباح من حولها، أصوات غامضة وحركات. . . يتمطى شبح مّي فاطنة بملامح مبيضة شاحبة تكسوها مسحة سحيق طحين أو غبار طين، تتسمّع حس الدابة في عودتها، تحس بها أخف من المعتاد، حوافرها لا تدك الأرض بالثقل المعلوم، تنادي عائشة دون أن يفتر لسانها عن ترديد نعوت الساقطات بنات الساقطات، وهي لا تعني أحداً ولا تعين أحداً، إنما. . . تتحسَّس طريقها باتجاه موقع الدابة التي توقف خطوها في منتصف فضاء المسكن، دون استجابة من عائشة، تسبقها العصا التي تصادف عنق الدابة، تحرك العصا تتلمس باتجاه الظهر منادية ولا جواب، تمرّ بيدها تتحسَّس ظهر الدابة، مركب بارد، وجلد ظهرها الدافئ دفئاً لا يصل درجة عرق جهد لمركوب حقاً ولمسافة. . . عائشة؟ . . . إذن!

تحيط بها أشباح بأصوات متداخلة وحركات، تتداولها تغيرات كحركة موج في الدماغ تتكرر وتعيد تشمل الأطراف وكل الكيان، كما لو كانت محمولة على ظهر سحاب يخطو بها على قمم من جبال. . . يا بنتي. . . وعلى حالة كنت فيها! تقول امرأة متملية ملامح عائشة ماسحة على وجهها. انهارت على مقربة من ركبهم. جماعة كانوا نسوة صحبة رجال في الطريق إلى هذا المقام، للا درواشة. شبه ميتة وجدوها، لولا أنهم لم يعثروا على أثر من قتل أو محاولته، نفسها وحده كان واهناً يتردد، حملوها على الكارو فرشوا لها وغطوها. . . حالة كنت فيها يا بنتي وعلى سلامتك!

تسمع الآن بوعي يستقيم شيئاً فشيئاً، ملامح نسوة يُحطن بها، يقدِّمن لها كأس حليب مغلي وقطعة رغيف، لا تمتد منها يد ولا يتحرك لسان، تتطوع إحداهن تسندها إلى صدرها وتضع حرف الكأس على شفتيها آ بركة للا درواشة. . . صامتة واهنة ترشف، صامتة واهنة تتابع أدعية التبرك والتبريك، طلبات حسن السعد والذرية، نسوة ونسوة فقط، من يحيط بالقبر المغطى المحجوز خلف الشبابيك الحديد، تتداخل أدعيتهن منهن يافعات وغير يافعات، منهن داعيات لذواتهن، ومنهن ساعيات لخير بنات وقريبات، ينشدن بشائر السعد وحسن الذرية؛ للا درواشة، طالما تردِّد في سمعها الاسم سابقاً، لم تقدر أن تصل بها قدم تيه في الظلام إلى هذا الحدّ.

تتآلف مع المكان، صمتها دائم عميق، لكنها لم تكن وحيدة حال لتثير غرابة، كثيرات كنّ في مثل ما هي فيه من ظاهر حال، يتعيشن هنا بالإحسان، لا أحد يجوع أو يظمأ هنا، القاصدات من فرادى وجماعات مصحوبات برجال أو بدون رفقة، يأتين أو يأتي بهن الأزواج والأقرباء تبركاً بالولية الصالحة، تفكّ عقدتهن وتفتح لهن ساقية الإنجاب، فتيات في مقتبل العمر ونساء شارفن أو يوشكن سن اليأس. . . تتآلف مع المكان بنظرتها وخطو المكان، تتجول بتؤدة وفراغ من كلّ شيء سوى أزيز خفيف غير مفارق، وكأنها خارجة لتوها من دوخة أو مقبلة عليها، تتجول تتلقى دون إشارة منها أو حركة، عطايا من مختلف ما يؤكل ومن نفحات نقدية متفرقة، في سبيل اللّه، اللّه يقضي الغرض. . . عبارات تتردَّد حولها في الأجواء استجابة لتصدُّق وإحسان، عبارات تردّدها سراً في الباطن مع استعصاء اللسان عن أيّ بوح مهما كان. . . من هي؟ اسمها،

أهلها. . . بلدها؟ لا تملك إلا أن تنظر في المتسائل بِحَيرة وصمت مقيم، بكماء! اللّه يستر!

ـ نوضي يا بنتي غسلي عظامك

تدفعها المرأة برفق أمامها باتجاه القبو النفق، حيث يغتسلن، تزداد تآلفاً أكثر مع المكان في يومها الثالث، تدرك الغرض من زيارة المكان، صواحب الرجاء طالبات الغرض، بعد زيارة الضريح يتقدمن متأبطات رزمة لباس مكتملة جديدة، أو نظيفة نظافة تامة على الأقل، يخطين عتبة القبو المقوّس على نحو نفق يحيط بعين الماء النابعة ممّا بين صخر، تستقبلهن الحنّاية، امرأة أمامها طست مليء بعجين الحناء، تضع في الكف اليمنى للقادمة لقيْمة عجين تضم عليها يدها ولا تفتحها إلا عند الانتهاء، تخطو لتأخذها الغسّالة تنْضُو عنها كلّ لباسها، من قنة الرأس إلى أخمص القدم، ترمي به حيث لا يسترد في مرتكن لمثيل ذلك، تأخذها بقرب النبع، وتشرع تفرغ عليها الماء على نحو خاص متمتمة بأدعية وأقوال، ثم تفرغ عليها ما تحمل من لباس جديد أو نظيف دون تنشيف، اللّه لا ينشف لك ساقية، ولا يخسر لك سعد.

تنفح المرأة الطالبة من جودها في كل مرحلة ما تجود به، لتغادر من مَخْرج النفق المقابل غير الذي ولجت منه، منتظرة بداية الشهر ليكون بداية العدّ الأول لحملها، والكمال على اللّه.

ـ نوضي يا بنتي، زيدي غسلي عظامك، في سبيل اللّه

تتقدم عائشة بإرادة المرأة باتجاه القبو النفق، تخطو إلى الداخل. . . الحنّاية، ثم الغسالة، تنضو عنها ما عليها، تفرغ عليها

الماء، كأنما تعالج به جماداً لا يستجيب، تفرغ المرأة عليها من ذاتها بدون تنشيف لباساً نظيفاً... في سبيل اللّه يا بنتي، لهْلا ينشف لك ساقية، واللّه يحقق المقصود والكمال على... تنفلت دون لفظ عائشة، عائدة من حيث جاءت من مدخلها الأول، كأنها تعاكس إرادة اكتمال الغرض وتحقيق المقصود... اللهاث في عمق وعيها الغائب وهي تهتف به أنها متزوجة، متزوجة، وأنه الحمل، تنذره بخوف حمل، ترجوه تستعطف تلعن تترجى... وكأنما كانت تلقي بكل كلمة وقوداً على لهيب شهوته والنار واللهاث... تجري، تقفز تخطو فوق كل شيء في الظلام، شبح مّي فاطنة منتصب بالعصا وملامح عبوس طبيعية من هناك؟ الساقطات... بنات الساقطات...

تنتبه لنفسها عائشة، اللباس ملتصق على كيانها المبتلّ، مبتعدة عن الضريح، ولا تزال في محيط للا درواشة، النهار يقارب منتصفه، يركبها فزع غامض كأنما أيقظها إفراغ الماء على كيانها، أين هي؟ للا درواشة اسم تردَّد على سمعها سابقاً، دون أن تقدر المسافة إليه أو يخطر ببالها أن تصله على نحو ما حصل، أين يجب أن تكون؟ لا تدري، وإنما أبعد ما يكون لو استطاعت، لو... تستطيع... تقصد موقف الحافلات، تصعد مع الركاب، إلى أين؟ يسألها العامل، لا تجيب، يطلب منها الثمن، تبين عمّا تملك، يأخذ ويبدأ في العدّ، يتوقف وينظر إليها مستطلعاً ملامحها، يسأل عن مقصدها، لا تجيب، ينظر إليها ملياً، ثم يتركها دون أن يأخذ شيئاً... وكأنّ مثل حالها مألوف لديه.

- نزلي

يململها العامل برفق، تنتبه مفزوعة، نامت إذن، يشير إلى أنهم بلغوا غاية الرحلة، أم تنوي العودة مرة أخرى إلى ضريح للا درواشة؟ تجيل النظر حواليها بتردُّد وارتباك، السوق. . . دوار السوق، يكرر الرجل مستطلعاً دهشة ملامحها، ومشيراً إلى امتداد الطريق جانبياً: تازودانت قريبة، هناك، يقول الرجل في شبه همس حذو أذنها، تخطو تهبط درجة الحافلة، خطوة صامتة على أديم المجهول. . . يومها كما استشعرته باكراً صباحه، أله من آخر أو غد؟

(34)

قول في إنجابية الديصور:

علمنا ما كان من أمر الديصور في عاقبته أو مصيره، رغم ما يعتقد البعض من أنه لم يمت، وأنه عائد لا محالة إلى دنياه أو دنيانا أيضاً، وذلك في آخر الزمان، ربما بعد عصر «الدّجال الأعظم»، بل في تزامن معه وبسببه ومن أجله على ما يرى البعض، ولعلمك فإنّ صفة الأعظمية للدّجال هنا، ليست دلالة على خير أو إيجاب، بقدر ما هي كناية عن زيادة، في صفات الشريَّة الدجّالية، فالدجال هو المُفسد الأكبر والدعيّ الأبهر يأتي به آخرُ الزمان، يصارعه الديصور في معركة نهائية وأخيرة للصلاح ضد الفساد، والخير ضد الشر، والنور ضد الظلام، معركة أخيرة وآخر معركة بين الخير والشر، وبعدها بحر الأبدية.

وَعَوْد بنا سادتي الأفاضل الكرام، إلى حديث الديصور بعد ما مرّ بعلمنا ممّا صار من حكايته إلى النهاية، وما هي بالنهاية ولا النهائية؛ فاعلم أنّ الحديث كثير والسؤال متردِّد بخصوص إنجاب الديصور أو عدم إنجابه؛ فكثيرة هي الاتجاهات والآراء بهذا الصدد، وإذا أردنا تناول الموضوع ممّا هو معقول وعقلي، فلنقل أن

لا سبيل ولا معنى لإنكار إنجاب الديصور أو إمكان إنجابه، سواء بعد ظهور أمره أو قبل ذلك، إذْ الرجل قوي البنيان مفتول العضل، قلْ مكتمل الرجولة والفحولة، ويُقال إنه كان على وسامة وجمال مع قوته، ألا ترى أن هناك مَن ينسبه إلى الغرانيق، وهو دلالة على كماله وحسن خلقته؟ رجل مثله في هذه الصفات، وحتى بأقلّ منها لن يعدم محبوبة أو محبوبات وما أكثرهن، كما أنه لا مانع من أن ينجب من إحداهن أو من أكثر من واحدة منهن، ففحولته واضحة بيِّنة، ممّا يشهد له ويوصف به في مختلف الروايات، وإنْ لم يَرِدْ في ذلك كله حديث عن ذرية له، في غمار ما كان معلوماً بالطبع، من نسبة الولد إلى أمه لا إلى أبيه؛ والقول هنا هو ما تداوله الرواة وما تواتر عنهم من سلف لخلف في هذا الموضوع؛ ومفاده أنّ الديصور لم ينجب وذلك لسبب ونتيجة علة، تتمثل في أنهم (ضمير الجمع الغائب هنا يعود على معروفين بمعاكسة تيار الديصور ومعارضة وجهة صلاحه وإصلاحه في السر غالباً) دسوا له معمولاً في مأكل أو مشرب، ممّا أثَّر سلباً على فحولته الإنجابية دون رجولته الشهوانية، التي لم يكن ثمَّ مظهر شكوى أو تذمّر بشأنها من طرف أيّ كان؛ وفي رأينا أنّ الميل إلى مثل هذه الرواية شبه مقبول لما يملأ من فراغ، إذ بدون ذلك ينتفي الإقناع بعدم إنجابية الديصور، وهو على ما كان عليه من صفات الكمال والفحولة والاكتمال واللّه أعلم.

هكذا إذن لم ينجب الديصور، وهو ليس بالأمر الهين عليه، بل ولا بالأمر الهين علينا، إذ ما كان أشدنا ابتهاجاً بميلاد ديصور أو ديصورة صغيرين، ممّا يترك أثراً في أجيالنا إلى اليوم، وما كان أشدنا فرحة وابتهاجاً بتخليد حضور واستمرارية دماء الديصور فينا

وبيننا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؛ ولعلّ سؤالاً متضمناً لدى البعض، مفاده أنّ القول في ذرية الديصور أو عدم إنجابه بالمرة، بسبب تعقيم عُمل له في المجمع الأعظم، أو من قِبَل مَن هم على علاقة بعيدة أو قريبة به، يتنافى مع المروي المتواتر من تقبل هؤلاء المجمعيين للديصور، واحتضانهم له مادياً ومعنوياً، فكرياً وسلوكياً، لدرجة أنّ أي اقتراح أو رأي من الديصور، لم يكن ليُرفض أو ليقابل حتى باعتراض جدي، بل إنّ التقبل لآراء الديصور تعدى المعهود من ظهور اختلافات عادية، إلى مستوى التبني الكامل وبالإجماع من قبل المجمع الأعظم وآله.

التساؤل هنا قد يكون في محله، ولا صعوبة في الرد عليه، ولا في توضيح ما تعلق بالإجابة عنه، وهو ما يأتي:

ليس الظاهر هو كلّ شيء في البشر، وهذه سنة الكون «لو كان فيهما آلهة غير اللّه لفسدتا»؛ وتميزُ الإنسان بالباطن، هو ما يُخرجه من دائرة العجماوات إلى دائرة البشرية، إلّا أنّ الاتصاف بذلك ليس حظاً مطلقاً بالمخلوق البشري، ولا إعلاء مطلقاً له بالضرورة كذلك، بل هي طبيعته قابلة لتعمل في أحد اتجاهين متعارضين حسب الميول والأحوال، وبالنسبة إلى آل المجلس الأعظم، فهم في ظاهرهم كانوا يُظهرون ممالأة الديصور، والانتصار لأفكاره، لكن ذلك من زاوية معينة، ليس إلا خطّة في اتجاه عكس ذلك، بدليل ما سيكتشفه الديصور في نهايته، من واقع مخالف لما كان يطمح له ويعمل على تحقيقه، ويعتقد أنه متحقق فعلاً، وهو ما سبق التلميح إليه في سياقه وموقعه، وهو ما يعني في النهاية، أنّ نسل الديصور وما ينتسب إليه أو يمكن أن ينتسب إليه، لن يكون مرغوباً فيه، فيحتمل تبعاً لذلك

لاحظ لفظة يحتمل هذه من قبل العبد الضعيف ـ أن يعمدوا إلى معمول سحري من (توكال) وغيره يمنع عنه الإنجابية والله أعلم.

يسود صمت، يتنحنح الفكاوي أمام استغراق صاحبه في شبه غياب، ثم ما يلبث أن ينبِّه بلطف: سبحان الله نعم آس. . .

يستعيد يمود نفسه، فعلاً غاب في تساؤلات الحكي: أحقاً لو أنجب الديصور كان نسله ليكون مثله ووريثه، ألا يحصل العكس؟ والإنجاب والنسل أيكون بالحيين والبويضة لا بغير ذلك؟ ألا تنجب الأفكار والسير والخطوات؟ يبدو الفكاوي غير مستوعب لخواطر صاحبه الذي يبدو أشد غرابة في جلستهما الثنائية، مكتفياً بترديد: سبحان الله، سبحان من لا تخفى عليه خافية. . .

يبدو يمود مأخوذاً بسؤال الحكي: الإنجابية، الجيلية، الأستاذية الفكرية. . . من أيّ زمن ينبعث الصوت والصدى متردداً في أعماقه؟ الفتى الإعلامي عقب المحاضرة ينطلق في منطق الانبعاث من غابر زمن، يقول إننا لا نخرج عن تمظهر جديد لما هو قديم: تغييب الفكر والسؤال عن تحليل الواقع، لفائدة ما وراء الواقع، لصالح فرضية الانقراض؛ يقول إنها مجرد معادل لفكرة الفناء والعالم الأخروي في اللاهوت بكل مظاهره ومرجعياته؛ والقصد في النهاية اغتيال السؤال والنظر والتحليل، لصالح إمبراطورية الرأسمالية واقتصاد السوق وروح الاستهلاك على نحوٍ غير مسبوق في التاريخ؛ ولا أحد يصرخ بقوة وموقف وتنظيم، ضد ما أغرقت فيه الرأسمالية العالم حاضراً ومستقبلاً، من أزمة غير مسبوقة في التاريخ أيضاً، بل يكون الأنسب ـ يا للسخرية ـ أن نعزف على وتر نظرية انقراضية،

ومصير لا بدّ لنا في تغييره! عزف لا يزيد عن لحن اللاهوت باتجاه الخلاص وإنقاذ الذات، أو عن تنغيم اقتصاد السوق بتقديس حرية عينية مزعومة مزيفة، تستثني عبودية الفقر والفاقة والاحتياج، يضاف إلى ذلك تصريف العلم في نظريات كونية شمولية، لا مجال فيها حتى لليأس فأحرى الأمل... وكل على شاكلته في الدعوة إلى ما يصرف عن فعل التغيير الإرادي الممنهج، لصالح تيار يبدو جارفاً وختامياً ونهائيّاً لكل تحول وتغيير، بينما هو لا يزيد في الواقع عن أن يكون مرحلة أو منعطفاً، يطول مساره بقدر ما يسود من استسلام وخنوع لمسيره.

لا يشير يمود بإيقاف الشاب السائل الثائر رغم همهمات من حواليه، بل يشير بالهدوء والإنصات، لا لمجرد موضوعية علمية فحسب، ولكن لمتعة داخلية في تردُّد الصدى بين جوانحه، يتوقف الشاب موزعاً نظراته حوله في قلق، يأخذ يمود بعض الوقت قبل أن يبدأ الردّ، بل يقول إنه مجرد تعليق له، فهو لا يردّ ولم يطمح يوماً إلى أن يكون له الجواب عن كلّ شيء أو يمتلك الكلمة الأخيرة في الموضوع؛ حسناً هل نريد منظاراً أو منظوراً معتماً؟

يتمهل يمود، يتمهل كثيراً، كأنه يخشى من أية بادرة غير مواتية منه تفزع أو ترهب، يستنجد بخبرته، أية نأمة قد تكون ما أبسطها لكنها تكفي ليخفق الطائر جناحيه أو تستنفر الفراشة... لا. اللحظة فريدة غير متوقعة فلتمسك رفقاً لطفاً... إذن، فليكن، ليكن كما سمعنا السؤال وفي اتجاهه تماماً؛ يقول يمود ليكن، علماً بأنّ هذا التسليم ليس مجانياً، بل له ما يبرره، لنقل إذن إن السلوك العملي في أي اتجاه كان، وعلى أي مستوى تمثل، يحتاج إلى أساس نظري،

مهما كان أيضاً مستواه وطبيعته، خرافي، لاهوتي، إيديولوجي أو علمي... هذا صحيح يمارسه الفرد مع ذاته في حياته اليومية كما تكرسه المؤسسات بما فيها الدول؛ من هنا فإن كثيراً من المشاريع، حتى الخيرية الخالصة منها، إذا صحَّ أن هناك ما هو خالص في هذا الباب، يكون وراءه ما وراءه، أو هو قابل لذلك، قابل ليستغل أساساً، لينتج أنماط سلوك غير سوية بالمعنى الإنساني الخالص المبدئي؛ فهل هناك ما هو خالص في هذا الباب؟ ليكن ولو افتراضاً، لكن إلى أين نسير إذا فقدنا الثقة في كل شيء؟ المعرفة كلها والعلم ذاته، قائم على الثقة بغض النظر عن الطبيعة والأساس، لا بد في النهاية من شيء ننطلق منه، تماماً، كما لا بد من شيء للانطلاق باتجاهه، هكذا يمكن أن نتقدم.

لا ، ليس رداً بالمعنى الصحيح يكرِّر يمود لمحاوره الشاب، تبادل أفكار فحسب، القراءة لتاريخ العلم والمجتمع وللفكر عامة، ليست وحيدة التأويل، إنما لا يجوز أو لا يُستحسن على الأقل الانفراد بقراءة وحيدة، وإغفال ما عداها؛ الأوْلى الأخذُ بتكامل القراءات، وحينئذٍ تبدو مسيرة العلم إلى حدٍّ ما مستقلة عن وجوه استغلالها، ولك أن تطبّق ذلك على ما تشاء: أكانت ابتكارات التركيب الكيميائي وفق مبدأ العلم ولغايته أم وفق النزعة الحربية التخريبية؟ الأمر ليس تيئيساً من شيء لصالح نقيض ولا العكس، فاليأس والأمل استنبات بشري إرادي، مستقل عن ظروفه، كالنظرية العلمية في مبدئها، ومن ثم في كلّ آن وحين، تزهو بين أشواكها ورود، بل تزهو بالأشواك ذاتها الورود...

يتريث يمود كمن تعوزه عبارة أو يُعيد ترتيب أفكاره، محاولاً

تبيّن الأثر في محدثه: أيكون مستوعباً متابعاً؟ أكان هو يمود ليكون كذلك لو كان مكانه في الزمن البعيد؟ ويستأنف: عَوْداً بنا إلى تيمة الانقراض والمنقرضات، إذ ليس المقصود بها أكثر من فهم الحاضر والمستقبل الكوني، وضمنه البشري على ضوء الماضي والتاريخ، وإذا أردنا توظيف النظرية إيجابياً حسب منظور محاورنا المتسائل العزيز، المستحق للتنويه قبل كل شيء، فذلك من أجل الإسهام الفعلي في صنع المستقبل، وصنع المستقبل الكوني هنا، ليس بضاعة استهلاكية ولا تخديرية، بل هي علمية موضوعية مادية ومحسوسة، تجد بعض أسسها الجديدة في نظريات «الكمون الفيروسي»، لكنها تأخذ أيضاً من القديم العلمي في نظريات تحول وبقاء المادة، وهو ما يعني إمكان الانبعاث لبعض المنقرضات بعمل علمي ممنهج؛ لكن الشق الأهم في الموضوع هو علة الانقراض الحيوية العضوية الوجودية... لماذ بماذا وكيف؟ وهو ما يلتقي مع المتوقع، بل المحتمل، أي ما يعني الإمكان، إمكان الإيجاب والنفي معاً، مجرد إمكان لا أكثر، وإذا كان التاريخ يخبرنا بأمم وأكوانٍ انقرضت بثوران بركاني أو فيوض طوفانية وما أشبه، فلنذكر دورة التغيرات المناخية في عصرنا، في ضوء المعروف الآن من تزايد ارتفاع درجة الحرارة الأرضية، إذ إن هذا الارتفاع بدرجة واحدة وحيدة من شأنه عملياً، أن يؤدي إلى ارتفاع سطح البحر بـ 20 سنتيمتراً، في حين أن العديد من التجمعات السكانية وفي مقدمتها الموانئ لا ترتفع بأكثر من 30 سنتيمتراً، فما بالك بارتفاع أكثر من درجة حرارية؟

وللعلم والتذكير فحسب، فإن مناطق شاسعة من شمال إفريقيا ومنها المغرب، كانت بحاراً تغمرها كائنات بحرية تدلّ عليها

الرسوبيات والمخلفات الفوسفاتية؛ يضاف إلى ذلك ظواهر الأعاصير، من قبيل تسونامي، كاترينا، وغيرهما ممّا يمكن أن يمحو مجموعات وحضارات وكائنات؛ ولنا أن نتصور لو أن ظواهر كارثية مما يحصل في عالمنا اليوم حصلت في القرون الغابرة، ماذا يكون تاريخها وكيف يصلنا؟ وما نوع الأسطرة الكفيلة بالتشكل حولها؟ بالطبع ليس هذا بمصير كوني موئس للإنسان ولصناعة التاريخ والمستقبل، بل العكس هو الصحيح، ويمكن القول إنّ حاضرنا اليوم وهو الأقدر إلى حدٍّ ما، على مواجهة الانقراض الكارثي، إنما تحقَّق بفضل صنع المستقبل الذي أصبح هو حاضرنا اليوم؛ والانقلاب المعموري فيما يخصّ الساكنة البشرية وارد، لا على المستوى النظري فحسب، بل بصفة عملية؛ لننظر إلى المؤسسة المجتمعية في قيامها على خلية الأسرة، هذه الخلية المؤسسة تواجه احتمال تحول انقراضي، من منظور أن العلاقة الزوجية والجنسية عموماً، لم تعد ضرورية ووحيدة لبقاء النوع أو بناء الرابطة المجتمعية، وذلك طبعاً من طريق تقنية تجميد الأجنة، لكن الأمر فوق ذلك، وهو ما يستدعي إدخال تصورات وبنيات المؤسسة الأسرية وبالتالي المجتمعية درج الأرشيف، ولنستحضر تقنيات وتكنولوجيا الاستنساخ، حيث لا ضرورة للخلايا الجنسية ذاتها من أجل بقاء النوع، ولولا مظاهر الشيخوخة المبكرة على النعجة «دولي»، بما يعني أنّ الاستنساخ ليس مجرد بيولوجي ولكنه زمني تاريخي أيضاً، لولا هذه العقبة أو العتبة لكان الوضع البشري الآن مختلفاً في تصوراته عن المستقبل، لكن وحتى في هذه الحدود، فإنّ جهود البحث والعلم، لن تتوقف أو تخسأ أمام أية عقبة، ويحتمل عاجلاً

أو آجلاً تحقيق فتح (جنوني) جديد، إنْ لم يكن في عوالم الأجنة، ففي مجال الاستنساخ مرة أخرى أو فيهما معاً. . .

يحسّ يمود نظرته مأسورة لمحضر الشاب المتسائل؛ وطيلة حديثه في المناقشة يفاجئ نفسه مركِّزاً باتجاه الشاب، ذلك الصدى، ليعود ويصرف نظره بجهد وإرادة تجاه كافة الحضور، تحدوه رغبة أكيدة في التعرُّف على صاحبه من قرب؛ ينتهي اللقاء لتحيط بيمود أيادي مصافحة بعبارات التشجيع مع التماعات آلات التصوير وإلحاح أسئلة الإعلام، ليبحث بجهد وخيبة أمل عن صاحبه الشاب المتسائل، دون جدوى ولا أثر. . . كيف يغيب بهذه القوة والسرعة، وهو القادم كغيره من مسافة إلى تازودانت؟ مع مَن أتى، وكيف يذهب؟ أية وجهة هو لها، ومن أي زمن منبعث هو؟

(35)

ـ هنا كل شيء

يشير السيمو إلى المكان والجوار بحركة عموم لا ترسم حدود الإشارة ومضمونها، هنا، كلّ شيء هنا... الإشارة جواب عن سؤال ملحاح من الأستاذ مرّوني، في بداية انفتاحه على أحوال القرية، يريد أن يحصل على بعض الصكوك والوثائق للاطّلاع، للتحليل طبعاً، يتساءل السيمو عن المقصود، مثلاً؟ مثلاً يقول الأستاذ مرّوني: عقود بيع، شراء، رهن، زواج، إرث... أي شيء يسجِّل علاقة ما بين طرفين أو أكثر، لا يهم القِدَم أو الجِدَّة، كله سواء، والأفضل الحصول على عدد من ذلك، ما بين قديم وجديد للمقارنة، المهم الاطلاع فحسب ومجرد التعرف، ويبقى الصكّ والوثيقة ملك صاحبه، يسترجعه في اللحظة ذاتها إذا شاء، ويمكن استنساخه إذا سمح بذلك، لا ضرر، لا خطر.

يبدو السيمو كالمتمتم في سره مكرراً بعض ألفاظ ممّا ورد على لسان مرّوني: شراء، رهن... كأنه يتأكد أو يحاول أن يستوعب.

ـ اتبعني

يتجه مرّوني وراء الرجل الذي يبادر بالخطو قاصداً مسرعاً،

يتحاذيان بقرب سياجات أوراش الشركة، يسيران جنباً إلى جنب مبتعدين عنها، ينتظر مرّوني أن يقطع حبل صمتهما سؤال من صاحبه حول بعض ما يتعلق بالشركة، يألف ذلك من كثير منهم، بل هو أول ما يُفتتح به الحديث مع مثله، ولو على سبيل التعليق الفارغ. . . نتُما. . . هاذ الشركة ديالكم صدّعتنا. . . أو تبارك اللّه عليكم وعلى شركتكم، هكذا تكون الشركات وإلا فلا. . .

يتوقع مرّوني سؤالاً، والرجل مُغِذّ في خطاه بصمت، كأنما يتعجل قضاء مهمته دون أن ينبس ببنت شفة، عدا ما يتناهى من بعض نفس لاهث نتيجة السير الحثيث، يفهم مرّوني التزام الصمت من رفيقه، يبدو السيمو بعيداً عن غواية كل ثرثرة أو هذر، وقد أصبح بكيفيةٍ ما ينتمي إلى الشركة، لا بأس ليَجُدْ بأي شيء، ليقُلْ أي شيء.

ـ صدّعتْ الناس هذه الشركة.

يبادر مرّوني من ذاته بما يفتح به شهية السيمو للحديث، بَيْدَ أن الرجل يمضي في اتجاهه متحصناً بصمته، كمحاذر من إفشاء سر أو حريص على تمام مهمة، على نحو لا يريد أن ينتقص منه لفظ أو كلام.

يتجاوزان أطراف مجمع ورشات الشركة، منحرفين باتجاه شبه فضاءات خالية أو شبه ذلك؛ وباتجاه المقابر وجوارها على القرب، تبدو شواهد الأموات بارزة متجاورة متفاوتة الانتصاب، بينما يمتد على مساحات شاسعة في الأبعاد رؤوس صخور ناتئة متفرقة، بين نباتات شوك وأعشاب ودوم.

ـ هنا

يَرْدُد مرّوني البصر، ما بين موقع صاحبه إلى جانبه واتجاه الإشارة.

ـ هنا كل شيء

سيدي بوباها، أصل القرية حارسها وسندها الروحي، هنا كل شيء، تبرم التوافقات والعقود والعهود، الفاتحة، تشبيك الأصابع تصافياً تعاهدياً. . . هنا وبالحضور الغيبي لسيدي بوباها تتمّ كل الأمور، القبر مميز بدرجة ما عمّا حوله بمعالم وعناية، مع فسحة صغيرة نظيفة حوله، بالقرب نخلة برية لا يبدو أنها مثمرة. . . هذا وهنا كلّ شيء.

تنفتح العوالم لانهائية لتطلُّع ومعرفة، لتفصيل وتحليل ولانهائية تسْآل. وتدوم التعاهدات؛ إلى أي حدّ تحترم التزامات على هذا النحو من العفوية والبساطة؟ والإثباتات كيف؟ هنا، كل شيء. . . التزامات باليمين هنا، إثبات بالشهود، ثلة أو لفيف من ثلاثة فما فوق، أحياناً يكفي شاهدان، لا معارك هنا، لا حروب ولا خصومات جدية، لا شيء. . . مجرَّد نزاعات تُفضّ بأسرع ممّا تنشب، ولا طلاق، هكذا بدون وجوب أو تعيين، لا يسمح بطلاق أو تطليق، وجلّ حالات الترمُّل النسوي، تستمر على حالها اختيارياً، بعد غياب الزوج بالوفاة، لا تتغير الأمور حالياً، ربما ببطء غير محسوس، إنما لا أحد يقصد محكمة من أجل علاقة زوجية، لا خصام ولا نزاع في هذا المنحى، ربما بفعل العادة وربما بفعل التاريخ.

التاريخ ليس بعيداً بالضرورة، سيدي بوباها لم يكن أكثر من شخص من لحم ودم وعظم، ابن امرأة تأكُل القديد، لكنها امرأة تُرضع لبن السباع، كان سبُعاً في فورته ضد الغزو الاستعماري مع بداية القرن الماضي، وحتى يفضّ كل علاقة له على كل المستويات بحاضر «مخزن»(*) مهادن، ومع نظام أي سلطة متعاقدة مع الاستعمار، يشكِّل سيدي بوباها قوة مقاومة جهادية من القبائل المجاورة، ويرسي لأتباعه ما يغني من مرجعية ذاتية في التنظيم، في حدود الاكتفاء الذاتي في العيش على مستوى التبادل والإنتاج، وتحقيق الاستغناء عن كلّ ما هو خارج أقرب جوار، حتى الأسلحة بما فيها الناري من نمط ذلك الزمان، ابتدعوا طرق تصنيعه، رغم أن غنائم الكمائن والمعارك ضد العدو، كانت مزودهم به في البداية.

التاريخ ليس بعيداً، وأيضاً ليس طويلاً، يقول سيمو وقد انحلَّت من ذاتها عقدة لسانه وشهيته للحديث، فلم تكَد تمضي قرابة عقد من معارك سيدي بوباها الظافرة، حتى تضيق عليه الرقعة ويشتدّ الحصار، بعد سقوط المقاومات القبلية منطقة تلو أخرى، وقد كانت فيما بينها يحمي كل منها ظهر الآخر؛ يشتد الحال والحصار على سيد المقاومة ومن معه، فيُعد ما يعدّ مع أتباعه والمقربين من زعماء القبائل تحت قيادته موعدهم الفجر.

قبيل ذلك يترك الشيخ بوباها قيادة معسكره في مهامها، يمتطي صهوة جواده متَّجهاً بانحراف لطرف المعسكر، صوب نصب معزل

(*) السلطة المركزية الوطنية (غير الأجنبية الاستعمارية) وما يرتبط بها من سلطة محلية.

قائم بمستوى نصف القامة، مشكَّل من غطاء صوفي مسرح فوق أعواد على نحو هرمي، يترجل الشيخ بالقرب، يتسلم أحدهم لجام الفرس، تستبق يدٌ ترفع طرف الغطاء على نحو من ستارة المدخل، تفوح في الفضاء روائح بخور تفغم فضاء المعزل، ينحني سيدي بوباها يلجُ إلى الداخل؛ وعلى ضوء شمعة خافت يقتعد الرجل الحصير، ويشرع في نزع ثيابه يضعها جانباً، يغتسل ويتوضأ، ليبدأ دون تجفيف جسمه في ارتداء قماش أبيض، عبارة عن قطعة على شكل سروال تضمّ المحزم وتغطي القدمين منتهية بشرائط من القماش ذاته، يلف الرجل قدميه لفاً كاملاً ويربط بالشريط القماشي على كلّ قدم، وكذا شريط الحزام، ثم يدخل في قطعة شاملة يربط أطراف أكمامها عند المعصمين وعند فتحة العنق بشرائطها، ثم يلف قطعة قماش بيضاء على الرأس تلمّه إلى الكتفين، فلا يبقى من ظاهر سوى صفحة الوجه في البياض، يلف كل شيء بشرائطه الذاتية المُعدّة لذلك، دون أن يتوقف لسانه عن الذكر والقراءة، يرشّ على كيانه من مزيج ماء ورد وريحان، لينتهي بارتداء لباسه المعتاد فوق ذلك، ثم يبرز بطلعته من المعزل، يصلي صلاة قصيرة، يتناول بندقيته ويمتطي صهوة الجواد.

معركة لكْفان، ارتدى الشجعان أكفانهم مسبقاً، وتقدموا لنصر أو شهادة في مواجهة غير متكافئة، ويستشهد الكثير في معركة عصيبة حاشدة وفاصلة، ويسقط شامخاً من بينهم أسد القرية، سيد الأكفان سيدي بوباها، يضطرب صوت السيمو ليخفت ويتوقف فجأة، كما لو غاص إلى جوف حلقه.

التاريخ ليس طويلاً حقاً ولا قديماً، ويدأب بعض الناس

والنسوة منهم خاصة على التبرُّك بزيارة القبر قبل ارتداء الأقمشة الجديدة، أو لباس العيد؛ التاريخ ليس طويلاً ولا قديماً، وهذه سلطة الاستعمار تفرض هيمنتها على كل شيء، من كبير شأن وصغيره، وهذه مؤسسات دولتها تقام، مدارس مشافي ومحاكم؛ وتلك مظاهر سلطتها تجري، درك وشرطة وأعوان؛ هنا وهنالك، تقاييد وسجلات بكل شيء من إنسان وحيوان ونبات؛ وحده يبقى رغم بساطة المظهر وتردي الحال: «عهد» سيدي بوباها وأصحابه، عهد وميثاق وفاء في الضمائر والصدور، لا امرأة مترملة ترضى بعلاً لها بعد الأبطال الشهداء، لا متسبب في خصام يقود إلى مؤسسات الغزاة أو يتيح لها فرصة التدخل، لا علاقة تُبْرَم بعيداً عن محضر الغائب سيدي بوباها.

* * *

فتور نشاط الشركة في مجمع الأوراش يتيح للأستاذ فرصة أكبر لانشغالاته الإنسانية، همّته لا تفتر، يجدّ في نسج علاقاته مع الساكنة، مع المكان والزمان، تسكنه من جديد فكرة الزمان والمكان، لا يجهل مغامرة الفكر النظري في هذا المجال، تجاوزها منذ اليفاعة الفكرية والشباب، المنظور الآن مختلف حتى عن مرحلة التجاوز، كان على وشك أن يفصل لصالح المكان على الزمان، بدءاً من نفسه بنشاطه وتجربته، إنه يركب المكان للزمان، كيف يفهم الماضي وصولاً إلى المستقبل، كيف يكشف عنه أو يصل إليه بدون المكان؟ ذاك سؤاله المؤرق المريح، لا تهمه مفاضلة ولا حتى العلاقة من منظور أسبقية، يهمه أن يحسم في المهيمن: مركبه المكان باتجاه الزمان، مسافر هو على ظهر المكان؛ يبدو له الأمر

هنا والآن غير ذلك، أو عكس ذلك، الناس هنا في ماضٍ مستمر، سيرة سيدي بوباها، ليست منهاجاً مدرسياً، لكنها في العمق أكثر وأبعد، لبن يتسرَّب مع الرضاع، هواء ينشق، حرارة تدفِئ، بلسم المشاكل والجراح، حتى الإمطار والجفاف، وحتى الإنجاب. . .

ـ يا سيدي، حتى الروح وهي كبيرة عند اللّه. . .

يرتسم السؤال كبيراً على ملامح مرّوني، بينما يتابع محدِّثه حماد هذه المرة كلامه، عن الحدث الذي جرى منذ عقود، أطرافه معروفه وحقائقه، إحدى أرامل القرية ممَّن يترددن على بعض البيوت للمساعدة في الأشغال ونَيْل بعض الخيرات، لا يدخل ذلك في باب استخدام أو استعمال بالمتعارف عليه من إنجاز مقابل أجر، ظاهرة معروفة حبية ودية وتلقائية، الأرملة أمنا مينة في سنّ بعيدة عن الشباب، لكنها بحكم الواقع والدافع، لا تزال قادرة على الحركة والشغل المنتج، حتى ما تعجز عنه الأقوى والأكثر شباباً؛ أمنا مينة تكنس، تصبن، تعجن، تقرِّب كل بعيد، تيسر كل عسير، في أي بيت تحل به، متنقلة بتناوب غير منتظم من هذا لذاك، ممّا يتيح فرصة غياب مؤقت لها عن بعض، ويتيح ارتياحاً من طلعتها كما تقول وتكرِّر ضاحكة، لكنه يتيح في الآن نفسه تولُّد الحاجة لحضورها؛ ووحدها لم تكن ترتاح أو تظفر بقسط من ذلك في هذا التنقل اليومي، لتعود كل يوم بما يقيم أمر عائلتها من ذرية وحفدة.

نمط حياة منتظم بغير انتظام، معتاد ومألوف، لتقطع رتابته عصر يوم من الأيام، طلقة نارية تؤدي بحياة أمنا مينة، هكذا. . . الطلقة من سلاح ناري سيقال إنه جويجة صيد، بندقية يُحمد اللّه ـ إن بقي ما يُحمد هنا ـ على أنها كانت محشوة بطلقة واحدة. . . أو أنّ

الرامي لم يسدِّد إلا طلقة واحدة من اثنتين؛ تسقط المرأة في مركنها حيث كانت تقوم بأشغال في بيت الحاج رداد، ولم يكن الرامي إلا الابن الشاب اليافع بنرداد، سيقال إنه أطلق غير متعمد، وإنما كان يفحص البندقية على اعتبار أنها فارغة، فحصل ما حصل، زهقت روح، أزهقت بفعل وفاعل في ظرف ما، سيقول البعض إنّ ذلك كان بقصدٍ لخلاف شخصي مفتعل... أو... مجهول؛ إنما صدى الطلق الناري تردد، الروح أزهقت، الدماء لم تجف في لمح بصر أو لمع برق، وحضور المتغيبين من آل الفاعل لم يكن آنياً، ولا كان الإخبار لآل القتيلة في حينه وآنه، إنما تطلَّب ذلك كله بعض الوقت، لم يكن وقتاً طويلاً بالتأكيد، لكنه كان يكفي لأن تقوم قيامة حول إزهاق روح بطلق رصاصة، الروح كبيرة عند اللّه، والسلاح ممنوع وحتى الجويجة المفترضة آلة فعل، ما لها من وجود، لا خبر ولا أثر.

تختفي آلة القتل الجهنمية، تُلملم جثة القتيلة، تُغسل بكرامة على مقتضى السنة والشريعة، يزف الخبر إلى الجميع، كلهم يعلمون الوقائع والحقائق، وكلهم سيقولون إنها وفاة قضاء وقدر، هكذا الأجل وميقاته!

هكذا، ما الفائدة يُقال لآل القتيلة، ما الفائدة من حرق شباب، هدم أسرة عريقة، وإغراق القرية كلها في بحوث واستفسارات واعتقالات؟ لن يغيِّر ذلك من واقع ما حدث، والمقترف معترفٌ وآله، ورحم اللّه فقيدتنا أمنا مينة وهذا مكتوب، والوجهة واللقاء في سيدي بوباها قبل أي شيء آخر.

كان المقترف سبّاقاً إلى حرمة سيدي بوباها مع والده وذويه الأقربين، في حزن خالص مخلص واعتراف وإقرار، وبانتظار ما

تلزمه حرمة سيدي بوباها، ميثاقه الغليظ، من عفو وغفران؛ تُقرأ الفاتحة تُدفن الجثة بكرامة وإكبار، يُقام جمع التأبين والعشاء حيث وافت المنية في بيت الحاج رداد، لا سرّ في ذلك ولا إنكار، وافاها الأجل حيث كانت، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت، قضاء وقدراً وأجلاً محتوماً، حلّ قابض الروح ومسلمها إلى مالكها، وإنا إليه راجعون.

لا داعي لتفاصيل ما تمّ من وفاق، لجبر خاطر المصابين في المتوفاة، فذلك ما كان ليكون ثمناً بحال، وما من أحد ليرضاه كذلك لنفسه ولغيره من الطرفين معاً، ومن القرية بكاملها، المسألة سوِّيت بدون طمع أو إغراء، وبحزن عميق من الطرفين وبقية أهل القرية، لا داعي للتفصيل في هذا؛ إنما بعض الفصل والتفصيل في حضور السلطة بعد قرابة يومين، روح أزهقت؟ أين؟ كيف؟ طلق رصاص؟ من سمع؟ من رأى، من ... من... من؟ لا شيء، إلا امرأة صالحة أمنا مينة وافتها المنية كما توافي المؤمنات، طبعاً بغتة أثناء انهماكها في شغلها المعتاد، في منزل الحاج رداد، وهو يؤكد حصول الوفاة قضاء وقدراً، وتؤكده ذرية المرحومة وحفدتها، ويؤكده كل أهل القرية، لم تكن تشكو من شيء محدد عدا ضعف التقدم في السن، وهو لا يعني شيئاً، فالأكبر منها ما زلن على قيد الحياة حتى مع العجز والمرض، والأصغر منها والأكثر عنفواناً قضين قبلها بكثير، بدون عجز ولا مرض، العمر محدود ونهاية بني آدم حتمية، وإنا لله...

تستخرج الجثة للفحص والتأكد من سبب الوفاة!؟

لا.

بإشارة ولسان يقولها الكل: لا. الكرامة الآدمية لا تسمح، تُستخرج ميتة من قبرها؟ تفحص؟ ينزع عنها التراب، تُعرى ويكشف عنها بعد غسل وكفن، وهي التي لم ترضَ لنفسها في حياتها أن يطَّلع على عورتها بشر أو يكشف عنها آدمي بعد وفاة بعلها؟ أهذا يجوز؟ لصالح من؟

لا.

يكررونها من جهتهم سكان القرية، يزداد الإلحاح من طرف السلطة، يتقوى ويشتدّ... ثم تسير الخطوات باتجاه المقابر بأردية بيضاء، تحسبها معركة أكفان جديدة إنما بلا خيل ولا سلاح سوى كلمة لا؛ يرابطون ببياض يذكر بالأكفان، بعض في حمى الحرم على قبر سيدي بوباها، وبعض في حرم الكرامة على قبر أمنا مينة. لا. لا. لا...

ـ هنا. كل شيء هنا، حتى الروح وهي كبيرة عند اللّه...

(36)

واعلم أن الروايات تذكر من أمر الديصور الصالح المصلح أنه عندما يستعصي على الإغراء والتغرير، وتنبو عن قصدها منه حراب الوعد والوعيد، يُعمَد من قبل أجنحة التآمر والشرّ إلى بطانته وأهل حاشيته، ممَّن يستطيبون لين العيش من ناعم ملبس ومفرش وطيب مأكل ومشرب مع مظاهر الأبهة والجاه، يُستعان بهم على صاحبهم، فيُسقى ما يُسقى ويُطعم ما يطعم من دسيس معمول؛ وقيل إنها عشبة لها مفعول مخدر، لا يشعر بعدها المتناول بما يفعل أو يترك، والمفعول هذا حسب الروايات هو ما اعتُمد في نهاية الديصور، إذ سيؤخذ بعد المعمول له شبه جثة توضع داخل بناء بجدران وسقف وبدون منفذ، وهو عبارة عن قبو أو شبهه في ملعب عام، ويحاط القبو بدوره بعدة جدران وسقوف، على نحوٍ من هيكل ضمن إدخال تجديدات على الملعب، ومن ثم يصبح الناس في فرجتهم العمومية، وهم يقفون أو يجلسون على المستويات المضاعفة من جدران وسقوف في مدرجات الملعب، إنما يفعلون ذلك فوق مستقر صالحهم ومصلحهم المنشود، دون دراية أو علم بشيء، إمعاناً في الإهانة والاستهانة والإذلال للكلّ؛ وكل ما يروّج للناس آنذاك ويعمر

أذهانهم عن الديصور المصلح، اختفاؤه الغامض، وهم في جهالتهم لا يملكون إلا الترحُّم والتحسر على روح المفتقد، بينما تعمل الفرجة تلوَ أختها على طمس ذكرهم وذاكرتهم، والخروج بمداركهم عن كل تساؤل في اتجاه فهم حق.

وما تلبث شائعة أن تروج خفيفة عابرة: ظهور الديصور في بلد ثانٍ مجاور، ربما يكون ذلك بفعل مدبر من بعض قلة ممّن بقي في ذواتهم حسن ذكرٍ لمفتقدهم، أو ربما نتيجة توهم من المتآمرين لوسواس الشر في نفوسهم، أو لعلة أو أخرى؛ حينئذٍ يُسار إلى إحداث ثقب أو ثقوب متتالية لاجتياز التحصينات الإسمنتية والسقوف المتعددة إلى مستقر الديصور حيث أقبروا، فلا يوجد شيء هناك ولا أثر لشيء ممّا كان، وهو يزكي لدى البعض نظرية انتظاره وعدم فنائه.

وفي رواية أخرى أنّ القوم وجدوا ثقباً تحت ما نصبوا من هياكل خرسانية، يؤدي إلى البحر، ممّا أشاع وأقنع بفكرة نجاته من الفناء، وعزّز فكرة رجوعه وذريته أو ذريته على الأقل، للانتقام من الفساد المفسد، وإتمام البرمجية الإصلاحية التي يتوق إليها الناس، وكان يرومها الديصور.

واعلمْ يا صديقي عافاك اللّه أنّ ما يُذكر من روايات في عملاقية الديصور أو قزميته مع صلاح أو فساد في الطبع والسيرة، إنما مرجعه إلى الغرض من ذلك، أي ما يريده الناس وليس ما يريد الراوي بالضرورة، الناس تريد أن تجد فرجة على هذا النحو أو ذاك، والراوي يستجيب.

يتساءل يمود إنْ كان الناس أو بعضهم يطلبون منه خلق حكاية جديدة أو توجيه الحكي في اتجاه معين؛ ينظر الفكاوي ملياً في ملامح صاحبه؛ لا، ليس بالضرورة ولكن الراوي يحسّ بميول الناس فيؤلف ما يجذبهم، لا يعني ذلك أنه آلة تنفيذ لا دخل لها ولا ميل أو قصد، بل إنه يصنع ميول الناس أو يساهم فيها على الأقل، فرغبتهم المعبَّر عنها تجاه نوع من الحكي، ليست خالصة لهم ومنهم، بل يداخلهم فيها الراوي جزئياً على الأقل؛ ولتلاحظ أحياناً ما يحصل، وخاصة في خاتمة الحكي، أن يأتيك مَن يقول في مودّة واستفسار، بما معناه إشفاق أو ترجٍّ يتعلق بمضمون الحكي، فتشرح للمتسائل وتؤول للمترجي، وقد يكون ذلك مبدأ التفكير في إدخال تعديلات ولو في الأسلوب، إنما لا يعني الاستجابة الآلية لمطلبٍ توجيهي محدَّد في الحكي، لا تنسَ: الحكي له أصول ومبادئ.

يؤكِّد بأكثر من صيغة على قيم الحكي: الضمير يا أخي، الضمير... الراوي الحقّ له ضمير يوجهه؛ يوافق يمود، لا يريد أن يفهم من سؤاله التقليل من شأن الراوي، أبداً... لكنه يسأل ليفهم، على سبيل المثال قضية المرايا التي تعكس الصورة خلاف الواقع، هذه مخترعات حديثة نسبياً...

يسارع الفكاوي مقاطعاً، لا يريد لصاحبه أن يذهب بعيداً، والمسألة وما فيها كناية ورمز وإشارة يفهمها اللبيب، لا تعمى الأبصار ولكنها البصائر التي في القلوب؛ والمرآة في النفس، داخلية في الباطن إنْ لم تكن جلية في الظاهر، فالرجل قد لا يرى في نفسه شيئاً تغير؛ ينظر لنفسه في مرآة يجد مقاييسه هي هي، إنْ لم تكن قد زادت وازدانت عن ذي قبل، لكن الناس تبدأ في معاملته كقزم...

بمناسبة ماذا؟ اللّه أعلم؛ إنما يهزأون من منظره أو أوامره كما يُروى في حال الديصور، وقد رُوي عن حاله أيضاً، أنه بدأ يصنع لنفسه أقفاصاً بأحجام هررة وكلاب يجرِّب أن ينحشر فيها، ليتأكد من قزميته المنعكسة في المرايا أو المترائية له من مرايا الناس البشرية، لكن دون جدوى، لأنه عملاق ويتأكد من ذلك، لكن ردّ فعل الناس، أو انعكاس ذلك في شخصه لا يتغير، ويصلُ به الأمر في روايات أخرى حدّ تعذيب البعض وتهديدهم بالقتل، ليتوقفوا عن نظرة هزئهم منه، لكن ذلك لا يجعلهم يتراجعون، أو أنه يجعلهم يتظاهرون... وسرعان ما يعودون... ولا يبقى من علاجٍ للحال إلا نهاية، والراوي يعرف النهايات الممكنة، فيختار أكثرها ملاءمة للحكي وما هو خيرٌ لعامة الناس؛ والخير هنا على وجوه، منه المسايرة ومنه النصح ومنه التوجيه.

حسناً... يقول يمود دون أن يزيح من نظرته على ملامح الفكاوي، إنك فيما تحكي وكأنك تتحدث عن زماننا وناسنا مع خلاف واختلاف، زمان آخر سابق وكأنه لم يوجد قط، مكان وكأنه من فعل خيالٍ نشيط، وأناس كل شيء فيهم مختلف إلا الطباع بما فيها من حضيض وتسامي، وما تشاء من تضحيات وأطماع، أفيكون ذلك غير استعارة من شيء لآخر، مثيل لمثيل ونقيض لنقيض؟ في النهاية ما القصد والمُراد؟

يبدو الفكاوي كالمأخوذ باللهجة ووجهة السؤال، ماذا يعني الرجل؟ سياسة؟ يقولها الفكاوي صريحة مباشرة ليمود: سياسة؟ أنت ربها، أنت لها ومنها... أما أخوك الفكاوي فرجل حلقة وفرجة في سبيل اللّه، وأخيراً ماذا يقول؟ لعن اللّه ساس ويسوس وسائس...

يضحك الفكاوي متفحِّصاً قعر كأسه الفارغة، يسحب البراد من أمام يمود، يصبّ في كأسه بعض الشاي، بينما يمود بابتسامة هادئة، ينتظر المزيد؛ المزيد؟ زِدْ من راسك آ صاحبي، الزيادة من راس الأحمق! يتجرع الفكاوي جرعة شاي بصوت ممطوط مسموع، لا بأس، تريد السياسة، لكلٍّ سياسته، لا بأس لم يُخْفِ يمود خافية من ماضيه السياسي ولا حاضره عن أي سؤال من فكاوي أو من غيره، ماذا يخفي؟ إذن ليكن، الفكاوي والسياسة نقيضان، نعم إلى حدٍّ كبير، لكن ما يأتي في الحكي شيء آخر، إنه يأتي من نفسه لنفسه، صحيح لفرجة لتسلية ومتعة، إنما أيضاً لعبرة أو ما شابه؛ اسمعْ، الفكاوي نفسه أحياناً يستشعر حماسة ذاتية لأسلوب أو حدث أو شخصية في الحكي، أحياناً ينحرف أو يحرف الوجهة، تبعاً لبادرة من كلمة أو إشارة من متفرج أو عثرة في الطريق أو خاطر طائش، يجوز ويحصل، إنما السياسة... هكذا مباشرة، لا... لا... الغاية موجودة: عبرة... وبعض الناس يهلِّل للبطل أثناء سير الحكي، يشجِّعه، يتقمصه فيرفع يده يصيب العدو، على النحو الذي يريد بالبَطل أن يفعل؛ عندما يتعرض البطل لمكيدة أو كمين خيانة، يصرخ المتفرج في ثنايا السرد، ينبِّه البطل إلى ما ينتظره، رد بالك... العدو معك... العدو ... بعضهم يندمج في الحكي ما أن يسمع من الفكاوي وصف مشهد الخيانة، نسيج الغدر والخديعة المبيت للبطل والإيقاع به، حتى يصيح مستبقاً الأحداث: حرام على باباهم... لا يريد لبطله أن تأخذه شِباك الغدر والخديعة، فيصبّ توقعه وأمنيته في مزيج أمل ورجاء وتحذير: حرام على باباهم، أي دمه حرام عليهم وفوق مستطاعهم... مزيج أمل ورجاء وتحذير...

قل هي سياسة في الحكي تنتصر للمبادئ والحق والحقيقة، هكذا على العموم، أما السياسة مباشرة، أن يناصر الفكاوي الحكومة والدولة هكذا، أو يعارضها لغرض أو بدونه فلا. لا. لم يحدث، وهي لك، لأمثالك أنت الدكتور يمود. . .

لا يخفي الفكاوي مع ذلك أنَّ له رأيه الخاص فيما يجري في الزمان والمكان، فلا يخطئْ فهمه الدكتور يمود فهو ليس بالساذج، لا، له رأيه: الزمان والمكان بناسهما وأهلهما، أهل الفكاوي ويمود وسائر الناس؛ الحكي عن الديصور، ولكن المستمع هو من ناسنا وزماننا وأهلنا كما نعرفهم، منهم الزاهد المتعفِّف، ومنهم المتلصِّص المحتال ومنهم ومنهم. . . ونحن نهدف إلى الصلاح والفلاح قدر المستطاع وقدر الحكي؛ انظر إلى حالنا إنتاجنا ومستهلكاتنا من المُضرّ أكثر من النافع المفيد، وصورة الناس في الغد المأمول تأتي من حاضرهم المنقوص أو المعكوس؛ انظر مستهلكات الناس من الكحوليات وما شابهها بشتى أنواعها من أردئها إلى أرفعها، خذْ في الاعتبار أنَّ ما تقرّه الإحصائيات الرسمية في هذا الصدد، وهو جد مهول، إنما هو المُعلَن المصرَّح به في فاتورات والمؤدى عنه ضريبياً، وهو ليس إلا الجزء الظاهر من حبل الجليد الطافي على الماء كما يقولون، وما خفي منه أعظم، ومنه المهرّب والمصنّع بطرق بدائية غير مراقبة ولا واردة في لوائح الإحصاء؛ وانظر إلى ما يُصرف في ألعاب القمار الشائعة الصغيرة، ولا نتحدث عن القمار الراقي لذوي الثراء، وتدبرْ فيما يُصرف على الهذر الفارغ في الهواتف الخلوية لدى كلّ الفئات، تجد أنّ ما ينفق في الخواء مهول مهول مهول، وما يُهدر من ثروات تبذير في تبذير في تبذير ولا

عقل. . . ثم قارن عافاك اللّه كلّ ذلك، بمدى الفقر والفاقة في الناس، وقد تجد أشدهم فاقة ما يكاد يظفر بالفلس حتى يصرفه فيما لا يجوز ولا يفيد؛ انظر إلى التبذير في المناسبات لا لدى الدوائر الحكومية وحدها ومن المداخيل العامة فحسب، بل حتى في السلوك المناسباتي لعموم أفراد الناس، ماذا عملنا لنوجِّههم نحو فضيلة الاقتصاد وتجنب التبذير، وماذا لو تمّ توزيع ما يعادل الفائض التبذيري المناسباتي في الجانب الآخر، جانب الفقر والفاقة والجوع، وجانب الاحتياج إلى التعليم ووسائله وأدواته. . . أترى أي ناس هم ناسنا الآن، وما ننشئ ونبني ونهيئ؟ وماذا بيدنا غير الحكي وما يستفاد من حكمه ومواعظه؟

ـ نغير الناس بالحكي؟

يا سيدي، الحكي فرجة ومتعة في طيِّها حكمة وعبرة، وإنك لا تهدي من تشاء، ويزع بالقرآن ما لا يزع بالسلطان؛ أما الناس فيبدو أنّ معدن البشر واحد، لا شيء يتغير في العمق والجوهر عدا المظاهر؛ العدوان والقصاص والقتل، كلها لازمت مجتمع البشرية، ظلت ولا تزال كما هي في الأصل، الخطيئة نفسها تتكرر والدوافع، إنما تختلف الأدوات من حجارة إلى سيف، إلى طلقة بارودة أو مدفع. . . الدولة نفسها لم يتغير شيء بخصوصها. . . اسمع الدولة بقرة. . . تنتظر أن أصفها بأنها حلوب؟ نعم، وذوو الأغراض يحلبون. . . لك ذلك إذا شئت، وهو كلام سياسة؛ دعني أقول لك كلامي: الدولة بقرة، لا يهمني إن كانت حلوباً أم لا، يهمني أن الناس عالقون بها، كما هي، أشبه ما يكون بعوالق على الجلدة، تمتص ما تستطيع مباشرة، نسغ الحياة ذاته، وبين لحظة وأخرى تأتي

تلك البقرة بحركة عشوائية أو غير عشوائية، بالذَّنَب أو القَدَم أو اللسان، أو حتى احتكاكاً بجسم ما، إذ ذاك تساقط، تسحق أو تموت أو ترمى مجرد رمي أعداد من هذه العوالق، لتحلّ غيرها محلها، هذه هي أمور الناس والزمان... أتعتبرها سياسة؟

يتوقف الفكاوي، متمعناً في ملامح صاحبه، يستشف ما وراء ملامحه... يهزأ أم يتابع بجد؟ اسمع، ما أقوله يخصني، أعجبك؟ صحيح؟ مهما يكن فهو كلام للتسلية، لكنه حقيقي أعتقد أنه صحيح وحقيقي، ما رأيك؟ يا سيدي، لا داعي للتحليق بعيداً، أقول لك، أنا في الأصل مزارع، كان من المتوقع أن أكون فلاحاً كأصولي وفروعي، لكن لم يتيسَّر ولو أنني لست بعيداً عن الميدان؛ لنقل إنني مزارع، الدولة قالت بإعفاء المزارعين من الضرائب، خير، طبعاً خير ومصلحة، لكن انظر معي، أنت معفى من الضرائب، لكن انظر: الوقود يرتفع وأثمان البذور والأعلاف وأدوية المعالجة الزراعية والآليات، وهذه كلها مضروبة بألف ضريبة، أين هو الإعفاء إذن؟ وأكثر من ذلك، الأكثر خفض أثمان الحبوب في الموسم الفلاحي، إذن أين هي وفي أي اتجاه مصلحة الإعفاء؟ وأقول لك إن مبدأ الإعفاء بدون صدق معيار، إنما هو عملياً، يعني فتح الباب لطائفة تستفيد منه بغير استحقاق، من غير المستحقين... سياسة؟ لا، هذا واقع أراه وأعرفه؛ لا تهزأ ولا تعجب، أقول لك من جانب آخر: ماذا تفعل الدولة بواحد مستضعف، يمتلك قطعة أرض لا تفي بحاجته ولا بحاجة الدولة من الإنتاج في نطاق خطتها؟ إن كانت هناك خطة... لا تضحك... إحنا في المعقول لا في سياسة؛ أقول لك هذا المستضعف، أمثاله كثيرون بالملايين،

جماع ما يمتلكون من قطع صغيرة غير منتجة، يمكن أن يشكِّل إمبراطوريات زراعية منفلتة ضائعة على الجميع، أليس الأحسن أن تفوت هذه القطع الإمبراطورية المنفلتة المفتَّتة، لمن يجمعها ويلحم أجزاءها ويجمع منها ثراءه وثراء الدولة معه؟ من هنا يمكنك أن تفسِّر كل حركة في هذا الاتجاه، للدفع بالمستضعف إلى ترك قطعته الصغيرة، ليهجر إلى منطقة صناعية، فيصبح منتجاً ومساهماً في الإنتاج، يستهلك الماء والكهرباء، يدفع الضرائب، ترتب عليه ديون استهلاكية في كلّ حركة بإحساس منه أو بغير إحساس، وتقول الدولة باللسان الفصيح إنها تريد تثبيت المستضعفين في مواطنهم... سبحان اللّه وبأية وسائل؟ أعجبك الكلام؟ سياسة هذه؟ حسناً دعنا نقول إنّ أهم دعم وإعفاء لمزارع، لا يمثل في تجهيزات استهلاكية، بل في مشاريع ريّ، في مساعدة بوسائل إنتاج وتيسيرها، في إمداد بالمعرفة الزراعية المدرَّة؛ سياسة هذه أم وصف واقع؟ اسمع. دعني أقول لك عن منطق الدولة: ليمُت مَن يشاء، ليمُت جوعاً أو عطشاً من يريد، لا كبير ضررٍ في ذلك، وخاصة من هؤلاء المستضعفين الذين يخلف بعضهم بعضاً، ولا يكفون عن تباهٍ بتكاثر وتناسل، إنما الأهمية لطائفتين يجب الحفاظ عليهما، أتعرف؟ تصدق؟ حسناً قل إذن.

يتوقف الفكاوي منتظراً جواب يمود الذي لا يبدي شيئاً، غير ابتسامة هادئة وظاهر متعة بالحديث، قل إذن... يلح الفكاوي في طلب الجواب، يمهمه يمود، يبين في تردّد أن منطق الدولة يحتاج إلى كل مكوناتها... لا. لا ثم لا، ينفي الفكاوي مستأنفاً في هيئة رضى، كأنما يقويه الخطأ الفاضح من صاحبه! منطق الدولة يا سيدي

لا يولي اعتباراً من بين المستضعفين، إلا لفئتين لا غنى عنهما للدولة في أي حال، وهما الجيش وهيئة التعليم ولا تسألني لماذا!

وانظر يا سيدي غيّروا الساعة! ما قولك في تغيير الساعة؟ غيروها ويغيرونها، والناس أخشاب متحركة، كراكيز ما يلبثون أن يستجيبوا، كل ينظر إلى كوعه مغيراً عقارب الزمن كما تريد الدولة، أترى؟ وهذه ما هي إلا تمرين على الطاعة العمياء، سيتلوها ما يتلوها، الساعة يا أخي، الساعة علمها عند ربي، يغيرونها عابثين بالغيب ذاته، بعد العبث بكل شيء... تراني أخربق؟

يتوقف الفكاوي قليلاً ملاحظاً نظرة يمود المتطلعة، لا بأس خُذْ الأمر كما تشاء، قارنه بسياستك أنت، من وجهة نظرك، إنما صوّبني إذا كنت مخطئاً، لست متعصباً لرأي لكني مقتنع بما أقول، لا أعلنه على الملأ، إنما لك ولأمثالك، وهو الوجه الثاني لحديث الفرجة وكلاهما جدٌّ بغضّ النظر عن الخطأ والصواب: ابن حواء خطّاء، ومن يشبه أباه فما ظلم، أبوه وأمه كانا خاطئين... طيب يا سيدي خذ العشور، الزكاة، تعلم الدولة أنها ركن، وهي الركن الأصعب لأنها تتعلق بالمال، لكن الدولة تغمرك بالضرائب، لا فرق هنا بين غني وفقير، عدا المقادير ومهارة التهرب من الأداء، تغمرك بالضرائب من كل صنف وصوب، لتحجُب عنك رؤية الركن الأساسي الشرعي، هل يؤدى الديْن مزودجاً؟ وأين الصبور المتحمِّل ليؤدي ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر؛ وما منطق القيصر هنا إلا جمع الضرائب الدنيوية، أما نجاة الخلق وآخرته فلا تهمه في شيء... يضحكك الأمر؟ ... والصلاة نفسها، المفروضة في أوقاتها، منطق

الدولة يتمثل في إشغالك عنها بالكدّ والجدّ حتى تفوتك على الدوام، وتلحقك ديون الآخرة مضافة إلى ديون الدنيا الفانية. . . لعلّي أخربق؟ لكن اسمع مع ذلك، وسمِّه سياسة أو لا سياسة، كما تشاء، بما تشاء. . .

(37)

الصباحية (يومية إخبارية):

ميلاد المتحف الأثري

«. . . زودانة، زوداين أو تازودانت كما هو شائع من أسمائها العديدة، تصنع الحدث متمثلاً في الإعلان عن ميلاد المتحف الوطني للأثريات بهذه البلدة المعزولة؛ المؤسسة التي يتمّ تدشينها العلمي باحتفال دولي ليست وليدة اليوم، بل لها تاريخ، وراءها إرادات وعزائم منذ كانت فكرة جنينية أو حلماً تطلعيّاً، إلى أن تستوي اليوم على أرض الواقع، إنجازات عملية، كشوفات تغمر أنوارها مناطق هائلة من ذاكرة الكون والإنسان ظلت لأحقاب تاريخية مديدة مجاهيل، تغمرها من شتى المغيبات غيوم وأتربة، طبقات فوق طبقات.

المؤسسة ليست وليدة اليوم، وليس يوم تدشينها الأول مجرد إعلان عن حجر أساس كالمعهود في الكثير من مشاريع المؤسسات، بل وراءها تاريخ وعزائم وإرادات منذ كانت حلم خيال مداعب منذ ما يزيد عن ربع قرن؛ وعلى غير المعهود أريد للإعلان عنها أن يكون شهادة إنجاز لا شهادة ميلاد فحسب.

يحتوي برنامج يوم «أثريات تازودانت» على عدّة فقرات تتوزع

بين المعرض الخرائطي لمجمل الحفريات المنجزة والمزمع إنجازها في الموقع الأثري، وهي فقرة أدمجت في الحقيقة بدلاً عن زيارة ميدانية للموقع نفسه كانت مقرَّرة، وتمَّ تأجيلها أو إلغاؤها لضرورات تقنية تتعلق بطبيعة الأشغال الجارية في الموقع؛ تلي ذلك جولة في المتحف حيث معرض بعض الموجودات الأثرية المكتشفة إلى حدّ الآن، ثم محاضرة د. يمود المشرف على المؤسسة وأشغال التنقيب، وهو المناضل المعروف والسجين السياسي السابق.

افتتح المحاضر حديثه بتحية الحضور والوقوف دقيقة ترحُّم على روح الفقيد الأستاذ مرّوني أوضح بعدها أنّ انعقاد هذا اللقاء هذا اليوم لم يأتِ اعتباطاً وإنما اختير ليوافق الذكرى العشرين لوفاة فقيد العلم والبحث الأركيولوجي والنضال الوطني التقدمي الأستاذ مرّوني، إنه في اعتبارنا أفضل إحياء علمي ورمزي لذكرى الأستاذ الباحث والمناضل الثوري الذي يرجع إليه الفضل في الفرضية الأساسية، لبداية التنقيبات الحفرية في هذا المكان بالذات، والتي قادت إلى مكتشفاتنا اليوم، ممّا تلمسونه في بعض المعروضات الأثرية الجاهزة للعرض في الحال، والتي أمكنه فعلاً في حياته أن يلمس ويرى بعضها رأي العين؛ وللعلم فإنّ المتحف والموقع معاً سيحملان اسم أستاذنا الكبير تخليداً لسيرته النضالية والفكرية العلمية.

ومن جهة أخرى، فقد نبَّه المُحاضر إلى أنَّ من الأركيولوجيات المكتشفة الأخرى ما سيتم عرضه لاحقاً، بعد تمام تهييئه للعرض، وكذا المكتشفات المتوقعة أيضاً، وأشار المحاضر في هذه البداية إلى أنه أنجز منذ قليل، زيارة لقبر الفقيد مرّوني في مدفنه القريب من

موقع المتحف، رفقة زملاء وطنيين وأجانب من الحاضرين المنتمين إلى جامعات ومعاهد بحث صديقة ومتعاونة، مجدداً لهم الشكر ومؤكداً على التنويه بدورهم ومؤسساتهم، فيما تمّ من أبحاث وأشغال تنقيب.

2009 /11 /17

* * *

بطاقة عرض:

الصوروبود (Sauropodes)

ديناصور عاشب، عاش منذ 180 مليون سنة، طوله 9 أمتار ووزنه 4 أطنان، يمثّل أقدم ما تمّ اكتشافه من نوعه، ويعتبر الجدّ الأكبر لسلالة الديناصورات العاشبة.

يُرى الصوروبود في الهيكل المعروض بحجمه الطبيعي (مكمّلاً)، وفي هيئة حركة على قائمتيه الاثنتين الخلفيتين الطويلتين، مع امتداد يديه (قائمتيه الأماميتين القصيرتين) المرتفعتين في توازن مع حركة الخطو، ومع الذيل المرتفع عن الأرض.

بصمة كلّ من القائمتين الخلفيتين بمحيط يساوي 75سم، محفورة ومحددة بشكل جيد، يبلغ طول القائمة الصوروبودية من أخمص البصمة إلى ملتقى الورك 3 أمتار و30 سم؛ وقد تم اكتشافه بحفرية ترتفع عن المستوى النهري (الافتراضي) للمنطقة، بمقدار قامة إنسان.

يتعلق الأمر هنا بديناصور متوسط الحجم (مقارنة مع سلالته اللاحقة)، وهو بقدر ما يقدم من أجوبة عن أسئلة علمية ظلّت معلّقة،

فإنه يطرح أسئلة جديدة من قبيل: لماذ تضخمت أجساد الديناصورات فجأة؟ ذلك أن ديناصور الأطلس الحفيد يُعتبر أطول جسماً وأثقل وزناً من سلفه الجدّ المكتشف حالياً.

لم تسفر الأبحاث عن اكتشاف عظام هيكل هذا الصوروبود كاملة، وإنما عن بعضٍ من عظام العنق وبعض من عظام الظهر والذيل، لكن الأهم في هذا الاكتشاف، هو العثور على الجمجمة كاملة بفك يحتفظ بمعظم أسنانه، وهو ما يدل على أصله وسنه.

يلاحظ أنّ أصبع اليد مثني إلى الداخل، ومسلَّح بظفرٍ كبير وطويل، وهي تحتوي عموماً على خمسة أصابع، ثلاثة مسلحة بأظافر واثنان بدون ذلك.

أثر الذيل يدلّ على أن الديناصور في نهاية حاله كان في وضع الراحة، باعتبار أنّ ذيله أثناء الانتصاب والتحرك يكون مرتفعاً عن الأرض، ولا يلمسها مطلقاً أثناء الحركة.

والجديد في نظر العلماء هو أنّ هذا الاكتشاف يؤكِّد لأول مرة، أنّ الديناصورات عاشت في العصر الجوراسي الأدنى، وهو ما لم يكن مؤكداً من قبل، بل ويعتبرون ذلك بمثابة سبق علمي أو بمثابة باب جديد للبحث العلمي.

تشكل البصمات: البصمات تتشكل من الوطء على سطح رطب، يتعرض لأثر أشعة الشمس القوية على تربة صخرية.

رقصة الديناصورات:

«التعبير هنا غير علمي، لكنه دالٌّ على ما عُثر عليه بمثابرة التنقيب، وباعتبار أن مواقع البصمات لا تحفل عادة بآثار عظمية،

لأنها تمثل دليلاً على حركة الديناصور في اتجاه ما، لا على استقراره حياً أو ميتاً؛ إذ عثر على امتداد مساحة ما بين هكتار واحد وهكتارين اثنين، على آثار موزَّعة وفي عدة اتجاهات (تشبَّه بآثار رقصة) لبصمات صغيرة من حجم 30 سم في 30 سم، وهي تمثل صغار الديناصورات، ممّا ينبئ عن مجموعات وأجيال ديناصورية، وليس على مجرد وجود عابر لوحدات مفردة أو معدودة منها...»

تازودانت، المتحف الأثري 2007

(38)

يُجيل نظره الفكاوي في أرجاء مقرّ يمود، ليتساءل مراراً بينه وبين نفسه أولاً، إن كان هناك من يعتني بالرجل أم. . .؟ وما يلبث أن يلفظها على نحوٍ من استنكار:

ـ وحدك هنا؟

يجيل نظره فيما حوله ليجيب حرام، حرام. . . يأتي يمود بكأسي القهوة يضعهما على المنضدة الصغيرة بينهما، وهو يبتسم لصاحبه في تجاهل للجواب، بداية تعارف بينهما ودعوة من يمود على غرار ما يتلقّاه الفكاوي من كثير من محبي حكيه الخاص، مع شعور باختلاف: هذا الرجل يبدو شيئاً آخر؛ من يعتني به؟ يجيل الفكاوي نظره ويُعيد فيما حوله بأكثر من سؤال، يكرِّر الفكاوي سؤاله أكثر من مرة، يرشفان لفترة بصمت:

ـ هذا ما عْطى اللّه

يلتقطها الفكاوي من صاحبه جواباً غير مقنعٍ بقدر ما هو داعٍ إلى التدبُّر، ثم يبادر قائلاً ليمود إنه وجدها!

ـ لا. لا.

يبادر يمود ناهياً نافياً مستنكراً. لا يا عزيزي يرد الفكاوي. لا.

ولا يذهبْ بكَ الظنّ أنّ الأمر يتعلق بفكرة زواج. لا. ولو أنَّ مثل هذا الأمر لو كان، ليس فيه إلا الخير والثواب... لا. الأمر أبعد من التدخل فيما هو شخصي وأكثر خصوصية، وليس أخوك الفكاوي بالأبله أو الجاهل ليتدخل فيما لا يعنيه، لا وألف لا، وجدتُها... صحيح، تصلح لك، بل هي الأصلح لا غيرها، فتاة... قل امرأة إذا شئت، امرأة فعلاً... في منتهى التعقُّل وحسن الأدب والاحتشام، إنما للخدمة، لا بدّ لك من أحد يخدمك، لا بدّ، الوحدانية صعبة، وحدها الوحدانية محنة تكفي وفوق الكفاية، لكن الخدمة وشؤون المنزل محنة أخرى، حرام حرام ولا يمكن؛ لا بد من تدبير الأمر حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً، لا بد من أحد للخدمة، وهي وحدها تصلح لذلك، واحدة تصلح لا غيرها.

يُستطرد في الحديث بين الرجلين، يعمل يمود على تغيير الموضوع، خوض في عالم الحكي، حواشيه وأدبياته على الأصح، يعرب يمود عن إعجابه بعالم الرجل، هل هي مهنة هذا الحكي؟ يوضح يمود سؤاله: أيكفي الحكي ليضمن لصاحبه أن يعيش، يـ...؟

يقاطع الفكاوي هي بلْية والسلام، اللّه ينجيك منها. يشرح أنها مهنة، لكنها لا تكفي صاحبها غوائل الزمان، الحكّاء في حلقته وبين مريديه وسامعيه قُل عاشقي حكيه، يحسّ بنفسه سلطاناً، بل أكثر... لا يمكن التعبير عن هذا الشعور وأنت ترى العقول والقلوب مشدودة إلى لسانك، وأقولها؛ لا يلتزم الناس الصمت إلا في مجلسين: خطبة المسجد وسماع الحلقة، إنما أي حلقة؟ يذكر الفكاوي كيف يستنكر جمعُ الحلقة التشويشَ من أيٍّ كان، أكثر من ذلك أنّ التطبيل

والتغييط المجاور في حلقات أخرى في الساحة وهو على شدته، لا يذهب بانتباه المتحلقين حول الحكي أو يخالط تركيزهم، بينما لا يحتملون أبسط همهمة أو آهة نشاز من محيطهم في الحلقة... ذاك سحر الحلقة، البلْية؛ سؤال عن ضمان عيش ودخل؟ نعم ولا. أي ما يعني الكفاف، إذا كنت حكّاء جذاباً وكله من عند ربك... إنما لا ننسى من يحاول، ربما يعتبرها طريقاً سهلاً للكسب، فيفشل ويولي الأدبار خائباً، مختفياً بلا أثر ولا خبر؛ وأيضاً من يضيع متاعه وما آل إليه من تركة، يبيعها تقسيطاً، يتركها تنساب من بين أصابعه تذوب كالملح، في سبيل هذه البلْية إذا ما استحوذت على لبّه؛ عبد اللّه الضعيف أخوك الفكاوي من هذا الصنف، كان مقدراً لي أن أكون مزارعاً أو أنمي تجارة الأسلاف بالقليل أو بالكثير، لكن البلية ضربت في الرأس، ولا يريحني إلا أن أكون محور استماع، ولا أعرف لي صوتاً إلا السريد وها أنذا كما تراني، لا أمام ولا وراء، لكن الستر والقناعة من ربك... البداية، لا أدري بالضبط متى وكيف، لكني عشقت التحلق حول الحكائين منذ الصغر، أذكر مرة واحدة على الأقل أنني وأنا في غمرة غياب واستماع في عالم الحلقة، وإذا أيادٍ ترفعني من إبطي الاثنين تنشلني نشلاً، ترفعني رفعاً لا تلامس فيه قدمَي الأرض، حتى أوضع مباشرة، أو أرمى على الأصح على الحصير بين يدي فقيهنا الهمام في الكتاب القرآني؛ الأيدي التي حملتني قهراً كانت لعتاة من طلبة الكتّاب أنفسهم، من الأكبر سناً والأقوى جسماً، كلّفوا بمهمتهم من الفقيه وبتوصية ملحّة من الوالد رحمه اللّه، جُوْزِيَت بالفلقة والسوط على القدمين أولاً، ثم على كلّ بقية جسمي، وكانت التثنية من الوالد بعد ذلك... أوه،

ولم يكن ذلك شافياً كافياً، حتى يأتي حلّ وسط من الفقيه يتقبَّله الوالد، أن يقتصر حضوري الحلقة على مجالس القراءة والحديث بعد ظهرية خميس من كلّ أسبوع، ثم. . .

ـ قل بلْية وخلاص

يؤمن الفكاوي على مقاطعة صاحبه

ـ بلية وكبيرة يا أخي وها إنت تشوف

لا بأس، بل يذهب يمود في عبارات تعاطف ومجاملة إلى أنّ ما حصل كان خيراً وإلا لافتقدنا فناناً. . .

ـ اللّه يخليك

يعود بهما الحديث من قبل يمود هذه المرة، إلى موضوع احتياجه فعلاً إلى مَن يساعد في أشغال المنزل، يتعمد يمود ألا يأتي بذكر لفظ الخدمة وما ينتسب إليها، يحتاج فعلاً إلى مَن يساعد، وإن كان لا يخفي أنه يكفي نفسه بنفسه تقريباً، متمرن على ذلك لعقود من سنوات، ما بين جدران طلابية وأخرى سجنية، مطالبه أقل من قليلة، غسيل في أضيق حدود، وتهيئ لما تيسر بأبسط الطرق المطبخية وقِسْ على ذلك، يذكّره ذلك بصديق زمان من مناضلي اليسار بالمشرق العربي، كان مثل يمود إلى حدٍّ كبير في الاستغناء عن معجم الاستخدام، وتسخير الغير لشؤونه الخاصة. . . يذكر هذا الصديق أنه استدعى مرة أحد كبار زعماء النضال الديمقراطي في العالم، بَيْدَ أن هذا المدعو اشترط ألّا تكون الدعوة في بيت أعزب، لأنه يعرف بؤس مطابخ هؤلاء، فما كان من الصديق الداعي إلا أن انبرى يصف مهارته في صنع الأطباق، معدِّداً ومدققاً في الوصف

والتوصيف، حتى إذا بلغ من ذلك كله ما بلغ، متأكداً من أنه يتحسس تلمُّظ مستمعه لمذاق ما يصف له ويعدد، إذا بهذا يبادره بعربية ركيكة: يا بوي، دي مو أكل، دي مزة!

يستجيب الفكاوي للطرفة بانشراح يسأل عن معنى المزة، ويساير الابتسامة الخفيفة على محيا يمود وهو يتلطف بالشرح، ليقول يمود في النهاية إنه بالفعل يستشعر الحاجة إلى من يساعد، وخاصة إذا كانـ. . . من هي؟ لا يفيد الفكاوي بالكثير إنما يعرفها، عائشة، معروفة، ولا أحد، بل لا واحدة تصلح ليمود أكثر منها أو أحسن. . . من هي؟ لا أحد يعرف ولا أحد يجهل، ليس في الأمر إلغاز، فقد ظهرت في تازودانت، في محيطها على الأصح، على مقربة دوار السوق حيث يقطن الفكاوي، لم يكن أول من اكتشفها شبه نائمة مستندة إلى حويطة بستان، إنما أخذ بحالها واهتم بها، بكماء. . . بلهاء. . . هكذا بدت لأول وهلة، هكذا ظهرت على نحو مباغت لا يعرف كنهه أحد، ولا أحد يعرف عنها شيئاً قبل ذلك، ولا هي أفادت بشيء، كانت وذلك منذ عشر سنوات على الأقل، كلما طرح عليها سؤال من أين هي وإلى من تنتسب، تظلّ محدقة مشدوهة كالغائبة عن عالمها، بيْد أنها تبدّت طليقة اليد واللسان في كلّ ما عدا ذلك، حاذقة فطنة، مجدَّة وخدومة. . . بذلك عرفت في القرية وبذلك قبلت متنقلة في الخدمة بين البيوت، إلى أن تزوجها أحد أبناء الدوار من قرية الفكاوي، عامل ولسوء حظها فقدته بعد سنتين أو ثلاث، في حادثة شغل بانهيار تربة ورش عميق من تجهيزات جسر بإحدى الطرق، ترك لها معاشاً هزيلاً وطفلاً هو الآن في الخامسة أو السادسة، هو كلّ وأعز ما لديها. . . هي وحدها الأصلح.

يسود صمت لبعض وقت، يتفقد يمود قهوته... باردة، يتركها ويتساءل إن كانت... تقبل؟

ـ عائشة؟

طبعاً، أو في اللّه شكّ؟ طبعاً تقبل وتموت قبولاً يؤكد الفكاوي، ثم إن له عليها دالة وأكثر: إنها إذا شئت أن تقول بمثابة ابنته الكبرى، أو أخته أو ما شئت... وكان سنداً لها منذ البداية، وكان واسطة خير في زواجها الأخير.

(39)

الأطلسية (مجلة علمية فصلية)

تركزت محاضرة د. يمود على ثلاثة محاور:

أكد في المدخل على أهمية الآثار والحفريات باعتبارها ذات الدلالة الحاسمة في تشكيل معرفتنا بالإنسان والكون... كيف وماذا كنّا نتصور تاريخ الكون والإنسان بدون بقايا محسوسة ملموسة وناطقة؟ وكيف نتصور المستقبل ذاته بدون ذلك؟

يتساءل المحاضر ماذا كنا نعرف من آثار ودلالات على الحضارة المغربية الرومانية والعلاقات والتنظيمات الرومانية ببلدنا، لولا قاعدة تمثال من البقايا المكتشفة في شالة؟

إن هذه القاعدة ـ يقول المحاضر ـ قد غطت بشهرتها على الشخصية التاريخية لصاحب التمثال كما على التمثال ذاته، بما يعني أن الأبعد في المعرفة ليس الشخصيات ولا حتى الأحداث التاريخية المحدودة المحددة رغم أهمية ذلك كله؛ ولم يكن اكتشاف قاعدة هذا التمثال سهلاً، بل إن صعوبات موضوعية ومادية كادت توقف الأبحاث التي كان يشرف عليها ويساعد في إنجازها عالم الإسلاميات المعروف ليفي بروفنسال(*) إلى أن تمّ ذلك أخيراً

(*) ليفي بروفنسال (1894-1956).

باهتمام ومساعدة من امرأة مصرية فذة هي الأميرة خديجة فؤاد، ليظهر نتيجة ذلك مركز المدينة الرومانية تحت المقبرة المرينية، كما أمكن المضي في اكتشافات متتابعة أدت إلى العثور على القاعدة المذكورة(*) محتوية على ثلاثة نصوص ذات دلالة هامة على المنطقة بكاملها، وكانت تسمى موريتانيا الطنجية.

وأشار د. يمود بضرورة الرجوع إلى المصادر الأساسية في هذا الشأن، وفي طليعتها كتابات كاركوبينو(**).

ويقف المحاضر عند مثال ثانٍ لتأييد فكرته قائلاً: تصوروا قرية عادية أو أقل من عادية، قرية رشيد من قرى مصر العديدة وقرى العالم الأكثر عدداً؛ قطرة في بحر، ورجل إنجليزي باحث مكتشف من بين عديد من أمثاله في العالم وفي إنجلترا بالخصوص، ماذا كنا نعرف لولا هذا اللقاء بلا موعد بين رجل وقرية يجمعهما حجر مطمور، سيكتشفه الباحث ليصبح «حجر رشيد» مفتاح المعرفة بالعالم القديم، ليقلب ويصحِّح الكثير من المعلومات، وليصحِّح في النهاية نظرتنا إلى مراحل من التاريخ القديم، بما أتاحه من الكشف عن اللغة الهيروغليفية بسبب أنه كان مكتوباً بلغات منها الهيروغليفية واليونانية؟

أما المحور الثاني فقد تناول فيه المحاضر ما توصَّل إليه المكتشفون أمثال العالم الألماني «أرمبروغ» الذي اكتشف منجماً بالقرب من المنطقة الشرقية، جعله يدخل المنطقة التي كان يدرسها

(*) قاعدة تمثال مركوس سيلبيكيوس فيلكس.

(**) Jérôme Carcopino (1881-1970).

في فجر ما قبل التاريخ، حيث تمّ العثور في المنجم على كرات من الحجارة تعود إلى أوائل الزمن الرباعي فيما قبل التاريخ، هذه الكرات ذات الوجوه المختلفة تتخللها تجويفات تدلّ على أنها تعرَّضت إلى عملية نحت وتكوَّرت بفعل فاعل، حجم هذه الكرات يملأ اليد مما يدل على أنها كانت تُستعمل في الرمي أو الدق أو التكسير أو القتال، وهو ما تدلّ عليه آراء العلماء، حيث يقول المحاضر: تدلّ تقنيات نحت الحجارة على أن الصانع كان مهتماً بإعداد الحصاة لتكون أداة سلاح، على غرار ما شاع في هذا العصر من الاهتمام بصناعة الأسلحة الحجرية؛ كان هذا الاكتشاف من أهم آثار الإنسان الأول في عصر ما قبل التاريخ وهو العصر الحجري الأول، ويسمى كذلك العصر الحجري القديم أو الأعلى، كما أن المؤتمر الإفريقي لعلم ما قبل التاريخ، قد أكَّد في نهاية أشغاله(*) أن هذه الكرات تمثل أولى الصناعات البشرية في شمال إفريقيا، وهو ما يسمى العصر الباليولوجي(**) ويدل على نشاط الإنسان المعروف باسم نياندتردال(***) في كل البقعة الممتدة من برقة ليبيا شرقاً إلى جبل طارق غرباً، وهو الإنسان الذي له علاقة بالإنسان الموريتاني، المعروف باسم أتلانتربوس موريتانيوكوس؛ وهذا كله علاوة على اكتشاف جماجم وهياكل عظمية بشرية، تعود لفترات متفاوتة من التاريخ القديم.

(*) سنة 1952.

(**) إلى حدود 70 ألف سنة ق. م.

(***) Néantherdal (70 ألف سنة ق. م).

وقد أوضح المحاضر بعرض مصاحب للصور الثابتة على الشاشة، بواسطة رسوم علمية تقريبية، كما بواسطة صور ملتقطَة لبقايا عظمية بشرية، أن إنسان هذه المناطق يتميَّز برأس بيضوي الشكل، وجبهة قليلة البروز متراجعة نسبياً، وأقواس حواجب متصلة، ونقطة اتصالها تمثل نتوءاً عظمياً بارزاً عند الذكر، خلافاً لما هو عند الإناث، والعيون مستطيلة ومتباعدة، الذقن بارز جداً، زوايا الذقن الداخلية والخارجية منحرفة والطرف الصاعد للفك الأسفل عالٍ وسميك؛ ويستنتج المحاضر ما يدل على أنّ الإنسان بهذه الصفات الهيكلية كان يتميز بقوة كبيرة، وأطرافه طويلة وكتفاه عريضان، وحوضه ضيق جداً، وله قامة طويلة ومنتصبة، يصل معدلها إلى 180 سنتم في بعض الهياكل؛ أما مسكنه فالمغاور أو الكهوف والأنفاق الطبيعية.

ويلقي المحاضر نظرة على تشكُّل عالمنا ووصف الكرة الأرضية في هذه العصور، ففي المنطقة والجهات الشمالية من الكرة الأرضية، يبدو أثر المراحل الجليدية من خلال العصر المسمى بوليوستوسين(*) وذلك في الزمن الرابع لنشأة الأرض (النصف الجنوبي للكرة الأرضية كان دون 50 درجة) وتعتبر هذه المرحلة أغزر المراحل بالأمطار، وفيها ظهرت الأنهار والبحيرات والحيوانات الضخمة، وهو ما يحيل إلى عصر الديناصورت المنقرضة.

يركز د. يمود في المحور الثالث والأخير على تيمة الانقراض والمنقرضات الكونية، عبر التطور، عبر التحولات الحيوية من بشرية

(*) Poléostocène.

وحيوانية ونباتية، عبر ما يحلّ من أحداث عظمى (تعتبر كوارث ماحقة)، لكنها لا تعدو أن تكون حلقة في سلسلة المسار الأعظم للكونية في شموليتها؛ ومن ثم تبدو من المنظور العلمي أنها أحداث عابرة رغم هائليتها، ورغم ما تبدو به للفهم العادي والمعتاد، من أنها خارج السنن الكوني: زلازل، انهيارات، براكين، فيضانات...

ومن جهة أخرى، يبدو في مستوى الفهم العادي أن قصة الخلق معقولة ومفهومة، أو هي مسلمة، بغض النظر عن مرجعيتها السببية: دينية، غيبية، أسطورية، حتى قصة الانبعاث تبدو مقبولة، وهي ثمرة خبرة يومية في تحول الأشياء بعضها إلى بعض: من مستويات جمادية، سيولية، غازية، أو من مختلف التحللات والتركبات الرسوبية العضوية وغير العضوية، من جسمية وجزيئية، ومن ضروب الطاقة في تمظهراتها التحولية واختلاف الوظائف الممكنة لها حسب ذلك... قصة الخلق والانبعاث على هذا النحو مألوفة تدخل في نطاق الفهم العادي والمألوف، أما قصة الانقراض فيسودها الغموض، وهي سرّ الغموض، وفي مقدمتها قصة الكائنات العظيمة المنقرضة، حيث تبدو وكأنها من ضروب الخيال العلمي، أي التصور المصطنع المرتب بمنطق تعلمي؛ وهنا تبدو وظيفة الفهم العادي متمثلة في شعور الثقة، الذي يدفئ به وجوده الكائن البشري، ونسيج الطمأنينة الذي يغذي تعامله مع الزمان والمكان والأشياء، بينما الأحداث الكونية تمضي غير عابئة بلحظات اللقاء أو الاقتران المحدودة، رغم سعتها وعمقها، تلك التي يبدو بها الفهم العادي حتى العلمي منه، مطابقاً لمسار الكونية (رغم جزئية ذلك)، ويسمى ذلك نظرية أو قانوناً أو مجرد تحصيل لتواتر خبرة.

الانقراض ليس مجرد فرضية علمية، يتطلب إثباتها حصول الانقراض ذاته، وإنما هي الظاهرة المحسوسة في الكون، بغض النظر عن استيعابها أو عدمه من قبل الفهم العادي؛ والمنظور العلمي يعرض الانقراض ويفهمه ماضياً ومستقبلاً، في ضوء التحوُّل المستمر حاضراً محسوساً وغير محسوس، سواء منه الحيواني والنباتي أي الطبيعي بصفة عامة، ومنه البشري ذاته؛أما وتيرة التغير حتى الانقراضي منه، سواء فينا أو في ما حولنا فهي التي تجعله غير محسوس في أجيال، لكنه في ملايين السنين، يبدو واضحاً في البقايا الأثرية.

يشير المحاضر كمثال إلى المغرب، يذكر أن رحلة حانون(*) تعتبر أقدم وثيقة تتحدث عن هذه المنطقة بوضوح وتفصيل، وهي لا ترقى إلا إلى تاريخ قريب جداً بالنسبة إلى تاريخ الكون، ولا تبعد إلا بعقود قرون معدودة، فهي مكتوبة في القرن 2 ق.م لكنها تُوْقِفُنا على أنماط هائلة من التطور الطبيعي في هذه المنطقة، فهي تتعرض لوصف أماكن كثيرة في المغرب كانت مكسوة بالأشجار، وتتحدث عن بحيرات شاطئية ترعى فيها الفيلة وسط قصب عالٍ وكثيف، وكل ذلك لا أثر له الآن في المناطق التي حددتها الرحلة، وهو ما يمكن تفسيره بعامل التبخر الذي فاق كثيراً ومنذ عصور كونية، ما تعوضه التهاطلات المطرية؛ هذه التغيرات المناخية على هذا النحو من قوة الأثر، تضع العقل أمام افتراضين أساسيين:

افتراض بقاء الأمر على نحو ما كان عليه، أي أنْ يكون ما نراه الآن هو ما كان بالأمس في الطبيعة والكون، فينا وفيما حولنا، أو

(*) le périple d'Hannon.

القول بتحوّل جذري مفاجئ أو غير مفاجئ، وكأن قوانين الكون عاطلة أو خاضعة على الأقل لغير المفهوم والمكتَشَف منها إلى حدّ الآن، وبالتالي يمكن توقع حدوث ذلك التغير الفجائي والمفاجىء، في أيّ وقت وعصر بما فيه الأحداث الانقراضية؛ وهذا في رأينا يبدو منظوراً مؤهلاً لمداخل تيولوجية وميثولوجية وغيبية عامة، ممّا عرفت الإنسانية مثيلاً له في عدة مراحل من تاريخها، ربما تكون الفترة اليونانية من مظاهر ازدهاره، لكنه عُرف على أنماط ومستويات في مراحل سابقة ولاحقة، ولم تشفَ منه الإنسانية إلى اليوم.

وبتجاوز كلتا الفرضيتين يبقى الموقف العلمي المتماسك متمثلاً في القول: الكون تاريخي ومستمر في تاريخيته، وإن التحولات حصلت تدريجياً منذ بدء التاريخ أي الكون بصفة شاملة، على نحو فاعل جوهري بطيء، لا يحسّ عبر أجيال مخلوقاتية أو طبيعية كونية محدودة، إنما خلال عصور التطور؛ وحتى لا نذهب بعيداً نسوق وصف أكريبا(*) مثالاً وهو يذكر أن وادي درعة كان مرتعاً للتماسيح، بينما حاله معروفة اليوم وقبل اليوم بعدة قرون؛ كما أن هناك أوصافاً لنباتات وحيوانات ضخمة في وادي أمليل (رافد نهر ملوية) ولا أثر لذلك اليوم، كما أننا لا نكاد نتصور أنّ البسائط العارية جنوب الرباط وأحواز سلا كما نعرفها اليوم، كانت مرتعاً لقطعان الفيلة، التي نتساءل اليوم لا عن وجودها وإنما عن بقاياها الكاملة أو أجزائها الدالّة على الأقل، والتي ستُكتشف حتماً يوماً ما، لتنير لنا واقع الوجود والانقراض، طبق القوانين الطبيعية، (أو خارجاً عنها!)

(*) Agrippa.

يتألق المحاضر في هذا السياق بالعديد من الاستشهادات، لينتهي إلى القول إن المخيلة الملحمية الهوميرية اليونانية على مدى مغامرة أوليس، وما يردُ فيها من أوصاف طبيعة ساحرة وقمم لا ترى لما يتوّجها من ثلوج، ومن مقارّ وكهوف للآلهة بما فيها مغارة كليبسو وأبيها أطلس... كل تلك المفاتن الطبيعية الساحرة والسحرية، والأدغال الفواحة بعبير شجر العرعار ذي العود الثمين، كل تلك الطبيعة وبالدقة الموصوفة بها في الملحمة اليونانية، لا توجد إلا في أرض المغرب؛ ليتساءل وأين نحن من ذلك على مبعدة قرون معدودة من عصر الملحمة اليونانية، لا على بعد ملايين القرون؟

ويخلص المحاضر إلى أنّ كل شيء يتطور على نحو من سنن تحولي وانقراضي مبرمج، كوني وشامل، وأن هناك كائناً واحداً تميز خلال الأحقاب بمرونته وتكيفه مع التحولات، دون أن يعني ذلك في شيء أنه يستمر هو هو، بل بما يعني أنه جوهرياً في سياق تحولي متكيف متآلف ومستمر، إلا أن يكون تحوله الانقراضي يتم ذاتياً بآليات ومستويات لم ننتبه إليها أو نكتشفها بعد، ألا وهو الإنسان؛ ويبقى باطن الأرض أغنى بالحقائق والكائنات من ظهرها، بما في ذلك الإنسان...».

2010 /02 /8

(40)

ـ صعيب عليك

ترنو مجيدة إلى تواجه الرجلين بعين تشبه في ظاهرها الحياد، يكرر مصطفى نصيحته لرفيقه يمود، الوعكة طارئة عابرة، صحيح. . . كما هو مأمول، لكن الرعاية والمتابعة ضرورية، وهنا في الرباط لا في مكان آخر، وألْف ألْف لا في تازودانت؛ صعيب عليك، وأنت تعرِّض نفسك للخطر، هذه صحتك، وفي سن لا يساعد، صعيب وبزّاف. . . خلك هنا في العاصمة قريب من كل شيء.

ملامح ابتسامة يعمل على رسمها يمود، هو لا يرفض، يرفض ماذا؟ يتحدى من؟ إنما هي راحته، ما دامت الحال تحسنت وتتحسن، فراحته هناك في القرية وليست هنا، يريد أن يكون في ميدانه، هناك ميدانه وهو شعوره وراحته.

تتسع ابتسامة يمود، تكتسب ملامحها الطبيعية أو تكاد؛ في المباريات، يولون أهمية كبرى لواقع الميدان، من يوجد في ميدانه يُعتبر في وضع مريح، هذا هو، هذا ما يريد؛ ينظر باتجاه مجيدة في نظرتها المتأملة في حيادها الظاهر، متكئة بذراعها على حافة رأس السرير، حيادها القلق، ذاك الذي كان أول ما ارتسم له من

ملامحها، وهو يفتح عينيه وذراعها يحيط برأسه في شبه احتضان ملامس، وسيارة الإسعاف تتأرجح في طريقها تاركة تازودانت باتجاه العاصمة، الوعكة كانت مفاجئة لمحيط يمود في القرية، فقد كان في أوج ما يتحرك فيه دائماً، لا يشكو من شيء أو يبدو عليه شيء، إلى أن أحس بأنه يتهاوى في محيط عمله، يتحامل على نفسه، يساعده حماد والآخرون من عمَلة الموقع، بينما يبدو التهامي الفكاوي سائراً باتجاههم، تاركاً سيارته قرب منزل يمود، متجهاً للقاء صديقه على موعد بينهما، يتجهون محيطين بيمود، الذي يبدأ في استرجاع نفسه دون أن تفارقه بوادر الارتخاء والتخاذل، يبادر الفكاوي ساحباً ومستعملاً هاتفه النقال، يهاتف المركز وصاحبه النائب الورّادي، نعم الدكتور يمود نعم نعم. . . بسرعة، يكرِّر لمخاطبه على الخط مستعجلاً حضور الطبيب. . . بسرعة. . .

يمرر يمود يده على جبهته يمسح حبات عرق، يفتح طوقه يسحب أنفاساً من حوله، يفتحون أزرار قميصه، وهم يمددونه في فراشه، موجة عرق بارد تعمّ كامل جسده، ما يفتأ يتفصد لها جبينه، ضربة شمس قد تكون، ربما. . . لكنه كان قبل ذلك قد بدأ يألف دوخة خفيفة مراودة، حيناً بعد آخر، لم يشكُ من شيء، ولا لأحد حتى نفسه؛ يقترح الفكاوي استعمال سيارته وهي مريحة للانتقال إلى المركز، قد يلاقون الإسعاف في طريقه إليهم، لم لا؟ يُؤْثِر يمود التريث، فهو لا يستشعر خطراً إلى هذ الحد.

مجيء الطبيب وسيارة الإسعاف، يتقدمها القائد والأعوان، أثار بعض ضجة في مركز القرية؛ لا خطر يقول الطبيب، لا خطر واضح في الراهن، كل شيء ينتظم. . . نبض، تنفس، حرارة عادية. . .

الأَوْلى أن يكون إرهاقاً عاماً وليس شيئاً محدداً، يقول يمود إنه لم يقم بشيء عدا المعهود منه، لا أقل ولا أكثر، لا إجهاد من جانبه، ربما. . . لكن الإجهاد ليس دائماً عملياً عضلياً، إنه أحاسيس وخواطر يقول الطبيب، لا بأس من بعض المهدئات والخلود إلى راحة مطلقة؛ حضور مجيدة باكر الغد، يحسم الأمر، لا تردد ولا انتظار، سيارة الإسعاف الرابضة بأمر منذ البارحة، يجب أن تتحرك به نحو الرباط، حالاً، لا اعتراض، الطبيب نفسه كان يرى ذلك، لولا ممانعة المريض وهو يستشعر الوعكة تخفّ وحاله تتحسن، تحسم مجيدة الأمر بلا تردد ولا حتى استشارة مريض، يفتح يمود عينيه المغمضتين بلا نوم، على ذراع مجيدة يحيط رأسه في شبه احتضان داخل سيارة الإسعاف، في طريقها إلى العاصمة، ينظر في ملامح قلقها الهادئ، أو حيادها القلق، يحاول أن يبتسم لها ابتسامة خفيفة لا تغير من ملامحها، ويسلم عينيه من جديد لإغماض.

ـ صعيب عليك الحال، هناك

يكرِّر مصطفى ملاحظته أو بالأحرى رجاءه، لتخرج عن جمودها مجيدة، تتحرك عن وضعها مع إشارة لمصطفى، تعني أن لا فائدة ولا داعي لإصرار ما دام يمود يرفض الاستكانة، إنما كل ذلك، بعد أن تنتهي الفحوص والتحليلات أولاً وبالكامل.

طريق تازودانت، راحة حقيقية، سكينة تشمله في غرفته المخبرية أو مختبره الغرفة، عوالم يحس بها حوله حية متحركة، كائنات يستشعر نظراتها قلقة باتجاهه، ناطقة متسائلة؛ عائشة في مظهر مأتمي جامد، باهتة جافة الملامح، جامدة الموقف، الممرض مندهش من كل شيء حوله، يسوي بعض لوازمه باحتراس ودهشة، باحثاً له عن

فراغات بين ما يملأ الغرفة المختبرية من أشياء؛ قرار مجيدة كان ملزماً، أن يصحبه من الرباط ممرض مختص، لا يفارقه لفترة كافية على الأقل، حارس أمنه الصحي كما تريده، يتابع ويراقب، لا تمردات صبيانية تؤكد عليه مجيدة، ولا إهمال. . . خلّني من عائشة ديالك هذي حاجة أخرى. . . تؤكد مجيدة على الاحتراس والاحتراز، ملمِّحة إلى ثقته في عائشة وتفويضه كل شيء لمعرفتها وقدرتها، وما تعرف؟ الصحة شيء آخر؛ تنبِّه مجيدة بسبابتها كالمتوعِّدة قبل أن تغلق عليه باب سيارة الإسعاف، وتظلّ بجانب مصطفى عند عتبة المستشفى، يتابعان بإشفاق تحركها في طريق العودة إلى القرية.

سكينة تشمله وارتياح في إقامته المخبرية؛ يتابع الممرض تسوية أدواته وبعض اللوازم المصاحبة، عيناه ما تفتآن تمسحان ما حوله آونة بعد أخرى، ترسمان الدهشة متنقلتين من هيكل عظمي إلى آخر، وما بين رسوم تخطيطية لكائنات ومسارات بقع وعلامات مرقمة. . . جو مقابري لولا ما يتردَّد من نَفَسٍ فيه وبقربه.

ـ تبارك اللّه عليك

يلفظها الممرض دفعاً لكآبة ما يستشعره ومجاملة لمن جاء يسهر على إيناسه وراحته، تتردد شبه سعلة خفيفة من يمود، كأنما لمجرد أن يقول إنه هنا، سامع واعٍ للتحية، نقر خفيف على الباب، يلج شبح الفكاوي، يعلو صوته محيياً بغاية ابتهاج . . . على السلامة الحمد للّه الدنيا زينت. . .

يقبل على يمود الذي يتحرك من سريره بعزم النهوض، يسارع الرجل باتجاهه خليك، خليك مرتاح يا أخي. . . يقبِّله من الوجنتين،

ينتبه إلى الممرض يصافحه مرحباً، يسحب كرسياً يجلس بالقرب من سرير يمود، يحادثه في شبه همس عن حاله، مدى التحسُّن، كيف يشعر، ثم يرفع صوته بلهجة التفاؤل. . . الحمد للّه مرت بسلام، هو هذا بنو آدم، آلة متحركة، عربة ميكانيكية، سرعان ما يعتريها العطل، لولب من هنا، خيط من هناك، بُرغي، مسدّ، سلك موصل، صفيحة تتآكل، أسطوانة، تزييت، تشحيم. . . تماماً، تماماً، والشفاء بيد المشفي العظيم خالق الخلق ومبدعه.

يسأل يمود بدوره عن حال صاحبه، تنشرح أسارير الفكاوي للحديث، يلاحظ يمود طوق مسبحة قصيرة تتلألأ حباتها مع حركة يده، يلتقط الفكاوي نظرة يمود، تتسع ابتسامته وهو يرفعها في مواجهة يمود، مؤكداً أنها هدية من صاحبه الورّادي. . . لا، ليست ثمينة ولا يحزنون، إنما لا بأس بها، جميلة، لمجرد الزينة والتسلية، وما تلبث مسحة كآبة أن تظلّل ملامحه.

تسارع عائشة على إثر حركة من يمود، تساعد في تسوية وضعه بالوسائد من حوله، يشير إليها أن لا حاجة، ليستوي وضعه في شبه قعدة مستقيمة بمواجهة محدثه. . . حاله؟ يتساءل الفكاوي ماذا يقول؟ إحساسه الذي لا ينكر أن أموره بخير، قلْ جيدة ممتازة، في وضعه الجديد لا يشكو شيئاً: السيد النائب الورّادي ملتفت إليه مهتم بأحواله باستمرار، وهو من حاشيته المقربة، بل الأقرب إلى قلبه كما يقول ويؤكد أمام الملأ، والأكثر من ذلك أن الورّادي على أبواب الوزارة، أمره مؤكد، والمهام الرئيسة في الحكومة ستكون من نصيب حزبه، مكانة الفكاوي سليمة مضمونة مطمئنة، إنما لا ينفي الفكاوي ما يخالجه من مرارة. . . تصور أنه لم يعُد يزور لثلاث السوق

الأسبوعي لبلدته مطلقاً، وهو من أمضى أكبر قسط من حياته إلى اليوم، في أجواء سوق لثلاث.

ـ الحلقة؟

يلفظها مبتسماً يمود، صحيح، الحلقة وكل شيء في السوق، يؤكد الفكاوي، تصورْ أنه لم يعد يطيق تردُّد اسم السوق على لسانه أو سمعه، يراوده حلم المتحلقين حوله، المتطلعين والمتسائلين، المتتبعين المتلهفين على المصير والنهاية، ومتعة البداية عندما تستشعر الأسماع مرهفة، ثم لحظة رهيبة في حياة الحكي... رغم ضجة السوق وعجاجه، رغم صخب الحلقات المجاورة ما بين مزمار وبندير، تستشعر الصمت يلفُّك وحلقتك، يلتفّ بك وبمن حولك، كأنكم من عالم آخر، ملكوت معزول عما حوله، لا أحد يلتقط سمعاً أو يعي ويستوعب عدا ما يأتي به الحكي... عجيبة رهيبة هي لحظات الحكي، تستشعر نبض الأسماع يضرب في سمعك المباشر، تفاعلاً وانفعالاً لواقعة أو وضع أو شخصية في الحكي، تردّد همساً في نفسها، وتخرق حصار الصمت باقتضاب حكم مركز، أو تعليق ملخص على المسيء والمُصلح، الجاني والضحية، المهزوم والمنتصر، الخائن والمخلص... كل حسب موقعه في الحكي، وحسب مستوى الحال والانفعال في المتحلق: حرام عليه... اللّه ينصر الحق، لعنه اللّه، مسكين، يرضى عليه... عميقة رهيبة لحظات الحكي، تسري بك في العديد من ذوات، تسري فيك بالعديد من عوالم وذوات.

تضع عائشة في جمود حالها صينية أتاي صغيرة، يجلس الممرض على مقعد قرب سرير يمود يصب الشاي، يتحرك الفكاوي

يقرب مقعده أيضاً من مجلس الرجلين قرب الصينية، مُظهراً سمة استنكار خفيفة، من وضع يجعل الضيف يخدم بدل الواجب وهو العكس، يرد الممرض بأن لا ضيف هنا ولا مضيف، خدمة الرجال شرف للرجال، وهو منذ دخوله هنا أحسّ بأنه صاحب الدار؛ يتناول الفكاوي كأساً يناوله ليمود، ويرتشف من كأسه مؤكداً أن أجود كأس أتاي تذوقه في حياته، ويمكن أن يتذوقه إنسان على وجه الأرض، هو ما تجود به يد الدكتور يمود، يعلق الممرض بأن لا شيء يمنع من ذلك، ومما هو أكثر: طاجين أو قصعة كسكسو من يد الدكتور، فهو لا بأس عليه وصحته بخير.

ـ ويا اللّه نُضْ على سلامتك

يجهز بها الفكاوي على يمود ماداً باتجاهه يده مستعجلاً قيامه، يبدو يمود محبِّذاً مرحباً، وسرعان ما يستدرك الفكاوي متراجعاً بابتسامة عريضة ومرح: خلها ليوم لثلاث أحسن، لثلاث...

ـ ياكما... هزك ريح الحلقة

يعلق يمود على حال الفكاوي

هزه فعلاً، لا يزال الفكاوي يهزه وسيظل ريح الحلقة، فوحها هواؤها شمسها وغبارها... أسعد لحظات وجوده أن يجد نفسه يوماً بين سامعيه، مريدي حكيه في الحلقة، ذاك المنى، وآه...

* * *

الوكالة الوطنية للاتصال:

ما خفي...

«... **آخر ما اكتشف من مقابر حدث يوم الثلاثاء 13 مايو**

2008 بمدينة الجديدة إذ عثر على 8 جماجم مدفونة في أرض تعود ملكيتها لعائلة مسؤول أمني سابق، تنضاف إلى ما تمّ الوصول إليه (صدفة) منذ أسابيع بثكنة للوقاية المدنية بالناظور؛ وقد حصر عدد الهياكل البشرية المكتشفة في 16، وفي خضم السنة المنصرمة وقع الشيء نفسه بإحدى الحدائق بفاس، وبذلك فتح سجل من قائمة لعدد من المقابر المماثلة، انطلق منذ عام 2003 بثكنة للوقاية المدنية بالدار البيضاء.

هذه الاكتشافات المتتالية بعامل الصدفة، تثير أكثر من علامة استفهام عن المقابر الأخرى التي لا تزال تنتظر مكتشفها أو تلك التي سيطويها الزمن والنسيان. . .».

2009 /6 /17

(41)

يرنو يمود من مرتفع الموقع الأثري إلى سحابة الغبار باتجاه المرتفع، سيارة متحركة بقوة تتجاوز المعهود من توقف وسط القرية. . . مسؤول أم من جهة الرفاق؟ تتوقف السيارة عند السياج، تلحقها سحابة الغبار المنسحبة وراءها على الخط، تنجاب الغيمة شيئاً فشيئاً وتنجلي عن سيارة سوداء عالية صقيلة، ينفتح الباب فجأة ويقفز مهللاً من داخلها الفكاوي، رباعية الدفع متينة عتيدة، يحيي يسلِّم بابتهاج متجهاً مفتوح الأحضان نحو يمود المنبهر، مالك؟ ما جاتش معنا؟ ما حناش قدها!؟

مسترداً أنفاسه يمود، يفلت من أحضان صاحبه متسائلاً بكل جارحة فيه، لا. . . هذي لازم لها قعدة وكأس. . . اركب!

ينظر يمود إلى ساعته، لا يزال مبكراً وقته، يجره الفكاوي باتجاه السيارة، يفتح الباب ويسبقه إلى الناحية الأخرى أمام المقود، يتريث يمود متأملاً ملامحه قاتمة ترتسم على أديم السيارة اللماع، يرفع قدمه يرقى درجة فثانية ليحتلّ المقعد بجوار الفكاوي، الذي ينطلق بقوة مفاجئة يرتجّ لها كيان العربة، يعتذر الرجل فهو لم يتعوَّد بعد على إيقاع السيارة، ويعدل سيره لينزل هوناً باتجاه إقامة يمود.

تفتح عائشة الباب، لم تألف عودة يمود في هذا الوقت، يبدو عليها بعض ارتباك، ما زالت لم تهيئ شيئاً بعد. . . مرحباً. . . يردّ ببشاشة فائقة على تحيتها الفكاوي، تسرع ترتب متكآت الكنبة والأرائك، موعزة بأنه الموقع الوحيد لجلوس، وهي لم تنهِ ترتيب البيت، يرمي يمود قبعته على مقعد، يتخفف مزيحاً قميصه الفوقي المفتوح، ليبقى في تي شورت داخلي، يجلس الفكاوي ممدداً ذراعيه جنبه على طول الكنبة في هيئة انشراح، قهوة. . . أتاي؟ ومشحّر عافاك آبنتي، يرد الفكاوي على سؤال عائشة، إيقاع حركاتها وحده يتردد، والفكاوي يشير إلى شرطه قبل الحديث: الكاس؛ لكنه ما يلبث أن يبدي بعض تنازل، يقبل على يمود، اسمعْ يا سيدي. . . يبدأ حديثه أمام اندهاش متزايد من يمود، تقبل عائشة بالشاي، يبادرها الفكاوي باركي لي يا بنتي، باركي السيارة وادعي لي بالسلامة والحفظ، ينفحها ورقة مائتي درهم، تمانع، هدية مني آبنتي، حلاوة المباركة والدعوات الصالحات، شوفي الكات كات وباركي لي. . . إلحاح الرجل وتحفيز يمود يجعلها تقبل بإيماءة شكر.

الانتخابات!

يفاجئ بها الفكاوي صديقه، يسأله يمود عن معنى ذلك؟ لا شيء، بسيطة جداً وأبسط من بسيطة؛ صديق عزيز، سمعت به أو تسمع، لا شك ستسمع به، فهو منذ الآن سيصبح على كل لسان، صديق صالَ وجالَ، طلع وهبط، قال يترشح للتشريعية، الانتخابات، كيف عرفته؟ معرفة عادية جداً أبسط من عادية، ولد ناس على كل حال، معرفتنا تمت في الميدان، في فضاء الحكي، يا سيدي كان الورّادي من سامعي الحكي من حولي، وكان سامعاً جيداً من عشاق

الحكي الجيد، كثيراً ما ينفرد ببّاك الفكاوي طالباً المزيد، يأخذني حيث نتناول الشواء، نشرب الشاي، ونستزيد من الحكي ومن غير الحكي. . . صديق فتح اللّه عليه، من رجال السوق، عارف وفاهم، قال هو يحتاج إلى من يسخّن حملته الانتخابية، قال لا يريد برّاحاً(*) أو شطاحاً، لا بندير ولا مزمار، وإنما صورة الفكاوي ولسانه، قال يتوسم فيّ الخير، ويتوقع أن يكون لي الأثر الحسن والحاسم في فوزه. . . لا أخفي أنني فوجئت، فآخر ما كنت أفكر فيه أو يخطر مجرد خاطر ببالي، أن أخوض في انتخابات بأي وجه كان، لكنني الآن مساعد مدير حملة انتخابية لمرشح لا يُشك في فوزه. . . بسيطة يا أخي والمبروكة الكات الكات، هي ومثيلاتها من لوجستيك الحملة، وقد تؤول إلى صاحبك الفكاوي، يضحك بغاية انشراح، يصف ويلوّن متنقلاً بين مفاصل الموضوع، ببراءة صبي وخفة فراشة.

يرشفان الشاي، يسأل يمود عن حزب صاحبه وبرنامجه، يبتسم: لا تسلني بجد ولا أكذبك، لا أحسن السباحة في غير الحكي، إنما أسمع وأتابع، يا سيدي هو الخط العام، هذا ما يقولون أو ما في معناه؛ الخط العام أي لا إفراط ولا تفريط، لا خروج ولا دخول، لا جديد ولا قديم، وهذا أفهمه، لأنه مسك العصا من الوسط، تماماً الأمور تبدو لي هكذا، وصاحبي الورّادي نِعْمَ الصاحب، ليس مغامراً بأي معنى من المعاني، وليس سيئاً هذا الخط العام: الوطن، المقدسات، الشعب، حرية، ليبرالية،

(*) البرّاح: المنادي على البضاعة بقصد الترويج لها، كما يستعمل في المناسبات للتبليغ بأي شيء للرأي العام في الدوار.

ديمقراطية، عدالة. . . كل شيء في الخط العام، ثم اعلم يا حبيب قلبي أن أخاك الفكاوي لا يعرف التحزُّب، ولو أنه بحكم الواقع يجب أن ينضم إلى حزب صاحبه حزب الشعب، وهو منشط حملته الانتخابية، إلا أنه أقرب إلى كل الأحزاب، ما دامت الأحزاب كلها متقاربة، كلها في الخط العام، أو قل الطريق السيار، تماماً كالقيادة في الأوتوروت. . .

يتوقف الفكاوي قليلاً، يلاحظ شبه شرود على ملامح صاحبه، ربما أفرط في الكلام، ربما. . . ولكن الحظ وحده ساق إليه المناسبة، كان في أوج الأزمة بين صقيع الراوي والحاكي المنسي في قبو، وسعير تهمة التخدير عن طريق الحكي، أيهما تختار؟ وثالثهما أن يكتم فيك وإلى الأبد زمن الحكي، أن تغيِّبه وتغيب عنه، من يقدر؟ أتختار وماذا؟ الفرصة جاءت هكذا أبسط من بسيطة.

ـ وأنت؟

يفاجئه سؤال الفكاوي، يتيه به المقام. . . التحولات تغمرنا تغرقنا أو تلفظنا في تيه صحراء، يكرِّر مصطفى لرفيقه، يهزّ كتف يمود في ضيافة الزنزانة تلك، لنُفقْ. . . تحولات الألفية الثالثة، معطيات جديدة تفرض إعادة التحليل، مراجعة النظر في كل شيء، التنافسية أساسها السوق، الاقتصاد وقود ورافعة التقدم؛ الاجتماعي وعدالتنا تلك والمنهجية، يمكنها أن تنتظر في حدود على الأقل، ولا بد من الضبط، لا خوف من استعارة مفاهيم ليست ملك أحد، لم لا ليبرالية اشتراكية في الآن نفسه؟ لنعلقْ مؤقتاً منطق الرؤية الوحيدة والتحليل الوحيد. أليس أقصى التسيب والإفلاس معاً، أن تجعل مكان الوظيفة الواحدة عشرة لتخدم أكثر ما يمكن وتقلص العطالة؟

أي منظومة تبني وأي إفقار للفرد والمجموعة أكبر من ذلك؟ رهانان وعلينا الاختيار: إما تجويع الكل وإيقاف عجلة النمو للمجموعة ككل، بكل النتائج والتبعات، وإما التعامل مع الواقع، اكتساب محطات باتجاه إقلاع مرحلي ممكن؛ بعبارة أخرى، الاختيار هو بين أن تسبح مع التيار مكتسباً بعض هوامش ومواقع باتجاه الضفة، وإما السباحة ضده بمكلفاتها وكوارثها.

ـ الفوارق الطبقية لا تنتظر يا صديقي، إنه طريق استفحالها

ـ ربما مؤقتاً ومرحلياً، مهما يكن فيجب أن تظل في حدود التحكم بقدر الإمكان.

مجيدة نفسها في لقاء لها بيمود هنا في مقامه المُتْحفي، في زيارة يبدو أنها أعدت لها كثيراً، تقفز إلى جانبه فجأة داخل الحفير في الموقع الأثري، يستقيم يمود محيياً يبادلها قبلة خفيفة، وينهمك مشيراً إليها لتتابع، يتقرّى حبيبات التربة مهمهماً بصوت مسموع، يخاطبها أو يخاطب نفسه، يفترض أن الصوروبودي كما دلَّت بقايا هيكله قد وجد في وضعٍ راقدٍ على جنب، وليس في وضع الحركة أو الانتصاب على كل حال، بدليل فقرات الذنب المرتبطة بالهيكل وعلى المستوى نفسه معه، بينما الصوروبود يتحرك أو يقف وذيله مرفوع عن مستوى الأرض؛ أغلب الأجزاء المعروضة وجدت على مسافات متقاربة؛ معقول أن تجُرف الرقبة بقوة الهول الكارثي، حتى الأطراف يمكن أن تنفصل وتنفلت بعض مكوناتها عن الجذع، وتغوص إلى عمق ما، منفصل بعضها عن بعض، لكن المنتقص الغائب وغير المنضبط لافتراض ولا لمفهوم، هو جزء طرف من يسار وآخر من يمين، من خلف وأمام، بانتظام تناظر أو تناظر انتظام

من جانبين . . . تبدو الحبيبات الترابية مشيرة بشيء هنا، يقع على بعض البُعد من موقع البقايا الأساسية، وعلى عمق أكثر من مستواها.

تنتشله مجيدة، تقفز إلى أعلى الحفير، تمد يدها إليه، يصعد إلى جانبها؛ مباشرة كعادتها عندما تريد، لا وقت لديها، إنما الرفاق يحتاجونه، وما دام على رفضه، فهم يؤكدون حاجتهم إليه هنا في البلدة، لا بد مَن تأسيس قواعد، لا بد من انتشار أفقي . . . في هذه المنطقة ليس غيره أقدر، له حظوة هنا وحظوظ ليست لغيره، الانتخابات قادمة بغض النظر عن إمكان مشاركة من عدمه، هذا ما يريدون منه مما لا يتعارض مع وجهته؛ وفي النهاية لم لا التفكير بالترشح هنا باسم التيار لو تقرر مبدأ المشاركة!؟

ـ وأنت؟

يهزه سؤال الفكاوي مكرراً عن الانتخابات والسياسة كلها، ما موقعك من ذلك كله د. يمود؟ بعّدت علينا!

يعود يمود منتبهاً إلى شروده، يبتسم من شبه غياب، لا بأس يقول يمود متوجهاً إلى الفكاوي الذي ينتظر رأيه، لا بأس على الأقل فأنت تخرج من ورطة ما بين شرين، لا بأس؛ ينظر الفكاوي إلى ساعته، عليه الذهاب، ينتصب قائماً شاكراً على الجلسة وعلى التشجيع، هذا ما كان يتوقعه من صديق غالٍ وعزيز.

ـ شيء آخر

ينتبه يمود إلى صاحبه متسائلاً، يقترب الفكاوي، يضع يده على كتف يمود بمودة، شيء آخر يعجب، ويريد رأي يمود فيه، ليس الآن، على مهل وفي الوقت المناسب، صاحبه الورّادي ينوي تنظيم

دورة احتفالية كبيرة، فرجة شعبية، تنعقد سنوياً كل موسم صيف، فروسية، طرب وغناء، رياضة وألعاب، تسلية وحلقات لكل شيء: مهرجان سيدي بوباها. . .

لا بأس، تصدر تلقائياً عن يمود، لم يفكر بعد ولا يدري ما يقول، يبتسم الفكاوي بمودة ليقول إن الوقت لم يحِنْ بعد لذلك، الموضوع مجرد فكرة لا يزال، لكن المواسم ناجعة في لمّ جموع الناس ومباشرة في التأثير، ربما أكثر حتى من الحكي ذاته، اسألْ عمك الفكاوي؛ يومئ مودعاً، يستمهله يمود بإشارة وينادي عائشة كي تذهب مع الفكاوي يوصلها في اتجاهه، يرحب الرجل، بينما تنظر إليه بإيماءة، يدرك أن الوقت لا يزال مبكراً على ميقات ذهابها المعتاد، لكن لا بأس؛ تستعد المرأة على عجل بينما يسبقها يمود والفكاوي إلى الخارج، تلحق بعد لحظة، يتابعها يمود وهي ترتقي درجتين لتجلس بجانب الفكاوي، يهدر المحرك بعزم وتتحرك العجلات بتؤدة، قبل أن تنطلق لتنحرف عند مشارف القرية.

يعود إلى نفسه يمود، يعود إلى الداخل يضع قبعته يرتدي قميصه المفتوح، ليخطو متجهاً إلى الموقع.

* * *

الأسبوعية (إخبارية):

احتكام. . .

«. . . ارتأت الفيدرالية الحقوقية اللجوء إلى القضاء الاستعجالي، لوقف نشر الصحافة لتصريحات ذات طبيعة عمومية، كان مواطنون قد أدلوا بها لهيئة «عدالة وتكاثف»، خلال بحث هذه

الأخيرة في انتهاكات حقوق الإنسان التي عرفتها البلاد، في الفترة ما بين عامي 1956 ـ 1999.

وقال المنسق العام للفيدرالية: «إن الوثائق المعنية هي فعلاً ملك عام لجميع المواطنين، إلا أن البلاد وإن كانت تتوفر الآن على قانون للأرشيف، لكنها لا تتوفر بعد على مراسيم لتطبيق هذا القانون.

وهذا ينتج عنه أن الفيدرالية الحقوقية باعتبارها الوريث الشرعي لهيئة «عدالة وتكاثف» هي المؤسسة المكلَّفة بمتابعة تنفيذ توصياتها، وتبقى تبعاً لذلك مؤتمنة وحدها على أرشيفها، إلى أن تخرج للوجود مراسيم تطبيق قانون الأرشيف، وأوضح المنسق العام حيثيات قرار منع الصحافة من نشر هذه الوثائق.

على أن دفاع الصحافة من جانبه، يرى أنّ تبريرات المنسق العام تحمل الكثير من المغالطات والتناقضات، ذلك أن اعتبار الوثائق ملكاً عاماً والتأكيد على أنّ الهدف منها هو أن تكون مادة خصبة للباحثين، يتناقض مع حجبها عن الرأي العام ومنع الصحافة من نشرها.

ومن ثم يرى دفاع الصحافة، أن من حق الجرائد نشر تلك الشهادات، لأن جلّها يعود إلى الضحايا، كما أنها سبق أن بُثَّت على أمواج الإذاعة الوطنية وشاشات التلفزيون، وهما منبران إعلاميان رسميان، مما يتناقض مع منع نشرها من طرف منابر صحافية أخرى؛ هذا مع العلم بأن هدف هيئة «عدالة وتكاثف» هو معرفة حقيقة ما جرى معرفة كاملة، حتى لا يتكرر ذلك مرة أخرى بأية صفة من

الصفات، وهو الهدف نفسه الذي ورثته الفيدرالية الحقوقية عن الهيئة المذكورة التي انتهت مهمتها قانونياً، فهي بذلك مسؤولة عن ضرورة نشر هذه الشهادات والمساعدة على معرفتها من طرف الجميع، لا العمل على إخفائها ومنع نشرها وحجب انتشار معرفتها بين الناس...».

2010/10/11

(42)

عمران مرّوني

هذا كل شيء، كل ما تبقى من ثورة حياة وخصوبة فكر، ليس إلّا ابن امرأة كآخر، ليس أكثر، هكذا تختصر حياة وتتوج، توهج فكر، وقدة دور، قوة عزيمة وشكيمة... عمران مرّوني في مثواه الأخير، يحتضنه التراب، كأي من آدم، كأي كائن، هكذا يؤوب إليها وإلى الأبد، قرية حفرياته الأثرية، أتكون أيضاً مدفن أفكاره وإلى الأبد؟ ... أم إلى انبعاث، كما يؤمل آل الديصور وصحبه منذ أحقاب عبر أحقاب؟ رقدة الأستاذ وليس عليه إلا لباسه البسيط، لحافه الأصيل: اسمه العاري من أنساب وألقاب ودرجات؛ في مثواه الأخير قد يكون بحاله أرضى، عدو ألقاب ودرجات وأنساب كان، مرّوني عظيم في بساطة لا تضاهى، جبار في جمّ تواضع وقشيب همس وحديث... في مرقده الأخير، لا يملك إلا اسمه العاري البسيط وكفاه: عمران مرّوني؛ وكانوا عليه كرماء إلى حدّ التقيُّد الأدق الدقيق بوصيته: ألّا يثار شيء حول وفاته ومدفنه، ألّا يذكر شيء من حول اسمه! أي وفاء وإعزاز أكثر لو كانوا فعلاً ذوي إعزاز وإكبار؟ ابن امرأة من تراب مآله تراب، أكانت الوصية فعلاً كذلك أم هي تأويل وتوجيه؟ لم يكونوا معه

كرماء إلى الحدّ المطلوب، وإلا لأضافوا إلى اسمه علامة ما كان ليرفضها، المهنة: سجين؛ الممارسة: ثورة فكر؛ قالها مرة بمرارة دون التواء لأحد المحققين وهو يفتتح معه بمثل تلك الأسئلة، مهنته؟ سجين، ربيب سجون وصديق حميم. مات... مات؛ ولعلهم أيضاً كانوا معه أرحم، لم يجعلوا مرقده هيكلاً مطموراً مجهولاً، تكتشفه حفريات عصور قادمة كأسلاف وأخلاف من عصور غابرة، أكانوا فضلاء رحماء حقاً أم هي حرفية الوصية والوفاء منهم لحرفية الوصية، أم هي خشية حفريات وتاريخ عهود غابرة في رحم المستقبل؟ مات، مات، زفوه إلى مرقد متناء، في عزلة وبعد مزار... على أي أساس وحساب؟ مات، مات عظيماً شامخاً متواضعاً قوياً تقدمياً عزيزاً شريفاً نزيهاً ثائراً عالماً وطنياً مناضلاً متسامحاً ودوداً... عاش...

قبضتا يديه على حافة الشاهد، يمود، كأنما تخطان على خشونة الصخر القبري ما حملته جدران زنزانة إسمنتية، مات الأستاذ... ذاك الخبر الصاعق في شحّ حركة بين القضبان، في كثافة ظلمة من طبقات طبقات طبقات، مات... زفوها إليه في عزلة السجن عبارة واحدة وحيدة قاصدة مقتصدة، ليتركوه مشدوهاً غير مصدق: أمثله يموت؟ الفكر يموت، ينقرض، يتحلَّل كأيّ عظم في هيكلية ديناصور وديصور؟ لا. إلا هذه. إلا هذه، والفتى شاهد حي، ذاك الإعلامي اليافع في اعتراضه وعرضه غبّ محاضرة يمود؛ يافع رافض ناقد متشوف، شعلة فكرك يا أستاذ ولا تنطفئ... لو كان لي عشرة أمثالك، قلتها يا أستاذ ولا تزال صدى يتردَّد، وكنا مئات من حولك، كنا بالآلاف، آلاف الآلاف وأكثر، فماذا حصل؟ تلك الآفة

الانقراضية أتصحّ على الأفكار أم هي الدورة والتجدد، تلك البرمجية الأزلية في الكون والكائنات. . . والأفكار؟ كم من مثيله ذاك الفتى اليافع في الزمن الانقراضي اليوم؟ لو كان منه عشرة، مئة، آلاف ليتحقق الانبعاث، وتجدد رقصتها أجيال الدناصر اليافعة، ينفلق عنها موات أرض، تنشق بها رحاب سماء. . . مات، أمات حقاً؟ عبارة يزفونها إليك مسربة عبر القضبان مع بصيص النور المتلصص من شق ما بين الإسفلت ومعدن البوابة، مع واهن شعاع شمسي يتدلى بلا حرارة من كوة في مصمت جدار، مات. . . تأتيك ملفوفة بتحايا زوار وغير زوار؛ ليبقى وحده حياً يتردد في الحنايا، ذاك الاسم المجلجل الجليل، وحده الاسم يلتمع في الكثافة والكآبة وظلمة العجز والقصور، وحده ينير في العزلة والضيق وموج الخواطر: ذكره وذكراه. . . الاسم وحده يبقى، وحده عارياً منقوشاً في الذكر وعلى صخرة الشاهد، أكانت حقاً وصية منه شحيحة إلى هذا الحد، أم. . . أي حساب؟

يداه تشدان كأنما تعتصران خشونة الصخر الشاهد أو تحتضنان الرفات، قدّر يمود على البعد أن أول ما يفعله حين العودة إلى تازودانت زيارة الأستاذ في مرقده الأخير، قدّر كثيراً أنه سيبكي وقوفاً عند القبر أقوى وأعمق ممّا لم يبكِ طول حياته، قدّر أنه لن يتمالك أن يهوي، وإنما تمسّكُه بالصخر الشاهد وحده الكفيل بأن يبقيه منتصباً على قدمين، لكنه الآن يحيا اللحظة بشبه حياد، بجمود أجفان مفتحة لا ترف فيه إلا أمواج الخواطر، ينظر إلى مجيدة بجانبه في شبه حاله، أكانت حقاً مراعاة لوصيته؟ يتساءل يمود، ربما. . . لكنها إن تكن تلك الوصية، فقد وجدت ريحاً رخاء من ميول القوم

القومة على كل شيء، في حضور الشخص وغيابه، بإرادة تامة مطابقة لرغبتهم.

تعبر مجيدة عن لامبالاة بالتساؤل، اسمه العاري وحده يُتوّجه وكفاه؛ صحيح... لكنهم بخلوا عليه بكل شيء، في غيبة رفاق وشتات... من يدري؟ ربما لولا الوصية وأشياء أخرى مضمرة، لفضلوا دفنه تحت بلاط زنزانة عازلة معزولة وظلمة، هو الذي تعود أن يجد فراش الزنزانة دافئاً لا يزال ما بين فترة وأخرى؛ وحدها علة الجسد، جعلتهم بعد تاريخ طويل، يسلكون معه سلوك التغاضي، خوفهم أن يقضي في ضيافتهم، فاختاروا التضييق في الحركة والخطو، تقليص المحيط، قصّ الأجنحة واقتناص الحواريين والأتباع؛ خبر الفقدان كان صاعقاً في واقع العجز بين قفص الجدران المصمتة، ووحده مرّوني رفيق علة كان خارج القضبان، مقصوصاً من كل شيء، ووحدهم القومة على كل شيء، كانوا شهود لحظاته الأخيرة، أشاعوا الخبر بين الزنازن والسجون وعبر المنافي بما يشبه المكبرات والمتسللات قوة وسرعة، لغاية يعلمونها، لكنهم جهزوه في السر إلى مثواه الأخير، عارياً إلا من اسمه؛ وصّيتُه ـ إن تكن ـ فهي تامة المطابقة لسلوكه، أن يدفن حيث مشغل فكره وهمّ عزيمته، وأكثر من رسالة موجهة إلى من يهمه الأمر... هنا... هنا يريد أن يرقد في هدوء، لعله يخشى على صفاء ذهنه أن يخالط، ذاك الذي لم يزايله طيلة حياة زاخرة بالزحام والحركة والاحتكاك، يخشى أن يفارقه الصفاء يختار قرية مشغله وبحثه، مرقد الدياصر في غفوتها عبر الأحقاب، جوار مرتعها ومرقصها إلى حين... ربما... إلى حين، ربما رسالة لمن يفهم أو يريد أن يفهم...

الخبر صاعق في الحبس والعجز، أرادوه أن يكون صاعقاً فعلاً، وكان أكثر من ذلك، مزلزلاً، أقوى مما سيحلّ بعد حين من زلزلة جدار برلين، وبعده الخليج... ذلك الإجهاز الكوني... جهزوه بسرية وهدوء إلى مثواه الأخير، الشاهد كان منقوشاً جاهزاً على صخره الخشن، ربما بوقت معلوم قبل حلول الأجل ذاته، ألا يعرفون كل شيء ويحسنون التوقع؟ لعلها أول مرة يسجلها التاريخ أن يأتي الميت إلى مرقده الأخير حاملاً شاهد قبره معه، كانوا يريدون إنهاء كل شيء بالسرعة والدقة المعروفة، وهم لذلك أهل... جهزوه للدفن، وحدهم كما يشاؤون، تتابعهم تيارات خواطر متقاطعة من وراء الظلمة في كل اتجاه، كوكبة سيارات أغلبها رسمية بلا علامات، موكب صامت الأعماق، بضع سيارات يتخلف بعضها ويخلفها بعض آخر، ما بين كل دائرة حكومية وأخرى يجتازها الموكب، حتى لم يبقَ في النهاية إلا سيارة واحدة مرافقة: عمران مرّوني... عاش عظيماً فذاً مقاوماً صلداً إنساناً...

تتحرك مجيدة منحنية نحو أعشاب تلامس القبر في شبه تمسك أو تسلُّق، توقفها حركة من يمود، لعلها تلك الأعشاب ممّا ينعش روح حياة في هذا الجوار؛ يجيل يمود النظر فيما حوله، لتبدو على مبعدة وبفاصل مسافة ما، مدينة المقابر بشواهدها البيضاء كطيور في جزيرة معزولة، يبرز بينها مميزاً بسعة الجوار وظلّ النخلة مرقد سيدي بوباها، وفي أقصى المرأى معالم التنقيب والحفريات، وبينها في موقع ما، أول ضربة معول من يد الأستاذ، هنا أو هناك، أول لمسة فرشاة تراب ناعمة من يده، هنا وهناك منقباً عن تاريخ تحت التاريخ، هنا أو هناك موقع أول خطوة من خطواته، يتأنى متنسماً

بحسٍّ حاذق عبير الكشف والاكتشاف، مَن يدري ربما موقع القبر ذاته، قد أنزل هنا بصدفة ما، أو بقصد وخطأ ملتبس، حيث كان صاحبه يريد، يقع بالقصد والتمام عند موطئ أول خطوة له في هذا الفضاء؟

تعود النظرة إلى عزلة مثوى الأستاذ هنا عن بقية مدينة المقابر على قربها، أكان الموقع بقصد؟ أتكون الوصية دقيقة إلى هذا الحدّ والحفيّون أولئك أوفياء إلى هذا الحد؟ تراه ينشد صفاء لا يخالط؟ له ذلك، له ذلك حياً وميتاً، له متحققاً منبعثاً في يفاعة وتجدد أجيال، له ذلك متوَّجاً بعزة الاسم العاري من ألقاب وأنساب ودرجات. . .

* * *

قـرار(*)

نحن آل المجمع الأعظم

اعتباراً للمألوف فينا جداً من روح المسؤولية الملقاة على عاتقنا، ومن دأبنا الذي لا يضنيه مدى أو يفله زمن، في البحث عمّا يخدم المصلحة العليا جداً، لبلدنا دائماً وأبداً في الصبح والمساء، آناء الليل وأطراف النهار، وحين الغدو والرواح.

وفاء لوحدة محتدنا الغالية جداً، العالية جداً، من قاطنية

(*) الصادر بتازودانت في اليوم الثالث والأربعين، من النصف الثاني لعام تسعة عشر ن. ج.
ن ج: مقابل ما يعني نزول النجم، ويقصدون حركة نزول النجم الشرقي باتجاه الغرب في حادثة فلكية يروونها ويؤرخون بها أحداثهم.

ومستقطنية، وما تقدمه من مثال عظيم جداً في التعاون والتعايش، ولما لذلك من فوائد هامة جداً ظاهراً وباطناً، مما يرفع من شهرة بلدنا العزيز جداً، ويضاعف الإقبال عليه، ومن ثم يضاعف ما ينتجه من غلال وفيرة وصنيع حرف رفيعة جداً جداً.

تمسكاً بمبدأ الإحقاق والإنصاف لمستحقه مهما كان موقعه ومكانه رفعة وضعة، قاطنية ومستقطنية، مما له الأثر الإيجابي جداً، في سمة التفاني في الخدمة وأداء الواجب التي تطبع مكونات بلدنا، وفضيلة التآزر والتعاضد التي ما تفتأ تعطي ثمارها الوارفة والمتنوعة جداً لخير الجميع.

نظراً إلى ما تُنبته تربة بلدنا وصفاء محتدماً بين حين وحين، من أفذاذ صالحين جداً، ومصلحين في خدمة الوحدة وتحصيل النتائج المحسوسة جداً، والمنعكسة جداً ومباشرة على حياة الجميع، مما يجعل هؤلاء الأفذاذ أهلاً للقيادة والريادة والسيادة.

سيراً على التكليف المجمعي الأعظم الذي يجعل من كلّ أهله وآله، عيناً ساهرة وأذناً لاقطة لكل نأمة ونهمة، في صالح بلدنا أو غير صالحه، لتبنّي هذه ورعايتها أملاً جداً في قطف ثمارها وحسن عطائها في العاجل أو الآجل، وللاحتياط لتلك بتجنب نتائجها الخبيثة ودفع شرورها ودرء عواقبها الخطيرة جداً جداً.

عملاً بالنظر السديد جداً لأهل المجمع الأعظم، بشأن التشجيع والتحفيز لمن يستحق ذلك ويبرهن عليه، من قاطنية ومستقطنية بلدنا العزيز جداً، ممّا من شأنه أن يزيد النشيط نشاطاً والمنتج إنتاجاً والمتفاني تفانياً وحدباً، كما من شأنه أن يخيب ظنّ المتكاسل

المتخاذل، ويصيب بالنكس والنحس العميقين جداً، كل متخاذل متراذل.

احتساباً لما أبلاه وأبداه قاطن ومستقطن بلدنا العزيز جداً، في كلّ مراحل حياته، وطيلة فترات وأنواع خدماته، المسمى ديصور زوداني، المعروف اختصاراً بين قومه الذين هم قومنا الأعزاء جداً، وذويه الذين هم ذوونا المحبوبون جداً، باسم «الديصور» من غيرة على القاطنية والمستقطنية على السواء، في دأبه المنوه به جداً من طرفنا، مما كان له الشأن المرغوب المحبوب جداً، في تخفيف الأعباء على المستحقين لذلك، دون ضرر أو إضرار بجودة الخدمات، من حسن الضبط والانضباط واستتباب الأمن والنظام.

حرصاً على مراعاة مشاعر مكونات بلدنا قاطنة ومستقطنة، وبالأخص جداً منهم قوم المومأ إليه أعلاه، المعروف باسم «الديصور»، والذين أحبوه وأجَلّوه والتفوا حوله، ممّا كان ويكون له الأثر الحميد بيننا، باعتبارنا عيوناً ساهرة جداً على مصلحة الجميع ولخير الجميع.

عرفاناً منا نحن أهل المجمع الأعظم، بقدر ومقدار المومأ إليه آنفاً، المعروف بين قومه باسم الديصور، وتأكيداً لمكانه ومكانته هذه، المستحقة جداً بين قومه، الذين هم قومنا الأعزاء جداً باعتبار ذلك يصبّ في مصلحة بلدنا العزيز جداً.

امتناناً منا نحن أهل المجمع الأعظم لكل ذلك

تأكيداً له

نعبِّر عن رغبتنا في انضمام المومأ إليه آنفاً، المعروف بين قومه

باسم الديصور إلى علّية مقامنا ورفيع مهامنا، ليكون معنا في القيادة والريادة لمصلحة بلدنا العزيز جداً.

ونصدر الصلاحية بتنفيذ إرادتنا بذلك

ونعلن القرار:

يصبح بمقتضاه فور إعلانه، المومأ إليه آنفاً المعروف بين قومه باسم الديصور، في عداد أهل المجمع الأعظم.

يمارس المجمعي الأعظم الديصور مهامه، وما يخول إليه بهذه الصفة بمقتضى الواجب والقانون، ويقسم على ذلك دون خلافه.

المجمع الأعظم

الرئاسة

(43)

تتسرب أشعة الغروب في أقصى انحرافها الأخير، متسلِّلة برفق من ستارة النافذة الخفيفة مرتفعة عن سرير يمود، منعكسة على خاصرة الصوروبودي المنتصب في هالة هيكله المتعملق المديد. . . «عظمة في الحياة وفي الممات. . .» لمن البيت الشعري المراود؟ المناسبة مختلفة والسياق، لكن الوجود والعدم واحدٌ خالدٌ في الكائنات. . . تقول الحكمة والحكيم: علامة النهاية ضعف، أولنا ضعف، آخرنا ضعف؛ الطول يصبح قصراً، والوزن خفة وهزالاً، والعقل ذاته هبالاً، كما الأمر عند ملاحظة سائر الخلق، من أكبر لأصغر، قانون واحد: بداية وآخرة وما بينهما.

يبدو صوروبود عائماً في الخضرة من حوله، تداعب هامته سامقات الدوح، تتردَّد لغواه في الكون صيحة هدير، تندكّ تحت قوائمه في خطوها الأرض، تنسحب وراءه قوة ذَنَبٍ مديد نشيط، يتحرك مرتفعاً يذبّ ذات اليمين وذات الشمال، مساهماً بآلية حاذقة محكمة في تنسيق حركات الصوروبود وتوازن كيانه، مؤدياً وظيفته الحيوية في الكشف والذبّ عمّا تقصده إرادة الكائن الجبار؛ يصيح مختلفة لغواه ما بين أوضاع وحالات: دعوة أليف لأنيسه، نداء حاجة، استجابة دافع أو ردّ عدوان، جلال الهيئة، هالة الموكب

الطبيعي الحافل، يرسم في قصة خلق عظمة كون وافتنان؛ يبدو الهيكل ناطقاً مفصحاً في انتصابه، مموهاً بمسحة ذهبية لأشعة غروب هاربة، تبدو فقرات الذنب في عافيتها تكتنز، تدريجياً تمتلئ وينتفخ الصدر، تتحرك الرقبة ويتردَّد اللسان على أطراف الشفتين كأنه يتلمظ مذاق البعث، طعم الوجود من جديد، لم يمت نهاية كون ووجود، وإنما يفترض حدث كوني أقبره حياً غبناً، لمَ إذن لا يفترض أن برمجية وجوده لم تنتهِ، وأن الانقراض لا يعني بالضرورة الانقضاء والفناء؟ فما بِبَتْر كوني مقبر تنقطع البرمجية الوجودية، والمخلوقية ذاتها؛ الوجود في عمقه وجوهره استنفاد برمجي كامل قبل الانقضاء، لم لا مذاق البعث، طعم الوجود مرة أخرى لاستكمال الغاية واستنفاد الدور الوجودي؟ قصة الانبعاث مفهومة، حتى قصة الخلق معقولة أو مسلَّمة، إنما سرّ الغموض قصة الانقراض...

تتردد صيحة الصوروبود، تتجاوب لغواه في الأرجاء، تتداخل الأصداء، أصداء صوته أم تردُّدات أمثال له ونظراء، يتذوقون من جديد بعث الوجود، بعد انقراض فنائي مزعوم؟

يمرِّر يمود بصره بتؤدة على هيكل الكائن الأسطوري يتحسس بالعين ملامسه وامتلاءاته، كأنما يتحسَّسه باللمس عظمة عظمة وفقرة فقرة، يعود بنظرته إلى طرف فراشه، يلمح حبات المسبحة الصغيرة ملوية حول ذاتها حيث كان يجلس الفكاوي، يتابع لمعان حباتها المتفاوت مع تضاؤل مساقط الضوء واختلافها... تتأرجح المسبحة حركة بندول متدلية من يد الفقيه المادني في استراحة السجن.

ـ تصلّي معنا؟

ينظر يمود في وجه مخاطبه، فقيه السجن يظهر حيناً بعد آخر، يعظُ وينصح ويؤم السجناء. . . تصلّي معنا؟ يفاجئه الخطاب، تختطف عينه حركة المسبحة متأرجحة تتدلى من يد الفقيه، لا يردّ بشيء، وإنما يخطو مبتعداً ينتحي ركناً في ساحة السجن، يدوّن بعض خواطره، كانت إحدى فترات استراحة على ندرتها، أو كما يفهم يمود تلك الفترات المدروسة والمبرمجة بحساب، لجعل السجناء والمخصوصين منهم بالذات، ينفسون عن أنفسهم بحديث عفوي لسائل أو متحدِّث، سجين أو غير سجين، بما يسمح بجمع أكبر ما يمكن من معلومات، مخابراتيون منهم سجناء وأشباه سجناء، عملاء في حلَّة ممرضين، رجال دين، حلاقون وأطباء.

تستغرقه كتابة أفكاره، تستعصي أحياناً فيشعر أنه يعتصر نفسه اعتصاراً، الحقيقة وحدها ما يريد أن يسجل، حقيقته من وجهة نظره وتحليله، لا يهمّ ما ليس كذلك، ويود لو يدوّن كل الرفاق على تباعدهم مثل ما يفعل، بعضهم أكيد وهو يعلم ذلك، وبعضهم يستعصي عليه القلم واللسان، لا يهم شيء من ذلك كله، ولا يهم إن كانت مدوناته ستجدُ طريقها يوماً إلى الغير، لا يهم شيء من ذلك، ربما المهم أن أمل التدوين والتوثيق يظلّ رابطاً بينه وبين العالم كما يراه، كما كان يراه، وكما يراه منذ أكثر من عقد من وراء سجن وسجان. . .

ـ السلام عليكم

يرفع بصره ليجده ضاحكاً بشوشاً، تتأرجح في يده سبحة متوسطة الحبات غامقة اللون، لا ينتظر رد سلامه، وإنما يعاجل بالجلوس إلى جانبه. . . الفقيه المادني، الصلاة انتهت، ويقول إنه

ظلّ لفترة يرقبه من بعيد، وله عليه دين. . . دين؟ الواجب يا أخي، لا تظن أنني جئت عاتباً عليك، بل إني أقرب إلى فهمك، ولم أقصد إفساد لحظة تأملك، لا، وإنما جاء ليقول كلمة واحدة: لا تيأس!

أكان يمود ليبأس؟ ييأس مناضل أو مُصلِح أو نبي؟ لمَ الفكر إذن والتضحية والرسالة، إلا أنت تكون من لون غد وإزهار وإشراق؟ لا عجلة على أمل، وليتحقق بشروطه على أن ندرك أننا مجرد بعض تلك الشروط، تلتمّ بنا أو حتى بدوننا، بغيرنا مكاننا يتحقق ذلك، قد. . . وحتماً. . . متى؟ ليس بيدنا الجواب لكن بيدنا خلق الشروط. . . ييأس؟

يتابعه الرجل بابتسامة هادئة، لم يقصد أن يقول ذلك، لم يقصد اليأس من تحقيق ما يؤمن به شخص ما، فأحرى سجين فكرٍ ومناضل رأي، إنما يقصد، ألا يخامرك شكّ في أنك قد تكون الأقرب إلى ما تعتقد أو يعتقد البعض أنك الأبعد منه والأنأى عنه، حسب الظواهر والمظاهر!

تقاطعه نظرة يمود غير المسايرة والمتسائلة عن المقصود والمناسبة، قبل ذلك. . . لا عليك وامنحني سمعك وسمحك يا أخي؛ المناسبة ابتعادك عن الجماعة عند دعوة الصلاة، المسألة واجب شرعي اجتماعي من جهة، واقتناع شخصي أو ضرورة فردية من جهة ثانية، والكلّ على الطريق، وقد يكون الأقرب في ظاهر الأمر، هو الأبعد عن جوهر المقصود والعكس، فالباطن والغيب ليس من شأننا، وامنحني بعض سمحك.

لم يأتِ الفقيه المادني لمهمته الإرشادية في السجن بداعٍ أو

دافعٍ من أحد، ولا لغرض إلا ما يقوم به في ذاته وعند حدّه، بطواعية واختيار من جانبه وبعد صعوبات ذلَّلها، وساعدته أحوال؛ إنما كيف وقع ذلك؟ الفقيه المادني من رجال الجماعة والمساجد، نشأ على ذلك ويظلّ، تخرَّج من قسم الشريعة، لكنه يزاول تجارة والده في كفاف وعفاف، يؤمن بأن العلم والدين للّه، ومن ثم كان متطوعاً بالدروس الدينية حيثما كان خصاص لذلك، حاجته الذاتية إلى ذلك أكثر، يواظب على ذلك في مسجد الحي، ولكنه يتنقل بدروسه وخطبه في مساجد المدينة، له أتباع، منهم مَن يسأله عقب أيّ درس أو خطبة، عن موعد اللقاء المقبل، وفي أي مسجد؛ لم يستغلّ ذلك أبداً لغرض، ولا خطر بباله غير إصلاح نفسه، ومن يكتب لهم ذلك على يديه، فذلك حسْبه؛ القصة تبدأ عندما يطرق بابه ذات ليلة بعد العشاء، طارق غير مألوف ولا متوقع، يفتح الباب بنفسه، ليجدَ ثلاثة أشخاص يسألون إنْ كان هذا مسكن الفقيه المادني، أحدهم برتبة ضابط سامٍ معه مدنيّان، أحدهما كان من الواضح أنه صاحب سيارة تاكسي صغيرة واقف بالقرب، والثاني مرافق الضابط، وراءهما سيارة حكومية، يحيي الضابط بلطف معتذراً عن الإزعاج، مقدماً نفسه على أنه نائب مدير السجن، ويقدِّم رفيقه المساعد بالمؤسسة، في الحين يعتذر سائق التاكسي لينصرف مشكوراً، ليفهم الفقيه أن صاحب التاكسي إنما جاءت به المصادفة لإرشادهما إليه، فقد بحثا حسب ما كان يتوافر لهما من معلومات، حسب عنوان يبدو أنه كان مسكنه منذ قريب، وحسب بعض المساجد حيث لم يوفَّقوا لمصادفته، أو الالتقاء بمن يهديهم إلى مسكنه الجديد.

كانا على وشك العودة يائسيْن، حين توقفا بمحطة البنزين، وخلال التزوُّد بالوقود لفظ الضابط سؤاله لعامل المحطة، بآلية ودون قصد من أمل، وهو ما تحقَّق بالفعل عندما أظهر العامل علامات جهله بالفقيه المادني، بَيْد أنّ سائق تاكسي في انتظار تزوده بالوقود، يبادر إلى الإعلان بأنه يعرف الفقيه، وقد أوصله آخر مرة منذ أسبوع إلى مسكنه، وهكذا وصلوا إليه أخيراً، يعتذر الضابط عن الإزعاج، ويظلّ الفقيه المادني في دهشة منتظراً تتمة الحديث وإنْ كان يبادر إلى دعوة الرجلين للتفضُّل وتشارك الطعام، لا، الوقت لا يسمح والأمر خير... يا سيدي في السجن روحٌ تنتظر لقاء ربها، وصاحبها يذكرك بالاسم كي يراك ويتحدث إليك، وتلك آخر أمنيته.

ـ سجين؟

يلفظها الفقيه وهو يبلع ريقه تحرُّجاً، نعم سجين ومحكوم بالإعدام!

ـ إعدام؟

إعدام وتنفيذه بُعيد الفجر، وآخر أمنيته وطلبه أن يراك في دنياه، قبل الرحيل... لا يهمّ السؤال أي سؤال: مَن، ما ولماذا؟ لا يهمّ ما يراود من تخوُّف أن يكون الأمر كله فخاً منصوباً لقصدٍ ما، لا يهم شيء، ولا التردُّد والتوجُّس والتخوُّف؛ يستأذن الفقيه المادني لحظة يتهيأ فيها لمرافقتهما، وهكذا يكون، ليجد الفقيه نفسه وجهاً لوجه أمام السجين، على مدى ساعات من موعد رحيل مقدَّر إلى دار البقاء... الغرفة ضيقة مشرعة الباب يتوسطها مقعدان، لكن السجين ينتصب مكبلاً بمجرد مثول الفقيه، يتقدم سجان يحرِّره من قيده،

متراجعاً إلى ثلته الماثلة في الممرّ قرب الباب، بمواجهة عمق الغرفة... السلام عليك، يردّ السجين التحية بعمق صوت غائب، يتملى الفقيه ملامح الرجل.

- عرفتني؟

يتساءل عمق الصوت الغائب. يعرفه؟ لا، أبداً؛ تنكسر مخايل بسمة على طرفي شفتي السجين، ألا تذكر؟ يذكّره بالاسم، الاسم... اسم زمان، كانا زميلين قبل سنة البكالوريا، ليسير أحدهما أدبياً باتجاه الشريعة، بينما يوجه الثاني شطر الاقتصادية، ولا يحالفه حظ لتتقاذفه الظروف... مَن؟ ذاك الذي دوخت جرائمه بلداً بكامله طولاً وعرضاً، سفَّاح لا يرحم، مَن؟ يقول السجين إنه هو ذاك بالفعل، باسم مختلف، اسم الشهرة، تراوده بسمة انكسار، ليستأنف أنه لم يستعمل اسمه الحقيقي أبداً، ولا أظهر أصله ونسبه لأحد، على الأقلّ ليجنِّب أقاربه كلّ إحراج، يقول إنّ اسم المادني ترامى إليه، عرف فيه صديق الثانوية، قصده أكثر من مرة، يستمع إلى أحاديثه، ويصلي وراءه، عزمه الأكيد كان توبة على يديه، وفي كلّ مرة يعتزم، كان يستشعر العجز عن الصمود، مَن يتصور ذلك؟ قوة داخلية أو خارجية دافعة بلا رادٌ ولا كاسر، جارفة كانت تجمح به وتُبعده كلما اقترب واعتزم، هذا هو...

ينظر المادني ممعناً نظره، تتراءى له خلف شعرات بيضاء مخالطة متردِّدة، يفاعة عهد الثانوية، أي مصير؟ بأية كيمياء يتأدى ذلك إلى سفّاح معجز؟ يتأمل ملامح الرجل، ليشاهد العجب، تنفتح نظرة السجين عن آفاق بلا حدود، لا جدران ولا سقوف، فضاء مترامي، لانهائي الأبعاد والألوان ممّا لم تشهده عين، يفتح الفقيه

جيداً عينيه حوله في كلّ اتجاه يتأكد، الفضاء بلا حدود والألوان فوق ما يدرك عقل ويلفظ لسان، والهدوء الشامل العميق، ينظر حوله الفقيه، ينظر خلفه، لا ممر ولا ثلة حراس، لا جدران لا سقوف. . .

ـ ادْعُ لي

يقطب السجين متسائلاً، يكرِّر المادني

ـ ادْعُ لي

تنكسر البسمة على شفتي السجين، ماذا يسمع؟ يكرِّر المادني طلبه الدعاء، حال السجين معبِّرة عن عمق خيبته، هو الذي طلب من يساعده على لحظة الرحيل بدعاء، تتجمد انكسارة البسمة على ملامح السجين، تصبح قناع خيبة عميقة؛ يضع الفقيه يده على كتفي السجين والفضاء المترامي ملء بصره والألوان: ادْعُ لي يا ابني، أنت الأقرب إلى ربك في هذه اللحظات، أنت الأقرب، الأبعد عن يأس وقنوط، ادْعُ لي، لأمتك كلها، لنفسك. . . الآن في لحظاتك هذه، أنت الأقرب حقاً، لا تيأس وادْعُ لي من قلبك. . . يخيَّل للفقيه أن الفضاء حولهما يزداد ترامياً، كأنهما مرفوعان في رحابه، تبدو البسمة متحركة من جمودها على شفتي السجين، مخايل طمأنينة ورضى، ويتقدم بخطوات متئدة نحو سجانيه، يبادر المادني يناوله سبحته ومصحفاً صغيراً، ويظلّ مكانه شاخصاً إلى أبعاد الفضاء المترامي، هدوء شامل تتخلله وقع خطوات متئدة متنائية، في طريقها إلى مصير مقدّر. . .

ـ السلام عليك

ينتبه يمود إلى محدِّثه المادني يُنهي ما عنده، يقول إنه عندما استرجع وعيه باللحظة ومشاهداتها، تأكَّد له زيف المظاهر وأنّ باب الرحمة أقرب، وأيُّنا الأقرب؟ منذ التجربة تلك، يسعى الفقيه بنفسه إلى مسؤولي السجن، ليُسمح له بالتطوّع للإرشاد قدر مستطاعه في رحاب السجون.

يضع الفقيه يده على كتف يمود مودعاً، سبحته متأرجحة في التوائها على معصمه، يقف له يمود، يصافحه مودعاً، يتابعه إلى أن يبتلعه هيكل البناية، يغيب عن ناظره؛ يستمرّ يمود في هيئته إلى أن تنبِّهه صفارة الحراسة إلى نهاية الاستراحة. . .

تنتقل نظرة يمود عن حبات المسبحة الملتوية على نفسها قرب سريره حيث كان الفكاوي، يستشعر رغبة في مدّ يده باتجاهها دون أن يفعل، تبدو أشعة الغروب تخبو وكأنها تنسل من كيان الصوروبودي باتجاه مصدرها، تاركة بقع ظلال تتسع شيئاً فشيئاً، على رقعة الهيكل المديد القائم على اثنتيه الخلفيتين مرتفعتي العماد إحداهما بجنبه الأيمن، منقوصة الأصل تقوم مقامها تركيبة قائمة محتذاة، بينما يداه على نحو أقصر من ذلك، تمتدان في الفضاء باتجاه نظرته وتوجُّهه للأعالي، إحداهما بجنبه الأيسر منقوصة تقوم مقامها كذلك تركيبة يد محتذاة، تجلِّل هامة الهيكل الضارب في غوابر الأزمان، فريدة كل الكشوف: الجمجمة الكاملة المكتملة. . . الانتقاص والنقص المنتظم المتناظر في أطراف الهيكل: قائمة من جانب ويدٌ من الآخر، تلك المعضلة التي يعمل يمود على حلّ لغزها ويوشك، إلا أن يدركه بدوره انقراض أو فناء، تلك بقايا قوائم الصوروبودي، تكملة كيانه لينتصب مستقلاً، لغز البقايا محيِّر في

انفصالها عن سائر ما عداه، لا تصورُ تحلُّل طبيعي يُقنع، ولا حتى افتراض طارئ كارثي محلي، أو قل موقعي بعد الحادث الكوني الكبير... أيَختار حدث موقعي بالقدر والمقدار، أطراف الصوروبودي على هذا النحو المنظم المتناظر، افتقاد قائمة خلفية يمنى، ويد أمامية يسرى دون أي شيء آخر، هكذا بانتظام وتناظر؟ ما طبيعة الحدث؟ أيكون افتراساً لطبيعة من طبيعة أخرى، وجزئياً أيضاً وانتقائياً؟ لماذا وما طبيعة المفترس الجزئي المنتقي؟ مفترس داخلي؟ كيف ينمحي كلّ أثر من هيكل الصوروبودي لقائمة ويد، كل من جانب، مع الدال الأهم: الذيل وخاصة الجمجمة؟ أين وحدة الطبيعة، قانون تحولها بقائها وعدم الفناء؟ نظرية التحلُّل ومثلها فرضية الانجراف بعلة طبيعية أو أخرى، كلها لا تركب افتراض نظرية قويمة.

يتابع يمود من سريره بعين الغياب، أشعة متوارية ينطفئ نورها المسائي في لجَّة اليم البعيد، كما تعوَّد أن يرصدها صغيراً ويدمن سحر لحظتها راشداً، إنها كأية دورة وجودية، تتجدَّد برسم نظام محدَّد محدود وفق برمجية موقوته، دورة وجودية في خصوبة وغنى وتجدّد، لا تكرِّر نفسها ولا تتنكر لطبيعتها؛ نحن في منعطف دورة جديدة يقول مصطفى، منعطف فكري، قلْ دورة... لكنها يا أخي دورة كاملة تنكر كل شيء، تتنكر لكل شيء، تقول ذلك وتؤكده، وعلائم عدم اقتناع من مصطفى تلاحقك؛ نعم تقول، نعم لنقد ذاتي، نعم ومرحباً به، نعم للحرية الفردية والجمعية كشرط لا يؤجل، وكنا نراه ترفاً ما وتعلقاً متبرجزاً حتى نخلص للعبارة والمعجم، نعم لدولة غير إيديولجية، ولمجتمع مدني غير مؤدلج، وكنا نعتبِر ذلك لا انتماء

مائعاً وإعاقة للمشروع؛ نعم لإنسانية الإنسان ومشروعية رغباته الذاتية وميوله الشخصية. . . لكن لا على حساب أي شيء آخر، بل مع كل الحسابات المبدئية، مهما تكن المرحلة وتستلزم.

يتململ يمود في فراشه، أشبه شيء بلسعات خفيفة غير مريحة تقضّ رقدته. . . لتطمئنّ يا رفيق، يؤكد مصطفى في كآبة وغنّة احتجاج منكَتِمٍ، اطمئن فلم أقع بعد في حبائل هوى السلطة والجاه، ولا هِمْتُ غراماً بالمنصب السامي والمكانة والمال، لم ولن أستطيب المقام. . . يتململ في فراشه يمود مرة وأخرى، تلتقي عينه في حركته بآخر الأشعة المنحدرة نحو المغيب، تزيغ ببصره منها لسعات خفيفة أو وخزات في جنبيه، مواكبة لالتماع وقدة الشعاع الغارب في عينه. . . ويتابع الصوت من مصطفى: إنها مبادئي دائماً، إنما الطريق آخر، وربما الوسائل أيضاً أخرى. . . ربما مثل ذلك الرحالة المكتشف لطريق جديد، باتجاه الهدف نفسه على سطح كروي. . . أتذكره؟

ـ دروس يفاعتنا يا صديق

ـ اعتبرني إياه، اركب معنا

ـ لكنه لم يصل إلى جزر الهند الشرقية، ولا اكتشف الطريق الجديد لتوابل الشرق

ـ كفاه ما هو أكثر: اكتشاف عالم جديد، الأهم وما هو جوهري: رؤية جديدة للعالم والإنسان.

أي جديد!؟ يلفظها يمود منفلتة بصوت مسموع كما لو كان مصطفى مجسداً أمامه.

ـ أتركك الآن، سأعود

كالهمس في سمع يمود يضيف مصطفى منحنياً عليه وهما إذ ذاك على عتبة سيارة الإسعاف، لحظة فراقه بإصرار من يمود على الرجوع إلى تازودانت... لا لوقت طويل أتركك، يهمس مصطفى لا أنا أستطيع ولا أنت... لا أدري متى وكيف؛ إنما أعود إليك...

تتوقف نظرة يمود على هيكل الصوروبودي، وقد أمسى أمام ناظره كتلة ظلّ مديدة، بموازاة وانحراف جانبي إلى سريره، يخيل إليه أنّ الصوروبودي يتململ في امتداد ظلي موازٍ لضوئية تمدُّده هو على السرير، تلتوي فقرات عنقه الممتلئة المرنة التواءة خفيفة، أشبه بإيماءة حركة باتجاهه، يستجيب لها الذنب بإيماءة الحركة نفسها؛ أية إيماءة هذه، أية نظرة! يبدو الصوروبودي في هول ما يحيق به، في معركة بقاء رهيبة، عظمة برمجية لكيان ووجود، يقابلها في غابر زمن جبروت كارث كوني منظوم؛ أية صرخة مدوية عميقة بعيدة الأرجاء، أي مسافة في وادي الألم، أي مدى وأي بُعد؟ أتراه يساير المجرى الكارثي ليقضي مسالماً هادئاً، أم ككل خلق يصيح فعلاً صيحته الأخيرة ممّا يحيق به، في معركة خارج حسبانه؟ هالة الكيان تأبى. لا. ألف لا. جلال عظمة خلق تأبى استسلاماً ومسالمة، والصيحة بصدى كوني آخر، غير صدى التألم والمسالمة والألم، صيحة احتجاج في غابر زمن تلك، كانت وتكون، في معركة وجود غير متكافئة، ضدّ كل معركة بكل الأسلحة، صيحة وجود وحياة تلك كانت، رافضة لما عدا الوجود، رافعة خافضة...

أوَحدكَ صوروبود لا تخلف موعد انقراض، خلاف برمجية

البعث والنشوء والاكتمال الوجودية؟ أينا انقراض وبعث، أينا وجود وفناء؟ وحدك تجافي الدورة والتسلسل والسبيل؟ بأي قانون بقاء وأصلح، بأي سنن تطوري؟ ووحدها تخلف موعد انقراض خشاشٌ خلائق وديدانٌ، كما زراف وفيلة وسفين صحراء؟ أوحده لا يخلف صورويود، أم هي تتمة البرمجية أن ينتصب صورويود قرب سرير معلول، موازاة لشبيه مفارق، منتقص القدرة منتقص الكيان، في انتظار. . . أو في غير انتظار!؟

مبارك ربيع

خيط الروح

«لا صوت يتساءل أو يجيب. الصمت الآن بينه وبين مصطفى هذه المرة، والواصل زنزانة يمود السجنية؛ يلتحق به فيها مصطفى ضيفاً فوق العادة، خلاف كل عادة سجنية. ينقطع صوت مصطفى، يتحسسه يمود في الصمت بالقرب منه، يتحسس أنفاس توقعاته منه، كأنما على يمود أن يرد. يسود الصمت، تشملهما به هدأة الزنزانة المشتركة كما كانت تشملهما به ضجة العنفوان...».

مكتبة نوميديا 74
Telegram@ Numidia_Library

لوحة الغلاف للفنانة ألكساندرا إكستر

ISBN 978-9953-68-764-3
9 789953 687643

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com